المعهد الخليفي للأبحاث المغربية
بيت المغرب

الحضارة الإسلامية
في
القرن الرابع الهجري

DIE RENAISSANCE DES ISLAMS

تأليف

الأستاذ آدم متز

ADAM MEZ

أستاذ اللغات الشرقية بجامعة « بال » بسويسرة

الجزء الثاني

نقله إلى العربية

محمد عبد الهادي أبو ريدة

بكلية الآداب بالجامعة المصرية

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٦٠هـ — ١٩٤١م

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
الفصل الثامن عشر — الجغرافيا (تقويم البلدان)	١
» التاسع عشر — الدين	١١
» العشرون — الأخلاق والعادات	١٢٧
» الحادى والعشرون — مستوى المعيشة	١٧٢
» الثانى والعشرون — أحوال المدن	٢٢٣
» الثالث والعشرون — الأعياد	٢٣٦
» الرابع والعشرون — الحاصلات	٢٥٣
» الخامس والعشرون — الصناعات	٢٩٥
» السادس والعشرون — التجارة	٣١١
» السابع والعشرون — الملاحة النهرية	٣٣١
» الثامن والعشرون — المواصلات البرية	٣٤٢
» التاسع والعشرون — الملاحة البحرية	٣٦١

الفصل الثامن عشر

الجغرافيا (تقويم البلدان)

فى القرن الرابع الهجرى تقدّم المسلمون فى البحث الجغرافى تقدماً واضحاً كل الوضوح ؛ ولا أريد أن أتناول بالبحث فى هذه الناحية إلا ما صُنِّف من الكتب وذلك فى شىء من الإيجاز . كان البحث فى أحوال الأقاليم وليدَ النهضة العلمية التى ظهرت فى القرن الثالث الهجرى ؛ وأولُ ما كان من ذلك كتبُ الكندى[1] حوالى عام ٢٠٠ هـ — ٨٠٠ م[2] ؛ وكان الكندى من رؤساء حَمَلةِ العلم اليونانى ؛ ثم ظهر بعد ذلك ، حوالى عام ٢٣٢ هـ — ٨٤٦ م ، كتابُ المسالك والممالك لابن خُرْداذبة ؛ و يَعْتَرِف هذا المؤلف بأنه اعتمد فى بيان حدود الأرض ومسالكها وممالكها على ما كتبه بطليموس فى ذلك[3] ؛ ويقول المسعودى حوالى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م ، إن كتاب ابن خرداذبه ، على الرغم من عيوب فيه ، هو أحسنُ كتاب فى موضوعه[4] . أما المقدسى الذى ألف كتابه فى الجغرافيـة حوالى عام ٣٧٥ هـ — ٩٨٥ م ، فهو يرى أن كتاب ابن خرداذبه مختصر جدا ، لا يحصل منه كبيرُ فائدة[5] والمقدسى ينتقص أيضاً كُتُبَ من تقدمه

---

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

(٢) هذا التاريخ غير دقيق ؛ وليرجع القارئ إلى الترجمة العربية لكتاب تاريخ الفلسفة فى الإسلام للأستاذ دى بور عند الكلام عن الكندى (المترجم) .

(٣) المسالك والممالك لابن خرداذبه ص ٣ ؛ ويقول متز إن كلمة خرداذبه تطلق على نوع من الآنية ، ويشير إلى كتاب مطالع البدور (ج ١ ص ١٨٩) ولكن النص هو : ثم أخرج الصوانى فيها الخاسيات والخرداديات (المترجم) وكذلك يريد أن يقرأ المقريزى : خرداذى بلور بدلا من خردادى بلور (خطط ج ١ ص ٤١٤) .

(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٧٠ — ٧١ .

(٥) المقدسى ص ٤ — ٥ .

من الجغرافيين ؛ فيقول عن أبي عبد الله الجيهاني (حوالى آخر القرن الثالث الهجرى) ، وهو الذى جاء بعد ابن خرداذبه وردّد كلامه ، إنه كان وزيراً لأمير خراسان ، وكان صاحبَ فلسفة ونجوم وهيئة ، « فجمع الغُرَباء وسألهم عن الممالك ودَخْلها ، وكيف المسالك إليها . . . ليتوصلَ بذلك إلى فتوح البلدان ، ويعرفَ دَخْلها ، ويستقيمَ له علم النجوم ودورانُ الفلك ... مرة يذكر النجوم والهندسة ؛ وكرّة يورد ما ليس للعلوم فيه فائدة ، وتارة ينعت أصنام الهند ، وطوراً يصف عجائب السند . . . ، ولم يفصّل الكُوَر ، ولا رتّب الأجناد ، ولا وصف المدن ، ولا استوعب ذكرها ، بل ذكر الطرقَ شرقاً وغرباً ، وشمالا وجنوباً ، مع شرح ما فيها من السهول والجبال ، والأودية والتلال ، والمشاجر والأنهار ؛ وبذلك طال كتابه وغفل عن أكثر طرق الأجناد ، وَوَصْف المدائن الجياد » . أما أبو زيد البلخى فيقول المقدسى عنه إنه اختصر ، ولم يذكر الأسباب المفيدة ، ولا أوضح الأمور النافعة ، وترك كثيراً من أمهات المدن فلم يذكرها ، ثم يرميه بأنه لم يدوّخ البلدان ، ولا وطئ الأعمال . أما ابن الفقيه (حوالى آخر القرن الثالث الهجرى) فيقول المقدسى إنه لم يذكر إلا المدائنَ العظمى ، وإنه « أدخل فى كتابه ما لا يليق به من العلوم ، مرةً يُزَهّد فى الدنيا ، وتارة يُرَغّب فيها ، ودفعةً يُبكى ، وحينةً يُضحك ويُلهى »[1] . والحق أن ابن الفقيه تلهّى بأن جعل بين الكلام عن اليمن والكلام عن مصر بابَيْن ، أحدهما فى تصريف الجد إلى الهزل والهزل إلى الجد ؛ والثانى فى مدح الغربة والاغتراب ؛ وهو يجعل من وصف مدينة رومية مناسبة للبناء وذمّه ، ثم يتكلم فى ذكره لهمذانَ عمّا جبل عليه الناس من حبّ الأوطان . أما معاصره ابن رسته فأكبر ما كان يستهويه الأشياء العجيبة النادرة فى اليمن ومصر والقسطنطينية والهند وفى بلاد المجوس والصقالبة . وأما الهَمْدَانى (المتوفى

---

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ص ٣ — ٤ .

عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م) فهو يصف جزيرة العرب وَصْفَ عالمِ اللغة ؛ وكذ وَصَفَ قدامةُ بن جعفر (المتوفى عام ٣١٠ هـ — ٩٢٢ م) مملكة الإسلام ، وما جاورها من الممالك ، فى كتابه الصغير المسمى كتاب الخراج وصنعة الكُتّاب . وكان اليعقوبى (حوالى آخر القرن الثالث الهجرى) أولَ جغرافىّ بين العرب وصف الممالك معتمداً على ملاحظاته الخاصة ، ومتكلماً عن البلدان من حيث خصائصها الحقيقية وما تمتاز به ، وهو يقول عن نفسه إنه عنى فى عنفوان شبابه وحِدَّة ذهنه بعلم أخبار البلدان ، ومسافة ما بين كل بلد وبلد ؛ لأنه سافر حديثَ السنّ ؛ واتصلت أسفاره ، ودام تغرُّبه ؛ وقد طاف فى بلاد المملكة الإسلامية كلها ، فنزل أرمينية ، وورد خراسان ، وأقام بمصر والمغرب ، بل سافر إلى الهند ؛ وكان متى لقى رجلا سأله عن وطنه ومصره ، وعن زرعه ما هو ؛ وساكنيه من هم ؟ عرب أو عجم ؟ وعن شرب أهله ولباسهم ودياناتهم ومقالاتهم ، من غير أن يلحقه من ذلك ملالٌ ولا فتور . وهو يقول : « ثم أُثْبِتُ كلَّ ما يخبرنى به من أثق بصدقه ، وأستظهر بمسألة قوم بعد قوم ، حتى سألت خلقاً كثيراً وعالماً من الناس فى الموسم وغير الموسم ، من أهل المشرق والمغرب ، وكتبت أخبارهم ، وَرَوَيْت أحاديثَهم . . . لم أزلْ أكتب هذه الأخبار ، وأُؤلف هذا الكتاب دهراً طويلا وأضيف كلَّ خبر إلى بلده ، وكلَّ ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدَّمت عندى معرفته »[1] . وقد وصف المملكة الإسلامية ، مبتدئاً ببغداد ، وصفاً منظما مع إصابة جديرة بالإعجاب ؛ ولم يخطر له مع الأسف أن يؤلف كتاب رحلة على الحقيقة ، يصف فيه تجاربه الخاصة ، وأحوال الناس ، وما لقيه فى أسفاره ؛ ولعله لم يجد ذلك شيئاً طريفاً جديراً باهتمامه .

---

(١) كتاب البلدان لأحمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبى ص ٢٣٢ من الطبعة الأوربية .

على أن المسعودى (الذى ألف كتاباً فى التاريخ حوالى عام ٣٣٢هـ — ٩٤٤م) لم يكن أكبرَ حظا من اليعقوبى فى ذلك، مع أن حبه للاستطلاع حمله إلى بلاد بعيدة فى إفريقية وفى الصين؛ ولكنه تكلم فى كتبه التاريخية عن كثير مما لقيه من التجارب والمشاهدات فى أسفاره، وهذا ما تجنّبه اليعقوبى وتحاشاه تحاشياً تاما. ثم جاءت كتب المقدسى وابن حوقل فى القرن الرابع الهجرى، فكانت مثالا لأعلى درجة بلغها العرب فى وصف البلدان؛ وكلاهما قد سافر حتى دوّخ الممالك، وحمله تيار الارتحال فى بلاد الإسلام؛ فأما المقدسى فيقول عن نفسه إنه لم يبق شىء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذ منه نصيباً[1] غير الكُدْية وركوب الكبيرة، وإنه أنفق فى أسفاره ما يزيد على عشرة آلاف درهم. أما ابن حوقل فيقول إنه شاهد كل ما كتب عنه وعاينه إلا الصحراء الغربية الكبرى، فيعترف بأنه لم يشاهد جميعها[2]؛ وقد اقتصر كلٌّ من المقدسى وابن حوقل على وصف مملكة الإسلام؛ ويعترف المقدسى بأنه لم يتكلف وَصفَ ممالك الكفار، لأنه لم يدخلها[3]، ولم يذكر إلا مواضع المسلمين

---

(١) وهو يقول (ص ٨) إنه لم يظهر كتابه حتى بلغ الأربعين. أما تجاربه فهو يقول (ص ٤٤): «قد تفقهت وتأدبت وتزهدت وتعبدت ... وخطبت على المنابر، وأذنت على المنائر، وأممت فى المساجد، وأكلت مع الصوفية الهرائس، ومع الخانقائيين الثرائد، ومع النواتى العصائد ... وسحت فى البرارى وتهت فى الصحارى، وصدقت فى الورع زماناً، وأكلت الحرام عياناً ...، وملكت العبيد، وحملت على رأسى بالزنبيل، وأشرفت مراراً على الغرق، وقُطع على قوافلنا الطرق ... وسُجنت فى الحبوس، وأُخذت على أنى جاسوس، وشهدت فى السلم والحرب، ونزلت حرمة للملوك بين الأجلة، وسكنت بين الجهال فى محلة الحاكة، وكم نلت العز والرفعة، ودُبِّر فى قتلى غير مرة، وكسيت خلع الملوك، وأمروا لى بالصلات، وعريت وافتقرت مرات ......»، وكان يتخذ فى كل طائفة لباسا ثوبها ليعرف حقيقة أمرها، حتى دعى بأسماء تزيد على الثلاثين لاختلاف البلدان والأحوال (انظر كتابه ص ٤٣، ٤٤، ٤٥ وكتاب تاريخ الفلسفة فى الإسلام للأستاذ دى بور فى الترجمة العربية عند الكلام عنه) (المترجم).

(٢) المسالك والممالك ص ١١١.

(٣) أحسن التقاسيم ص ٩.

منها ، وكان عدمُ دخوله لها كافياً فى منعه من التعرض لوصفها ، لأنه كان يجعل المشاهدة ومعاينة ما يريد الكلام عنه أولَ دعامة لكتابه[١] . وكلاهما أيضاً قد اطلع على الكتب التى صُنِّفت فى هذا الفن ، فقد صرح المقدسى بذلك فى وضوح وإيجاز[٢] . أما ابن حوقل فهو يقول إنه لم يزل منذ عهد الصبا شغوفا بقراءة كتب المسالك ... «وترعرعتُ فقرأتُ الكتبَ الجليلة المعروفة ، والتواليف الشريفة الموصوفة ، فلم أقرأ فى المسالك كتابا مُقنِعاً ، وما رأيت فيها رسماً متبعاً ..... وكان لا يفارقنى كتاب ابن خرداذبة وكتاب الجيهانى وتذكرةُ أبى الفرج قدامة بن جعفر »[٣] . وكلاهما قد وجد اللغة أكثر انصقالا ودقة وأسلس قياداً مما وجدها المؤلفون المتقدمون ، وقد استصلاها فى فنهما استعمال من ملك ناصيتها ، وإن كان ابن حوقل فى ذلك أقرب إلى الطرافة والجمال من المقدسى . على أن بعض العلماء من معاصرى المقدسى المحافظين قد رموه بمخالفة الأصول المعروفة وبالعدول عن التقسيم السباعى المعروف إلى التقسيم الرباعى فى كلامه عن الفرق والمذاهب ، فهو يجيب على تقدم بحجج مثل حججهم ويقول إنه يتأسّى — فيما خالف فيه — بأهل الرأى من صدور الأئمة ، ويقول : « فلا عجب أن نرى نحن أيضاً فى هذا العلم آراء ، ويكون لنا فيه قياسٌ واختيار »[٤] . وكذلك حاول المقدسى أن يثبت من القرآن أن فى العالم بحرين هما : بحرُ الروم ، والبحرُ الصينى ، مستنداً إلى سورة الرحمن آية ١٩ وما بعدها ، حيث يقول الله تعالى : ﴿ مَرَجَ البحرين يلتقيان . بينهما برزخٌ ، لا يَبغِيان ، فبأىّ آلاء ربّكما تُكذّبان . يَخرجُ منهما اللؤلؤُ والمرجان ﴾ ؟

---

(١) نفس المصدر ص ٣ ، ٤٣ ، وكتاب تاريخ الفلسفة فى الإسلام (المترجم) .

(٢) انظر ما تقدم ؛ وص ٤٣ من كتاب المقدسى حيث يقول إنه لم تبق خزانة ملك إلا وقد لزمها ، ولا تصانيف فرقة إلا تصفحها (المترجم) .

(٣) المسالك والممالك لابن حوقل ص ٥ ، ٢٣٠ — ٢٤٦ من طبعة ليدن ١٨٧٢ م .

(٤) أحسن التقاسيم ص ٣٧ — ٤٣ .

فلقى من العلماء معارضة شديدة[١] ، ثم إنه رسم مع كتابه خريطة مثّل فيها الأقاليم وحدودَها وخِططَها ؛ ولكن هذه الخريطة لم تصل إلينا . وهو يقول إنه بيّن الطرق المعروفةَ بالحُمْرة ، والرمالَ الذهبيةَ بالصُفْرة ، والبحار المالحة بالخُضرة ، والأنهارَ بالزُرقة ، والجبالَ المشهورة بالغُبْرة[٢] ويذكر أنه رأى مثل هذا التصوير فى كتاب البلخى (المتوفى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م) ، وفى خزانة أمير خراسان ، وفى نيسابور عند أبى القاسم الأنماطى ، وفى خزانة عضد الدولة والصاحب ، هذا إلى دفاتر رآها مع البَحْرِيّين[٣] . وقد لقى أبا على بن حازم بساحل عدن ؛ وكان الشيخ من أعلم الناس بالبحر الصينى ؛ لأنه إمام التجار ، ومراكبه أبداً تسافر إلى أقاصيه ، فسأله عن صفة بحر الصين ، فمسح الرمل بكفّه ، ورسم صورةَ البحر أمام المقدسى ، وبيّن له معارجه المتلسّنة ، وشعَبه الكثيرة[٤] ؛ وقال له غسان الحكيم ، وهو بأريحا : ترى هذا الوادى ؟ قال : بلى ، قال : هو يمتدّ إلى الحجاز ، ثم يخرج إلى اليمامة ، ثم إلى عمان وهجر ، ثم إلى البصرة ، ثم إلى بغداد ، ثم يصعد إلى مَيسرة الموصل إلى الرقّة ، وهو وادى الحر والنخيل[٥] . وكذلك زعم ابن حوقل أن الرمل المعروف بالهبير يمتد من وراء جبل طىء غربا مارًّا بمصر والمغرب ، حتى ينتهى بالمحيط وغانة ؛ وكذلك يمتد شرقاً إلى الصين والمحيط[٦] ، وهو يزعم كذلك أن جبال الصين تمتد إلى التبت وفارس وأرمينية ، حتى تتصل بجبال الشام وجبال المقطم وجبال المغرب[٧] . على أن الجغرافيين المتأخرين أخذوا عن ابن حوقل لا عن

(١) ليرجع القارئ إلى هذه المناقشة الطويلة فى كتاب المقدسى ص ١٦ — ١٩ (المترجم) .
(٢) نفس المصدر ص ٩ وما بعدها .
(٣) نفس المصدر ص ١٠ . (٤) نفس المصدر ص ١١ .
(٥) نفس المصدر ص ١٧٩ . (٦) ابن حوقل ٣٠ ، ١٠٤ .
(٧) نفس المصدر ص ١٠٤ ، ١١٠ وما بعدها ؛ وانظر المُغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب للبكرى ص ١٦٠ . وأول من ذهب إلى ذلك ابن خرداذبة (ص ١٧٢ — ١٧٣) ؛ وانظر مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ٧١ .

المقدسي ، واعتبروه أستاذ هذا الفن دون المقدسي[١] ؛ وكلاهما كان باحثاً ناقداً يتحرّى تمحيص ما يَنْقُل ، فهما مثلا أكثر نقداً من الإدريسي أحد الجغرافيين المتأخرين ، فإنه نقل عن كتاب العجائب للحسن بن المنذر ، وهو الكتاب الذي استنقصه كلٌّ من المقدسي وابن حوقل .

وفي القرن الرابع الهجري قويت عزيمةُ الاستطلاع العلمي ، وأخذت أصابعها تمتد متلمسة للحقائق في كل ناحية ، وكان الناس يُعْنَون متشوّقين لما يقصّه عليهم البَحْرِيون من مشاهداتهم وتجاربهم ومن أخبار بحر الصين وبحر الهند[٢]. وحوالي منتصف القرن الثالث الهجري أرسل الخليفة الواثق بعثة بَرِّيّة إلى سد يأجوج ومأجوج[٣] . وقد وصف ابن فضلان رحلته التي قام بها حوالي عام ٣٠٩ هـ — ٩٢١ م إلى البلغار الذي يسكنون حول نهر أتل (الفلجا)[٤]. وكذلك حكى أبو دُلف خبرَ رحلته إلى بلاد آسيا الوسطى والشرقية حوالي عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م[٥]. وحوالي هذا الوقت عرف الأصطخري من رجل كان يخطب بمدينة بُلغَار أن الليل عندهم يقصر في الصيف لا يتهيأ للإنسان أن يسيرَ فيه أكثر من فرسخ ، وفي الشتاء يقصر النهار ، ويطول الليل ، حتى يكونَ نهار الشتاء مثل ليالي الصيف[٦] ، وكذلك خرج من مدينة لشبونة جماعةٌ كلهم رجال

---

(١) جغرافية أبي الفدا طبعة رينو (Reinaud) ص ١ — ٢ .

(٢) سلسلة التواريخ ، عجائب الهند ، طبعة رينو (Reinaud) مارس ١٨١١ .

(٣) حفظ لنا الإدريسي ماحكاه سلاّم قائد هذه البعثة ولعرذلك دى غوى(De Goeje) بعنوان : سدّ ياجوج ومأجوج . وانظر معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٥٦ وما بعدها من الطبعة الأوروبية (المترجم) .

(٤) انظر معجم ياقوت طبعة فرن (Frähn) ، ويترزبرج ١٨٢٣ .

(٥) هذه القصة كما جاءت في معجم ياقوت تحت كلة صين غير صحيحة . انظر : Marquart, Sachau-Festschrift, S. 272

(٦) ابن حوقل ص ٢٢٥ .

أبناء عم ، فأنشأوا مركباً ، وتزوّدوا فيه ، ثم ركبوا بحر الظلمات ، واقتحموه ليعرفوا ما فيه من الأخبار والعجائب ، وليعرفوا إلى أين انتهاؤه ؛ وهم يُسمّون المغرّرين (أو المغرّبين)[1] . وكان صاحب الفهرست يستقى أخبارَ الصين حوالى عام ٣٧٧ هـ — ٩٨٧ م من راهب نجرانى كان الجاثليق قد أنفذه إليها ، ومعه خمسة من النصارى القائمين بأمر الدين ، فأقام بها سبع سنين ، ثم رجع[2] ، وكان التجار يزوّدون أهلَ بلادهم بأخبار بلاد الألمان و بلاد الفرنسيين . وفى سنة ٣٧٥هـ — ٩٨٥ م كتب المهلّبى للخليفة الفاطمى العزيز بالله كتابا فى الطرق والمسالك ، وهو أول كتاب وصف بلادَ السودان وصفاً دقيقاً ، وكان علماء الجغرافية فى القرن الرابع لا يعرفون من أخبار بلاد السودان إلا قليلا جدا[3] . وكذلك ألف محمد التاريخى المتوفى عام ٣٦٣ هـ — ٩٧٣ م وهو عالم جغرافى أندلسى ، كتابا فى وصف إفريقية والمغرب[4] . وكذلك وضع المعلم خواشير بن يوسف بن صلاح الأركى الذى سافر حوالى عام ٤٠٠ من الهجرة فى مركب دبركره الهندى وطاف بسواحل إفريقية الجنوبية أصول الصورات البحرية (وكانت تسمى رهمانيات) التى عملت فى القرن السادس الهجرى أو الثانى عشر الميلادى[5] . وحوالى ذلك الوقت[6] بدأت الحروب تُشَنّ من غزنة على الهند فأتاح ذلك مناسبة للأستاذ أبى الريحان البيرونى كى يكتب أول كتاب خاص بالهند [وهو الذى سماه تحقيق ما للهند من مقولة ؛ مقبولة

(١) الإدريسى طبعة دوزى ص ١٨٤ وانظر فصل الملاحة البحرية .
(٢) الفهرست ص ٣٤٩ .
(٣) وكان كتابه المسمى العزيزى باسم الخليفة الذى أهداه إليه أكبر مصدر اعتمد عليه ياقوت فى كلامه عن السودان .
(٤) وهو أكبر مرجع اعتمد عليه البكرى ؛ انظر كتاب المغرب للبكرى ١٦ .
(٥) كتاب الفوائد فى أصول البحر تأليف رئيس علم البحر والملاحة وأستاذ هذا الفن وكامله الشيخ شهاب أحمد بن ماجد السعدى مخطوط رقم ٢٢٩٢ بالمكتبة الأهلية بباريس ص ٣ ب — ٤ أ .
(٦) يعنى سنة ٤٠٠ هـ .

فى العقل أو مرذولة] ، وهو يعيب فيه الهنود بأن علومهم غيرُ مهذبة ، وأن كتبهم مضطربة غير منظّمة ، مشوبةٌ بخرافات العوام ، ويشبهُ ما فى كتبهم « بصدف مخلوط بخزف ، أو بدرّ ممزوج ببعر ، أو بمهى مقطوب بحصى ، والجنسان عندهم سيّان ، إذ لا سبيل لهم إلى معارج البرهان »[1] . على أن كلا من الجاحظ والمسعودى قد كتب على نحو ما كتب الهنود . ولكن نقد البيرونى للهند يدل على أن مؤلفى العرب خطوا فى التأليف خطوة جديدة قُبِضَ بها عنان الاستطراد والخلط .

---

(١) كتاب تحقيق ما للهند من مقولة ص ١٢ — ١٣ .

تعليق

يزيد المرحوم الأستاذ خدابخش مترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية ، أن أحمد بن سهل البلخى من قرية الشامستيان بجوار بلخ ، وكتابه يسمى صور الأقاليم ، وهو أكبر مصدر رجع إليه الأصطخرى .

أما أبو بكر أحمد بن محمد الهمذانى المعروف بابن الفقيه ، فيقول صاحب الفهرست (ص ١٥٤) إنه أخذ كتابه من عدة كتب ، وخصوصاً كتاب الجيهانى ؛ ولكن يتبين من كتاب الهمذانى أنه أُلِّف قبل عام ١٩٠ هـ أى قبل أن يؤلف الجيهانى كتابه بمدة سنين . انظر مقدمة دى غوى لكتاب البلدان حيث يشك دى غوى فى صحة التاريخ الذى ذكره ياقوت لوفاة الهمذانى ، وهو عام ٣٤٠ هـ .

وفيما يتعلق بالجغرافيين المسلمين ليرجع القارئ إلى هذين الكتابين :

1 — Beazley, Dawn of Modern Geography, vol I (1897)

2 — Wright, Geographical Lore of the time of the Crusades, New York, 1925.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهانى من جيهان ، بلدة بخراسان ، على شاطئ نهر جيحون ، تولى الوزارة للأمير أبى الحسن نصر بخراسان بعد مقتل أبيه ، فقبض على زمام الحكومة بالحزم والحكمة . أما كتابه فيسمى كتاب المسالك فى معرفة الممالك ، وقد مات قبل أن يتمه ، فاختُصر وكتب من جديد . ويذهب رينو (Reinaud) فى مقدمته لجغرافية أبى الفدا (ص ٦٤) إلى أن الذى اختصره أبو بكر أحمد بن محمد الهمذانى المعروف بابن الفقيه ، ويقول إن اختصار الكتاب ربما كان هو السبب فى إهمال شأنه . انظر أيضاً مقدمة دى غوى لكتاب البلدان .

الفصل التاسع عشر

الدين

وكذلك أحسّ المسلمون من أعماق نفوسهم حاجات جديدة فى الدين منذ القرن الثالث الهجرى ، وسرعان ما تقدمت لسد هذه الحاجات الديانات القديمة التى كانت دائماً مستترة وراء ستار ظاهرى ، ولا سيما الديانة المسيحية المشربة بفلسفة متأخرى اليونان . وإن الحركة التى غيرت الإسلام تغييراً كبيراً فى أثناء القرنين الثالث والرابع ليست فى مجموعها سوى نتيجة لنفوذ التيارات الفكرية المسيحية إلى الدين الإسلامى [1] ، وعبّر البعض عن المثل الأعلى الجديد فى الدين بأنه « معرفة الله » ، وهى عبارة ربما كانت فى نظر محمد (عليه الصلاة والسلام) مشعرة بالانتقاص من قدر الذات الإلهية . وهذا المثل الأعلى الجديد ، حتى من حيث التسمية ، هو مذهب الغنوسطيين القديم يعود إلى الظهور فى وطنه الأول ، وتصبح

---

(١) وربما كان المذهب الأفلاطونى الجديد وحده غير قادر على إحداث هذه الحركة العقلية الشاملة ، وينبغى ألا ننسى أن هنا للمذهب نفسه كان من قبل وليد الحكمة الشرقية القديمة . وقد عالج الأستاذ جولد زيهر (Goldziher) فى كتابه المسمى محاضرات عن الإسلام (Vorlesungen über den Islam) ص ١٦٠ وما بعدها بيان الأثر الهندية ، ولا سيما البوذية ، التى لا يشك أنها قد أثرت فى المسلمين ، وإنْ كان تأثيرها ثانوىّ المرتبة . ولنلاحظ أنه — فيما عدا الحلاج — يُذكر عن بعض الصوفية أنهم جاءوا إلى بلادهم بالحكمة من الهند (انظر مثلا رسالة القشيرى ص ١٠٢ ؛ وكشف المحجوب للهجويرى ص ١٤٣ ، ٢٤٢ وما بعدها ؟) . أما كتاب جولد زيهر فهو مترجم إلى الإنجليزية بعنوان : Mohammad and Islam وإلى الفرنسية بعنوان Le Dogme et la Loi de l'Islam . أما ما يذكره المؤلف عن القشيرى فلم أجده مقابلا فى الرسالة ؛ غير أن كثيرين من الصوفية يُنسبون إلى مدن فى شرق المملكة الإسلامية ، ويحكى القشيرى (ص ١٣ من طبعة مصر ١٣٤٦) أن أحد الصوفية [illegible] فى طريق الزهد بعد كلام له مع خادم لبيت أصنام ببلاد الترك (المترجم) .

له السيادةُ فى جميع نواحى الحياة الروحية طول هذين القرنين ؛ وقد ظهر عند أهل التفكير الحرّ فى صورة مذهب عقلى أو مذهب اعتقادى أساسه العقل ، وعند الآخرين فى صورة التصوف . والتصوف عند المسلمين أيضاً يحمل الدلائل الواضحة على صلته الوثيقة والتحام نسبه بالمذهب العقلى ، هذا الالتحام الذى نستطيع إثباته فى كل أطوار التاريخ العالمى ؛ لأن التصوف أيضاً علم له أصوله ، وليس الذى يقابله هو المعرفة العلمية النظرية ، بل المذهب الذى يقول به نبى يجب الإيمان بدينه على أن يكون معرفة غير نظرية بل تقوم على العاطفة الملتهبة وتؤسس على الحياة الواقعة ، وكذلك عادت إلى الظهور كل علامات المذهب الغنوسطى الأول من علوم سرّية ، وتنظيم للجمعيات السرية ، وإنشاء لمقامات فى المعرفة بعضها فوق بعض ، وقول بصدور الموجودات عن الله ، وبالتوازى والتقابل بين العالمين ، وظهور خصائص الحكمة البابلية القديمة ، ونشوء مذاهب تتردّد بين الزهد والإباحة ، وتصور الكمال والسمو الروحى على أنه « طريق » . وتدل أقدم الكتب الصوفية التى وصلت إلينا ، وهى مصنّفات الحارث بن أسد المحاسبى المتوفى سنة ٢٤٣ هـ — ٨٥٨ م دلالة واضحة على أنه تأثر بالمسيحية تأثراً كبيراً ، فإنه قد بدأ أحد كتبه بمثل الباذر المذكور عن المسيح عليه السلام ؛ والكتاب الآخر نستطيع أن نعتبره صورة مكبرة لخطبة الجبل[١] . وكذلك نجد

(١) Margoliouth, Verhandlungen des 3 Religionsgeschichtlichen Kongresses, Oxford, Bd I, S. 292.

وهى قرارات المؤتمر الثالث لتاريخ الأديان التى عقد بأكسفورد (ج ١ ص ٢٩٢) — الكتاب الأول هو كتاب الرعاية لحقوق الله : الملحق الأستاذ لويس ماسينيون على صورته الفوتوغرافية ، ويتقل المحاسبي فيه عن بعض الحكماء تمثيل الهادى بالباذر ، وكلامه بالبذر ، والناس بأرض صالحة خصبة ، أو أرض ذات شوك يخنق الزرع ، أو صخر أملس لا يمكن الزرع من النماء ، وهكذا . وتدل المقارنة بين كلام المحاسبي وبين مثل الباذر فى إنجيل لوقا مثلا (الفصل السابع والعشرين) على أن المحاسبي ينقل عن السيد المسيح عليه السلام . أما الكتاب الثانى =

الحكيم الترمذى ، وهو من كبار شيوخ الصوفية القدماء (توفى عام ٢٨٥ هـ — ٨٩٨م) ، يقول إن عيسى عليه السلام خاتم الأولياء ، ويبين مكانته[١]. ولم تكن المملكة الإسلامية « مملوءة بالآلهة » كما امتلأت فى ذلك العصر ؛ حتى انمحت الحدود بين الله وبين عبده ؛ وصار بعض المتصوفة يدّعون الوصول إلى درجة الاتحاد بالله ، ويروى أبو العلاء لبعض أهل النحلة الحلولية :

رأيت ربى يمشى بلا لكة فى سوق يحيى فكدت أنفطر
فقلت هل فى اتصالنا طمع فقال هيهات ، يمنع الحذر[٢]

وكان بين يدى بعض طوائف القائلين بالمهدى من يعبث بالقول فيصف الخلفاء بالألوهية ، على نحو لا نظير له من قبل ولا من بعد ؛ فمن ذلك غلو ابن هانئ فى مدحه للخليفة المعز حتى كفّره العلماء :

ماشئت لاماشاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وقوله مخاطباً حامل لواء الخلافة

ولطالما زاحمت تحت ركابه جبريلا

ولما نزل هذا الخليفة فى مدينة رقّادة ، وهى بلد قريبة من القيروان . قال ابن هانئ :

= فلعله كتاب الوصايا وهو المسمى كتاب النصائح كما أخبرنى الدكتور عبد الحليم محمود الذى ألف كتاباً عن المحاسبى . (المترجم)

(١) كتاب الطواسين للحلاج طبعة باريس ١٩١٣ ص ١٦١ هامش رقم ٢ . وقد ذكر ابن العربى فى الفتوحات المكية (ج ١ ص ٢٠٦ من طبعة بولاق عام ١٢٠٩ هـ) أن عيسى عليه السلام سينزل ويحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم بوحى من الله أو باطلاعه على روح النبى محمد عليه السلام ، ومن هذا الوجه يرى ابن العربى أن سيدنا عيسى يكون صاحباً وتابعاً ، وخاتم الأولياء وأفضل الأمة المحمدية . ويذكر ابن العربى أن الحكيم الترمذى نبه على ذلك فى كتابه ختم الولاية ، وشهد لعيسى عليه السلام بالفضيلة على كبار الصحابة .

(٢) الجزء الخاص بالزندقة من رسالة الغفران لأبى العلاء فى : 1902, S 835 .

حــلّ برقّدة المسيح حل بها آدم ونوح
حلّ بها الله ذو المعالى وكل شىء سواه ريح[(١)]

وفى آخر ذلك العصر ظهر أمر الخليفة الحاكم بأمر الله، ولا يزال الدروز حتى اليوم يعظمونه معتقدين أنه إله .

وكان أول ظهور طوائف الصوفية حوالى عام ٢٠٠ هـ — ٨٠٠ م ؛ وذلك فى مصر مهد الرهبنة المسيحية . « فى عام ٢٠٠ هـ ظهرت بالإسكندرية طائفة يسمّون الصوفية ، يأمرون بالمعروف ، فيما زعموا ، ويعارضون السلطان فى أمره ، وترأس عليهم رجلٌ منهم ، يقال له أبو عبد الرحمن الصوفى »[(٢)] . وكذلك يُطلِق ابن قديد المتوفى عام ٣١٢ هـ — ٩٢٥ م اسمَ الصوفية على جماعــة كانت تحيط بعيسى بن المنكدر ، الذى ولى قضاء مصر فى عهد المأمون .

وكان هؤلاء القوم « يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » . ولما ولى ابن المنكدر القضاء كانت هذه الطائفة تأتيه ، وهو فى مجلس الحكم ، فتقول : أيها القاضى ! ذهب الإسلام ، فُعل كيت وكيت ، فيترك المجلس ويمضى معهم ؛ ثم لم يزالوا به حتى جعلوه يكتب إلى المأمون كتاباً لا يرضى فيه بولاية أبى إسحاق المعتصم على مصر ؛ فكان ذلك سبب خلعه من القضاء ومَوْجدة المعتصم عليه[(٣)] ، وإذن فقد كان ثَمّ صوفيــة أتقياء من أصحاب النزعة العملية ، أخذوا جادّين بالواجبات المفروضة على المسلم ، وكانوا يتدخلون فى حياة المجتمع تدخلا شديد

---

(١) نفس المصدر ص ٨٣٦ . ويقول ابن الأثير (ج ٨ ص ١٥٧) بعد ذلك بكثير إنه لم يجد هذين البيتين فى ديوان ابن هانئ ، ولكنهما فى الديوان طبعة بيروت ١٣٢٦ هـ ص ٤٠

(٢) الولاة للكندى ص ١٦٢ ، وعلى ذلك المقريزى فى الخطط ج ١ ص ١٧٣ ، ولقد ذكر جولدزيهر Goldziher, Za 1909 S 343 حديثين يتضمنان أن عام ٢٠٠ هـ هو مبدأ ظهور التصوف .

(٣) الكندى ص ٤٤٠ .

الرعاة . وأول ما أطلق اسم الصوفية على فريق من هؤلاء نعوم الصالحين وذلك أنه كان يقال لخواص الناس ، ممن لهم شدة عناية بأمر الدين ، الزهاد والعباد ؛ ثم « انفرد خواص أهل السنة ، المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف ؛ واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة »[١] ، ولم يكن فى مذهب هؤلاء القوم فى أول أمرهم شىء من مذاهب الصوفية المتأخرين . على أن إبيفانيوس (Epiphanius) يشكو فى القرن الرابع الميلادى بمصر من بقاء عدد كبير من الغنوسطيين الذين لا ضابط لأخلاقهم[٢] . وتسرّب كثير من آراء هؤلاء إلى جماعات الصوفيـة . وقد أشار الأستاذ رينولد نيكلسون (Reynold A. Nicholson) إلى الأثر الكبير الذى أحدثه ذو النون الكيميائى المصرى المتوفى عام ٢٤٥ هـ — ٨٥٩م فى مذهب الصوفية[٣] ، والحق أن كثيرين من مشايخ الصوفية فى المشرق تأثروا بالتصوف المصرى[٤] . ولم تنقطع حجة الفقراء فى دخولهم مصر إلا بعد موت أبى بكر الزقّاق[٥] . أما نموّ مذهب الصوفية وتكامله فقد كان كله فى المشرق ، وخصوصاً فى بغداد ؛ وكان نموا[٦] سريعا . ويروى أن أولٍ من تكلم فى علوم التوحيد

---

(١) رسالة القشيرى (ألفت عام ٣٤٧ هـ — ١٠٤٥م) ص ٧ — ٨ من طبعة سنة ١٣٤٦ هـ بمصر .

(٢) enfeld. Ketzergeschichte. S 283 .

(٣) Jras. 1906. 309 S 309 ff .

(٤) منهم أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى المتوفى عام ٢٧٣ هـ أو ٢٨٣ هـ (القشيرى ص ١٤) ؛ وكذلك صحب أبو تراب النخشبى المتوفى عام ٢٤٥ هـ أبا حاتم العطار المصرى ، ونقل ما سمعه للكثيرين (القشيرى ص ١٧) . ولقد سمع من ذى النون أيضاً وصحبه أبو عبد الله ابن الجلاء ، وهو من أكابر مشايخ الشام (القشيرى ص ٢٠) ؛ وكذلك يوسف بن الحسين المتوفى عام ٣٠٤ هـ ، وكان شيخ الجبال والرى فى وقته ؛ وأبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز المتوفى سنة ٢٧٧ هـ ، فقد صحبا ذا النون أيضاً (القشيرى ص ٢٢ — ٢٣) .

(٥) القشيرى ص ٢١ .

(٦) لا تقول الآثار البغدادية شيئاً عن مصر ؛ أما الخلدى المتوفى عام ٣٨٤ هـ وهو أقدم =

والورع ببغداد هو أبو الحسن السرىّ السقطى المتوفى عام ٢٥٣هـ — ٨٦٨م ؛ وكان تاجراً ، فترك التجارة ، وقام من السوق ، ولزم بيته للعبادة وانقطع عن الناس[١] . وقد اشتهر بأنه أول من تكلم ببغداد فى الحقائق والتوحيد[٢] ، ويقال أيضاً إنه أول من تكلم فى المقامات والأحوال[٣] . وكان أول من تكلم فى اصطلاحات الصوفية من صفاء الذكر ، وجمع الهمّة ، والمحبة والعشق ، والقرب والأنس أبا حمزة محمد بن إبراهيم الصدفى البغدادى المتوفى عام ٢٦٩ هـ — ٨٨٢ م ؛ ولم يسبقه إلى الكلام بهذا على رؤوس المنابر ببغداد أحد . وكان تلميذ أحمد بن حوقل ، وهو الذى خاطبه بقوله له : يا صوفى[٤] . ويظهر أن معاصره طيفوراً البسطامى هو الذى أحدث لفظة السكر ، فكان لها ، إلى جانب كلمة العشق ، أكبر أثر فى التصوف الإسلامى[٥] . وقد روى لعلىّ بن الموفّق (المتوفى عام ٢٦٥ هـ — ٨٧٨ م) دعاء لا يتمشى مع ظاهر الإسلام من حيث الجوهر ، وهو قوله[٦] : اللهم إن كنتَ تعلم أنى أعبدك خوفاً من نارك فعذّبنى بها ؛ وإن كنتَ تعلم أنى أعبدك حبا متى

= من أرّخ للصوفية ، فانه ينسب ، فى أخباره ، إلى معروف الكرخى المتوفى عام ٢٠٧ هـ — ٨٢٢ م ، وهو الشيخ البغدادى الذى يعظمه أهل بغداد ، ويردّ بقية نسبه إلى الزاهد القديم المشهور وهو حسن البصرى . انظر كتاب الفهرست ص ١٨٣ .

(١) زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة مخطوط باريس ص ٥ ب ؛ وانظر أيضاً Schreiner . Z D M G. 52. 515

(٢) تذكرة الأولياء لأبى حامد محمد بن أبى بكر إبراهيم الشهير بفريد الدين العطار النيسابورى (كتاب بالفارسية) طبعة ليدن ١٩٠٩ ج ١ ص ٢٧٤ ، نقلا عن نيكلسون Nicholson فى J R A S. 1906. 322 ، وروضة الناظرين للوترى ص ٨ .

(٣) كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ١٣٠ .

(٤) النجوم الزاهرة لأبى المحاسن (ليدن) ج ٢ ص ٤٧ ؛ وزبدة الفكرة ص ٧٣ ا (مخطوط باريس رقم ١٥٧٢) ، وقيل فى وفاته إنه تكلم يوماً فى علوم الإرادات بجامع الرصافة فسقط من المنبر ، وأقام مريضاً ؛ ثم توفى بعد أيام (نفس المصدر ص ٧٣ ب) .

(٥) كشف المحجوب ص ١٨٤ .

(٦) زبدة الفكرة ص ٤٢ ا — ب .

لجنتك فاحرمنيهـا ، وإنْ كنتَ تعلم أنى إنما أحببك حبا منى لك ، وشوقاً إلى وجهك الكريم ، فأبحنيه واعمل بى ما شئت » .

ثم جاء أبو سعيد الخرَّاز البغدادى المتوفى عام ٢٧٧ هـ — ٨٩٠ م ، وهو تلميذ ذى النون المصرى ، فكان أول من تكلم فى الفناء ، وهو من أقوال الغنوسطيين الأولى ، ولا شأن له مطلقاً بالنرفانا عند الهنود[1] . وكان أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار النيسابورى المتوفى عام ٢٧١ هـ — ٨٨٤ م أول من سلك طريق الملامة ، ومنه انتشر مذهب الملامتية بنيسابور ؛ وكان يفضل أن يكون مظهره مظهر المذنبين على أن يبعده تعظيم الناس عن الله[2] ، على أن مذهب الملامتية ليس بجديد ؛ فقد وصف أفلاطون فى أول الكتاب الثانى من الجمهورية حال العادل الحق الذى يُظن به أنه ليس عادلا . وهكذا خرج الصوفية عن طريقهم الأول ، فعلى حين أنهم كانوا فى أول الأمر تدفعهم الغيرة الدينية إلى التدخل فى حياة الناس وإلى « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » حتى جرّهم ذلك إلى معارضة أمر السلطان أحياناً كما تقدم القول ؛ نجد أبا عمرو إسماعيل بن نجيد المتوفى بمكة عام ٣٦٦ هـ — ٩٧٦ م يُسأل عن التصوف ، فيقول : هو الصبر تحت الأمر والنهى[3] ، وهذا ينطوى على عدم المبالاة بما يكون عليه حال المجتمع .

---

(١) كشف المحجوب ص ١٤٣ ، ٢٤٢ وما يليها ، على أنه فى القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى شنع على « الصوفية الجاهلين » الذين يقولون بالفناء الكلى ، ومما تلبغى ملاحظته أن الهجويرى فى الهند ينتقد هذا القول الذى يقوله الصوفية الجهال ، ويقول إن القول بالفناء الكلى مكابرة (كشف المحجوب ص ٢٤٣) .

(٢) نفس المصدر ص ١٨٣ ، ويحكى القشيرى (ص ١٨) عنه أنه قال : إذا رأيت سكراناً فتمايل لئلا تبغى عليه فتبتلى بمثل ذلك ، وأنه كان يقول : من ظن أن نفسه خير من فرعون فقد أظهر الكبر .

(٣) القشيرى ص ٢٨ .

وكانت بغداد والبصرة مختلفتين فى أمر التصوف ؛ كما كانتا مختلفتين فى مسائل اللغة وعلم الكلام ؛ فكانت بغداد أكبر مركز للمتصوفين ، على حين كانت البصرة أكبر مركز للزهاد ، وبقيت كذلك حتى أيام المقدسى ؟ وينسب للحسن البصرى شيخ زهاد البصرة أنه رأى على مالك بن دينار كساء صوف ، فقال له : يعجبك هذا ، قال : نعم ، قال : إنه كان على شاة قبلك [١] . ولكن هذا النقد للصوفية لم يمنعهم من أن يضموا إلى رجالهم أكبر رجل من خصومهم ، فيعتبروا الحسن البصرى — وهو أشهر عبّاد العراق — أول أستاذ أوضح سبيل مذهبهم . على أن سند المذهب امتد أكثر من ذلك فأراد قوم أن ينسبوا مذهب التصوف إلى النبى (عليه السلام) لإعطائه صبغة الكلام النبوى المقدس ، فردّوا علم الحسن إلى حُذَيفة بن اليمان الصحابى المشهور ، ويحكى : أن الحسن سئل عن ذلك « فقال أخذته عن حُذَيفة بن اليمان ، وقال حذيفة : خصّنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، ويروى أن النبى صلى الله عليه وسلم اختص حذيفة من الصحابة بعلوم منها علم معرفة النفاق والمنافقين وعلم خفايا اليقين ؛ « وكان عمر رضى الله عنه إذا دُعى لجنازة ليصلى عليها ، نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها ، وإن لم يرَ حذيفة لم يُصَلّ عليها » [٢] .

وحوالى أواخر القرن الثالث الهجرى حمل تلاميذُ السرىّ السقطى مذاهب

---

(١) انظر ما يلى ؛ على أنه يحكى أيضاً عن مالك بن أنس أنه سئل عن لباس الصوف للرجال ، فقال : لا خير فى الشهرة ، ومن خليط القطن ما هو فى مثل ثمنه وأبعد عن الشهرة انظر المدخل لابن الحاج ج ٢ ص ١٨ ، ومن هنا ما حكاه جولدزيهر : Goldziher W Z K M. 13. 40 .

(٢) قوت القلوب للمكى ج ١ ص ١٤٩ — ١٥٠ ، وانظر فيما يتعلق بحذيفة : Goldziher Vorlesungen über den Islam. S) 193 . وكان للفراسة ومعرفة ما فى نفوس الناس ووقوع الحوادث فى القلب شأن كبير عند الصوفية فى القرن الرابع (انظر باب الفراسة فى الرسالة القشيرية) .

الصوفية البغداديين إلى أنحاء المملكة الإسلامية ، فحملها موسى الأنصارى بمرو (توفى حوالى عام ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م) إلى خراسان؛ والروذبارى (المتوفى حوالى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م بالفسطاط) إلى مصر؛ وأبو زيد الآدمى (المتوفى عام ٣٤١ هـ — ٩٥١ م) إلى جزيرة العرب[١] ؛ وكذلك ظهر التصوف بمدينة نيسابور على يد أبى على محمد بن عبد الوهاب الثقفى المتوفى سنة ٣٢٨ هـ — ٩٤٠ م[٢]؛ وكانت شيراز بنوع خاص مملوءة بالصوفية حوالى آخر القرن الرابع[٣] وفى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى لقى الهجويرى الأفغانى «ثلاثمائة من مشايخ الصوفية بخراسان وحدها ، لكل منهم مشرب والواحد منهم يكفى الدنيا بأسرها»[٤] . وكان يعيش فى بغداد حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م ثلاثة من كبار مشايخ الصوفية متقاربين وهم : أبو بكر الشبلى المشهور بإشاراته ، وكان أبوه حاجباً بدار الخلافة ، وتولى هو نفسه إدارة دواوين كثيرة؛ وأبو محمد عبد الله بن محمد المرتعش المتوفى عام ٣٢٨ هـ — ٩٣٩ م صاحب النكت الصوفية؛ والخُلْدى المتوفى عام ٣٤٨ هـ — ٩٥٩ م عن خمس وتسعين سنة ، وهو أول من ألف فى تاريخ الصوفية وحكاياتهم ، وقد افتخر بأنه يحفظ أكثر من مائة ديوان من دواوين الصوفية[٥] .

وكان فى المملكة الإسلامية خوانق وأماكن للعبادة قبل ظهور الصوفية ، ويُحكى لنا مثالٌ واحد يدل على التأثر بالمسيحية . يُحكى أن أبا الخير نهر بن جابر

---

(١) روضة الناظرين ص ١٣ .
(٢) القشيرى ص ٢٦ .
(٣) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٤٣٩ .
(٤) كشف المحجوب ص ١٧٤ ، ص ٢١٦ من الأصل الفارسى .
(٥) الفهرست ص ١٨٣ (؟) ؛ وأبو المحاسن ج ٢ ص ٢٩٢ ، وروضة الناظرين ص ١٢ ، ١٣ ، ١٥ .

الطائى المتوفى عام ٢٢٥ هـ — ٨٣٦ م دخل بلاداً كثيرة من ديار الشام ؛ واجتمع بالنصارى ورهبانهم ، وكان جده نصرانيا ثم أسلم تقربا من الأمويين ؛ ولما دخل فى السنة الخمسين من عمره اعتزل الناس فى جوار دمشق ، ولقد ألف كتابا يسمى « العروج فى درج الكمال ، والخروج من درك الضلال » ذكر فيه تاريخ الزهد عند اليهود والنصارى وغير ذلك ؛ وذلك طبقاً لما شاهده عياناً أو سمعه من الرهبان[1].

ويحدثنا المقدسى أنه لقى فى جبل الجولان من جبال الشام أبا إسحاق البلوطى فى أربعين رجلا ، يقتاتون بالبلوط ، يفلقونه ويطحنونه ويخلطونه بشعير برّية ، ويلبسون الصوف[2] . وكان الكرّامية[3] أصحاب محمد بن كِرام هم الذين أنشأوا أكبر عدد من الخوانق ، ويذكر المقدسى أنه كان لهم خوانق كثيرة بإيران وما وراء النهر ، وكان لهم أيضاً خوانق ومجالس ببيت المقدس . وكان لهم فوق ذلك محلّة بالفسطاط ، ويذكر المقدسى أنه قرأ فى كتاب صنّفه بعض مشايخ الكرامية بنيسابور أن بالمغرب صبيالة خانقاه لهم ، ثم يقول : قلت : لا والله ، ولا واحدة ؛ وكان لهم فى خوانقهم مجلسُ ذكر يقرءون فيه من دفتر ، كما كان ذلك لأصحاب أبى حنيفة[4] . وكان الكرامية جماعة من المتسوّلين ، وقد دعوا إلى الزهد وترك الكسب الدنيوى ؛ ويقول المقدسى إنهم لا يخلون من أربع خصال : التقى ، والعصبية ، والقلّ ، والكُدْية[5] . ولم يكن للصوفية خوانق فى ذلك

(١) مجلة المشرق عام ١٩٠٨ ص ٨٨٣ وما بعدها .

(٢) المقدسى ص ١٨٨ .

(٣) الكرامية بكسر الكاف وتخفيف الراء ؛ انظر كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى طبعة كلكتة ١٨٦٢ ص ١٢٦٦ .

(٤) المقدسى ص ٣٢٣ ، ٣٦٥ ، ١٧٩ ، ٢٠٢ ، ٢٤٨ ، ١٨٢ ؛ والفصل لابن حزم ج ٤ ص ٢٠٤ ؛ ويقول أبو الفدا (تحت سنة ٢٥٥ هـ ج ٢ ص ٢٢٨ من الطبعة الأوروبية) إن محمد بن كرام هو صاحب المقالة فى التشبيه ؛ وهو سجستانى ، وتوفى بالشام .

(٥) المقدسى ص ٤١ ؛ والكلاباذى ص ١٩٤ أ — ٩٥ ب فى كتاب التعرف لمذهب =

الوقت(١) وكل ما كان لهم بيوت صغيرة للذكر فى ظاهر المدن سموها رباطات بالاسم الحربى(٢). ولكن يظهر أنه كان يعيش فى هذه البيوت المنعزلة بعض العباد ذلك العصر : فيحكى عن على بن إبراهيم الحصرى الصوفى المتوفى عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م « أنه كبرت سنه فصعب عليه المجىء إلى الجامع ، فبنى له الرباطُ المقابل لجامع المنصور ، ثم عرف بصاحبه الزوزنى »(٣). وكان الكرامية يلبسون رداء من الصوف وفوطة(٤) مُدَلاة على رءوسهم تحيط بقلنسوة طويلة ، ثم لبسوا فيما بعد اللون الأزرق ، إما لأنه لباس الحداد ؛ وإما لأنه كما يقال أيضاً ، يلائم حال قوم فقراء جوّالين فى البلاد(٥) ؛ وربما كان الأول هو الصحيح لأن الفوطة أيضاً كانت لباس الرأس عند الحزن(٦) ، ويقول ابن عبد العزيز السوسى فى القرن الرابع الهجرى من قصيدته التى ذكر فيها تنقلَه بين المذاهب والديانات ، يصف عهده فى التصوف(٧).

= أهل التصوف طبع بمصر ١٣٥٢ — ١٩٣٣ ص ٥٧ ، ٧٧ (المترجم) . وانظر Goldziher WZKM 13. s 43 هامش رقم ٢ .

(١) يقول المقريزى (الخطط ج ٢ ص ٤١٤) إن الخوانك حدثت فى حدود الأربعمائة من سنى الهجرة — ويلاحظ القارئ أن بين كلام المؤلف هنا وبين كلامه منذ قليل شيئاً من التناقض . ويقول المقريزى إن أول من اتخذ بيتاً للعبادة جمع فيه العباد وجعل لهم ما يقوم بمصالحهم زيد بن صوحان فى خلافة عثمان بن عفان .

(٢) المقدسى ص ٤١٠ ، والقشيرى ص ١٤ .

(٣) المنتظم لابن الجوزى مخطوط برلين ص ١١٩ ا .

(٤) المقدسى نفس الإشارة .

(٥) كشف المحجوب ص ٥٣ .

(٦) طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٥٧ . أما فى القرن الخامس الهجرى ، فكان يندر أن يلبس الصوفية الصوف ، وكانت عاداتهم لبس المرقعة . كشف المحجوب ص ٤٥ وما بعدها ، على أن المرقعة كانت من قبل إلى جانب كساء الصوف لباس الصوفية ثم صارت لباس المتجولين من الصوفية الذين لا ينتمون إلى طريقة معينة وذلك بعد أن صار اتخاذ الصوف علامة الصوفية . انظر القشيرى ص ١٦ ، ١٦٢ ، وإرشاد الأريب لياقوت ج ٢ ص ٩٢ — ٢٩٤)

(٧) يتيمة الدهر للثعالبى ج ٣ ص ٢٢٧ .

سلكت فى مسلك التصوف تنميسا فكم للذيول قصّرت
سوّيت سجادةً بيوم وأحفيت سبالاً قد كنت طوّلتُ

وكان للأغانى الروحية شأن كبير فى عبادات الصوفية ، كما كان الحال بين عُبّاد الألمان فى القرن التاسع عشر . ويقول الجاحظ : « ومن تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابيا ويكون الداعى إلى الله صوفيا »[1] . ويحدثنا المقدسى عن حضوره مجالس الصوفية بمدينة السوس قائلا : « فكَرّةً أزعق معهم وتارةً أقرأ لهم القصائد »[2] . وفى القرن الخامس الهجرى زاد الرقص إلى جانب الغناء ، ويقول الحجويرى إنه لقى طائفة من العوام يظنون أن مذهب التصوف ليس إلا الرقص[3] ، وكذلك يعيب المعرى (المتوفى عام ٤٤٩ ﻫ — ١٠٥٧ م) ذلك على الصوفية وهو يقول :

أرى جيل التصوف شر جيل فقل لهمو : وأهون بالحلول
أقال الله حين عبدتموه كلوا أكل البهائم وارقصوا لى[4]

وكانت عادة النساء أن يشاهدن غناء الدراويش من فوق الأسطح أو من مكان آخر ، ويحذر الحجويرى المبتدئين من السماع وما يتصل به[5] . وسرعان ما اخترع الخيالُ الصوفى أن فى الجنة كراسى يجلس عليها الصوفية ، وهى تميل بهم ، وتدور فتكفيهم مؤونةَ الرقص ، وذلك ، كما قالوا ، بأن يبعث الله لأهل الجنة مغانى من الحور العين ، وتُنصب لأهلها المراتبُ والمساند ، ثم تغنّى الحورُ

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٤١ ، على أن المؤلف يريد أن يفهم أن كلام الجاحظ معناه أن الشاعر الروحى الحقيق لا بد أن يكون صوفيا .
(٢) المقدسى ص ٤١٥ .
(٣) كشف المحجوب ص ٤١٦ انظر أيضاً ص ٤٣ .
(٤) الإرشاد ج ٢ ص ١٢٥ . (المترجم)
(٥) كشف المحجوب ص ٤٢٠ .

العين بأصواتٍ لم يُسمع أحسن منها ، ويقول الله للحور العين : اسمعن عبادى الذين نزهوا أنفسهم عن مطربات الدنيا وتلذّذوا بسماع كلامى وأحاديث الرسول عليه السلام ، فيطرب القوم ويهيمون ، فتقدم الملائكة إليهم كراسىَ من ذهب ، وتقول لهم : لا تزعجوا أعضاءكم بالرقص ، فقد كفى ما تعبتم فى الدنيا بالصلاة والعبادة واجلسوا على تلك الكراسى ، وهى تميل بكم وتدور ؛ فيغيبون عن وجودهم من الطرب[1] .

ولم يكن ثمّ ما يوجب الكُدْيَةَ على الصوفية ؛ ولكن الخوارزمى يقول إن « الفقير خفيف الظهر من كل حق ، منفك الرقبة من كل رقّ ، لا يلزمه أداء الزكاة ، ولا تتوجه إليه غوائل النائبات ، ولا يستبطئه إخوانه ، ولا تطمع فيه جيرانه ، ولا تنتظر فى الفطر صدقته ، ولا فى العيد أضحيته ، ... فإنما هو مسجد يُحمل إليه ولا يحمل عليه ، وعلوىّ يؤخذ بيديه ولا يؤخذ من يديه .... فهذا إما غانم أو سالم »[2] ؛ وكذلك سُمّى الصوفية فقراء[3] ، وكان المحبّون لأهل الطرق الصوفية يدعونهم إلى الطعام ، ويحكى لنا المقدسى أنه دفعت به الظروف إلى مجلس الصوفية بشيراز ، فأراد معرفة طريقتهم وحقائقهم ، وحلّ من قلوبهم بحيث لا غاية ، وقصده الزوّار ، وحُملت إليه الثيابُ والصُرَر ، فكان يأخذ ذلك ويدفعه إليهم وهو يبين سبب ذلك قائلا : « لأنى كنت غنيا فى وسطى نفقة وافرة ، وأنا كل يوم فى دعوة وأىّ دعوة »[4] . وكان الشيخ أبو عبد الله أحمد بن عطاء

---

(١) قرة العيون ومفرح القلب المحزون لأبى الليث السمرقندى على هامش الروض الفائق فى المواعظ والرقائق طبعة مصر ١٣١١ ﻫ ص ٢١١ وما بعدها .

(٢) رسائل الخوارزمى ص ٩٠ ؛ على أنه ليس من المحقق أن الخوارزمى يقصد بالفقير الصوفىّ ، لأنه يتكلم بعد ذلك مباشرة عن الغنى فيقول إنه غنيمة كل يد سالبة ، وصيد كل نفس طالبة ، هذا مع أن تسمية الصوفى بالفقير تسمية مألوفة . (المترجم)

(٣) المقدسى ص ٤١٥ ؛ والقشيرى ص ١٢ ، ٢١ ، ٣٠ .

(٤) المقدسى ص ٤١٥ ، القشيرى ص ٣٠ .

الروذباری (الثانی ، وهو ابن أخت أبی علی الروذباری) المتوفی بصور سنة ٣٦٩هـ — ٩٧٩ م ، وشیخ الشام فی وقته ، إذا دعا أصحابه معه إلی دعوة فی دور السوقة ومن لیس من أهل التصوف ، لا یخبر الفقراء بذلك ، وکان یُطعمهم شیئاً ، فإذا فرغوا أخبرهم ، ومضی بهم ، فکانوا قد أکلوا قبل ذهابهم بقلیل ، فلا یمکنهم أن یمدّوا أیدیهم إلی طعام الدعوة إلا بالتعزّز ، وإنما کان یفعل ذلك لئلا تسوء ظنون الناس بهذه الطائفة فیأثموا بسببهم[١] . وکان خاله أبو علی الروذباری (المتوفی عام ٣٢٢ أو ٣٢٣ هـ — ٩٣٣ م) أحد أئمة الصوفیة ، وکان بغدادی الأصل ، وأقام بمصر ؛ وکان من أبناء الوزراء والرؤساء ، یتصل نسبه بکسری أنو شروان ، ویروی أنه « اتخذ مرة أحمالا من السکر الأبیض ، ودعا بجماعة من الحلوانیین حتی عملوا من السکر جداراً علیه شرافات ومحاریب علی أعمدة ونقشوها کلها من سکر ، ثم دعا الصوفیة حتی هدموها وکسروها وانتهبوها »[١] وکان الصوفیة فی کثیر من الأحیان مشهورین بکثرة الأکل حتی یُضرب المثل « بأکل الصوفیة »[٢] .

وکان أکبر الآفات علی الصوفیة فی ذلك العصر « معاشرة الخالفین ورفقة النساء » ؛ وهذه هی بعینها الآفات التی تعرّض لها الفقراء المسیحیون فی العصور الوسطی ؛ علی أنه أُضیفت إلی ذلك آفة شرقیة خاصة هی « صحبة الأحداث »[٣] . ویُحکی عن أبی سعید الخراز المتوفی عام ٢٧٧ هـ — ٨٩٠ م أنه قال : « رأیت إبلیس فی النوم ، وهو یمرّ عنی ناحیة ، فقلت له : تعال ، مالك ! فقال : إیش أعمل بکم ، أنتم طرحتم عن نفوسکم ما أخادع به الناس ؛ فقلت : وما هو ؟ قال :

---

(١) طبقات السبکی ج ٢ ص ٩٩ — ١٠٢ والقشیری أیضاً ص ٢٦ .
(٢) ثمار القلوب فی المضاف والمنسوب للثعالبی ص ١٣٦ — ١٣٧ .
(٣) القشیری ص ٢٢ .

الدنيا ؟ فلما ولى عنى التفت إلىّ ، وقال : غير أنّ لى فيكم لطيفةً ، قلت : وما هى ؟ قال : صحبة الأحداث »[1] . ويُروى عن الواسطى المتوفى بعد عام ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م أنه قال : « إذا أراد الله هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجيف » ، يريد به صحبة الأحداث[2] . ويعترف الهجويرى فى القرن الخامس الهجرى، أنه قد بلغ من جهال الصوفية أنهم جعلوا صحبة الأحداث من مذهبهم ، وأن بعض العوام أخذوا عليهم ذلك وأنكروه[3] .

على أنه قد ظهرت عند الصوفية نزعة قديمة إلى عدم المبالاة بكل ما فى هذه الدنيا حتى بالشريعة ؛ فيحكى ابن حزم « أن من الصوفية من يقول إن من عرف الله سقطت عنه الشرائع ، وزاد بعضهم : واتصل بالله تعالى . وبلغنا أن بنيسابور اليوم فى عصرنا هذا رجلا يكنى أبا سعيد أبا الخير من الصوفية ، مرة يلبس الصوف ، ومرةً يلبس الحرير المحرّم على الرجال ، ومرةً يصلى فى اليوم ألف ركعة ، ومرة لا يصلى فريضةً ولا نافلةً ، وهذا كفر محض ، ونعوذ بالله من الضلال ... »[4] ، ويشكو ابن حزم فوق ما تقدم من أن طائفة من الصوفية ادعت « أن فى أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل ؛ وقالوا : من بلغ الغايةَ القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك ، وحلّت له المحرماتُ كلها من الزنى والخمر وغير ذلك ، واستباحوا بهذا نساء غيرهم ، وقالوا إننا نرى الله ونكلمه ، وكل ما قُذف فى نفوسنا فهو حق »[5] . ويقول الهجويرى إن دعوى « سقوط الشريعة إذا كُشفت الحقيقة » هى مقالة الزنادقة من القرامطة

---

(١) نفس المصدر ص ٢٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٤ ، وقارن ص ١٨٤ .

(٣) كشف المحجوب ص ٤١٦ ، ٤٢٠ .

(٤) الفصل لابن حزم ج ٤ ص ١٨٨ .

(٥) نفس المصدر ج ٤ ص ٢٢٦ . وانظر Schreiner, ZDMG 52 476 .

والشيعة ومن دسوسوا إليهم من الأتباع[1] . ويحكى القشيرى أنه سمع الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول سمعت أبا القاسم الدمشقى يقول : سُئل أبو على الروذبارى (المتوفى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٣ م) عمن يسمع الملاهى ويقول : هىَ لى حلال ، لأنى وصلت إلى درجة لا تؤثر فى اختلاف الأحوال ، فقال : نعم ، قد وصل ، ولكن إلى سقر[2] .

وكان أكثر الصوفية القدماء متزوّجين ، ويحكى أن امرأة أحد الصوفية كانت سيئة الخلق تستطيل عليه ؛ وأعطته مرة درهمين من ثمن غزلها ليشترى الدقيق ، فلقى فى طريقه جارية تبكى لأنها أضاعت درهمين لسيدها ، تخاف أن يضربها فدفع إليها الدرهمين ، وقعد على حانوت صديق له يشق الساج ، وذكر له الحال ، وما يخاف من سوء خلق امرأته ، فقال له : خذ من هذه النشارة فى الجراب لعلكم تنتفعون بها فى سجر التنور ، إذ ليس فى إمكانى مساعدتك بشىء آخر ، فحمل الصوفى النشارة ، وفتح باب داره ، ورمى بالجراب ، وردّ الباب ، وذهب إلى المسجد إلى ما بعد العتمة ليأخذ أهلَه النوم ولا تستطيل عليه زوجته ، فلما فتح الباب وجدهم يخبزون الخبز ، فقال : من أين لكم هذا الخبز ؟ قالوا : من الدقيق الذى كان فى الجراب ، لا تشتر غير هذا الدقيق ، قال أفعلُ إن شاء الله ؛ وهكذا لم ينقذه من سوء خلق امرأته إلا كرامة[3] . وكانت تخدم الجنيد جارية تسمى زيتونة ، وكذلك خدمت شيخين غيره ، ويدل اسمها[4] على أنها كانت أمة مملوكة ؛ وأعطى الجنيد جارية أخرى أُهديت إليه إلى أحد أصحابه ليتزوجها[5] .

---

(١) كشف المحجوب ص ٣٨٢ .
(٢) القشيرى ص ٢٦ .
(٣) نفس المصدر ص ١٦٨ .
(٤) نفس المصدر ص ١٧١ .
(٥) روضة الناظرين ص ١٠ .

وكان الشبلي متزوجا[١] . ويحكى عن أبي الحسين أحمد بن أبي الحوارى ، ريحانة الشام ، المتوفى عام ٢٣٠ هـ — أنه كان له أربع نساء ، وعن معاصره أبي عبدالرحمن حاتم الأصمّ من أكابر مشايخ خراسان أنه خلف تسعة أبناء[٢] ، ومما يزيد فى غرابة مثل هذه الحكايات أننا نجد بين جماعة الزهاد العباد الذين لاينتمون لأهل التصوف من تمسك بالتجريد أعنى العزوبة ، وهى نزعة غير إسلامية مطلقاً ؛ ففى كتاب بستان العارفين ص ١٩٧ — ١٩٨ لأبي الليث السمرقندى الحنفى المتوفى عام ٣٨٣ هـ — ٩٩٥ م حضّ من يستطيع الاستغناء عن الزواج أن يظل حصوراً ، وأن يتفرغ إلى عبادة الله ، فهى أفضل[٣] . ولابد أن يكون هذا الرأى قد غلب على الصوفية فى القرن الرابع الهجرى ، حتى يقول الهجويرى فى القرن الخامس : « وقد أجمع رأى شيوخ هذه الطريقة على أن أحسن الصوفية وأفضلهم المجرّدون فإن قلوبهم خالية من الآفات ، وطباعهم معرضة عن المعاصى والشهوات . وبالجملة فإن أساس هذه الطريقة هو التجريد وأن الزواج لغيرهم »[٤] .

ولكن كلام الهجويرى هذا يخالف ما قد وقع تمام المخالفة ، والهجويرى أيضاً أول من حكى عن الصوفية أنهم يتزوجون فى الظاهر فقط ، فذكر أن أحد مشايخ الصوفية فى القرن الثالث الهجرى عاش مع زوجته خمسة وستين عاما من غير أن يقربها[٥] ، وحكى عن أبي عبد الله محمد بن خفيف الشيرازى المشهور ، المتوفى عام ٣٧١ هـ — ٩٨١ م[٦] ، وكان من أبناء الملوك ، أن بنات الملوك والرؤساء

---

(١) نفس المصدر ص ١٢ .
(٢) نفس المصدر ص ١٩٨ .
(٣) Amedroz Notes on some sufi liues JRAS 1912 s 558 .
(٤) كشف المحجوب ص ٣٦٣ .
(٥) نفس المصدر ص ٣٦٢ .
(٦) يقول القشيرى إنه توفى عام ٣٩١ هـ . (المترجم)

لن يتقربن منه تبركا حتى يعقد عليهن ، وقد عقد أربعمائة نكاح ، ولكنه كان يقبل الزواج ثم يطلقهن قبل الدخول بهن[١] على أن الهجويرى نفسه لم يكن متزوجاً ، وهو يقول : « وبعد أن صانني الله من آفة الزواج أحد عشر عاما قُدِّر لى أن أقع فى فتنة وأن أصير أسيراً لتلك التى لم أرها ، وبقيت فى ذلك عاما حتى قرب دينى من الهلاك إلى أن منّ الله على بكمال فضله وتمام لطفه فأرسل عصمته إلى قلبى الضعيف وخلصنى من هذه الأوزار ، فالحمد لله على جزيل نعمائه »[٢].

ويظهر أن كثيرين من الصوفية أنفسهم لم يرضوا عن تطور مذهبهم واتجاهه إلى ما انتهى إليه ، ولما صنّف الشيخ أبو سعيد الأعرابى المتوفى عام ٣٤١ هـ — ٩٥٢ م كتاب طبقات النساك ، وهو أول كتاب فى ذلك ، وصف أول من تكلم فى هذا العلم ، ثم من بعده من البصريين والشاميين وأهل خراسان إلى أن كان آخرهم البغداديين ، وهو يجعل أول التصوف آخره فيقول مثلا إنه آخر من تكلم فى هذا العلم الجنيد وإنه ما بقى بعده « إلا من مجالسته غيظ » ، « وإلا من يُستحيى من ذكره »[٣] ، وقد حكى عن أبى سهل التسترى الإمام الصوفى (المتوفى عام ٢٧٣ هـ — ٨٨٦ م أو ٢٨٣ هـ — ٨٩٦ م كما يقول القشيرى) أنه « كان يقول : بعد سنة ثلثمائة لا يحل أن يتكلم بعلمنا هذا ، لأنه يحدث قوم يتصنّعون للخلق ، ويتزينون بالكلام ، لتكون مواجيدهم لباسهم ، وحليتهم كلامهم ، ومعبودهم بطونهم »[٤]. وفى سنة ٤٣٧ هـ — ١٠٤٥ م كتب عبد الكريم بن هوازن القشيرى رسالته المشهورة إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام ، وذلك أنه لما رأى انقراض أكثر شيوخ الصوفية المحققين ، وفساد

(١) كشف المحجوب ص ٢٤٧ .
(٢) نفس المصدر ص ٣٦٤ ، ص ٤٧٦ من النص الفارسى .
(٣) قوت القلوب لأبى طالب المكى ج ١ ص ١٦٢ .
(٤) نفس المصدر .

حال كثير من الباقين ألف رسالته ، وذكر فيها سيراً من سير شيوخ هذه الطريقة فى آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم لتكون قوة للصوفية وعوناً على صلاح أمرهم ؛ ومما قاله فى أولها : « اندرست الطريقةُ بالحقيقة ، ومضى الشيوخ الذين كان بهم الاهتداء ؛ وقلّ الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء ؛ وزال الورعُ وطُوى بساطُه ، واشتد الطمع وقَوى رباطُه ؛ وارتحلت عن القلوب حرمةُ الشريعة ، فعدّوا قلةَ المبالاة بالدين أوثقَ ذريعة ؛ ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ؛ ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام ؛ واستخفوا بأداء العبادات ؛ واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا فى ميدان الغفلات ؛ وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات ؛ والارتفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوان وأصحاب السلطان ؛ ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ؛ وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه ، وهم مَحْوٌ ، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه عتبٌ ولا لوم ؛ وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختُطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية»[1] . وفى هذا العصر المتأخر أُثرت عن قدماء مشايخ الصوفية حكاياتٌ تدل على شدة وقسوة فى قمع شهوات النفس والتكفير عن ميولها ، ويشبه أن تكون هذه الحكايات إنما اخترعت ونسبت لأصحابها دفعاً لما شاع من ركوض بعض المتصوفة فى الشهوات وتعاطيهم المحظورات ؛ فيُحكى عن السرى السقطى المتوفى عام ٢٥١ هـ أو ٢٥٧ أنه كان إذا أفطر كل ليلة ترك لقمة ، فإذا أصبح جاءت عصفورة ، وأكلت تلك اللقمة من يده ؛ وذات يوم اشتهى أكل الخبز بالقديد فامتنعت العصفورة من أكل اللقمة ، فعاهد نفسه

---

(١) مقدمة الرسالة القشيرية ص ٢ — ٣ .

ألا يتناول أبداً شيئاً من الأدام[1] وقد لبث ستين سنة لم يضطجع ، فإذا غلبه النوم نام قاعداً القرفصاء[2] .

وتُحكى عنه حكاية شبيهة بما يؤثر عن ديوجينيس (Diogenes) ، قال الجنيد : « دخلت يوماً على السريّ السقطي ، وهو يبكي فقلت له : ما يبكيك ؟ فقال : جاءتني البارحة الصبيّة ، فقالت : يا أبت ؟ هذه ليلة حارة ، وهذا الكوز أعلّقه ههنا ؛ ثم إنه حملتني عيناي فنمت ، فرأيت جاريةً من أحسن الخلق ، قد نزلت من السماء ، فقلت : لمن أنت ؟ فقالت : لمن لا يشرب الماء المبرَّد في الكيزان ، فتناولت الكوز فضربت به الأرض فكسرته »[3] . ويُحكى عن أبي محمد رُوَيْم ابن أحمد البغدادي المتوفى عام ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م أنه اجتاز بغداد وقت الهاجرة ببعض السكك ، وهو عطشان ، فاستسقى من دار ، ففتحت الصبيةُ بابها ، ومعها كوز ماء ، فأخذ منها وشربه ، فقالت الجارية : صوفيّ يشرب بالنهار ! فما أفطر بعد ذلك اليوم قط[4] ؛ ويروى عن الجنيد أن وِرْده كان في كل يوم وليلة ثلثمائة ركعة وثلاثين ألف تسبيحة[5] ، وأقام عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع[6] ، على أنه يحكى خلافاً لهذا أنه كان بديناً ، ولذلك كان يشك الناس في زهده[7] . ويحكى عن أبي نصر بشر الحافي المتوفى سنة ٢٢٧ هـ أنه مر ببعض الناس ، فقالوا : هذا الرجل لا ينام الليل كله ، ولا يفطر إلا في كل ثلاثة

(١) عجائب المخلوقات للقزويني طبعة فستنفلد ص ٢١٦ ، والقشيري ص ١٠ .
(٢) روضة الناظرين للوتري ص ٨ .
(٣) القشيري ص ١١ .
(٤) القشيري ص ٢١ ؛ والقزويني ص ٢١٨ .
(٥) زبدة الفكرة ص ١٤٦ أ .
(٦) القزويني ص ٢١٦ .
(٧) روضة الناظرين ص ١٢ وتحكى حكايات أخرى كلها من المصادر المتأخرة وتدل على الزهد التام ، انظر Amedroz JRAS 550 ff .

أيام مرة ، فبكى بشر ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إنى لا أذكر أنى سهرت ليلة كاملة ، ولا أنى صمت يوماً ولم أفطر من ليلته ، ولكن الله سبحانه وتعالى يلقى فى القلوب أكثر مما يفعله العبد لطفاً منه سبحانه وكرما[١] .

ولا نجد مفرا من القول بأن مذاهب الصوفية تأثرت بمذاهب المعتزلة ؛ ذلك أن الصوفية أخذوا المسائل والمناهج من المعتزلة ، فتأمل مثلا قول أبى على ابن الكاتب الصوفى المتوفى سنة نيف وأربعين وثلاثمائة (٣٤٠ هـ — ٩٥١م) « إن المعتزلة نزّهوا الله من حيث العقل فأخطأوا ، والصوفية نزّهوه من حيث العلم فأصابوا »[٢] ، ولذلك انتشر مذهب التصوف أسهل انتشار بين معتزلة فارس[٣] ، ثم إن الصوفية جعلوا مسألة القدر — وهى أهم شىء عند المعتزلة — نقطة أساسية من مذهبهم ، فقالوا بالجبر على نحو لا تناقض فيه : يُحكى عن أبى عبد الله أحمد بن يحيى الجلاّء أنه قال « من استوى عنده المدح والذم فهو زاهد ، ومن حافظ على الفرائض فى أول مواقيتها فهو عابد ؛ ومن رأى الأفعال كلها من الله عز وجل فهو موحّد لا يرى إلا واحدا »[٤] .

---

(١) القشيرى ص ١١ .

(٢) القشيرى ص ٢٧ ؛ ومعنى هذا أن المعتزلة نفوا عن الله المثل بالمعنى الإنسانى ، والصوفية نفوا عنه المعرفة العقلية الاستدلالية . انظر ما قاله الأستاذ ماسينيون فى هامش كتابه الطواسين ص ١٨٧ . ولكن لعل صاحب هذا القول يقصد أن المعتزلة نزهوا الله مستندين فى ذلك إلى العقل والنظر ، فانتهوا إلى التعطيل وما يشبه النفى ، على حين أن الصوفية لم يلجأوا إلى العقل ، بل إلى الأخذ بالشرع فى ظاهره وإلى العلم الذى ... وإلى طريقتهم فى التصفية ليحصل لهم العلم به من غير رجوع إلى النظر . (المترجم)

(٣) كان أبو القاسم على بن أحمد بن مبروك الزوزنى الشاعر متفنناً فى العلوم ، قائلا بالاعتزال والزهد والتصوف (يتيمة الدهر ص ٣٢٤) ؛ وكذلك كان أبو حيّان التوحيدى أكبر كتاب النثر فى القرن الرابع الهجرى متفننا فى الكلام على مذهب المعتزلة ، وكان صوفىّ السمت والهيئة (الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٨٠) .

(٤) القشيرى ص ٢٠ ؛ ولكن توحيد الصوفية على هذا المعنى يناقض ما ذهب إليه المعتزلة من قولهم باختيار الإنسان فى أفعاله وخلقه لها .

والجبر عند الصوفية ليس هو ذلك الذى يردده جماعة الفلاسفة من القول بالارتباط الضرورى بين الأسباب والمسببات ، بل إن الصوفية جعلوا للجبر معنى دينيا . وكان الإسلام قد دعا من أول الأمر إلى الثقة بالله والتوكل عليه ؛ أما الصوفية فإنهم لم يألوا جهداً فى دعوة الناس إلى التوكل على الله والثقة المطلقة به ، تاركين الأمر كله لمشيئته من غير أن يعملوا شيئاً ، ذاهبين إلى أن « أول مقام التوكل أن يكون العبد بين يدى الله عز وجل كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف شاء لا يكون له حركة ولا تدبير »[(١)] ، ومعظم كرامات الصوفية إنما هى جزاء وتحقيق لهذه الثقة التى بفضلها تنفتح خزائن الله . وكان التوكل أكبر عقيدة للصوفية فى القرن الرابع الهجرى[(٢)] . وكان مذهبهم يقوم على أربعة أصول ؛ فكان فيها بعد التوكل الصبر والرضا والرجاء ، وهذا شبيه باعتقاد البروتستانت بالفضل الإلهى . وقد أثر الصوفية تأثيراً قويا فى الإسلام من طريق قولهم بالتوكل حتى طبعوه بطابعه ، وهو ما يسمى بالاستسلام أو الجبر الإسلامى (Muhammedanische Fatalismus) ولم يكن للقول بالجبر عند المتكلمين ولا عند المنجمين من الأثر ما كان لتوكل الصوفية ، لأن الصوفية كانوا يطبقون قاعدة التوكل ، جادين كل الجد ، فى شؤون الحياة اليومية العملية . على أن الاصطلاحات الإسلامية الخاصة بالجبر ، لم يكن ظهورها فى هذا العصر ، بل هى جمعت فيه ورسخت كما

---

(١) ونجد هنا لأول مرة التمثيل بالميت بين يدى الغاسل ، ولم يكن هذا التشبيه قد أصبح فى القرن الرابع شيئاً عاديا مألوفا . ولهذا كان الكلاباذى (المتوفى عام ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م) قد ذكره (انظر مقالة الأستاذ جولد زيهر Goldziher, Materialien Zur Entwicklungsgeschichte des Sufismus, WZKM. 1899, s. 42 فإن المكى (المتوفى عام ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م) لم يذكره ؛ وذلك خلافاً للقشيرى (ص ٧٦) ولقد بين جولد زيهر فى مقاله المتقدم شأن القول بالتوكل عند الزهاد .

(٢) انظر مثلا باب التوكل فى رسالة القشيرى (المترجم)

هى عليه اليوم[١] ؛ وهذه هى النقطة الهامة ، وقد رسّخ المتصوفة فى ذهن كل مسلم بكلامهم البليغ ؛ وبأمثالهم ، أن الأرزاق قد قُسمت ، وكُتبت قبل خلق الناس بزمان طويل ، « وأن لكل عبد رزقاً هو آتيه لا محالة ؛ ولو هرب العبد من رزقه ، كما لو هرب من الموت ، لأدركه »[٢] ؛ « وأن من اهتم برزق غد وعنده اليوم قوت فهى خطيئة تُكتب عليه »[٣] ؛ وأن رزق كل إنسان قد كُتب فى اللوح المحفوظ ، « ولا يُزادُ فيه بحول ولا حيلة »[٤] ، وأن الأرزاق قد خلقت قبل خلق الأجسام بألفى عام[٥] .

وقد كان وهب بن الورد يقول : « لو كانت السماء نحاساً والأرض رصاصاً ثم اهتممت برزق لظننت أنى مشرك »[٦] ، وأخيراً قوّى الصوفية روح التوكل ، كما دعا إليه الزهاد العباد ، وحث عليه النصوص المأثورة — وهذا شىء فى غاية الأهمية من الناحية الدينية — وفسّروه بأنه الرضا التام بكل الأحكام الإلهية[٧] والسرور باستقبال مجارى القضاء كلها ، بحيث يكون العبد راضياً عن المصيبة والنعمة على السواء ، ويحكى عن رابعة أنها سئلت متى يكون العبد راضياً ؟

(١) أما كلة الفتوح (كقولهم العيش من الفتوح أو على الفتوح من أبواب الرزق) وهو الاصطلاح الذى صار فيا بعد هو وحده المستعمل بين الصوفية ، فقد كان فى هذا العصر نادر الاستعمال وإن كان يذكر بين حين وآخر (انظر Goldziher, WZKM, 1899, s 48 ff.)

(٢) قوت القلوب ج ٢ ص ٧ . (٣) نفس المصدر ص ٩ .

(٤) نفس المصدر ص ٧ .

(٥) قوت القلوب ج ٣ ص ١١ من طبعة ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م .

(٦) قوت القلوب للمكى ج ٢ ص ٩ .

(٧) يقول القشيرى (ص ٨٩) : « وقد اختلف العراقيون والخراسانيون فى الرضا : هل هو من الأحوال أو من المقامات ؟ فأهل خراسان قالوا : الرضا من جملة المقامات وهو نهاية التوكل ، ومعناه أنه يؤول إلى أنه مما يتوصل إليه العبد باكتسابه ؛ وأما العراقيون فإنهم قالوا الرضا من جملة الأحوال ، وليس ذلك كسبا للعبد ، بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال » (المترجم)

فقالت : إذا سرته المصيبةُ كما سرته النعمة ؛ ويحكى عن بعض مشايخ الصوفية أنه قال : أرجو أن أكون عرفتُ طرفاً من الرضا : لو أدخلني النار لكنت بذلك راضياً (١) . وتدل على توكل الصوفية الحقيقيين تلك الحكاية المشهورة التي تروى عن الدرويش الذي وقع في دجلة ، فقد أبصره رجل من المارة ورأى أنه لا يعرف السباحة ، فقال له : أتريد أن أرسل إليك من ينقذك ؟ فقال : لا ؛ فقال له الرجل : أفتريد أن تغرق؟ فقال : لا ، فقال له : فأى شىء تريد ؟ فقال : أى شىء أريد ! أريد ما يريده الله لى (٢) . وفى أوائل حركة التصوف كان المحاسبى (المتوفى فى عام ٢٤٣هـ — ٨٤٨ م) أول من فصل بين الرضا بمجارى الأحكام الإلهيــة وبين التوكل بمعناه المعروف ، وقال إن الرضا من جملة الأحوال التى لا تكتسب وإنما هى نوازل تحل بالقلب (٣) . وهو أول من جعل للرضا الحظ الأوفر من عنايته . ونستطيع أن نعتبر المحاسبى مؤسس مذهب الاستسلام Fatalismus الذى ينسب للمسلمين (٤) على أن الصوفية لم يبنوا عقيدتهم فى القــدر ولم يهضموها على أساس المنطق ، واقتصروا فى ذلك على الناحية العملية الدينية ، فمن ذلك أنهم مثلا لم يعتروا بالعلم النظرى فيؤدى بهم المنطق إلى رأى صارم صلب فيما ذهبوا إليه بين حين وآخر من القول بالقدر (٥) .

أما القاعدة الثانية الكبرى فى مذهب الصوفية ، وهى مسألة الولاية ، فإنها

---

(١) القشيرى ص ٨٩ — ٩٠ (باب الرضا) .

(٢) كشف المحجوب ص ١٨٠ ، ٣٧٩ وما بعدها .

(٣) انظر نص القشيرى المتقدم وكتاب كشف المحجوب ١٧٦ وما بعدها .

(٤) على أن المحاسبى مع قوله بالتوكل يعتبر العمل واجباً كالجرى على المعاش . ويقول إن العمل فى بعض الأحيان فضل ينال الإنسان عليه الثواب . وهذا موجود فى كتاب المكاسب للمحاسبى ، وفيه نقد لشقيق البلخى المتوفى عام ١٩٤ هـ وهو القائل بالتوكل من غير عمل ومؤسس مذهب الاستسلام . (المترجم)

(٥) قوت القلوب للمكى ج ٢ ص ٧ .

مذهب نصرانى غنوسطى . والولىّ[1] هو من يواليه الله وينصره ، وهذه فكرة صوفية أحدثها الصوفية فى الإسلام ، لم ينفك عنها فى كل عصوره ؛ وهذا هو أكبر نجاح ظاهر للصوفية وهو النجاح الذى بدأ يظهر فى القرن الرابع الهجرى . وينسب للمحاسبى (المتوفى عام ٢٤٣ هـ — ٨٤٨ م)[2] الذى تأثر بالمسيحية تأثراً قويا أنه تكلم فى مسألة درجات الأولياء وفى مقدمات الحياة الصوفية[3] . ويقال إن الذى بنى مذهبه على القول بالولاية هو أبو عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى المتوفى عام ٢٨٥ هـ — ٨٩٨ م ، وينسب إلى الترمذى أنه قال إن عيسى عليه السلام خاتم الأولياء[4] . أما مؤرخو القرن الرابع وأصحاب التراجم فيه فلا يعرفون من الأولياء إلا الطائفة المسمّين بالأبدال[5] . ويذكر ابن دريد

---

(١) انظر المعانى الأولى لهذه الكلمة فى كتاب جولد زيهر Goldziher المسمى Muhammedanische Studien II 286 f. انظر معنى الكلمة أيضاً فى رسالة القشيرى ص ١٦٠ وكانت كلمة الولى فى القرن الرابع تستعمل فى معنى عادى غير دينى بمعنى القريب أو النصير . انظر رسائل الصابى مخطوط ليدن رقم ٧٦٦ ص ٢١٥ ب ، ٢١٩ أ (؟) ، ٢٢٠ أ ، ٢٢٦ ب) . وفى رسالة القشيرى ص ١٧٤ يوصف الجندى بأنه أحد أولياء السلطان : « وقد تقاتل اثنان أحدهما من أولياء السلطان والآخر من الرعية » وانظر أيضاً رسائل الخوارزمى ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) انظر ما تقدم عن المحاسبى فى أوائل هذا الفصل .

(٣) Margoliouth' Verhandl 3 Kong. f. Religionsgeschichte Oxford, Bd I, s. 292

(٤) انظر أوائل هذا الفصل .

(٥) ربما كانت هذه الكلمة تعريباً للكلمة الفارسية التى تدل على الآباء وهى : پدرٌ ، وهى التى تدل على القائد الروحى منذ عهد المتوسطين إلى عهد فرقة اليزيديين (پير) ويحكى عن أبى ثوبة (المتوفى عام ٢٤١ هـ) والذى ولد بحلب وعاش فى طرسوس أنه كان من الأبدال (طبقات الحفاظ للذهبى طبعة فستنفلد ج ٢ ص ١٨ ؟) وفى سنة ٢٤٢ هـ مات الطوسى أحد الأبدال (نفس المصدر ص ٣٢ ، ٣٣ ؟) وفى عام ٢٦٥ مات إبراهيم بن هانئ النيسابورى وكان من الأبدال (تاريخ أبى الفدا تحت عام ٢٦٥ هـ (ج ٢ ص ٢٥٦)) وكذلك كان محمد ابن عبد الله نساج صوفى المتوفى عام ٣٢٢ هـ من الأبدال (ابن الأثير ج ٢ ص ٢٢ وفى سنه ٣٢٧ هـ توفى أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم التميمى الحنظلى وكان زاهداً يعد .

المتوفى عام ٣٢١ هـ — ٩٣٣ م أن الأبدال جمع بديل وهم فئة من الصالحين لاتخلو الدنيامنهم أبداً وعددهم سبعون ، أربعون منهم فى الشام ، وثلاثون فى سائر البلاد[1] .
أما الهجويرى فى القرن الخامس الهجرى فهو يذكر طبقاتٍ أخرى من الأولياء : فهناك ثلاثمائة يسمون الأخيار ، وأربعون يسمون الأبدال ، وسبعة يسمون الأبرار ، وأربعة يسمون الأوتاد ، وهم يطوفون العالم بجملته فى كل ليلة ، ثم أيضاً ثلاثة نُقَباء ، وأخيراً يوجد القطب أو الغوث ، والأولياء هم ولاة العالم ، والحل والعقد منوط بهم ، وتدبير العالم موصول بهمتهم[2] . ومن الجلى أن القطب هو الصورة الموروثة للإله (Demiurgos) عند الغنوسطيين ، وكانت صحراء تيه بنى إسرائيل تعتبر فى ذلك الوقت موضع لقاء الغوث[3] وكانت الأُبُلَّة مقر الأبدال[4] . ولم يكن يأبى الاعتراف بالأولياء إلا المتمسكون بالنصوص على الطريقة القديمة ، وكان الصوفية يزدرونهم ويشنّعون عليهم بأنهم حشوية (مشبّهة) ولم يكن أولئك المتمسكون بالنصوص يعترفون بالدرجة الرفيعة عند الله إلا للأنبياء ، أما المعتزلة فكانوا ينكرون بالكلية أن يختص بعض المسلمين بالولاية دون البعض ، ويرون أن جميع المسلمين الذين يطيعون الله ويقومون بأحكام الدين هم أولياء الله . وقد نشر جماعة الصوفية القول بالولاية حتى صار المتأخرون لا يعرفون إلا أولياء الصوفية ، ثم ألحقوا بهم الأولياء الأقدمين مثل معروف الكرخى وبشر الحافى . وقد جُعل على

= الأبدال (طبقات السبكى ج ٢ ص٢٣٧) . وقيل فى حق أحد علماء الأندلس فى القرن الرابع الهجرى : « وإن كان أحد فى عصره من الأبدال فيوشك أن يكون هو منهم » (ابن بشكوال ج ١ ص ٩٢) .

(١) الجمهرة لابن دريد .

(٢) كشف المحجوب ص ٢١٤ ، ٢٢٨ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٢٩ من الترجمة ، ٢٨٩ — ٢٩٠ من النص الفارسى .

(٤) رسائل الخوارزمى طبعة القسطنطينية ص ٤٩ .

(٥) كشف المحجوب ص ٢١٣ ، ٢١٥ .

رأس هؤلاء الصوفية الحسن البصرى[١] ، وهو الرجل الذى كان يستبشع مظهر الصوفية ، فيحكى أنه تكلم عن كساء الصوف الذى كان يرتديه الصوفية ، والذى ادعى عليه البعض أنه لبسه بعبارة قاسية ؛ فقد رأى على مالك بن دينار كساء صوف فقال له : يعجبك هذا الطيلسان ؟ قال : نعم ؛ قال : إنه كان على شاة قبلك[٢] . وقد اختص القرنان الأولان فى حياة التصوف بوجود كثير من الصالحين الذين اجتمع لهم شرطا الولاية وهما أن يكون الولىّ مجاب الدعوة ، وأن تقع على يديه الكرامات[٣] . وأولئك هم أولياء الإسلام القدماء الذين تؤثر أخبارهم فى جملة المأثورات القيّمة ؛ فالقزوينى مثلا لم يذكر فى كلامه عن بغداد فيما عدا بشرا الحافى إلا الأولياء الذين عاشوا حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م[٤] . وكان كتاب طبقات الصوفية للسلمى المتوفى عام ٤١٢ هـ — ١٠٢٤ م أول كتاب فى تراجم الأولياء ، ويُشعر ما قاله أبو المحاسن الذى قرأ هذا الكتاب[٥] بأن ظهور الأولياء إنما كان منذ القرن الثالث فما بعده ، وأنهم كثروا فى القرن الرابع[٦] .

وكرامات الأولياء كثيرة متنوعة « وقد تكون إجابة دعوة ، وقد تكون إظهار طعام فى أوان فاقة من غير سبب ظاهر ، أو حصول ماء فى زمان عطش ، أو تسهيل قطع مسافة فى مدة قريبة ، أو تخليص من عدو ، أو سماع خطاب من

(١) روضة الناظرين ص ٥ .

(٢) لب اللباب (الآداب) فى رد جوابات ذوى الألباب مخطوط برلين رقم ٨٣١٧ Ahlw ص ٩٠ أ .

(٣) وكذلك تستعمل كلمة كرامات استعمالا غير دينى أيضاً ؛ فمن ذلك ما جاء فى رسائل الصابى (مخطوط ليدن ص ٢٢٨ أ) : ذلك ما أعلى له ورفعنى إليه مولانا من تقليد ديوان الرسائل بحضرته وملازمة مجلسه وتوفيته إياى ضروب الكرامات بالخلع التامة والحملان الرابع بالمركب المذهب .... الخ » .

(٤) عجائب المخلوقات طبعة فستنفلد ص ٢١٥ وما بعدها .

(٥) أبو المحاسن ج ٢ ص ٢١٨ .

(٦) قانون الإرشاد لدعوت ج ١ ص ٢٠٢ .

هاتف ، أو غير ذلك من فنون الأعمال الناقضة للعادة »[1] ، ومنها أيضاً الأعاجيب التى تظهر عليهم عند موتهم . ويحكى أنه وجد مكتوبا على جبهة ذى النون المصرى بعد موته : « هـذا حبيب الله ، مات فى حب الله ، قتيل الله » وعند ما سارت جنازته تجمعت طيور السماء فوقها وألقت أجنحتها على الجنازة لتظلها[2] . ولما مات أبو محمد البربهارى فى عام ٣٢٩ هـ — ٩٤١ م مستتراً من السلطان عند أخت توزون — لأنه كان يحارب أهل البدع فغيّروا قلب السلطان عليه — بحث عن يغسله ويصلى عليه ؛ فجاء رجل وغسله وصلى عليه وحده ؛ وكانت أخت توزون قد أغلقت الأبواب حتى لا يعلم أحـد بذلك ، فاطّلعت فإذا الدار ممتلئة رجالا بثياب بيض وخضر[3] . وكذلك أمر أحمد بن طولون بأن يُطرح بُنانٌ الصوفى المعروف بالحمّال المتوفى عام ٣١٦ هـ ٩٢٨ م بين يدى سبع فطُرح ، وبقى ليلته مع السبع ، فكان السبع يشمه ولا يضره ؛ فلما جاء الصباح وجدوه قاعداً مستقبلا القبلة ، والسبع بين يديه ؛ فأطلقه ابن طولون واعتذر إليه[4] . وقد سُمّى الشيخ أبو الخير العابد الأقطع الشامى صاحب الكرامات المتوفى عام ٣٤١ هـ بالبُنانى ؛ وربما كان ذلك لأنه كان من كراماته أن الوحوش تأنس به[5] . وفى سنة ٣٦٢ هـ توفى عبد الله المروزى ، أحد الأبدال ، وكان يقيم بقزوين ، وكان يمشى على الماء ، ويقف له بحر جيحون[6] . ويحكى عن أحد الصوفية أنه كان يتناول الجواهر من الهواء ؛ وعن رجل أسود فقير يأوى إلى الخرابات أنه أشار بيده إلى الأرض ، فإذا الأرض كلها ذهبٌ تلمع ؛ وجاءه رجل يحمل إليه شيئاً فهاله الأمر وهرب ؛

(١) القشيرى ص ١٦٠ .
(٢) كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ١٠٠ وص ١٢٥ من الأصل الفارسى .
(٣) المنتظم لابن الجوزى ص ٦٨ ب من مخطوط برلين .
(٤) المنتظم لابن الجوزى ص ٣٥ ب ؛ وأبو المحاسن ج ٢ ص ٢٢٣ .
(٥) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣٣٥ .
(٦) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٧ .

وعن آخر أن حماره كلّمه ، وعن بعضهم أن حماره نفق فى بعض الطريق ، فصلى ودعا الله أن يبعثه ، فقام الحمار ينفض أذنيه ، وعن رجل منهم أنه وقع فص له فى دجلة فدعا بدعاء مجرّب عنده ، فوجد الفص فى أوراق كان يتصفحها ، وعن غيره أنه أوى إلى مسجد من المطر ، وكان سقفه يَكِف فأراد إصلاح السقف بخشبة كانت معه ، وكانت قصيرة فطالت حتى ركبت الحائط ؛ ويحكى عن صوفى أنه لما مات ضحك على المُغْتَسل ، فلم يجسر أحد على غسله ، وقالوا إنه حى حتى جاء واحد من أقرانه وغسله ؛ ورُوى عن آخر أنه انكسرت به السفينة ، وبقى هو وامرأته على لوح ، وولدت امرأته فى تلك الحال صبيّةً ، فصاحت به وقالت له : يقتلنى العطش ؛ فقال : هو ذا يرى حالنا ؛ فرفع رأسه ، فإذا رجلٌ فى الهواء جالس ، وفى يده سلسلة من ذهب ، وفيها كوزٌ من ياقوت أحمر ، وقال : ها كما ، اشربا ، فشربا منه شيئاً أطيب من المسك ، وأبرد من الثلج ، وأحلى من العسل ؛ فقال الرجل لصاحب الكوز : من أنت رحمك الله ؟ فقال له : عبدٌ لمولاك ، فقال له : بم وصلت إلى هذا ؟ فقال : تركت هواى لمرضاته فأجلسنى فى الهواء ، ويحكى عن شاب كان يكثر الصلاة عند الكعبة أنه سقطت عليه رقعةٌ مكتوب فيها : من العزيز الغفور إلى عبدى الصادق ، انصرف مغفوراً لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، وكان قد سئل هذا الشاب من قبل فى كثرة صلاته ، فقال إنه ينتظر الإذن من ربه فى الانصراف .

ويُذكر عن رجل أنه كان يتعبّد فى غرفة ليس إليها سلم ولا درج ، فكان إذا أراد أن يتطهر يجىء إلى باب الغرفة ، ويقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ويمرّ فى الهواء كأنه طيرٌ ، ثم يتطهرّ ، فإذا فرغ يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ويعود إلى غرفته ؛ ويُروى عن آخر أنه دخل الأتون وهو موقد وخرج من الآ . . ، على نحو ما يحكى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام

أحدهم أنه تزوج امرأة ، فلما كان ليلة الدخول بها وقعت عليه ندامةٌ ؛ فلما أراد الدنوَّ منها زُجر عنها ، فخرج ، فبعد ثلاثة أيام ظهر لها زوج ؛ وعن ذى النون المصرى، أنه أراد أن يبين طاعة الأشياء للأولياء ، فأمر السرير أن يدور فى أربع زوايا البيت ، فدار ، ثم رجع إلى مكانه ؛ وعن الفُضَيل أنه كان على جبل من جبال منى فقال : لو أن وليا من أولياء الله تعالى أمر هذا الجبل أن يميد لماد ، فتحرك الجبل ؛ فقال له : أسكن ، لم أُرِدْك بهذا ؛ فسكن الجبل ، ويُحكى عن السرىّ السقطى أن الدنيا كانت تأتى له على هيئة عجوز فتكنس بيته ، وتحمل إليه فى كل يوم رغيفين ؟ وعن بعضهم أنه ماتَ وهو فى مركب فَجُهِّز ، وأريد إلقاؤه فى البحر ، فجفَّ البحر ، ونزلت السفينة ، فحفروا له القبر ودفنوه ، فلما فرغوا استوى الماء وارتفع المركب ؛ وكثيراً ما يذكر أن الخضر يظهر للأولياء ، ولا يزال الخضر إلى اليوم موئل الدراويش[١] .

ويحكى ابن حزم[٢] عن بعض نوكَى الصوفية أنهم « زعموا أن الخضر و إلياس عليهما السلام حيّان إلى اليوم ، وادعى بعضهم أنه يلقى إلياس فى الفلوات ؛ والخضر فى المروج والرياض ، وأنه متى ذُكر حضر على ذاكره » . وقد تظهر كرامات الولى بعد فوات عصره ؛ فيحكى القشيرى مثلا أن مما شاهده من أحوال أبى على الدقّاق أنه كان به علة حرقة البول ؛ وكان يقوم فى الساعة غير مرة ، وربما كان يجدّد لركعتى فرض أكثر من مرة ؛ ولكنه كان إذا قعد على رأس الكرسى يتكلم لا يحتاج إلى الطهارة ولو امتدّ به المجلس زماناً طويلا ، ثم يقول القشيرى : « ولم يقع لنا فى حياته أن هذا شىء ناقض لعادته ، وإنما وَقَع لى هذا وفُتح علىّ علمُه بعد وفاته » ؛ وذلك لأن أحوال الولى تكون مستورةً[٣] .

---

(١) انظر باب الكرامات فى رسالة القشيرى . (المترجم)
(٢) الفصل ج ٤ ص ١٨٠ .
(٣) القشيرى ص ١٧٧ .

على أننـا لا نجد أنه قد وقع على أيدى المسلمين فى ذلك العهد ما كان يقع على أيدى أصحاب الخوارق النصارى من إحياء الموتى[١] ؛ أما المسلمون لم يصلوا إلا إلى قيام الحيوانات بعد موتها على أيديهم[٢] . ولم يكن يتعلق بالخوارق والكرامات إلا عوامُّ الصوفيـة ؛ أما الخاصة الكاملون فكانوا لا يجعلون لها شأناً بالنسبة إلى الأمور النفسية . فيُحكى أنه قيل لأبى محمد عبـد الله بن محمد المرتعش المتوفى عام ٣٢٨ هـ — ٩٤٠م إن فلاناً يمشى على المـاء فقال : « عندى أن من مكنّه الله تعالى من مخالفة هواه فهو أعظم من المشى فى الهواء »[٣] . وحُكى عن بعض الصوفية أنه قال : كان فى نفسى شىء من هذه الكرامات ، فأخذت قصبة من الصبيان وقت بين زورقين ، ثم قلت : وعزتك لئن لم تخرج لى سمكة فيها ثلاثة أرطال لأغرقنّ نفسى ، قال : فخرجت لى سمكة فيهـا ثلاثة أرطال ، فبلغ ذلك الجنيد فقال : كان حكمه أن تخرج له أفعى تلدغه[٤] . ويحكى عن أبى يزيد البسطامى المتوفى عام ٢٦١ هـ — ٨٧٤ م أنه قيـل له : فلان يمشى فى ليلة إلى مكة ، فقال : الشـيطان يمشى فى ساعة من المشرق إلى المغرب فى لعنة الله ؛ وقيـل له : فلان يمشى على الماء ، ويطير فى الهواء ، فقال : الطير يطير فى الهواء والسمك يمرّ على المـاء ؛ وكان أبو سهل التسترى (المتوفى عام ٢٧٣ هـ أو ٢٨٣ هـ — ٨٨٦ م أو ٨٩٦ م) لا يعتدّ بإظهار الكرامات ، فكان جزاؤه أن أضيفت إليه كرامات . ويحكى عنـه أنه قال : أكبر الكرامات أن تُبدِّل خلقاً مذموماً من أخلاقك[٥] . وجاء رجل إلى سهل ، وقال له : إن الناس

---

(١) انظر مثلا Michael Syrus, s. 560 ff .

(٢) القشيرى ص ٧٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٦ .

(٤) نفس المصدر ص ١٦٣ .

(٥) نفس المصدر ص ١٦٣ .

يقولون إنك تمشي على الماء ؟ فقال : سل مؤذن المحلة ، فإنه رجل صالح لا يكذب قال : فسألته ، فقال المؤذن : لا أدرى هذا ، ولكنه نزل الحوض فى بعض الأيام ليتطهر فوقع فى الماء ، فلو لم أكن أنا لبقى فيه ؟ يقول القشيرى : « قال الأستاذ أبو على الدقاق إن سهلا كان بتلك الحالة التى وصف ، ولكن الله تعالى يريد أن يستر أولياءه ، فأجرى ما وقع من حديث المؤذن والحوض ستراً لحال سهل ، وكان سهل صاحب الكرامات »[1] ، وقد ذهب بعض العلماء الذين هم أئمة وحجة عند الصوفية إلى أن المعجزات دلالات صدق الأنبياء ، ودليل النبوة لا يوجد مع غير النبى ؛ وإلى أن الأولياء لهم كرامات شبه إجابة الدعوة ؛ فأما جنس ما هو معجزة للأنبياء فلا . وذهب بعضهم إلى أن المعجزات دلالات الصدق لصاحبها ، فإن ادعى النبوة دلت على صدقه فى مقالته ، وإن أشار إلى الولاية دلت المعجزة على صدقه فى حاله ، فتسمى كرامة ، ولا تسمى معجزة ، وإن كانت من جنس المعجزات للفرق ، وكان يقول : « من الفرق بين المعجزات والكرامات أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهارها ، والولى يجب عليه سترها وإخفاؤها ؛ والنبى صلى الله عليه وسلم يدعى ذلك ويقطع القول به ؛ والولى لا يدعيها ولا يقطع بكرامته لجواز أن يكون ذلك مكرا »[2] ، وكذلك اختلفت الآراء فى الولى : هل يجوز أن يعلم أنه ولى أم لا ؟ فذهب البعض إلى أنه لا يجوز ذلك ؛ « لأنه يسلبه الخوف ، ويوجب له الأمن » ؛ وذهب غيره إلى جوازه عند بعض الأولياء دون بعض[3] . ويحكى عن السرى السقطى شيخ التصوف أنه قال : لو أن واحداً دخل بستاناً فيه أشجار كثيرة ، وعلى كل شجرة طير يقول له بلسان فصيح :

---

(١) نفس المصدر ص ١٧٢ .

(٢) القشيرى ص ١٥٨ — ١٦٠ ، ومن الفوارق الأخرى بين النبى والولى أن النبى يكون معصوماً على خلاف الولى (انظر كشف المحجوب ص ٢٠) والقشيرى ص ١٦٠ .

(٣) القشيرى ص ١٠٩ .

السلام عليك يا ولىّ الله ؛ فلو لم يَخَفْ أنه مكرٌ لـكان ممكورا[١] . والذى على أن تعظيم الأوليـاء رغم انتشاره كان إلى حد كبير شأن المتصوفة والعامة كتب العلماء والأدباء ، فلسنا نجد من علماء الجغرافية فى القرن الرابع من يتكلم عن ولىّ من الأولياء ، ولا نجد شاعراً يذكر أحداً منهم .

وأخيراً فإن المذهب الصوفى أنشأ اعتقاداً كانت له قوة كبيرة جدا من الناحية الدينيـة ؛ لأنه كان يشبع حاجة للتقديس موجودة قبل عهد الإسلام : فقد رفع هذا الاعتقاد محمداً إلى درجة فوق درجة الإنســان ، حتى أوشك أن يرفعه إلى درجة الألوهيـة . أما المسلمون الأولون فقد كانوا معتدلين مقتصدين ؛ فيُحكى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه دخل على حبيبه وهاديه النبى صلى الله عليـه وسلم وهو مسجّى ، فقبّله ؛ ثم بكى وقال : بأبى أنت وأمى يا نبىّ الله ، لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التى كتبت عليك فقد مُتَّها[٢] .

أما الحلاج ، فأنه — وإن كان يعظم قدر عيسى عليه السلام — يجعل فى الفصل الأول من كتاب الطواسين مايشبه أنشودة حماسية عن النبى محمد : « طس سراج من نور الغيب بدا وعاد ، وجاوز السراج وساد ، قمر تجلّى من بين الأقمار ، برجُه فى فلك الأسرار ، سمّاه الحق أمّيًّا لجمع همته ، وحرميا لعظم نعمتـه ، ومكيًّا لتمكينه عند قربه ، شرح صدره ، ورفع قدره ، وأوجب أمره ، فأظهر بدره . طلع بدره من غمامة اليمامة ، وأشرقت شمسه من ناحية تهامة ، وأضاء سراجه من معدن الكرامة ، ما أخبر إلا عن بصيرته ... « والذين آتينـاهم الـكتاب يعرفونه كما يعرفون أبنـاءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » . أنوار النبوة[٣]

---

(١) نفس المصدر ص ١٦٠ .
(٢) صحيح البخارى باب الجنائز .
(٣) يقول متز إن هذا التعبير تعبير غنوسطى .

من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، همّتُه سبقت الهمم ، ووجودُه سبق العدم ، واسمه سبق القلم ، لأنه كان قبل الأمم . . . وهو سيد البريّة الذى اسمه أحمد ، ونعته أوحد ، كان مشهوراً قبل الحوادث والكوائن والأكوان ، ولم يزل مذكوراً قبل القبل و بعد البعد ، هو الذى جلا الصدأ عن الصدر المغلول ، هو الذى أتى بكلام قديم لا محدث ولا مقول ولا مفعول . . . فوقه غمامة برقت ، وتحته برقة لمعت ، وأشرقت وأمطرت وأثمرت ، العلوم كلها قطرة من بحره ، الحِكَم كلها غرفة من نهره ، الأزمان كلها ساعة من دهره ، هو الأول فى الوصلة ، هو الآخر فى النبوة ، والباطن بالحقيقة ، والظاهر بالمعرفة ، خرج عن ميم محمد وما دخل فى حاية أحد »[1] .

بهذه الأصول الثلاثة الكبرى ، وهى ماسمّى بالاستسلام ، ثم تعظيم الاولياء ، والغلو فى تعظيم النبى محمد (عليه الصلاة والسلام) رسم الصوفية فى القرنين الثالث والرابع للهجرة للحركاتِ الإسلامية الاتجاهات الكبرى التى سارت عليها والتى بقيت إلى اليوم . ولكن التصوف لم يكن يضمن للناس اليقين بالفوز بالنجاة فى الآخرة ، كما أنه لم يكن يحقق لهم تبديد ما يساورهم من المخاوف والشكوك فيما يتعلق بحسن الخاتمة ، فيحكى أن أبا طالب المكى — وكان من أكابر الزهاد المتعبدين وصاحب كتاب فى التصوف — لما حضرته الوفاة عام ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م قال لأحد أصحابه : إذا علمتَ أنه قد خُتم لى بخير ، فانثر علىّ سكرا ولوزا إذا خرجت جنازتى ، وقل : هذا للحاذق ! فقال صاحبه : من أين أعلم ؟ فقال : خذ بيدى وقت وفاتى ، فإذا أنا قبضت بيدى على يدك ، فاعلم أنه قد ختم الله بالخير ، و إذا أنا لم أقبض على

---

(١) كتاب الطواسين ص ٩ — ١١ . وكذلك القول بالوجود السابق أصله من مذاهب الفنوسطيين . وقد أصلحت هنا بعض الآراء لتطابق النصوص التى يرجع إليها المؤلف وفيما يتعلق بسيدنا عيسى عليه السلام ، انظر ما يلى . (المترجم)

يدك وسيَّبت يدك من يدى فاعلم أنه لم يُختم لى بخير. فقعدت عنده فلما كان عند وفاته قبض على يدى قبضاً شديداً ، فلما أخرجت جنازته نثرت عليه سكراً ولوزاً ، وقلت : هذا الحاذق ، كما أمرنى[1] . ويحكى مثل هـذا عن الإمام أبى الحسن الماوردى المتوفى عام ٤٥٠ هـ — ١٠٥٨ م ؛ فقد قيل « إنه لم يظهر شيئاً من تصانيفه فى حياته ، وجمعها فى موضع ، فلما دنت وفاته قال لمن يثق به ، الكتب التى فى المكان الفلانى كلها تصنيفى وإنما لم أظهرها لأنى لم أجد نيةً خالصة ، فإذا عاينت الموت ، ووقعت فى النزع ، فاجعل يدك فى يدى فإن قبضت عليها وعصرتها فاعلم أنه لم يقبل منى شىء منها ، فاعمد إلى الكتب وألقها فى دجلة ، وإن بسطت يدى ولم أقبض على يدك فاعلم أنها قد قبلت وأنى قد ظفرت بما كنت أرجوه من النية . قال ذلك الشخص . فلما قارب الموت وضعت يدى فى يده فبسطها ولم يقبض على يدى فعلمت أنها علامة القبول فأظهرتُ كتبه من بعده وعليها خطه »[2] ومما يقرؤه الإنسان مع التأثر أنه فى أواخر التراجم الغريبة التى تكتب الأولياء يُذكر أن الولىّ يعرض فى المنام لأحد أصحابه أو تلاميذه وعليه ملابس تُدل على ما ناله من الرحمة الإلهية والفضل ، وأن أصحابه يسألونه متلهفين عن الشىء الذى نال به السعادة والقبول . وكان أكبر شىء يضمن للإنسان الجنة عند المسلمين هو أن يستشهد الإنسان وهو يقاتل الكافرين . وقد فطن الإمبراطور نقفور — وهو أكبر عدو للإسلام فى القرن الرابع الهجرى — لقيمة هـذه المسألة من الناحية الحربية ؛ فأراد أن يعلن أن كل من يموتون فى الحرب مع المسلمين ، فهم شهداء ، ولكن الكنيسة كانت ساخطة على نقفور لأسباب مالية فلم تُجبْه إلى ذلك[3] .

---

(١) المنتظم لابن الجوزى ص ١٣٩ ب .

(٢) طبقات السبكى ج ٣ ص ٣٠٣ — ٣٠٤ .

(٣) Krumbacher, Geschichte der byz Literature, 2, s 985 .

على أن حركة التصوف قد خرجت كثيراً فى بعض صورها الأخرى عن حدود المبادئ الإسلامية ، وهذا هو الذى يجعلها فرعاً غير أوروبى له مميزاته الشرقية الخاصة ، فلم يكتف المتصوفون بأن يجعلوا للإحساسات صبغة إلٰهية ، بل هم أرادوا فوق ذلك أن يجعلوا للإرادة الإنسانية هذه الصبغة ، وأن يدّعوا لهذه الإرادة الإلٰهية فى زعمهم — بناء على ذلك — القدرةَ الإلٰهية على كل شىء ، وبهذه المذاهب عرّضوا هدوء الدولة وسكينتها لأكبر الأخطار ، وازدادت قائمة الزنادقة حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م زيادة كبيرة ملحوظة .

فى عام ٣٠٩ هـ — ٩٢١ م قُتل الحسين بن منصور الحلاج قتلةً شنيعة ، فضُرب ألف سوط ، وقطعت يداه ورجلاه ، وأحرق بالنار[1] . ويقول البيرونى[2] إنه رجل متصوف من أهل فارس ؛ ويقول صاحب الفهرست إنه كان يظهر مذاهب الشيعة للملوك ومذاهب الصوفية للعامة[3] . ويحكى أنه كان يصلى فى كل يوم أربعمائة ركعة[4] . ويذكر ابن النديم بعد وفاة الحلاج بست وستين سنة سبعة وأربعين من مصنفاته[5] ، وقد نشر الأستاذ ماسينيون أحد هذه الكتب وعلّق عليه ، وقد استطاع الحلاج أن يعبّر عن النكت الدقيقة فى

---

(١) انظر آخر ما كتب عن الحلاج عند Schreiner, ZDMG, 52, s. 468 ff ؛ وعريب القرطبى طبعة دى غوى ص ٨٦ وما بعدها ؛ وأهم ما يرجع إليه كتاب الطواسين للحلاج (طبعة باريس ١٩١٣) ، ومقالة أنا الحق فى مجلة Der Islam, III, 248 ff. .

(٢) الآثار الباقية ص ٢١١ .

(٣) كتاب الفهرست ص ١٩٠ .

(٤) كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ٣٠٣ .

(٥) كتاب الفهرست ص ١٩٢ وما ذكره الأستاذ ماسينيون فى كتاب الطواسين . ويقول البيرونى فى الآثار الباقية (ص ٢١٢) إن الحلاج صنف كتباً فى دعواه مثل كتاب نور الأصل وكتاب جم الأصغر وكتاب جم الأكبر . ويذكر السبكى فى الطبقات (ج ٣ ص ٦١) أنه كان بين كتب عبد الرحمن السلمى (مؤرخ الصوفية المتوفى عام ٤١٢ هـ — ١٠٢١ م) كتاب للحلاج يسمى الصيهور فى نقض الدهور ، وكان هذا الكتاب « مجلدة صغيرة مربعة فيها أشعاره » .

تفكيره ، وعما كان فى مذهبه من نزعة قوية إلى القول بوحدة الوجود تعبيراً أدبيا يتجلى فيه الحذق والمهارة المدهشة ؛ ولم تكن هذه القدرة بنت أمسها ، بل هى تنم عن نسبها وصلاتها بمذاهب الغنوسطيين ؛ وتذكرنا أيضاً فى كثير من الأحيان بأجمل القطع فى أناشيد الغنوسطيين ؛ أما طريقة الحلاج فهى من كل وجوهها طريقة المعتزلة ، فقد أخذ عنهم فكرة تنزيه الذات الإلهية عن جميع الصفات الإنسانية وجميع الأوصاف المتغيرة — كما أخذ عنهم تسمية الذات الإلهية باسم الحق — وتلك الفكرة هى آخر ما يصل إليه الإنسان بطريق التنزيه. ولكننا إذا وجدنا الحلاج يميز بين اللاهوت والناسوت فى الذات الإلهية — وهما كلمتان غريبتان عن الإسلام يرجع أصلهما إلى النزاع الذى قام بين النصارى فى الشام حول طبيعة المسيح — ؛ وإذا وجدنا عنده القول بأن الله سيحكم بين الناس يوم القيامة بصورة الناسوتية[1] . وأنه ظهر قبل إيجاده للخلق أولا فى صورة الإنسان[2] وهذا يشبه الإنسان القديم (المسمى عند اليونان proön anthrôpos فى مذهب الغنوسطيين انظر مثلا Hilgenfeld, Ketzergeschichte, 294 ، ثم إذا وجدنا أنه يقول إن الله بدا لخلقه ظاهراً فى صورة الآكل والشارب حتى يعاينه خلقه « كلحظة الحاجب بالحاجب »[3] فإننا نجد أنفسنا وسط ذلك العالم الغريب الذى كان للغنوسطيين المسيحيين وهو الذى كان من ناحيته مجرد صورة معلومة للأساطير القديمة. ونستطيع أن نلاحظ صلة النسب والشبه بين ما ذهب إليه

(١) كتاب الطواسين ص ١٣١ .
(٢) نفس المصدر ص ١٣٠ .
(٣) قال الحلاج (الطواسين ص ١٣٠) :

سبحان من أظهر ناسوته ... سرّ سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا فى خلقه ظاهراً ... فى صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجب

الحلاج وبين مذهب الغنوسطيين حتى فى التفاصيل . فمثلا يقول باسيليدس Basilides des Irenaeus إن الأب تصدر عنه الكلمة logos ثم الحكمة Phronesis ثم القدرة Dynamis ثم العلم Sophia[(١)] وكذلك نجد الحلاج يتكلم فى طاسين المشيئة عن أربع دوائر : الأولى مشيئته ، والثانية حكمته ، والثالثة قدرته ، والرابعة معلوماته وأزليته[(٢)] . فطريقة التمثيل بالدوائر وهى التى وجدها Celsus عند الغنوسطيين ، نجدها أيضاً عند الحلاج فى كتابه الوحيد الذى نعرفه إلى اليوم ، ونجدها أيضاً فى مصنفات الدروز كما هو معلوم جيداً ، ويمثل العقل عند الغنوسطيين بالشكل المثلّث[(٣)] ، وفى كتاب الطواسين يمثل الفهم بالمستطيل (ص ٣١) . ولما كُبست دار أحد أصحاب الحلاج وجدت فيها دفاتر كثيرة مكتوبة على ورق صينى، وبعضها مكتوبة بماء الذهب ومبطنة بالديباج والحرير ومجلدة بالأدم الجيد[(٤)] . وكانت هذه أيضاً من عادات الغنوسطيين فى العناية بكتبهم . وكان المانية أيضاً يزيّنون كتبهم الدينية بالذهب والفضة[(٥)] . وكذلك نجد ما كان عند الغنوسطيين من تنسّك الناس وتطهرهم مجتمعين ، ومن بيان مراتب التصفية من الطبيعة البشرية ، ويصرّح الحلاج بأن عيسى (عليه السلام) هو المثل الأعلى الذى ينتهى إليه الإنسان بالتصفية . وقد بيّن الأصطخرى[(٦)] أحد معاصرى الحلاج للمتأخرين مذهبه بقوله : « الحسين بن منصور المعروف بالحلاج من أهل البيضاء ؛ وكان رجلا حلاجاً ينتحل النسك ؛ فما

---

(١) Hilgenfeld, s. 199 .

(٢) كتاب الطواسين ص ٥٦ .

(٣) Hilgenfeld, s. 278 .

(٤) عريب ص ٩٠ نقلا عن مسكويه .

(٥) المنتظم لابن الجوزى ص ٢٢ب .

(٦) ص ١٤٨ — ١٤٩ .

زال يرتقي به طبقا عن طبق حتى انتهى به الحال إلى أن زعم أن من هذّب في الطاعة نفسه ، وأشغل بالأعمال الصالحة قلبه ، وصبر على مفارقة اللذات ، وملك نفسه في منع الشهوات ، ارتقى به إلى مقام المقربين ، ثم لا يزال يتنزّل في درج المصافاة حتى يصفو عن البشرية طبعه ، فإذا لم يبق فيه من البشرية نصيب حل فيه روح الله الذي كان منه عيسى ابن مريم ، فيصير مطاعاً فلا يريد شيئاً إلا كان من كل ما ينفذ فيه أمر الله ، وأن جميع فعله حينئذ فعل الله ، وجميع أمره أمر الله » .

ويقول الحلاج نفسه :

مُزجت روحُك في روحي كما ... تُمزج الخمرةُ بالماء الزُّلال
فإذا مسّك شيء مسّني ... فإذا أنت أنا في كل حال[1]

ويقول :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته ... وإذا أبصرته أبصرتنا[2]

وقد مثّل الوصول إلى الحقيقة تمثيلا جميلا فريدا ؛ فهو يقول في طاسين الفهم[3] : « أفهام الخلائق لا تتعلق بالحقيقة ، والحقيقة لا تتعلق بالخليقة ؛ الخواطر علائق ، وعلائق الخلائق لا تصل إلى الحقائق ؛ والإدراك إلى علم الحقيقة صعب ، فكيف إلى حقيقة الحقيقة ؛ الحق وراء الحقيقة ، والحقيقة دون الحق ؛ الفراش يطير حول المصباح إلى الصباح ، ويعود إلى الأشكال ، فيخبرهم عن الحال بألطف المقال ، ثم يمرح بالدلال طمعا في الوصول إلى الكمال ، صورة المصباح علم الحقيقة ،

---

(١) كتاب الطواسين ص ١٣٤ .

(٢) نفس المصدر ص ١٣٤ ، ومن العجيب أننا لا نجد هذه الصورة في كتاب الطواسين ، ولابد أن يكون مذهب الحلاج قد نشأ أطواراً في أوقات متباينة .

(٣) كتاب الطواسين ص ١٦ — ١٧ .

وحرارته حقيقة الحقيقة ، والوصول إليه حق الحقيقة ؛ لم يرض بضوئه وحرارته فيلقى جملته فيه ؛ والأشكال ينتظرون قدومه فيحذرهم عن النظر حين لم يرض بالخبر ، فحينئذ يصير متلاشيا متصاغراً متطائراً فيبقى بلا رسم وجسم واسم ووسم ، فلأى معنى يعود إلى الأشكال ، وبأى حال بعد ما حاز ! صار من وصل إلى النظر استغنى عن الخبر ، ومن وصل إلى المنظور استغنى عن النظر » .

ويقول[1] :

أنت بين الشغاف والقلب تجرى ... مثلَ جرى الدموع من أجفانى
وتحل الضمير جوف فؤادى ... كحلول الأرواح فى الأبدان

على أن الصولى فى كلامه عن الحلاج مراراً يقول إنه رجل جاهل يتعاقل ؛ ولكن الأصطخرى يقول إنه استمال جماعة من الوزراء وطبقات من حاشية السلطان وأمراء الأمصار وملوك العراق والجزيرة وما والاها[2] . وقد اتهم نصرُ الحاجب بوجه خاص ومع عظم شأنه بالميل إليه ، وكذلك استحضر الوزير بعض القضاة والفقهاء واستفتاهم فى أمره فذكروا أنهم لا يُفتون بقتله ، ومكث الحلاج محبوساً فى دار الخلافة ثمانية أعوام موسّعاً عليه . وتشعرنا أخباره بأن الدسائس هى التى كانت سببا فى قتله . وأغلب ما انتهى إلينا من أخبار الحلاج إنما ذكره خصومه ، ويؤخذ من هذه الأخبار بوضوح أن الحلاج قد أثر فى كبراء أهل بغداد تأثيرا

---

(١) نفس المصدر ص ١٣٣ . وقد ذكر عريب القرطبي (ص ٩٨) أبياتاً للحلاج .

كل بلاء علىّ منّى ... فليتنى قد أخذت عنى
أردت منى اختيار سرّى ... وقد علمتَ المراد منى
وليس لى فى سواك حظ ... فكيفما شئت فاختبرنى

(٢) الأصطخرى ص ١٣٩ ؛ ويقول ابن حوقل إنه كان فى أول أمره داعياً من دعاة الفاطميين ويقول صاحب الفهرست (ص ١٩٠) إنه كان فى أول أمره يدعو إلى الرضا من آل محمد (المترجم) .

قويا نادر المثال ، ويدل على عظم شأنه أن كلاً من الذهبي وابن الجوزى كتب عنه كتابا خاصا ؛ ولكن يظهر أن هذين الكتابين قد فقدا مع الأسف ، ولم ينل هذا الشرف — أعنى تخصيص كتاب فى حياة رجل — إلا القليلون بين رجال الإسلام .

وقد أثر الحلاج فى علوم الدين عند المتصوفة أثرا كبيرا ؛ ورغم قتله فإن كثيرين من تلاميذه حملوا مذهبه من بعده ، وخصوصا فرقة السالمية . ويحدثنا الحجويرى فى القرن الخامس الهجرى أنه رأى بالعراق أربعة آلاف يسمون أنفسهم الحلاجية[١] . ويصرح الحجويرى نفسه بعطفه على الحلاج ويقول إنه لم ينكر فضله وصفاء حاله وكثرة اجتهاده ورياضته إلا فئة قليلة من مشايخ الصوفية[٢] ؛ وكان لا يزال فى عصر أبى العلاء المتوفى عام ٤٤٩ هـ — ١٠٥٧ م قوم فى بغداد ينتظرون خروجه ، ويقفون بحيث صُلب على دجلة يتوقعون ظهوره[٣] .

وكانت المذاهب المسيحية أيضا هى الأصل التى نشأت منه جميع الآراء الأخرى التى جاء بها زنادقة ذلك العصر ؛ فمثلا ذهب منصور المجلى الملقب بالكِسف — لأنه كان يزعم أنه المقصود بقوله تعالى وإنْ يَرَوْا كِسفًا من السماء ساقطا — إلى أن أول من خلق الله عيسى ابن مريم (عليهما السلام) ثم خلق بعده عليا[٤] . وكذلك ادعى الشلمغانى المعروف بابن أبى العزاقر ، وهو من قرية من قرى واسط ، أن روح الله حل فيه[٥] . وقد تقدَّم أمير المؤمنين عام ٣٢٢ هـ إلى

---

(١) كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ٢٦٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٥٠ وما بعدها .

(٣) رسالة الغفران فى مجلة الجمعية الآسيوية الملكية JRAS, 1902, S. 833 .

(٤) الفصل ج ٤ ص ١٨٥ .

(٥) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ . وقد ذكر شرينر (Schreiner) المراجع فى ذلك (ص ٤٧٢) . ولم يذكر ابن حوقل شيئاً . وأول من ذكرها ياقوت فى كتابه المسمى إرشاد الأريب (ج ١ ص ٢٩٦) ويقول ياقوت إنه قرأ بمدينة مرو رسالة كتبت ببغداد عن =

الوزير أبي على بن مُقْلة ليكشف أمر الشلمغانى وأمر صاحبيه ، فتجرد لذلك وحقق أمرهم وطلب من الرجلين التبرؤ من ابن أبى العزاقر ونَيْلَه بمهانة يَصْغُر بها قدره ، فأما أحدهما فصفعه مرة ، وأما الآخر فإنه أرعد وأظهر خوفا من ذلك واستعصى إلى أن لم يجد محيصا ، فمدّ يده إلى لحيته على سبيل توقير وتكريم وقال معلنا غير مخافت : مولاى مولاى ؟ فجُلدا وقُتلا وصلبا ، وأحرقت أجسامهما . وكان الشلمغانى يقول إن الله يحل فى كل شىء على قدر ما يحتمل ، وإنه خلق الضد ليدل به على مضدوده ، فآدم وإبليس كلاهما يدل على صاحبه لمضادته إياه فى معناه ، والدليل على الحق أفضل من الحق ، والضد أقرب إلى الشىء من شبيهه ، وكان يقول إن اللاهوتية اجتمعت فى آدم وإبليس ، وكذلك فى إبراهيم وإبليسه نمرود ، وفى هارون وإبليسه فرعون ، وفى داود وإبليسه جالوت ، وكذلك فى عيسى وإبليسه ، ثم فى تلاميذه كلهم ، وكان المسعودى يعد الشلمغانى من الشيعة[1] ، على أن هذا الرجل وإن كان يقول إن اللاهوتية اجتمعت فى علىّ وإبليسه قبل أن تجتمع فى شخصه هو ، فهو لا ينسب الحسن والحسين رضى الله عنهما إلى على رضى الله عنه ، وكان يقول : « من اجتمعت له اللاهوتية لم يكن له والد ولا ولد » . وكان الشلمغانى يقول إنه قبل اجتماع اللاهوتية فى على وإبليسه اجتمعت فى عيسى وإبليسه ثم فى تلاميذه كلهم . أما موسى ومحمد عليهما السلام فيسمون عند الشلمغانية الخائنين ، لأنهم يدعون أن هارون أرسل موسى وعليا أرسل محمدا فخاناهما ، وزعم الشلمغانى أن عليا رضى الله عنه أعطى محمدا عليه السلام مهلة قدرها المدة التى لبثها أهل الكهف فى كهفهم ؛ وبعدها تبطل الشريعة المحمدية ، وفى عصر الشلمغانى كانت

= أمير المؤمنين الراضى إلى أبى الحسين نصر بن أحمد السامانى بقتل العزاقرى وقد ذكر ياقوت قطعة من هذا الخطاب .

(١) التنبيه للمسعودى ص ٣٩٦ — ٣٩٧ .

هذه المدة قد قاربت نهايتها ، وكذلك أوّلَ الشلمغانية القرآنَ عن معانيه الظاهرة فقالوا إن معنى الجنة معرفتهم وانتحال مذهبهم ، ومعنى النار الجهل بهم والصدود عن مذهبهم ، وكانوا يغتفرون ترك الصلاة والصيام والاغتسال ؛ وكانوا لا يتناكحون على السنة بل يبيحون الفروج ، ولا ينكرون أن يطلب أحدهم من صاحبه حرمته . وكانوا يرون أنه لابد للفاضل منهم أن ينكح المفضول ليولج النور فيه[١] . على أن هذه الفرقة لم تكن فرقة عوام ؛ فقد كان ابن أبي العزاقر نفسه كاتبا ببغداد ، وكان المحسّن بن الفرات له عناية به ، فاستخلفه ببغداد لجماعة من العمال ، وكذلك كان صاحبه إبراهيم بن أبي عون شاعرا وصاحب تآليف كثيرة ومشتغلا بالأدب وكان من القواد[٢] . ويقال إن الوزير الحسين بن القاسم بن عبيد الله أحد وزراء أسرة بني وهب المشهورة كان يعتقد أن أبا العزاقر إله[٣] .

أما الحركات التي منشؤها القول بظهور المهدى فكانت من نوع آخر يخالف ما تقدم كل المخالفة ، فالأشخاص الذين تكلمنا عنهم حتى الآن هم قوم كل منهم على حدته يبحث عن الله ، وقد ساروا في طريقهم على هدى علوم الدين القديمة ، وأعجب ما في أمرهم أنهم — رغم غرابة مذاهبهم — وجدوا من يصدقهم . أما الحركات المتعلقة بالمهدى فكانت منذ أول أمرها حركات سياسية تخاطب الجماهير ، فكان لها نتائج أخرى . فحوالى منتصف القرن الثالث الهجرى ظهر حمدان قرمط[٤] ، والتفت عليه العناصر الثائرة في العراق ؛ ولكن الخليفة المعتضد

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٩٦ — ٣٠٧ . ويقول الهجويرى (كشف المحجوب ص ٤١٦) إن الحلولية جعلوا حكايات الفلان وصمة ألحقوها بأولياء الله وبالمتصوفين .

(٢) الإرشاد ١٠ ص ٢٩٦ .

(٣) كتاب العيون ص ١٨٥ ب .

(٤) يظهر لى أن أصح ما قيل في بيان الأصل الذى اشتق منه هذا الاسم هو ما رجحه فولرز (Vollers) من اتصال كلمة قرمط بكلمة Grammata اليونانية ومعناها الحرف ، وذلك =

أخذ هذه الفتنة ، ولم يصبح لدعوة حمدان شأن سياسى إلا بعد انتقال هذه الفتنة إلى جزيرة العرب ، وكانت الجزيرة أكبر مركز يحتشد إليه الثوار على اختلاف أصنافهم حيث يكونون على قدم الاستعداد دائماً لاتباع قائد يسير بهم إلى أراضى الملاك الأغنياء يقتلون وينهبون .

وقد مات الخليفة المعتضد عام ٢٨٩ هـ — ٩٠١ م ، وهو الخليفة القدير المحنّك ، وفى نفسه حسرة من القرامطة ، فكان فى مرضه يتلهف ويتمنى أن يبلغ منهم قبل موته ما يريد[1] . وقد أتاح القدر لهم قائدين عظيمين عرفا كيف ينظمان ما فى جزيرة العرب من قوى خشنة ويقودانها فى أكبر ثورة شهدتها الجزيرة منذ أيام الإسلام الأولى ؛ فحوالى أواخر القرن الثالث الهجرى خرب القرامطة الشام تخريباً شديداً ، وفى أوائل القرن الثالث امتدت غاراتهم إلى العراق ففتحوا البصرة والكوفة ، وأعملوا فيهما النهب ، وألقوا الرعب فى بغداد ، وقطعوا الطريق بين مكة والمشرق . وفى عام ٣١٦ هـ — ٩٢٨م شنوا غاراتهم متفرقة تقوم بها العصابات من صحراء الشام إلى جبال سنجار[2] . وفى عام ٣١٧ هـ — ٩٢٩ م بلغ الحجاج مكة من غير أن يصيبهم أذى ، ولكن وافاهم بعد ذلك فى مكة يوم التروية أبو طاهر القرمطى فى عدد قليل يدهشنا لقلته — اذ كان معه ستمائة فارس وتسعمائة راجل — فافتتح مكة ، ونهب هو وأصحابه أموال الحجاج ، وقتلوهم حتى فى المسجد الحرام وفى البيت نفسه ، وقلع باب البيت ، وقلع الحجر الأسود ، وأنفذه إلى هجر ، وأخذ كسوة البيت ففرقها بين أصحابه ، ونهب دور

= لأن هذا الافتراض يجد ما يؤيده فى لغة المُكدّين بالعراق فى القرن الرابع الهجرى . وقد جاءت كلمة قرمط فى قصيدة أبى دلف فى الكدْية (يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٨٤) بمعنى الرجل الذى يكتب التعاويذ بالدقيق والجليل من الخط .

(١) الاتعاظ للمقريزى طبعة بونتز ص ١١١ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣٢ — ١٣٣ ؛ وعريب ص ١٢٤ .

أهل مكة . ولم ينهض لمقاومة هؤلاء المغيرين إلا البـدو الذين
فأما أهل مكة فقد شاركوا المغيرين فى نهب بلدهم الحرام . على أن هذا الحادث
لم يؤثر فى أهل ذلك العصر ما كنا ننتظر له من أثر ، ولم ينظر إليه بعين السخط
الشديد إلا أهلُ الأجيال التالية . أما ذلك العصر فكان فيه كثيرون لا يعنيهم
أمر الدين ، ومن جهة أخرى فإن المتصوفة الذين صاروا يتجمعون حول شيوخهم
كانوا يرون فى ذلك شيئاً أعظم من الحجر الأسود ؛ بل يظهر أن المسلمين المتمسكين
بأصول الإسلام كانوا يعظمون هـذا الحجر من غير أن تطمئن قلوبهم لذلك تمام
الاطمئنان . وكان هذا الحادث منتهى ما وصلت إليه فتنة القرامطة وثورتهم . وبعد
ذلك أغاروا على المشرق ينهبون حتى بلغوا فارس ؛ وقد ألقوا الرعب فى الصحراء
حتى أشفق الناس من اجتيازها ؛ وكثيراً ما كان أهل بغداد يغلقون أسواقهم خوفاً
منهم ؛ ولـكن الخليفة استطاع بسياسته أن يشل حركتهم ، فدخل جنود
القرامطة فى خدمة الخلفاء . وفى سنة ٣٢٧ هـ — ٩٣٨ م كاتب أبو على عمر بن
يحيى العلوى القرامطة . وكانوا يخشونه لشجاعتـه وكرمه وسألهم أن يؤمّنوا
الحاجّ ويعطيهم عن كل حمل مكساً عينه لهم ، فرضوا بذلك . وفى سـنة
٣٣٩ هـ — ٩٥٠ م رد القرامطة الحجر الأسود إلى مكة ؛ وقد استطاع جمل
نحيل أن يحمله ، وقد سمن بحمله له ؛ على حين أنه قبل ذلك باثنتى عشرة سنة
وقع تحته ثلاثة جمال أقوياء . ولم ينته ما أصاب الحجر الأسود عند هـذا الحد ؛
ففى عام ٤١٣ هـ — ١٠٢٢ م عمد أحـد الحجاج المصريين — وفى رأى بعض
المؤرخين أنه من الجهال الذين استغواهم الحاكم بأمر الله — إلى الحجر الأسود ،
فضربه بدبوس كان فى يده ضربات متوالية فكسر قطعاً منـه ؛ ولـكن
الناس عاجلوا الرجل وقتلوه ، ثم أُخذت القطع التى سقطت من الحجر وعجنت

بالمسك واللك وحشيت بها المواضع التى تقبت[1] . وفى سنة ٣٥٠ هـ سار القرامطة وهجموا على مصر والشام فساعدوا الفاطميين على قصد مصر ، ولكن أمرهم انتهى عام ٣٥٨هـ — ٩٦٨م إلى مسالمة الخليفة العباسى ببغداد ، فخطبوا له على المنابر ، وأعطاهم مالا وسلاحاً[2] . ثم أغاروا على الشام كما أغاروا عليها فى أول أمرهم ولكن كان عدوهم بها فى ذلك العهد هو حليفهم قديماً ، وهم الفاطميون . وصار القرامطة يقيمون الدعوة للخليفة العباسى فى كل بلد يفتحونه ، وسوّدوا أعلامهم ، ورجعوا عما كانوا عليه من المخرقة ، وأظهروا أنهم كأمراء النواحى الذين من قبل الخليفة العباسى[3] ؛ ولكنهم هُزموا فى الشام آخر الأمر ، وارتدّوا إلى جزيرة العرب ، على أن يدفعوا قدراً من المال فى كل عام ، وبعد ذلك ببضع سنين أخرجهم بنو بويه نهائيا من العراق ، ولم يبق لهم فى أواخر القرن الرابع إلا ولاية صغيرة على الشاطئ الشرقى للجزيرة العربية لا تستطيع قطع الطريق على الحجاج ؛ ولكن كان لها على باب البصرة ديوان لأخذ الضرائب[4] . وحتى عام ٤٤٣ هـ وجد الرحالة الفارسى ناصر خسرو عند ما زار الأحساء — عاصمتهم — أنهم كانوا يقيمون على باب البيت الذى فيه قبرُ مؤسسِ مذهبهم فرساً بسرج ولجام ، لا يغادر مكانه لا ليلا ولا نهاراً ؛ ويقولون إنه للمهدى يركبه متى ظهر[5] . ويحكى أبو العلاء المعرى عمن سافر إلى اليمن أن بها فى عهده جماعة « كلهم يزعم أنه

---

(١) المنتظم لابن الجوزى ص ٦٠ أ ، ٨١ ب ، ١٧٠ ب — ١٧١ أ .

(٢) تاريخ أبى يعلى حمزة بن القلانسى المعروف بذيل تاريخ دمشق طبع بيروت عام ١٩٠٨ ص ١ — ٢ نقلا عن الصابى .

(٣) الاتعاظ للمقريزى ص ١٣٣ .

(٤) المقدسى ص ١٣٣ .

(٥) ناصر خسرو ص ٢٢٩ من الترجمة ؛ وحكى هذا أيضاً لأبى العلاء (انظر مجلة (Jras, 1902, s. 828.

القائم المنتظر ، فلا يعدم جباية من مال يصل بها إلى خسيس الآمال»[1] . ولن نستطيع أن نعرف إلى أى حد كان تصديق الناس لدعواهم — أو رغبة هؤلاء الناس فى التكسب بهذا التصديق — سبباً فى حصول هؤلاء المدعين على من يؤمن بدعواهم ، كما لن نستطيع معرفة مقدار الإخلاص الدينى فى تلك الحركة بجملتها . على أنه ينبغى أن نلاحظ أن اليمن كانت دائماً من الأقاليم النادرة المشهورة بالروحانية فى العالم ، وأن روحها أبعد عن الروح الأوروبية من الروح المغولية ، مثلا . يقول أبو العلاء : « وما زال اليمن ، منذ كان ، معدناً للمتكسّبين بالتدين ، والمحتالين على السحت بالتزيُّن »[2] . على أن مذهب القرامطة المهديين ليس مذهباً إسلاميا حقا ، فقد كان وراء عقائدهم دائماً القول بالحلول ، كما كان الحال فى مذاهب الغنوسطيين المسيحيين . يقول ابن حزم : « ثم زادت فرقة على ما ذكرنا ، فقالت بإلٰهية محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد ، وهم القرامطة ، وفيهم من قال بإلٰهية أبى سعيد الحسن بن بهرام الجنابى وأبنائه بعده ، ومنهم من قال بإلٰهية أبى القاسم النجار القائم باليمن فى بلاد همدان المسمى بالمنصور ، وقالت طائفة منهم بإلٰهية عبيد الله ثم الولاة من ولده إلى يومنا هذا ، وقالت طائفة منهم بإلٰهية أبى الخطاب محمد بن أبى زينب مولى بنى أسد بالكوفة ، وكثر عددهم بها حتى تجاوزوا الألوف وقالوا هو إله وجعفر بن محمد إله إلا أن أبا الخطاب أكبر منه ، وكانوا يقولون جميع أولاد الحسن أبناء الله وأحباوه ، وكانوا يقولون إنهم لا يموتون ولكنهم يرفعون إلى السماء وأشبه على الناس بهذا الشيخ الذى ترون ثم قالت طائفة منهم بإلٰهية معمر بائع الحنطة بالكوفة وعبدوه ، وكان من أصحاب

---

(١) نفس المصدر عند أبى العلاء .

(٢) نفس المصدر .

أبى الخطاب لعنهم الله أجمعين »[1] . وكذلك نجد ابن أبى زكريا الطامى مهدى القرامطة قد ادعى الربوبية وسنّ شريعة فاسدة ، وهـذا بحسب رواية البيرونى على الأقل[2] .

وقد استطاع الفاطميون ، وهمْ سادة القرامطة منذ عهد طويل ، أن يستغلوا فكرة ظهور المهدى بمقدرة وتوفيق لم يتهيأ لهم من بعـد . وما أشبه الفاطميين بالنسبة للقرامطة فى تفوقهم عليهم وبلوغهم ما بلغوه من الارتفاع بهـذه الفكرة بجبال الألب السوداء فى وقوفها شامخة وراء مرتفعات «الجورا» الخضراء بسويسرة . وإن انبساط سلطان العرب على بلاد المغرب ودخول الخليفـة الفاطمى القاهرة ومعه توابيت أجداده لهو أغرب وقائع ذلك العصر المضطرب . وفى ذلك العهد كأنما « قد طلعت الشمس من مغربها » حقيقة كما قال الخليفة المعز لدين الله فى خطاب له[3] ، وإن قيام دولة الفاطميين لهو أهم الحوادث السياسية فى القرن الرابع الهجرى . ولم يكد يمضى قرن على ظهور أول مهدى لهم ؛ أعنى أنه لم تكد تأتى سنة ٣٦٠ هـ — ٩٧٠ م حتى امتد سلطان الفاطميين على إفريقية الشمالية كلها وعلى الشام ، وحتى بلغ نهر الفرات . وكان لهم « دعاة منبثون فى كل صقع وناحية »[4] ، ولقد قال الخليفة المعز لدين الله فى كتاب كتبه لأحد قواد القرامطة عام ٣٦٢ هـ — ٩١٢ م : « وما من جزيرة فى الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيـه حجج ودعاة يدعون إلينا ، ويدلون علينا ، ويأخذون بيعتنا ، ويذكرون رجعتنا ، وينشرون علمنا ، وينذرون بأسنا ، ويبشرون بأيامنا ، بتصاريف اللغات

(١) الفصل ج ٤ ص ١٨٧ ، قارن ما ذكره دى غوى فى هامش ص ١١١ من كتاب عريب القرطبى (؟) .

(٢) الآثار الباقية ص ٢١٣ .

(٣) الاتعاظ للمقريزى ص ١٤١

(٤) الفهرست ص ١٨٩ .

واختلاف الألسن »[١] . وكان القرامطة يطيعون أمرهم ، وكانت بلوخسـ تعترف لهم بالسيادة . وأقل مظاهر هذا الاعتراف ما حدثنا به ابنُ حوقل من أهل هـذه البلاد يصرحون بأنهم فى دعوة الفاطميين ، وأنهم يجمعون ببلا أموالا وذخائر كثيرة تجلّ عن الوصف ، ويقولون إنها للإمام المعز لدين الله[٢] . ولما قدم الهمذانى الأديب الشاعر حوالى عام ٣٨٠ ﻫ على جرجان فى أقصى الشمال من فارس — وكان الهمذانى رجلا يعرف دائماً أين تكون القوة الكبرى والمال الأوفر — أقام هناك مدة على مداخلة الإسماعيلية والتعيّش فى أكنافهم[٣] . على أن الفاطميين لم يأتوا بشىء جديد من الناحية الروحيـة ، وفاتهم أن الذى يحدد مدة أجل العروش هو الروح لا كثرة عدد الجنود ، فلم تكد تمضى عشرون سنة على بلوغ دعوتهم ذروتها فى أيام المعزّ حتى « تناقص أمرُ المذهب وقلّ الدعاة له حتى إنى لا أرى من الكتب المصنّفة فيه شيئاً ... ... هذا ما أعلمه فى هذه البلاد ، وقد يجوز أن يكون الأمر على حاله بنواحى الجبل وخراسان ، فأما ببلاد مصر فالأمر مشتبه ، وليس يظهر من صاحب الأمر المتملّك على الوضع شىء يدل على ما كان يُحكى من جهته وجهة آبائه »[٤] .

أما مذهب الإسماعيلية فى القرن الرابع الهجرى فلا نعرف عنه إلا القليل ، وأكبر مصدر يرجع تاريخه إلى ذلك العهد ، هو ما حكاه أخو محسّن ، وحفظه لنا النويرى والمقريزى وترجمه دى ساسى[٥] وهو كتا . طعون فى مصدره ، لأنه

---

(١) الاتعاظ للمقريزى ص ١٣٩ — ١٤١ ، وكان حاكم المشرق من قبل المهدى فى الرىّ ، وكان يخضع له الدعاة حتى دعاة العراق مثل بنى حمّاد فى الموصل (الفهرست ص ١٨٩) .

(٢) ابن حوقل ص ٢٢١ .

(٣) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٩٦ .

(٤) الفهرست ص ١٨٩ .

(٥) de Sacy : Exposé de la Religion des Druses, LXXIV ff

مأخوذ عن كتاب فى الرد على الإسماعيلية لابن رزام ؛ وقد أوجس صاحب الفهرست خيفة من النقل عن هذا الكتاب فهو يروى عنه ويقول : وأنا أبرأ من العهدة فى الصدق عنه والكذب فيه[١] ، وكذلك يعتبر المقريزى أن هذا الكتاب مزيج من الحق والباطل . أما النصوص التى نشرها جويار (Gwyard) فلا نعرف تاريخها حتى الآن ؛ ولا يكفى مجرد ذكر أسماء القدماء فيها لإثبات تاريخها ، لأن الانتحال فى الكتب كان على أشده بين جميع هذه الفرق . ونجد بين مؤلفى القرن الرابع الهجرى من يزيف الكتب المنسوبة لعبدان صاحب حمدان قرمط ، فيقول إن أكثرها منحولة إليه[٢] . على أن أهم نقطة هى التى نجدها عند الشهرستانى من أن هناك بين الإسماعيلية فى القرن الرابع الهجرى وبين متأخريهم فى القرن الخامس الهجرى بونا بعيدا ، وأننا يجب أن نفرق بين اعتقاد الخليفة المعز وبين اعتقاد « شيخ الجبل » تفرقة تامة[٣] . ومما يؤسف له أن ابن حزم يكاد يسكت عن الإسماعيلية سكوتا تاما يدعو إلى الاستغراب ، وهو يكتفى بأن يقول إنهم والقرامطة طائفتان مجاهرتان بترك الإسلام جملة ، قائلتان بالمجوسية المحضة[٤] . وكذلك سكت عنهم أبو العلاء فى رسالة الغفران ، فلم يقل إلا قليلا جدا ، ولعل وجوده على مقربة من سلطانهم هو الذى أمسك لسانه عنهم . فليس عندنا معلومات نثق بصحتها فيما يتعلق بهم إلا عند صاحب الفهرست ، وهو يذكر أنه كان عندهم سبع درجات من الأتباع — خلافا لما ذكره أخو محسن من درجات تسع — ؛

(١) الفهرست ص ١٨٧ .

(٢) الفهرست ص ١٩٧ ، ١٨٩ .

(٣) الملل والنحل للشهرستانى على هامش الفصل لابن حزم — الكلام على الإسماعيلية فى الجزء الثانى .

(٤) الفصل ج ٢ ص ١١٦ ؛ على أننا يجب ألا نأخذ هذه التسمية على ظاهرها فقد كانت كلمة المجوسية تستعمل فى ذلك العهد بمعنى الزندقة ، فيحكى القشيرى (٣٢) عن أحد الصوفية أنه وصف رأياً لم يعجبه بقوله إنه مجوسية محضة .

ولكل طبقة كتاب يتضمن ما تعرفه ويسمى بالبلاغ ، والبلاغ الأول للعامة والثانى لمن فوقهم قليلا ، أما الثالث فهو لمن دخل فى المذهب سنة ، ثم يُعطى بعد ذلك بلاغا كلما طال بقاؤه سنة أخرى . ولكن ابن النديم لم يحدّد متى يبلغ الإنسان الدرجة السابعة ، ومتى يُعطى البلاغ السابع ، واكتفى بقوله عن هذا البلاغ إنه الذى فيه نتيجة المذهب والكشف الأكبر ، وإنه قرأه فوجد فيه أمراً عظيما من إباحة المحظورات والوضع من الشرائع وأصحابها[1] ، وكانت هذه الفرقة فى ذلك العهد يستعملون التأويل حتى إن أحدهم وهو الحسين بن على القرمطى ، كان يُجرى رزقا على أبى زيد البلخى المتوفى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٣ م فلما ألف أبو زيد كتابه المسمى البحث فى التأويلات ، وأنكر فيه ما ليس بواضح مشهور من التأويل ، قطع الحسين عنه ما كان يُجريه عليه[2] . إن ما نجده عند هذه الفرق من تصوُّر الدين بأنه معرفة الله معرفة عقلية ، ومن تقسيم الناس طبقات بحسب درجتهم فى المعرفة ، ثم ما نجده فى كتب من جاء بعدهم من عناية وتدقيق فى بيان اثنينية العوالم أو كثرتها ، كل هذا يشير مرة أخرى إلى مذاهب الغنوسطيين القدماء . ويتّهم صاحب الفهرست ميموناً القداح وابنه عبد الله وهما مؤسسا مذهب الإسماعيلية بأنهما كانا ديصانيّين[3] ، ونستطيع أن نرد مذهب الإسماعيلية من حيث أجزاؤه إلى مذهب المعتزلة ، وهذا بعينه هو الذى ساعدهم على أن يضيفوا إلى مذهبهم كل ماليس عباسيا ولا سنّيّا[4] . على أن شيئا جديداً أحدثه هؤلاء

---

(١) الفهرست ص١٨٩ .

(٢) الفهرست ص ١٣٨ والإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٤٢ .

(٣) كتاب الفهرست ص١٨٧ .

(٤) وكان أكبر نجاح للفرقة عام ٢٦٠ هـ — ٨٧٥ م مقارناً لموت الحسن بن على الذى كان جمهور الشيعة يعتبرونه إماماً ، ويجلونه لذلك ، والذى مات عن غير عقب فأحدث ذلك افتراقاً وفتنا بين الشيعة (ابن حزم ج ٤ ص٩٣) .

القوم ، وهو التزام الخطة المرسومة والاشتداد فى اتباعها ؛ وللشرق فهم خاص فى ذلك ، إذا كانت الخطة لغرض دينى ، وقد استخدمها الحسين الأهوازى الداعى الفاطمى فى إدخال حمدان قرمط فى المذهب على صورة تمثل النموذج الذى احتذاه أولئك القوم فى دعوة الناس إلى رأيهم . يقول المقريزى : « لما خرج الحسين الأهوازى داعية إلى العراق لقى حمدان بن الأشعث قرمط بسواد الكوفة ، ومعه ثور ينقل عليه ، فتماشيا ساعة ، فقال حمدان للحسين : إنى أراك جئت من سفر بعيد وأنت مُعْيٍ ، فاركب ثورى هذا ؛ فقال الحسين : لم أومر بذلك ؛ فقال له حمدان : كأنك تعمل بأمر آمر لك ، قال : نعم ، قال : ومن يأمرك وينهاك ؟ ؛ قال : مالكى ومالكك ومن له الدنيا والآخرة ؛ فبُهت حمدان قرمط يفكر ؛ ثم قال : يا هذا ! ما يملك ما ذكرته إلا الله ؛ قال : صدقت ، والله يهب ملكه لمن يشاء . ثم بدأ يدعوه ، ويقول له : دُفع إلىّ جرابٌ فيه علم وسرّ من أسرار الله ؛ فقال له حمدان : يا هذا ! نشدتك الله إلا دَفعتَ إلىّ من هذا العلم الذى معك ، وأنقذتنى ينقذك الله . . . ثم أخذ عليه العهد . . . . وصار الحسين معه إلى منزله ، وأقام به . وكان الحسين على غاية ما يكون من الخشوع ، صائماً نهاره ، قائماً ليله ، فكان المغبوط من أخذه إلى منزله ليلة ، وكان يخيط لهم الثياب ويكتسب بذلك ، فكانوا يتبركون به وبخياطته »[١] . وهذه الفرقة التى أدمجت فى مذهبها كثيراً من المذاهب القديمة التى كانت فى العراق استعملت طريقة الكتابة على الطين ؛ فكان دعاة القرامطة يعطون أتباعهم خواتيم من طين أبيض مكتوب عليها مثلا : محمد بن إسماعيل الإمام المهدى ولىّ الله[٢] . ومما استحدث أيضاً فى دولة الفاطميين أنها أوجدت هيئة شبيهة بالكهنوت Klerus تعترف بهم

(١) الاتعاظ للمقريزى ص ١٠١ — ١٠٢ .
(٢) المنتظم لابن الجوزى ص ٢٩ ب

رسميا وتعطيهم أرزاقاً ، وشيء ما لم يحدث قط فى الإسلام ، وهم المسمون الدعاة الذين أصبحوا أشبه بالقسيسين Pfarrer ، ورئيسهم الأعلى الذى يشرف عليهم يُسمّى داعى الدعاة ، وهو من أكبر أصحاب المناصب[1] .

على أنه كلما زاد عدد من يدعى المهدية والألوهيــة أصبح ادعاء النبوة شيئاً قديماً لا يستهوى الأدعياء . ومنذ قرن ادعى بعض الجهال النبوة فكانوا موضعاً للتندّر والاستهزاء . وفى أخبار الخليفة المأمون أحاديث له مع كثير من المتنبئين ؛ ولا تخلو هذه الأحاديث من طرافة وتشويق . أما فى القرن الرابع فنجد بين حين وآخر من يظهر بدعوى النبوة فى إقليم من الأقاليم . ففى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م ، ظهر بباسند من أعمال الصغانيان — وهى من بلاد ما وراء النهر المشهورة بالتقى والصلاح — رجل ادعى النبوة ، فقصده فوج بعد فوج ، واتبعه خلق كثير ، وحارب من خالفه . . . وكثر أتباعه من أهل الشــاس ، وكان صاحب حيل ومخاريق ، فكان يدخل يده فى حوض ملآن بالماء ويخرجها مملوءة دنانير ، إلى نحو ذلك . ولما كثر جمْعه وخيف شرّه أنفذ إليه الحاكم جيشاً فحاربوه وضيقوا عليه وقتلوه[2] . وتنبأ رجل بمدينة أصفهان حوالى عام ٣٢٥ هـ ، فسئل عن آيته وحجته فقال : من كان منكم له زوجة حسناء أو بنت جميلة أو أخت صبيحة فليحضرها إلى أحبلها بابن فى ساعة واحدة[3] ، فقال والى الخراج أبو الحسين بن سعد : أما أنا فأشهد أنك رسول الله ، وأعفِنى من ذلك ؛ وقال له رجل : نساء

---

(١) ناصر خسرو ص ١٦٠ من الترجمة .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢١٦ .

(٣) وحكى مثل هذا عن رجل تنبأ أيام المأمون ، فوجه إلى الخليفة وقال للحاجب : أبلغ أمير المؤمنين أن نبى الله بالباب ، فأذن له ، فقال له ثمامة : ما دليل نبوتك ؟ قال تحضر لى أمك فأواقعها فتحمل من ساعتها ، وتأتى بغلام مثلك ، فقال ثمامة : صلى الله عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ذلك أهون علىّ من إحضارك أمى ومواقعتها — المحاسن والمساوى للبيهقى ص ٣٤ من الطبعة الأوربية .

ما عندنا ؛ ولكن عندي عنز حسناء ، فأحبلها إلى ، فقام يمضى ، فقيل له : إلى أين ؟ قال : أمضى إلى جبريل ، وأعرفه أن هؤلاء يريدون تيساً ولا حاجة بهم إلى نبي ؛ فضحكوا منه وأطلقوه[1] . وقد لُقِّب الشاعر أبو الطيب المتنبي المتوفى عام ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م بالمتنبي لأنه ادعى النبوة فى بادية السماوة ونواحيها ، واجتمع إليه هناك قوم من قبائل العرب ؛ وكان ابن خالويه يعيّره بهذا الاسم ، ويقول له إن المتنبي معناه الكاذب ، ومن رضى أن يدعى بالكاذب فهو جاهل . وسئل المتنبي عن تلقيبه بهذا اللقب ، فأجاب سائله بجواب مغالط وقال : هو شيء كان فى الحداثة ، أوجبته الضرورة ، فاستحى سائله أن يستقصى معه الكلام وأمسك[2] .

على أن هذا القرن لم يخل من قوم تنكبوا عن الدعوى العريضة ، وجاهدوا أنفسهم وقمعوها ، واكتفوا بأن يكونوا عابدين لله خاشعين ، لا يبتغون شيئاً فوق العبودية له ، متّبعين سنن الرعيل الأول من المسلمين . وكان من العادات المحبوبة كثيراً عند كبار المتعبدين فى ذلك العصر أن الواحد منهم لا يخرج إلا يوم الجمعة للصلاة[3] . ولقد آلى أبو العلاء المعرى الشاعر المتوفى عام ٤٤٩ م — ١٠٥٧ م على نفسه ألا يترك بيته أبداً ، مع أنه لم يكن من رجال الدين المتعبدين ؛ وكان كثير من عبّاد ذلك العصر ملازم المسجد[4] ، ويحكى أن الخليفة القادر كان يقسم الطعام الذى يهيأ له ثلاثة أقسام ، فيترك قسما بين يديه ، ويأمر بحمل القسمين الآخرين ليُفَرّقا على المجاورين فى جامعين كبيرين ببغداد[5] ، وفى

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٣٠ — ١٣١ .

(٢) المنتظم لابن الجوزى ص ٩٦ ا — ب .

(٣) المنتظم مثلا ص ١٠٨ ب ، وفى مواضع كثيرة مثل ص ١٦٩ ا .

(٤) نفس المصدر ص ١٠٨ ب .

(٥) نفس المصدر ص ١٣٢ ب .

وفى سنة ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م توفى أبو العباس عبد الله بن محمد البشتى الزاهد ، وكان من الصالحين وبقى سبعين سنة لا يستند إلى حائط ولا إلى مخدة[1] . ويحكى الحجويرى أنه لقى بخراسان رجلا من الصالحين يسمى الأديب الكمندى مضت عليه عشرون سنة لم يجلس إلا للتشهد فى الصلاة ، وسئل فى ذلك فقال : ليست لى هذه الدرجة بعد حتى أجلس وأنا أشاهد الحق[2] . ويحكى عن آخر من أصحاب التهجد والعبادة أنه لم يعرف له فراش أربعين سنة[3] . وكذلك بنى آخر قبرا لنفسه بجنب بشر الحافى ؛ وكان يمضى إلى ذلك الموضع فيختم فيه القرآن ويدعو ، ومضى على ذلك عدة سنين[4] . ويحكى عن محمد بن عبد الله بن أحمد الصفار الأصبهانى المحدث الصالح المتوفى عام ٣٩٩ هـ — ٩٥٠ م أنه كان مجاب الدعوة ، ولم يرفع رأسه إلى السماء نيفا وأربعين سنة[5] . وفى سنة ٣٣٦ هـ — ٩٤٧ م توفيت بمكة ابنة أحد الصالحين ، وكانت ورعة عابدة ، وكانت تقتات طول عامها من ثلاثين درهما ينفذها لها أبوها[6] . وفى سنة ٣٤٨ هـ — ٩٥٩ م توفى أحد العلماء ، وكان يصوم الدهر ويفطر كل ليلة على رغيف ويترك منه لقمة ؛ فإذا كان ليلة الجمعة تصدق بذلك الرغيف وأكل تلك اللقم التى استفضلها[7] . وفى سنة ٤٠٤ هـ . ١٠١٣ م توفى ابن البغدادى الزاهد العابد ، وكان يخرج إلى الناس وقد انشقت رأسه أو انفتحت جبهته ، لأنه كان لا ينام إلا عن غلبة ،

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٧٤ .
(٢) كشف المحجوب ص ٣٣٥ .
(٣) ذكر أخبار أصبهان لأبى نعيم مخطوط ليدن رقم ٥٦٨ ص ٩٨ ا .
(٤) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٧ .
(٥) المنتظم ص ٨٢ ا وطبقات السبكى ج ٢ ص ١٦٦ .
(٦) المنتظم ص ٨٠ ا — ب
(٧) نفس المصدر ص ٨٨ ا .

وكان لا يخلو أن يكون بين يديه محبرة أو قدح أو شيء من الأشياء موضوع ، فإذا غلبه النوم سقط على ما يكون بين يديه ، فيؤثر فى جبهته أثراً ؛ وكان لا يدخل الحمام ، ولا يحلق رأسه ، لكن يقص شعره إذا طال بالجلم . وكان يغسل ثيابه بالماء حَسْبُ من غير صابون ، وكان يأكل خبز الشعير فقيل له فى ذلك ، فقال : الشعير والحنطة عندى سواء(١) . وكان أبو بكر أحمد بن إسحاق المتوفى عام ٣٤٢ هـ — ٩٣٥ م يدعو بين الأذان والإقامة ، ثم يبكى ، وربما كان يضرب برأسه الحائط حتى تكاد ... رأسه(٢) . ويحكى عن أبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى النيسابورى المتوفى عام ٤٥٨ هـ — ١٠٦٦ م أنه كان يصوم الدهر قبل أن يموت بثلاثين سنة(٣) .

وذُكر فى عداد العبّاد أيضاً جماعة من أشد المدققين فى مراعاة أحكام الشريعة ؛ فيحكى عن أبى محمد عبد الله بن يوسف الجوينى المتوفى عام ٤٣٨ هـ — ١٠٤٦ م — وهو والد إمام الحرمين — أنه كان وَرِعاً زاهداً متحرّياً فى العبادات ، ومن ورعه أنه ما كان يستند فى داره المملوكة إلى الجدار المشترك بينه وبين جيرانه ، ولا يدق فيه وتداً ، وأنه كان يحتاط فى أداء الزكاة ، حتى كان يؤدى فى سنة واحدة مرتين حذراً من نسيان النية ، أو من دفع الزكاة إلى غير المستحق(٤) . وتوفى فى عام ٤٩٤ هـ — ١١٠١ م أحد الزهاد بمرو ، وكان لا يأكل الأرز لأنه يحتاج إذا زُرع إلى ماء كثير ، وصاحبه قل أن يظلم غيره فى سقى الماء(٥) . ويحكى عن والد إمام الحرمين الجوينى أنه كان حريصاً على ألا يطعمه ما فيه شبهة ،

(١) نفس المصدر ص ١٦٠ ب .
(٢) طبقات السبكى ج ٢ ص ٨١ .
(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ٥ .
(٤) طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٠٨ .
(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٢٢ .

وقد بكى مرة وأمه مشتغلة بطعام ، وكانت عندهم جارية مرضعة للجيران ، فأرضعته مصة أو مصتين ، فأنكر أبوه ذلك ، وقال : هذه الجارية ليست لنا ، وليس لها أن تتصرف فى لبنها ، وأصحابها لم يأذنوا بذلك ، وقلب ابنه ونوّعه ، حتى لم يَدَعْ فى باطنه شيئاً إلا أخرجه (١) . وكذلك جلس على عرش الخلافة بمصر خليفة أراد حيناً من دهره أن يعيش على طريقة الزهاد الأولين من المسلمين ، وأن يطرح الدنيا وشؤونها بعيداً وهو الحاكم بأمر الله . ففى حوالى عام ٤٠٠ هـ — ١٠٠٩ م اقتصر فى مطعمه ومشربه على ما تدعوه إليه الحاجة لتماسك الجسم دون الزيادة والمغالاة فى ذلك ؛ وأغلق مطبخ دار الخلافة واكتفى بأكل ما ترسله له أمه ؛ ومنع الناس من تقبيل التراب بين يديه ومن بوس اليد والارتماء بالسجود له ومن مخاطبته بمولانا ، ورثّ فى شعره ، وترك ركوبَ الخيل ، وصار يركب الحمير بسرج ولجام حديدى ، مختلطاً بالناس بلا مظلة وبلا طرّاد بين يديه ؛ وأسقط الألقاب وجميع الرسوم والمكوس المستحدثة ، وأعاد للناس كل ما كان أُخذ من أملاكهم وعقارهم فى عهده أو عهد جده بمصادرة أو بغير حق . وفى المحرم من عام ٤٠٠ هـ أعتق سائر مماليكه من الإناث والذكور وحررهم جميعاً لوجه الله تعالى وملّكهم أمرَ نفوسهم . وكان قبل ذلك قد أخرج من قصره جماعة من حظاياه وأمهات أولاده مع ما كان من كثرة شغفه بالجماع ، بل غرّق بعضهن فى صناديق سُمِّرت عليهن ، وأُثقلت بالحجارة وأُلقيت فى النيل وذلك رفضاً منه للذة الجسدية . وكان ولى عهده يركب بمراكب الخلافة المرصعة وعليه لباسها ، والحاكم يركب على حمار بسرج ولجام من حديد ، وعليه ثياب صوف بيض ثم سود ، وفوطة زرقاء ، وعمامة سوداء (٢) .

---

(١) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٥١ .

(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى مخطوط بباريس رقم ٢٩١ ص ١٢٢ أ — ١٢٩ ب =

وكثيراً ما يُحكى لنا خبر قوم غيّروا مجرى حياتهم رأساً على عقب، فآثروا الإعراض عن الدنيا ؛ فيُروى عن أبى محمد إسماعيل بن محمد الدهان الذى برع فى العلم والأدب وعلوم اللسان، وأخذ عن الجوهرى، واختص بالأمير أبى الفضل الميكالى، ومدحه وأباه بشعر كثير — أنه آثر الإعراض عن الدنيا وأحب الزهد وأزمع الحج والزيارة، وقال أشعاراً فى ذلك. وقد سأل الثعالبى ألا يورد فى كتابه شيئاً من شعره فى الغزل والمدح، فعمل بما سأله[1]. ويُحكى من خبر أبى جعفر البحاث محمد بن الحسين بن سليمان من إحدى كور نيسابور، وكان له محل من الشعر والعلم والأدب، وتصرف بالقضاء فى بلاد خراسان، أنه قال قصيدة فى الشباب والمشيب، والحياة والموت، ومنها :

شبابٌ كلامع برق رحل ... وشيْب كثل غريم نزل

. . . .

مضت وانقضت غفلاتُ الشبا ... ب وجاء المشيب وبئس البدل

كأنى رأيت الصبا فى المنا ... م خيالا تمثَّل ثم اضمحل

ثم يذكر حال الميت مع أهله فيقول :

فهذا يجاذب ما قد حوا ... ه وهذا يخالسه ما فضل

إذا وضعوه على نعشه ... أشاعوا البكا وأسرُّوا الجذل

وإن دفنوه نسوه معا ... وكلٌّ بميراثه مشتغل

ويختم قصيدته بالتوجع لما مضى فيقول :

أقول وللدمع فى مقلتى ... سوابق قطرٍ له مستهل

= ويحكى عن الإمبراطور نقفو (Nikephoros Thokas) (٩٦٣ — ٩٦٩ م) القائد العظيم أنه كان فى الليل يلبس ثوباً من الشعر وحزام التوبة الخشن لإيلام نفسه .

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣١٠ .

سلام على طيب عيش مضى ... وأنس بإخوان صدق نبل
سلام على قوّتى للقيا ... م إلى الفرض فى وقته والنفل
سلام على الختم فى ليلة ... بقلب كئيب حليف الوجل
سلام على الكتب ألفتها ... ووشحتها بصحاح العلل
سلام على مِدَحٍ صغتها ... وحبّرتها فى الليالى الطول
سلام امرئ ما اشتهى لم يجد ... وما رام مجتهداً لم ينلْ
أناب إلى ربه تائباً ... ومستغفراً للخطا والزلل[1]

وكثيراً ما كان انقلاب الناس فجأة سببه سماعهم آيات من القرآن لا يظهر لها فى رأينا نحن هذا الأثر الكبير؛ فيحكى عن جعفر بن حرب المتوفى عام ٣٤٩ هـ، والذى كان يتقلد كبار الأعمال للسلطان، وكانت نعمته تقارب نعمة الوزارة، أنه اجتاز يوما راكبا فى مركب عظيم له، ونعمته على غاية الوفور والجلال، فسمع رجلا يقرأ قوله تعالى: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ» (سورة الحديد آية ١٦) فصاح: اللهم بلى ! وكررها دفعات وبكى، ثم نزل عن دابته، ونزع ثيابه، ودخل إلى دجلة واستتر بالماء، ولم يخرج منه حتى فرّق جميع ماله فى المظالم التى كانت عليه، وردها وتصدق بالباقى، فاجتاز رجل فرآه فى الماء قائما، وسمع بخبره فوهب له قميصا ومئزراً، فاستتر بهما وخرج، وانقطع إلى العلم والعبادة حتى مات[2]. على حين أننا نجد قوما آخرين لا يلتفتون إلى اتقاء شدائد يوم المعاد إلا فى آخر عمرهم؛ فيحكى عن نصر ابن أحمد الساماني المتوفى عام ٣١٠ هـ — ٩٤٢ م أنه فى مرضه الطويل الذى

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣٢٠ — ٣٢١.
(٢) المنتظم ص ٨٩ أ.

مات فيه بنى لنفسه بيتا أمام باب القصر، وسماه « بيت العبادة » ، وكان فيه يصلى ويدعو ويتضرع وهو فى لباس التوبة[(١)] ، ويحكى أيضا عن السلطان معز الدولة المتوفى عام ٣٥٦ هـ — ٩٦٦ م أنه لما اشتدت به العلة وأحس بالموت أظهر التوبة ، وأحضر وجوه المتكلمين والفقهاء ، وسألهم عن حقيقة التوبة ، وهل تصح له ؟ فأفتوه بصحتها ، ولقّنوه ما يجب أن يقول ويفعل ، فتصدق بأكثر ماله ، وأعتق مماليكه ، وردّ شيئا كثيراً من المظالم ، وبكى حتى غُشى عليه[(٢)] .

وكان الحج فى تلك العصور بسبب ما كان فى الطرق العربية من المخافات وقلة الأمن غير ممكن أحياناً ، أو معرّضاً صاحبَه للموت أحياناً أخرى . فمنذ خروج القرامطة وفتكهم بقوافل الحج وإيقاعهم حتى بقافلة السلطان[(٣)] صار الحاجّ يدفعون مكساً للأعراب ليسمحوا لهم بالمرور آمنين . وفى سنة ٣٨٥ هـ أُرسل إلى الأصيفر أمير العرب تسعة آلاف درهم عوضاً عما كان يأخذه من الحاج وصار ذلك رسماً له[(٤)] . وكان بعض الأمراء يدفعون أيضاً مالا من عندهم لتأمين طريق الحاجّ إلى جانب ما كانت تدفعه حكومة بغداد ، فكان أمير الجبل يبعث إلى الأصيفر أيضاً خمسة آلاف دينار فى كل عام ، وجعل ذلك رسماً له ، وكان يزيده فى كل سنة حتى بلغ تسعة آلاف ومائتى دينار[(٥)] . وفى سنة ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م خرج الحاج إلى مكة ، فاعترضهم الأصيفر الأعرابى ، ومنعهم من الجواز ، وذكر أن الدنانير التى أرسلها السلطان عام أول كانت دراهم مطلية ، وأنه لا يفرج لهم عن الطريق إلا بعد أن يعطوه رسمه لسنتين ، وطالت المخاطبة والمراسلة حتى

(١) Mirehond, Hist.Som. S. 50 وابن الأثير ج ٨ ص ٣٠١ .
(٢) مسكويه ج ٦ ص ٢٩٠ ؛ والمنتظم لابن الجوزى ص ١٠٠ ا .
(٣) التنبيه والإشراف للمسعودى ص ٣٧٥ .
(٤) المنتظم ص ١٣٦ ب .
(٥) نفس المصدر ١٣٩ ب .

ضاق الوقت على الحجاج فرجعوا [١]. وفى سنة ٤٢١ هـ ١٠٣٠ م تأخر الحاج من خراسان ، ولم يخرج من العراق إلا قوم ركبوا من الكوفة على جمال البادية ، وتخفروا من قبيلة إلى قبيلة ، بلغت أجرة الراكب إلى أربعة دنانير [٢] . وكان الحاج فى أوقات السلام والأمن يعانون الشدائد المخيفة بسبب قلة الماء فى الصحراء حتى بالنسبة لمن كان يجاوز جزيرة العرب ؛ ويشبه ابن المعتز صاحب السوء الذى لا بد منه بماء طريق الحج فيقول [٣] :

وصاحب سوء وجهه لى أوجه ... وفى فمه طبل يسرى يضرب

إذا ما قلا الإخوان كان مرارة ... يعرض فى قلبى مراراً وينشب

ولا بد لى منـه لحيناً يغصنى ... وينساغ لى حيناً ووجهى مقطب

كماء طريق الحج فى كل منهل ... يذم على ما كان منه ويشرب

وكثيراً ما نقرأ فى تراجم المسلمين هذه العبارة المؤلمة ، وهى أن يقال : «ومات فى طريق الحج» ، وفى عام ٢٩٥ هـ — ٩٠٧ م أصاب الحجاج فى منصرفهم ببعض الطريق عطش حتى مات منهم جماعة ، قال الطبرى : سمعت بعض من يحكى أن الرجل كان يبول فى كفه ثم يشرب [٤] . وفى سنة ٤٠٢ هـ — ١٠١١ م هاجت ريح سوداء على الحجاج ، وهم فى بعض الطريق ، ففقدوا الماء ، وهلك منهم خلق كثير ، وبلغ ثمن القربة من الماء مائة درهم [٥] ، وفى عام ٤٠٣ هـ — ١٠١٢ م سبق بعض الأعراب الحجاجَ إلى مواضع الماء ، فنزحوها ، وغوروها ، وطرحوا الحنظل فى الآبار ، وترصدوا الحجاج ، ومنعوهم من الاجتياز ، وطالبوهم

---

(١) نفس المصدر ١٠٣ ب ؛ وتاريخ ابن الأثير ٩ ص ٧٤ .
(٢) المنتظم ص ١٨١ أ .
(٣) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٥ .
(٤) عريب ص ٢٤ .
(٥) المنتظم ص ١٥٨ أ .

عال كثير ، وبلغ منهم العطش مبلغاً كبيراً ، وقيل إنه هلك منهم خمسة عشر ألفاً ولم يفلت إلا عدد يسير ، وكوتب عامل الكوفة — وكان عليه أن يحفظ طريق الحاج[1] — بأن ينهض لطلب الأعراب الذين فعلوا هذا الفعل ، ويوقع بهم بما يشفى الصدر منهم ، فلحق بهم فى البرّية وأوقع بهم وقتل كثيراً منهم ، وأسر خمسة عشر من وجوههم ، وأرسلهم إلى بغداد فشهروا هناك ، وأودعوا الحبس ، وأجيع منهم جماعة وأطعموا المالح وتركوا على دجلة ، حتى شاهدوا الماء حسرة وماتوا عطشاً . وتم الظفر بعد سنين ببنى خفاجة الذين كانوا أضرّ الناس بالحجاج فى ذلك العهد ، فأفلت من فى أسرهم من الحجاج ، وكانوا قد جعلوهم رعاة لأغنامهم فعادوا ، وقد قُسمت تركاتهم وتزوجت نساؤهم[2] . وفى سنة ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م هلك من الحاج كثيرون ، وكانوا عشرين ألفا فسلم ستة آلاف ، وقد اشتد الأمر بهم حتى شربوا أبوال الجمال وأكلوا لحومها[3] ، وكانت سيول الأنهار الصغيرة التى تنشأ عن المطر فى الصحراء تصيب الحجاج أيضا ببعض الأذى ، ففى سنة ٣٤٩ هـ — ٩٦٠ م « انصرف حاج مصر بعد أن قضوا حجّهم ، فنزلوا فى واد بمكة ، فلما كان بالليل جاءهم الوادى وهم لا يشعرون ، فغرق أهل مصر ، وكانوا عددا كبيرا جدا ، وكبسهم الماء مع أمتعتهم إلى البحر »[4] . وكان المفرطون فى الصلاح والعبادة يحجون سيرا على أقدامهم ، ويُحكى عن أحد العباد الراغبين فى الحج أنه كان يصلى عند كل ميل ركعتين[5] ، وكان من عادة الصوفية أن يخرجوا فى هذا السفر الطويل متوكلين بلا زاد ولا مال[6] . وعلى عكس هؤلاء كان هناك قوم

---

(١) مسكويه ج ٥ ص ٢٤٧ . (٢) المنتظم ص ١٥٩ ا .

(٣) نفس المصدر ص ١٦٢ ب . (٤) مسكويه ج ٦ ص ٢٤٠

(٥) ذكر أخبار أصفهان لأبى نعيم مخطوط ليدن ص ٧١ ب .

(٦) انظر رسالة القشيرى فى باب التوكل ؛ والإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٥٧ حيث يقول أحد الصالحين :

فلو كان بالإمكان سعى بمقلتى إليك رسول الله أتيتها سعيا

أرادوا جمع المال من القيام بالحج بالنيابة عمن يأجرهم على ذلك ، وفى هؤلاء ي
المقدسى : « ورأيت من حج بأجرة انتكس قلبه ، فإن عاد ازداد نكوسا ، و
ورعه حتى ربما أخذ الحجتين والثلاث ، ولم أر لهم بركة ، ولا جمعوا منه ما
قط »[1] . وكانت عودة الحجاج عيدا كبيرا ، فكان الحجاج يبيتون بالياسرية
إحدى ضواحى بغداد ، ثم يبكرون لدخول بغداد[2] . وكان الخليفة يستقبل
الحجاج العائدين الذين يمرون ببغداد فى طريقهم إلى المشرق ، فنى عام ٣٩١ هـ —
١٠٠٠ م جلس الخليفة القادر بالله إلى أهل خراسان العائدين من الحج ، وقرئ
فى هذا الحفل المظيم على رءوس الملأ كتاب تقليد ولى العهد[3] . وكانت ثم
أماكن مقدسة فى كثير من الجهات من شأنها أن تأخذ نصيبا من مجموع الحجاج
الذين يقصدون مكة ، ومما له دلالته أن البعض كان يزعم أن سبع زورات لمسجد
يونس قرب نينوى القديمة — وهو المسجد الذى بنته جميلة بنت ناصر الدولة —
يعدلن حجة ، ولا شك فى أن المشاهد التى هى أهم من مسجد يونس تكون
زياراتها التى تعادل حجة أقل من ذلك[4] . ونجد مدينة بيت المقدس بوجه خاص
قد استفادت فى هذه الظروف الجديدة مما كان لها منذ عهد طويل من مزايا تجذب
الناس إليها . ويحدثنا ناصر خسرو فى القرن الخامس الهجرى أنه فى وقت الحج
كان الناس الذين لا يستطيعون الذهاب إلى مكة من سكان الشام وأطرافها
يقصدون بيت المقدس فى موسم الحج ويضحون ضحية العيد كما هى العادة ؛ وكان
يجتمع بها أكثر من عشرين ألف إنسان فى بعض السنين وكانوا يحملون أبناءهم
ويؤدون السنة[5] . ويحكى لنا أيضا إنشاء نماذج للأماكن المقدسة ، على نحو يشبه

(١) المقدسى ص ١٢٧ .
(٢) مصارع العشاق للسراج طبعة القسطنطينية ص ١٠٩ .
(٣) كتاب الوزراء ص ٤٢٠ ؛ والمنتظم ص ١٤٦ أ .
(٤) المقدسى ص ١٣٦ .
(٥) ناصر خسرو ترجمة شيفر ص ٦٦ .

تمثيل جبل الجلجلة عندنا ، فقد رُوى عن الخليفة المتوكل فى القرن الثالث الهجرى أنه بنى بمدينة سامرّا كعبةً ، وجعل هناك طوافا ، واتخذ منى وعرفات ، ليغرّ بذلك أمراء كانوا معه لما طلبوا الحج خشية أن يفارقوه[1] . وكان فى ذلك العصر طائفة كبيرة بين الصوفية لا يجعلون للحج ماله من شأن ، ويحكى عن أحد الصوفية الأولين أنه أمر أحد الحجاج بالرجوع عن الحج والقيام بحقوق أمّه[2] ويُؤثر عن صوفى توفى عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م أنه قال[3] : « عجبتُ لمن يقطع البوادى والقفار ليصل إلى بيت الله وحرمه ، لأن فيه آثار أنبيائه ، كيف لا يقطع نفسه وهواه حتى يصل إلى قلبه لأن فيه آثار مولاه ! » . ويُذكر لأبى حيان التوحيدى ، وكان صوفى السمت والهيئة ، متفننا فى الكلام على مذهب المعتزلة ، أنه ألف حوالى عام ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م « كتاب الحج العقلى إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى »[4] . ويُحكى أن الوزير نظام الملك فى القرن الخامس الهجرى استأذن السلطان ملكشاه فى الحج ، فأذن له ، فخرج ، فلما عبر دجلة ، وضرب خيامه ، جاء فقير تلوح عليه سيما القوم (الصوفية) إلى الخيمة التى فيها الوزير ، وأعطاه رقعة مطويّة كان فيها : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم وقال لى : أذهب إلى الحسن ، وقل له : أين تذهب إلى مكة ؟ حجُّك هاهنا ، أمَا قلتُ لك : أقم بين يَدَىْ هذا التركى ، وأعِنْ أصحاب الحوائج من أمتى ؟ فرجع نظام الملك[5] . ويقول الحجويرى نفسه فى القرن الخامس الهجرى وهو مثال الصوفية المعتدلين : « الحج نوعان : الأول فى الغيبة ، والثانى فى الحضور ، فمن كان غائباً عن الله فى مكة كمن كان

(١) القدسى ص ١٢٢ — ١٢٣
(٢) كشف المحجوب ٩١ .
(٣) نفس المصدر ١٤٠ .
(٤) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٨٢ .
(٥) طبقات السبكى ج ٣ ص ١٤٠ .

غائبا عنه فى بيته ؛ ومن كان حاضرا مع الله فى بيته فكأنه حاضر معه فى مكة .. فالحج مجاهدة لكشف المشاهدة ، والمجاهدة ليست علة للمشاهدة ، ولكنها وسيلة لها ... فليس المقصود من الحج رؤية البيت بل المقصود الحقيقى مشاهدة الله[١] ، ويخيل للإنسان أن طوائف المتقفين صاروا يجعلون لزيارة المدينة شأنا أكبر بسبب ما صاروا يرونه من التبجيل العظيم للنبى (عليه السلام) ؛ ويحكى أن البخارى صنف كتابه فى التاريخ عند قبر الرسول عليه السلام[٢] . ويقول أبو محمد النيسابورى الذى أخذ عن الجوهرى ثم آثر الزهد والإعراض عن الدنيا ، وذلك عند ما أزمع الحج والزيارة[٣] :

أتيتك راجلا ووَدِدْتُ أنى ملكتُ سوادَ عينى أمتطيه
ومالى لا أسير على المآقى إلى قبرٍ رسولُ الله فيه

ويحكى عن جعفر بن الفضل بن الفرات (المتوفى عام ٣٩١ هـ) وهو الذى استجلب الدارقطنى المحدث من بغداد ، وبرّ إليه ، وأنفق عليه نفقة واسعة ، وكان وزيراً لكافور الأخشيدى ، أنه اشترى داراً بالمدينة إلى جانب المسجد من أقرب الدور إليه وأوصى أن يُدفن فيها[٤] . ويحكى عن الوزير أبى شجاع محمد بن الحسن المتوفى عام ٤٨٨ هـ — ١٠٩٥ م أنه « مات وهو أحدُ خُدَّام روضة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وكان يكنس المسجد ، ويفرش الحصر ، ويشعل المصابيح »[٥]

وكذلك لم يهمل الناس واجب الجهاد فقد اعتنوا به جادين على عادتهم دائما ؛ وأراد كثير من المؤمنين الصالحين أن يدخلوا الجنة من باب الجهاد فى سبيل الله ، فكان غزاة المسلمين من كل بلد وناحية يتدفقون كالسيل إلى مدينة

(١) كشف المحجوب ص ٣٢٩ .
(٢) تاريخ أبى الفدا عام ٣٠٦ هـ (ج ٢ ص ٢٣٦ من الطبعة الأوروبية) .
(٣) الإرشاد ج ٢ ص ٣٥٧ .
(٤) نفس المصدر ج ٢ ص ٤٠٨ . (٥) طبقات السبكى ج ٣ ص ٥٨ .

طرسوس ، وكانت قاعدة حربية وثغرا من ثغور مملكة الإسلام مما يلى حدود الروم ، وهم أعداء الإسلام الذين ورثوا عداوته جيلا عن جيل ؛ كما كانت ترد على تلك المدينة صلاتُ أهل البر وأرباب النعم من المسلمين الذين لا يستطيعون الخروج للجهاد بأنفسهم ، يقول ابن حوقل : « ليس من مدينة عظيمة من حدّ سجستان وكرمان ... إلى مصر والمغرب إلا وبها (طرسوس) لأهلها دار ينزل بها غزاةُ تلك البلدة ، ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصّلاتُ ، وترِدُ عليهم الأموالُ والصدقات العظيمة الجسيمة ، إلى ما كان السلاطين يتكلّفونه وأرباب النعم يلتزمونه وينفذونه متطوّعين متبرعين ؛ ولم يكن فى ناحية ذكرتها رئيسٌ ولا نفيس إلا وله عليها وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات أو مسقّف من فنادق »[1] . وكان أهل الثغور يُكرَمون فى بغداد ، ويحكى عن أبى على القالى اللغوى المشهور المتوفى عام ٣٥٦ هـ — ٩٦٧م أنه سُمّى القالى لأنه لما انحدر إلى بغداد كان فى رفقة فيها أهلُ قالى قلا ، وهى قرية من قرى منازجرد (بأرمينية) ، وكانوا يُكرَمون لمكانهم من الثغر ، فنُسب إليهم لكونه معهم ، وثبت على ذلك[2] . وكثيراً ما كان من الحيل التى يلجأ إليها بعض المكدّين والتى يجنون منها المال الوفير أن يسيروا مخادعين للناس بدعوى جمع المال للجهاد أو لفك الأسرى ، وكثيرٌ من هؤلاء المحتالين كانوا يركبون دواب كالغزاة ، ويطوفون البلاد ليوهموا الناس بصدق حيلتهم[3] . وكانت ثغور مصر المسماة بالمواحيز يعمرها أهل الديوان والمطّوّعة ، وكانت أحباس السبيل التى يتولاها القضاة تُجمع فى كل سنة ، فإذا كان شهر أبيب بعث القاضى ما اجتمع من أموال السبيل ففُرّقت على مواحيز

---

(١) ابن حوقل ص ١٢٢ — ١٢٣ .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٥٣ .

(٣) انظر القصيدة الساسانية لأبى دلف فى يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٩ — ١٨٠ .

مصر من العريش إلى لوبية ، وأعطيت للمطوّعة ومن كان فقيرا من أهل الديوان[1].
وكانت بلاد ما وراء النهر ثانية ناحية تلى طرسوس من حيث وقوف أهلها للجهاد ، وذلك لما اشتهر به أهل ما وراء النهر من الشوكة وشدة البأس ؛ ومن أنهم أكبر أهل الإسلام نصيبا فى التضحية وأعظمهم حظا فى الجهاد : يقول الأصطخرى : « لا تجد فى بلدان الإسلام أهلَ الثروة إلا والغالبُ على أكثرهم صرفُ نفقاتهم إلى خاصّ أنفسهم فى الملاهى وما لا يرضاه الله ، وإلى المنافسات فيما بينهم فى الأشياء المذمومة إلا القليل ؛ وترى الغالب على أهل الأموال بما وراء النهر صرف نفقاتهم إلى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخير إلا القليل منهم » ؛ وكان فى مدينة بيكند بين بخارى ونهر جيحون ما يقرب من ألف رباط للغزاة المجاهدين[2] ؛ ويقال إنه كان بمدينة اسبيجاب ، وهى ثغر جليل ودار جهاد ، ألف وسبعمائة رباط يجد فيها أصحاب الحاجة طعاما لهم وعلفاً لدوابهم[3] ؛ وكانت رغبة الخراسانيين فى الجهاد وحميتهم له سبباً فى سيرهم إلى الجبهة الغربية فى مملكة الإسلام ، وذلك عند ما توالى نجاحُ الروم فى مهاجمة بلاد الإسلام : ففى عام ٣٥٥ ﻫ خرج من خراسان قوم يُظهرون أنهم غزاة ، وكان عددهم نحواً من عشرين ألفاً ، وساروا حتى بلغوا الحدود الشرقية لدولة بنى بويه ، ولكن سيرتهم لم تكن سيرة الغزاة ، فلم يكن لهم رئيسٌ واحد ، بل كان لأهل كل بلد من بلادهم رئيس ، فاسترابَ بهم صاحب الحدّ ، وأرسل بصورتهم ، وخالف ركنُ الدولة وزيرَه ابنَ العميد فى أمرهم ، وكاتب صاحب الحد بأن يأذن لهم فى الدخول ، فسار القوم بأجمعهم ، ومعهم فيل عظيم من بين الفيلة ، واجتمع رؤساؤهم إلى الوزير ابن العميد ، وخاطبوه أن يسأل الأمير ركن الدولة أن يطلق لهم مالاً يستعينون به على أمرهم ،

(١) القضاة والولاة للكندى طبعة جوست (Guest) ص ٤١٨ — ٤١٩ .
(٢) الأثير ٢٠ ، ٣١٤ . (٣) المقدسى ص ٢٧٣ .

وظن أن القليل يكفيهم على رسم الغزاة ، فإذا هم يطمعون فى شىء كثير وقالوا : « نحتاج إلى مال خراج هـذه البلاد كلها التى فى أيديكم ، فإنكم إنما جبيتموها لبيت مال المسلمين لنائبة أن تأتيهم ، ولا نائبةَ أعظمُ من طمع الروم والأرمن فينا ، واستيلائهم على ثغورنا ، وضعف المسلمين عن مقاومتهم » ، وسألوا مع ذلك أن يخرج معهم جيش ينضم إليهم ، وأخذوا فى هذا النحو من الكلام ، وتبسطوا فى الاقتراح ورفع الأصوات ، فلما لم تُجبْ مطالبُهم شغبوا ، وعدلوا إلى مسافهة الديلم ، فكانوا يكفّرونهم ويلعنونهم ، وكان ذلك فى شهر رمضان ، فكانوا يخرجون ليلا ، ومعهم آلاتهم من السيوف والحراب والقسىّ والسهام ، ويزعمون أنهم يأمرون بالمعروف ، فيسلبون العامة مناديلهم وعمائمهم ، وإذا تمكنوا من تفتيشهم وأخذ جميع ما معهم لم يقصروا فى ذلك ، وأدى شغبهم إلى وقوع القتال بينهم وبين أهل البلاد ، ثم حجز بينهم الليل ، فرجع الخراسانية إلى معسكرهم يضربون بطبولهم الليل كله ويتواعدون القتال ، فلما أصبحوا باكروا الحرب ، وهجموا على دار الأستاذ ابن العميد ، فكسرهم ، ثم كثروا عليه حتى مضى كل من معه ، ولم يولّ عنهم حتى طعنه أحدهم طعنة دخلت فى كم درعه وأفضت إلى ساعده فجرحته ، واضطر أخيرا إلى أن يرجع إلى دار الإمارة ، واشتغل الخراسانية بنهب داره واصطبلاته وخزائنه إلى أن أتى الليل ، ثم انصرفوا ، فلما رجع الوزير إلى منزله ليلا لم يجد فيه ما يجلس عليه ولا كوزاً واحداً يشرب فيه . ثم استفحل أمر هؤلاء الخراسانية وقويت نفوسهم ، ولكن الوزير وركن الدولة تمكنا من هزيمتهم حتى انصرفوا على سمت قزوين هائمين على وجوههم لا يلوى بعضهم على بعض ، « ولو أنهم خرجوا بالمال الذى كان لهم لبلغوا من الروم كل مبلغ ، ولكن غزاة المسلمين معهم ، ولله أمر هو بالغه»[1] .

* * *

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٨٣ — ٢٩١ ؛ الأصطخرى ص ٢٢٠ (٢) ، Amedroz Der Is[illegible] [illegible] 331 ff.

قيل لعبد الملك بن مروان : أسرع إليك الشيب ، فقال : كيف لا ، وأنا أعرض عقلي في كل جمعة على الناس . وقيل نِعْمَ الشئ الإمارة ، لولا قعقعة البريد وصعوبة المنبر[1] . وكان ارتقاء المنبر في كل أسبوع للخطبة في الناس واجباً شاقا على كبار الأمراء أيضا ، وكان فيه تكليف عسير على القواد لأنه يخرج بهم عما اعتادوا من صناعة السيف دون صناعة اللسان والكتب ، ويحكى عن أحد الولاة أنه خطب فذكر أبياتاً للشعراء في الوعظ ، وقدم لها بقوله : قال الله عز وجل في كتابه[2] . وكان الرشيد أول من جعل الخطيب يخطب بكلام غيره ، فيُحكى أنه استدعى الأصمعي اللغوي لتأديب ولده محمد ، وقال : أريد أن يصلي بالناس إماماً في يوم جمعة ، فاختر له خطبة وحفّظه إياها ، فحفّظه عشراً ، فخرج وصلى بالناس ، فأعجب الرشيد به[3] . وكان في هذه المسألة الصغيرة مسألة الخطبة ما يشير في القرن الثالث الهجري إلى انقطاع العادات الإسلامية التي جرى عليها الإسلام في عهده الأول : فترك الخلفاء والولاةُ الخطبةَ في الجمعة ، وعهدوا بذلك إلى خطباء ندبوا لذلك واختصوا به[4] . ويحكى عن الخليفة المهتدي (٢٥٥ — ٢٥٦ هـ = ٨٦٦ — ٨٦٧ م) . وكان شديد الورع أنه كان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع فيخطب الناس ويؤمّ بهم[5] . وفي عام ٢٧٩ هـ صلى الخليفة المعتضد بالناس صلاة الأضحى ، ولم يُسمع منه خطبة[6] . ولم يكن الخليفة يخطب إلا في الأعياد . ويحكى عن الخليفة الراضي بالله (٣٤٤ — ٣٦٣ هـ = ٩٤٥ — ٩٧٤ م) أنه لما عزم على

(١) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٨٣ . (٢) الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٩٤ .

(٣) الفرج بعد الشدة للتنوخي ج ٢ ص ٢٠ — ٢١ .

(٤) وكان جهل كثير من الولاة باللغة العربية سببا في تخليهم عن هذا الواجب الديني ، ويحكى أن عنبسة بن إسحاق الضبي الذي ولي حكم مصر عام ٢٣٨ هـ كان آخر من وليها من العرب ، وآخر أمير صلى بالناس في المسجد الجامع (الولاة للكندي ص ٢٠٢) .

(٥) مروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ٢ .

(٦) تاريخ أبي المحاسن (طبعة ليدن) ج ٢ ص ٩٧ .

الصلاة بالناس فى عيد الفطر لم يعرف مايقوله إذا انتهى فى الخطبة إلى الدعاء لنفسه ، فأرسل فى ليلة العيد إلى أحد العلماء بذلك ، فاختار له دعاء[1] . وقد رُويت لنا الخطبة التى قالها الخليفة الطائع فى عيد الأضحى سنة ٣٦٣ هـ ؛ وكانت خطبة قصيرة أشار فيها بكلمة أو بكلمتين إلى مسألة إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام ، وكانت : « الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر ، متقربا إليه ، ومعتمداً عليه ، ومتوسلا بأكرم الخلائق لديه ، الذى صيّرنى إماماً منصوصاً عليه ، ووهب لى أحسن الطاعة فيما فوضه إلىّ من الخلافة على الأمة ، الله أكبر الله أكبر ، مُقِرا بجميل آلائه فيما أسنده إلىّ من حفظ الأمم وأموالها وذراريها ، وقمع بى الأعداء فى حضرها و بواديها ، وجعلنى خير مستخلَف على الأرض ومن فيها ، الله أكبر الله أكبر تقربا بنحر البدن التى جعلها من شعائره وذكرها فى محكم كتابه وأتباعاً لسنة نبيه وخليله صلى الله عليه فى [. . . . .][2] أبينا إسماعيل وقد أمر بذبحه فاستسلم لإهراق دمه وسفحه غير جَزِع فيما نابه ولا نكل عما أمر به ، فتقربوا إلى الله فى هذا اليوم العظيم بالذبائح فإنها من تقوى القلوب ، الله أكبر الله أكبر ، وصلى الله على محمد خيرته من خليقته وعلى أهل بيته وعترته وعلى آبائى الخلفاء النجباء ، وأيدنى بالتوفيق فيما أتولى ، وسددنى من الخلافة فيما أعطى . وأنا أخوفكم معشر المسلمين غرور الدنيا فلا تركنوا إلى ما يبيد ويفنى ، ويزول ويبلى ، وإنى أخاف عليكم يوم الوقوف بين يدى الله غدا ، وصحفكم تقرأ عليكم ، فمن أوتى كتابه بيمينه فلا يخاف ظلما ولا هضما ، أعاذنا الله وإياكم من الردى ، واستعملنا وإياكم بأعمال أهل التقوى ، وأستغفر الله لى ولكم ولجميع المسلمين »[3]

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٤٩ . (٢) كلمة غير واضحة فى الأصل .

(٣) المنتظم ص ١٠٦ ب ؛ وختام الخطبة يشبه الختام فى خطب ابن نباته كما سيأتى بعد قليل .

أما الخلفاء الفاطميون فكانوا يعنون عناية كبرى بالمظهر الديني خاصة ، وكانوا يخطبون فى كل جمعة من مسطور يحضر إلى الخليفة من ديوان الإنشاء[١] . وكان الخليفة الحاكم بأمر الله مثلا قبل بناء الجامع الحاكى يخطب فى جامع عمرو جمعة ، وفى جامع ابن طولون جمعة ، وفى الجامع الأزهر جمعة ، ويستريح جمعة ، فلما بنى الجامع الحاكى انتقلت الخطبة إليه[٢]

ولم تكن خطبة الجمعة عند المسلمين عظة بالمعنى الأوروبى (Predigt) ؛ بل كانت أشبه بطقس كنسى (ليترجيا Liturgie)[٣] فيها للخطيب من حرية التصرف مالا يكون له فى بقية مراسم صلاة الجمعة . ولذلك كان لا ينتظر من الخطيب أن يأتى فى كل جمعة بشئ جديد . على أنه يحكى عن أبى سعيد عبد الواحد بن عبد الكريم بن هوازن المتوفى عام ٤٩٤ هـ — ١١٠١ م خطيب الجامع المنيعى بنيسابور أنه لبث يخطب خمس عشرة سنة ينشئ فى كل جمعة خطبة جديدة « جامعة للفوائد معدودة من الفرائد »[٤] . وكان أشهر خطباء القرن الرابع ابن نباتة المتوفى عام ٣٧٤ هـ — ٩٨٤ م خطيب سيف الدولة بحلب ، وديوان خطبه أعظم مظهر تجلى فيه فن الخطابة فى ذلك العهد . وإذا كان فى مأثور الروايات الإسلامية أن النبى محمداً (عليه السلام) كانت خطبه قصيرة ، فأقل مزايا ذلك أنه حفظ الإسلام ، من شئ لا يحتمل وهو أن يكون دين ثرثرة للمتشدقين ، ويحكى عن عمار بن ياسر أنه تكلم يوماً فأوجز ، فقيل له . لو زدتنا ؛ فقال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بإطالة الصلاة

(١) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٧٧ ، ٢٨١ .
(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ١٣٨ طبعة مصر ١٣٢٧ هـ .
(٣) الليترجيا عبارة عن قطعة من الكتاب المقدس تقرأ وتفسر قليلا . (المترجم)
(٤) طبقات الشافعية للسبكى ج ٣ ص ٢٨٤ .

وقصر الخطبة[١] . ولذلك كانت الخطبة الكبرى عند ابن نباتة لا تزيد عن الخمس دقائق[٢] وتبدأ الخطبة بحمد الله والصلاة على النبي في إيجاز ، وبعدها يجلس الخطيب لحظة قصيرة ، ثم يقف لإلقاء الخطبة الثانية ، وقصر البرهة بين هاتين الخطبتين مضرب المثل ، قال ابن حديس الشاعر في ذلك العصر يشكو قصر زمان لقاء الحبيب :

زارت على الخوف من رقيب　　كظبية رُوِّعت بذيب

إلى أن قال :

كان زمان اللقاء منها　　أقصر من جلسة الخطيب[٣]

ويختم ابن نباتة خطبه دائما بآيات من القرآن ، ثم يقول في آخر كل خطبة عبارات ثابتة وهي : بارك الله لنا ولكم في القرآن العظيم ، ونفعنا وإياكم بالآيات والذكر الحكيم ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين[٤] . وكانت الخطبة الثانية أقصر قليلا مما هي عليه اليوم[٥] . وفي الخطبة الثانية كان من عادة الخطيب أن يحوّل وجهه إلى اليمين وإلى الشمال عند الصلاة على النبي[٦] ، وكان هذا الجزء من الخطبة موضع احتفاء وشعور خاص . وكان للصلاة على النبي شأن كبير حتى

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ١١٧ ، ويقول الجاحظ (ج ١ ص ٤٢) إنه البلاغة الإيجاز ، والإيجاز أن تجيب فلا تبطئ ، وأن تقول فلا تخطئ .

(٢) على أني سمعت خطبة بطريرك الأرثوذوكس في أحد الشمانين عام ١٩٠٢ ، فلم تزد عن عشر دقائق .

(٣) ديوان ابن حديس طبعة رومة سنة ١٨٩٧ ص ٨ — ٩ .

(٤) ديوان خطب ابن نباتة طبع بيروت ١٣١١ هـ ص ٦ .

(٥) تجد خطبتين من الهند ومصر مترجمتين في قاموس هيوز : Huyhes Dictionary of Islam تحت كلمة خطبة ؛ وانظر كتاب لين Lane, Manness, a. 73 . وتجد خطبة من خطب بلاط الموحدين في كتاب المراكشي في تاريخ الموحدين (ص ٢٩٠ وما بعدها من ترجمة فانيان Fagnan طبعة الجزائر سنة ١٨٩٣ .

(٦) ديوان خطب ابن نباتة ص ٣٢١ — ٣٢٢ .

نجد عند ابن نباتة صوراً مختلفة للصلاة يستطيع الخطيب أن يختار منها ما شاء[1].
وفي وقت الحرب كان الخطيب يدعو للأمير بالنصر بمثل هذا الدعاء : اللهم انصر الأمير فلاناً على أعدائك الكفرة البغاة ، الفجرة الطغاة ، الذين صدّوا عن سبيلك ، وكذبوا بتنزيلك ، وآثروا خلاف رسولك ، حتى لا يدع منهم فيلقاً إلا أهلكه ، ولا سملقاً إلا سلكه ، ولا دماً إلا سفكه ، ولا هارباً إلا أدركه ، ولا مغلقاً إلا فتحه ودكدكه ، ولا حريماً إلا أباحه وهتكه ، ولا عظيما إلا أهانه وتملكه ، اللهم انصره على أعدائك ، ومكّنه من نواصيهم ، حتى يذلهم و ينزلهم من صياصيهم ، و يؤدى إليه الجزية بالصغار دانيهم وقاصيهم »[2].

وكان قصر زمان الخطبة لا يمكن الخطيب من تثقيف سامعيه بشرح النصوص كما هو الحال عند المسيحيين فيما يسمى بال Homelie ، وكان للخطبة منذ أول الأمر موضوع واحد لم تَحِدْ عنه ، وهو الكلام في قرب زوال هذا العالم ، وفي ترهيب الناس بالموت والقبر ، وانقضاء الدنيا بمجيء يوم القيامة ؛ وهكذا تسير الخطبة على نمط سريع مثير للعواطف . ولم يكن الخطباء يعنون بالكلام في شيء من لذات الدنيا وآلامها التافهة ، ومن كانت النار لها وراءه زفير وشهيق فإنه لا يلتفت للأزهار التي يراها في طريقه ، ويروى عن على بن أبي طالب أنه قال في إحدى خطبه الحماسية : « القرار القرار ؟ النجاة النجاة ؟ العدو وراءكم جاد في طلبكم يسعى حثيثاً ليدرككم[1] . فأما وصف نعيم الجنة وعذاب النار فكان قليلا بالنسبة لما كان الخطباء فيه . وإنما تركزت بلاغتهم في وصف يوم الصاخّة التي تجيء مروِّعة ، فيزول بمجيئها هذا العالم وتنتهي الحياة الدنيا . وكان جديراً بقوم كانوا

---

(١) ديوان خطب ابن نباتة ص ٣٢١ — ٣٢٢ .

(٢) هذه ترجمة لكلام المؤلف وهو لم يعثر إلى النص العربي . (المترجم)

يعيشون فى ذلك العصر أقرب إلى الحس السليم و إلى السذاجة والفهم المستقيم أن ينبّهوا إلى التفكير فى نهايتهم .

جاء فى خطبة من خطب ابن نباتة : « أيها الناس: قلقلوا القلوب عن مراقدها ، واعدلوا بالنفوس عن موارد شهواتها ، وذللوا جوامحها بذكر هجوم مماتها ، وتخيلوا فضائحها يوم تعرف بسماتها ، وترقبوا داعياً من جو السماء تنشر به الرمم ، وتحشر له الأمم ، وتزول معه التهم ، ويطول عنده الأسقام والندم ، ياله داعياً أسمع العظام البالية ، ومناديا جمع الأجسام المتلاشية ، من حواصل الطيور ، و بطون السباع ، وقرار البحور ، ومتون البقاع ، حتى استقام كل عضو فى موضعه ، وقام كل شلو من مصرعه ، فنهضتم أيها الناس لميقات الكرة ، بوجوه من هبوات الثرى مغبرة ، وألوان من هول ما ترى مصفرة ، حفاة عراة كما بدأكم أول مرة ، يسمعكم الداعى وينفذكم البصر ، قد ألجمكم العرق وغشيكم القتر ، ومادت الأرض فهى بما عليها ترجف ، وبُست الجبال فهى برياح القيامة تنسف ، وشخصت الأبصار فما تُرى عين تطرف ، وغص بأهل السماء والأرض الموقف ، فبينا الخلائق يتوكفون حقيقة أنبائها وقوفا ، والملك على أرجائها صفوفا ، إذ أحاطت بهم ظلمات ذات شعب ، وغشيهم منها شواظ نحاس ولهب ، وسمعوا لها جرجرة زفير مصطخب ، يفصح عن شدة تغيظ وغضب ، فعند ذلك جثا القائمون على الركب ، وأيقن المجرمون بالعطب ، وأشفق البرآء من سوء المنقلب ، وأطرق النبآء لسلطان الرهب ، ونودى أين عبد الله وأين أمته ؟ أين المسوف نفسه بخديعته ؟ أين المختطف بالموت على حين غرته ؟ فعرف من بين الخلائق بسمته ، وأحضر لتصفح صحيفته ، وللموافقة على ما أسلف فى مدته ، مطالبا بإقامة حجته ، مروّعاً بين يدى عالم خفيته ، بوهم خطاب كالصواعق ، ولذع عتاب كالمقامع ، وشهادة كتاب للفضائح جامع ، وصحة حساب للمعاذير قاطع ، فخاب والله من كان على نفسه مسرفاً ، ولم يجد من خطاياه منيلا ولا مسعفاً ، بل وجد

الحاكم له وعليه عدلا منصفاً ، « ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ، ولم يجدوا عنها مصرفاً » . عدل الله بنا وبكم إلى سبيل السلامة ، وحل عنا وعنكم أعباء الظلامة ، وجعل الإخلاص بتوحيده نوراً لنا فى ظلمات القيامة . إن أغزر ينابيع الحكم ، وأنور مصابيح الظلم ، كلام بارئ النسم « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية »[١] .

وقليلا ما كان الخطباء يتعرضون للكلام فى الجنة أو فى موضوع كثيراً ما يتكلم فيه المسيحيون ، وهو اللقاء بعد الموت ، ولعل الخوف من يوم النشور ، ومن أهوال يوم الحساب كان أقوى من أن يسمح بالكلام فى ذلك ؛ ويحكى عن إحدى شهيرات نساء العرب أنها قالت : إنى أشتاق ليوم البعث لأرى وجه زوجى ؛ فكان قولها مثلا مدهشا يضرب لبيان قوة الحب التى لا يرهب أشد الأهوال[٢] .

وقد ألف ابن نباتة كل خطبه سجعا ، كأن جملها توقيع موسيقى . وهذا السجع فى الخطب هو أيضا من المستحدثات التى ظهرت حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى ، وبلغت منتهى ازدهارها فى القرن الرابع[٣] ويحكى ابن خلكان من مناقب الخطباء المتأخرين وهو شيخ الإسلام العز بن عبد السلام أنه ترك السجع فى خطبه حين ولى الخطابة رجوعا إلى طريقة السلف[٤] . على أنه فيما يتعلق بالخطب وضعت فى القرن الرابع صورة الخطب وقوانينها[٥] ، وإذا كانت

---

(١) ابن نباتة ص ٦٩ — ٧٢ . (٢) تحفة العروس مثلا ص ١٦٢ .

(٣) انظر باب الأدب من الجزء الأول .

(٤) مقدمة كتاب ديوان الخطب لابن نباتة ص ١٩ .

(٥) وقد حفظ لنا أبو العلاء المعرى فى كتابه سيف الخطبة بقية من طريقة القدماء فى بث الخطب . يشتمل هذا الكتاب على خطب السنة : فيه خطب الجمع والعيدين والخسوف =

« خطب المسيحيين البلاغية التي تلقى في أيام الأعياد الكبرى ليست إلا أناشيد منثورة »[1] فهذا ينطبق أيضاً على الخطب الإسلامية في القرن الرابع تمام الانطباق ، وإن بين هذه الخطب المسجوعة التي كتبها القدماء شبهاً كبيراً جدا بحيث لا يستطيع أحد أن ينكر تأثير خطب المسيحيين في المسلمين. ويحتوي ديوان ابن نباتة من خطب الأعياد على خطب تقال في رأس السنة ، وفي يوم وفاة النبي عليه السلام ، وفي شهري رجب ورمضان ، وفي عيد الفطر. وكانت الخطب الجهادية ثمرة من ثمرات أيام سيف الدولة بما كان فيها من حروب ، وهي لا تقل روعة عن أجود الخطب الجهادية التي أثرت عن القدماء[2] .

أما فيما يتعلق بملابس الخطباء فلم تكن الحكومة تُعنى إلا بتعيين اللون الذي عليهم أن يتخذوه ، فحيث كان يُخطب لبني العباس كان الخطباء يتخذون السواد الذي هو اللون الرسمي للعباسيين ؛ وحيث كان يُخطب للفاطميين كان الخطباء يتخذون اللون الأبيض . ونظراً لعدم وجود هيئة من الأكليروس وعدم وجود لباس ديني خاص فقد كان الخطباء فيما عدا ما تقدم يتبعون عرف الناحية التي هم فيها ، ففي العراق وفي خوزستان كان الخطباء يظهرون باللباس الحربي فيلبسون الأقبية والمناطق[3] ؛ على حين أنهم في خراسان كانوا لا يترددون ولا

= والكسوف والاستسقاء وعقد النكاح ، وهي مؤلفة على حروف من حروف المعجم ، فيها خطب عماودها الهمزة ، وخطب بنيت على الباء وعلى الدال وعلى الراء وعلى اللام والميم والنون ، وتركت الجيم والخاء وما يجري مجراها لأن الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون سهلاً » (الإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٨٢) .

(١) Norden, Die Antike Kunstproza, II. s. 844.

(٢) يقول أبو المحاسن (ج ٢ ص ٣٤٩) إن ابن نباتة عمل الخطب الجهادية لما وصل الروم إلى طرسوس وكروا إلى ديار بكر ، ووصلوا ميافارقين ، وقتلوا وخربوا ، وذلك عام ٣٤٨ هـ .

(٣) المقدسي ص ١٢٩ ، ٤١٦ .

يتقبّون ، و إنما يكتفون بلبس درّاعة[1] . وفى عام ٤٠١ هـ — ١٠١٠ م خطب بالموصل خطيبٌ للحاكم بأمر الله ، فظهر وعليه قباء دبيقى أبيض — واعتبر هذا كافياً من الناحية الرسمية — وعمامة صفراء وسراويل ديباج أحمر وخفين أحمرين ، وقد تقلد سيفاً[2] .

وفى البصرة وحدها ، وهى مدينة الصالحين ومدّعى الصلاح فى العراق ، كان الخطيب الرسمى يخطب فى كل صباح ؛ وقيل إن هذه كانت عادة ابن عباس ، وفيما عدا البصرة كان الخطيب الرسمى يخطب يوم الجمعة فقط ، ويترك بقية الأسبوع للخطباء المتطوعين الذين كانوا منذ العصور الأولى يتزاحمون على ذلك ، وكانوا يُسمّون القُصّاص . وقد كتب جولدزيهر تاريخاً لهم[3] وأجاد المقريزى[4] فى جمع الكثير من أخبارهم باختصار ، وهو يقول إن القصص لم يكن فى أيام الرسول ولا فى زمن الخلفاء الراشدين ، وإنما حدث فى زمن معاوية ، وقيل فى خلافة عثمان . ويحكى المقريزى عن الليث بن سعد أن القصص قصصان : قصص العامة ، وقصص الخاصة ، فأما قصص العامة فهو الذى يجتمع إليه النفر من الناس للقاصّ يعظهم ويذكرهم ، وذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه ؛ وأما قصص الخاصة فهو الذى جعله معاوية إذ ولّى رجلا على القصص فكان إذا سلم من صلاة الصبح

---

(١) نفس المصدر ص ٣٢٧ .

(٢) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى طبعة كلفورنيا ص ١٠٧ .

(٣) Muham. Studien, II, 161 ff. ؛ ومن أمثلة التندر بطريقة هؤلاء القصاص ما جاء فى كتاب الأغانى (ج ٣ ص ٣٠) من أن بشار بن برد الشاعر الأعمى الذى عاش فى عهد الخلفاء الأولين من بنى العباس مر بقاص بالمدينة ، فسمعه يقول فى قصصه من صام رجب وشعبان ورمضان بنى الله له قصراً فى الجنة صحنه ألف فرسخ فى مثلها ، وعلوه ألف فرسخ ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصيره عشرة فراسخ فى مثلها . (قال) : فالتفت بشار إلى قائده فقال : بئست والله الدار هذه فى كانون الثانى .

(٤) الخطط ج ٢ ص ٢٥٣ .

جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجّده وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعا للخليفة ولأهل ولايتــه ولحشمه وجنوده ، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة[١] . وكان القاص بعد صلاة الجمعة يقرأ القرآن ويفسّره ، وكان القاضى هو الذى يتولى القصص فى أول الأمر ، ولا يُذكر وجود هذا المنصب إلا فى مصر ، ولعله كان من قبل من أنظمة الـكنيسة المصرية[٢] . على أنه ولى قضاء مصر فى عام ٢٠٤ هـ إبراهيم بن إسحاق القارئ ، وجُمع له القضاء والقصص[٣] . وبعـد ذلك بطل نظام الجمع بين المنصبين ، وارتفع شأن منصب القضاء ، وانحطّ منصب القاص . وفى عام ٣٠١ هـ أراد أبو بكر اللطى الذى تولى القصص فى هذه السنة أن يقرأ القرآن ويقص فى كل يوم ، فمنع القاضى من ذلك ، فرجع القاص إلى القراءة فى ثلاثة أيام[٤] . أما فى المشرق فى عصر المأمون فقـد ذكر طيفور أن قصص القصاص وإيواءهم إلى جانب بنـاء المساجد وجمع اليتامى والإنفاق على الجهاد من أعمال البرّ التى اتخذها البعض على سبيل الرياء[٥] . أما المغرب فيحدثنا المقدسى أنه كان قليل القصاص[٦] . ويُروى عن مالك بن أنس صاحب المذهب السائد فى المغرب أنه كان يكره القصص[٧] . وفى القرن الرابع نزل القصاص إلى

---

(١) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٥٣ .

(٢) نفس المصدر . وفى عام ٧٠ هـ ولى قضاء مصر عبد الرحمن بن حجيرة ، وكان له إلى جانب القضاء القصص وبيت المـال ، وكان رزقه من كل هذه المناصب الثلاثة مائتى دينـار (الـكندى ص ٣١٧) .

(٣) الـكندى ص ٤٢٧ .

(٤) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٥) كتاب بغداد لطيفور طبعة كلر Celler ص ١٠٠ . ويقول الجاحظ (البيان ج ١ ص ٤١) إن من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى ويكون شيخاً بعيد مدى الصوت .

(٦) المقدسى ص ٢٣٦ .

(٧) المدخل لابن الحاج ج ٢ ص ٢١ وما بعدها .

سمار العامة وصاروا يقصون لهم القصص الدينية والأساطير والنوادر فى المساجد والطرق ، وينالون منهم مالا كثيراً . وكان يجتمع إليهم الرجال والنساء ، فيرفعون أصواتهم بالدعاء ويمدون أيديهم[١] . وكان العامة يحبون القصاص حبا شديداً ، ويحكى عن الطبرى أنه أنكر على قاص ببغداد ، فرمى العامةُ باب داره بالحجارة حتى سدّوه وصعب الخروج منه[٢] . وكان القصاص فى أواخر القرن الرابع أكبر مثيرى الفتن القديمة بين أهل السنة والشيعة[٣] .

وحوالى ذلك العصر فقد القصاصُ كلّ ثقة من جانب أهل التقى والصلاح ، وبدأت الثقة تتحول عنهم إلى طائفة خلفتهم ، وهى طائفة المذكرين ، ويسمى مجلسهم مجلس الذكر[٤] . وقد نشأ مجلس الذكر من تعود بعض الصالحين التسبيح متنفلين بعد انقضاء الصلاة[٥] . وكان الصوفية يسمون خطباءهم بهذا الاسم ، المذكرين[٦] . ويرجع إلى عصر التنافس بين المذكرين والقصاص ما قاله أبو طالب المكى من أن حضور الرجل مجالس الذكر أفضل من صلاته ، وصلاته أفضل من حضور مجالس القصاص[٧] . وقد فرق البعض بين طوائف المتكلمين

---

(١) قوت القلوب لأبى طالب المكى ج ١ ص ١٤٩ . ويحكى عن أحد القصاص أنه كان يقص على الناس بطرسوس فأدركته روعة مما كان يصف من جلال الله وعظمته وبأسه وسطوته فخر مغشيا عليه ومات عام ٣٣٥ هـ — ٩٤٦ م (طبقات السبكى ج ٢ ص ١٠٣) .

(٢) Goldziher, Muh. Studien, II, s. 166 .

(٣) المنتظم لابن الجوزى ص ١٥٢ ب .

(٤) المقدسى ص ١٨٢ . وأقدم نص وجدته ورد فيه لفظ المذكر هو قصيدة حصار بغداد فى عهد الأمين (١٩٨ هـ — ٨١٣ م) للشاعر الأعمى المعروف بعلى بن أبى طالب — مروج الذهب للمسعودى ج ٦ ص ٤٤٨ .

(٥) المقدسى ص ١٨٢ .

(٦) كشف المحجوب ص ٢٣٥ .

(٧) المدخل لابن الحاج ، ج٢ ص ٢٣ ؛ ولم أستطع أن أجد هذه الكلمة فى قوت القلوب .

فيحكى أبو طالب المكى : « وقد قسم بعض العلماء المتكلمين ثلاثة أقسام فوصفهم بأماكنهم فقال : المتكلمون ثلاثة : أصحاب الكراسى وهم القصاص ، وأصحاب الأساطين وهم المفتون ، وأصحاب الزوايا أهل المعرفة ، فمجالس أهل العلم بالله تعالى وأهل التوحيد والمعرفة هى مجالس الذكر »[1] . وقد أتعب المذكر نفسه فى أن يظهر بمظهر يكسبه من التقدير ما يزيد على سلفه القاص ، وأكبر مظهر لذلك أنه كان لا يتكلم ارتجالا ومن غير تقيد ، بل كان يقرأ من دفتر[2] . وفى أيامنا هذه نجد القاص فى بغداد يروى قصص الأبطال بأن يقرأها من كتاب صغير معه ، على حين أن الأخبارى اليهودى يروى حكاياته من غير دفتر ، وكان الأول ينظر إلى الثانى نظرة الاحتقار ، وقد بين السمرقندى (المتوفى عام ٣٧٥ هـ) ما ينبغى أن يكون عليه المذكر ومن يستمع إلى حديثه ، فأول ما يحتاج إليه أن يكون صالحاً فى نفسه وَرِعاً ، وأن يكون متواضعاً ، ولا يكون متكبراً ولا فظًّا غليظاً ، وأن يكون عالماً بتفسير القرآن والأخبار وأقاويل الفقهاء ، لا يحدّث الناس إلا بما صح عنده ، وينبغى ألا يكون طامعاً ؛ ولو أهدى إليه إنسان من غير مسألة فلا بأس أن يقبل هديته . وينبغى أن يكون فى مجلسه الخوف والرجاء ، ولا يجعله كله خوفاً ولا كله رجاء ، فإن كان المذكر يحتاج إلى تطويل المجلس فيُستحب له أن يجعل فى خلال مجلسه كلاماً يستظرفه السامعون ، ويتبسمون له ، فإن ذلك يزيدهم نشاطاً وإقبالا على السماع ، ومن آداب المستمعين أن يقولوا للمذكِّر عند فصل كل حديث صدقت أو أحسنت ، حتى يكون المذكر راغباً فى الحديث ؛ ويصلى عند سماع اسم محمد صلى الله عليه وسلم كالمذَّكر ، وأن ينزع وسواس الشيطان

---

(١) قوت القلوب للمكى المتوفى عام ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) المقدسى ص ١٨٢ ، ٣٢٧ .

عن قلوبهم ، ولا ينام فى حال الجلس[1] ، وكان المجلس ينتهى بأن يأمر الذاكر سامعيه بالقيام ، فيقوموا ، وهو معهم ، ويأخذون فى الدعاء[2] .

وكان أصحاب المجموعات الفقهية التى ألفت فى القرن الثالث الهجرى لا يجهلون ما كان يُقال من أنواع الذكر الذى هو عبارة عن تكرير لفظ من ألفاظ الدعاء ؛ ولـكنهم لم يعلّقوا على ذلك أية قيمة . ويُروى عن النبى (عليه السلام) أنه أوصى بأن يسبّحَ المصلّى بعد الصلاة ثلاثاً وثلاثين ، ويحمّدَ ثلاثاً وثلاثين ، ويكبّرَ ثلاثاً وثلاثين[3] وفى القرن الثانى الهجرى قال الأصمعى لخلف الأحمر : أما ترى ما جاء به ابن داب من الحجاز والشوكرى من الكوفة ؛ فأجاب بما يحط من قدر علمهما ، بأن قال : إنما يروى لهؤلاء من يقول : قالت ستى ، ويدعو ربه من دفتر ، ويسبّح بالحصى ، ويحلف بحياة المصحف ، ويدع حدّثنا وأخبرنا ، ويقول : أكلنا وشربنا[4] . وقد وصف الدارمى المتوفى عام ٢٥٥ هـ — ٨٦٩ م فى سننه قوماً كانوا يقعدون فى المسجد على هيئة حلقات ينتظرون صلاة الصبح وفى أيديهم حصى صغير ، وكان لـكل حلقة إمام يقول لهم : قولوا الله أكبر مائة مرة ، ثم سبحان الله مائة مرة ، وكانوا يعدون ذلك بالحصى الذى فى أيديهم ، فمر بهم شيخ ، فقال لهم : أولى بكم أن تعدوا ذنوبكم[5] . وقد بقى الذكر فى أثناء القرن الثالث الهجرى كله يعتبر قليل القيمة ، ويندر أن نجد له ذكراً فى كتب العلماء فى ذلك القرن ، فلما جاء القرن الرا فصل الذكر عن الدعاء

(١) بستان العارفين على هامش تنبيه الغافلين للسمرقندى ص ٢٥ وما بعدها .

(٢) المنتظم لابن الجوزى ص ٨٩ به .   (٣) البخارى : باب الذكر .

(٤) الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ١٠٩ .

(٥) سنن الدارمى طبعة كونبور ١٢٩٣ هـ ص ٣٨ ، كما نقل ذلك جولدزيهر فى مجلة تاريخ الأديان R H R عام ١٨٩٠ ص ٢٩٩ .

الذى يقال اختياراً لغرض معين ، وصار يقصد به الدعاء القصير المتكرر على هيئة ورد ، والتحية ، وما يقال عند الطعام وفى الصباح والمساء ، وما اعتاده المسلمون من كثرة ذكر الله فى أثناء عملهم اليومى[1] ؛ وجُعل لهذا العمل الدينى شأنٌ كبير ، ورُوى عن النبي عليه السلام أنه قال : « من دخل السوق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، وهو حى لا يموت بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير ، كتب الله له ألف ألف حسنة ، ومحا عنه ألف ألف سيئة ، ورفع له ألف ألف درجة[2] » ، ويحكى عن أبى زرعة محمد بن عثمان الدمشقى قاضى مصر المتوفى عام ٣٠٢ هـ — ٩١٤ م أنه أهدى إلى خارويه رغيفاً ختم عليه عشر ختمات وعشرة آلاف قل هو الله أحد فقبله خارويه وتبرك به[3] . ويحكى عن عالم كان نزيل مكة وتوفى عام ٤٢٥ هـ — ١٠٣٤ م أنه كان يقرأ فى كل أسبوع ستة آلاف قل هو الله أحد[4] .

وكان أبو الحسن البوشنجى المتوفى عام ٤٦٧ هـ — ١٠٧٤ م فقيها زاهداً ورعاً صوفيا ، ويحكى أنه كانت لا تسكن شفتاه من ذكر الله عز وجل ، وجاءه مزين مرة ليقص شاربه فقال له : أيها الإمام يجب أن تسكّن شفتيك ، فقال : قل للزمان حتى يسكن[5] . ويحكى عن أحد العلماء الصالحين أنه بعد أن مات رآه رجل فى المنام ، وهو واقف فى المحراب ، وعليه حلة ، وعلى رأسه تاج مكلل ؛ فقال له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى وأكرمنى وتوّجنى ، وأدخلنى

(١) يضع صاحب العقد الفريد — وهو يمثل آراء القرن الثالث الهجرى — أمثال هذه العادات الدينية الصغيرة فى باب الدعاء (العقد ج ١ ص ٢٢٢) ، على حين أن السمرقندى يعقد بابا خاصا للذكر . (٢) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص ٢٠١ ، ٢٥٥ .

(٣) ملحق الكندى ص ٥١٩ نقلا عن ابن زولاق المتوفى عام ٣٨٦ هـ — ٩٩٦م .

(٤) طبقات السبكى ج ٢ ص ٨٥ .

(٥) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٢٨ .

الجنة ؛ فقال له الرجل : بماذا ؟ قال : بكثرة صلاتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] . وذكر القشيرى فى رسالته[2] بإسناد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا تقوم الساعة على أحد يقول : الله الله ؛ أو أنه قال : لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض الله الله . وكان لعبد الله بن عباس خمسمائة أصل زيتون يصلى فى كل يوم إلى كل أصل ركعتين ، فكان يدعى ذا الثفنات[3] ، على أنه حل محل الحصى أو مثل هذه الطريقة فى إحصاء العبادات شىء جاء من المشرق وهو السبحة ؛ وأول إشارة تدل على استعمالها من حيث التاريخ ما جاء فى قصيدة لأبى نواس ، وهو فى السجن فى عهد الخليفة الأمين (١٩٣ — ١٩٨ هـ = ٨٠ — ٨١٣ م) ، وفى هذه القصيدة يخاطب أبو نواس الوزير ابن الربيع بقوله :

أنت يا ابن الربيع ألزمتنى النسـ ـك وعودتنيه والخير عاده
فارعوى باطلى وأقصر حبلى وتبدلت عفة وزهاده
المسابيح فى ذراعى والمصحـ ـف فى لبتى مكان القلاده[4]

وكان حظ السبحة من قلة التقدير من جانب العلماء والصالحين فى القرن الثالث الهجرى أقل من حظ الذكر نفسه ، فكانت لا ترى إلا فى أيدى النساء أو مدعى الصلاح ؛ وقد رأى أحد الصوفية فى يد الجنيد سيد الصوفية المتوفى عام ٢٩٧ هـ — ٩٠٩م سبحة فقال له : أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة ![5] ،

---

(١) ابن بشكوال ج ١ ص ١٣٤ . (٢) الرسالة ص ١٠١ باب الذكر .
(٣) الكامل للمبرد طبعة مصر ١٣٠٨ هـ ص ٣٦٧ من الجزء الأول .
(٤) ديوان أبى نواس طبعة مصر ١٨٩٨ م ص ١٠٨ .
(٥) رسالة القشيرى ص ١٩ ، ومقال جولدزيهر فى مجلة تاريخ الأديان ، ومجلة جمعية المستشرقين الألمان. Goldziher, R H R, 1890 s. 295 ff; Z D M G, 50, s. 488 ، ومطالع البدور للغزولى ج ٢ ص ٦٦ ؟

على أن السبحة تذكر باعتبارها من أخص أهبة النساء الصوفيات فى القرن الخامس الهجرى[١] .

وكان من أشد الخطب الدينية قوة وتأثيرا بين المسلمين المواعظ التى كان يتطوع للقيام بها أهل الفصاحة واللسن ، علماء كانوا أو غير علماء ، مقبلين على ذلك إقبالا شديداً ، وكانت عادة هؤلاء أن يجلسوا لوعظ الناس فى أيام الصوم من رمضان وفى أيام الجمع بعد تأدية الصلاة ، وهـذه هى العادة الجارية اليوم فى مصر على الأقل[٢] . وكان من عادة الكثيرين من الكبراء أن يستدعى أحدهم واعظاً مشهوراً ويقول له : عِظْنى أو خوِّفنى[٣] . وكثيراً ما كانوا يسمعون منهم ما لا يحبون ولا يتورعون من غليظ القول . أما عامة المدن بما كان لهم من تذوّق للفن البلاغى ، فقد كان للواعظ بينهم قدرة على جذبهم لدرجة تخرج عن مألوف العادة ، وكان للوعاظ فى الاحتفالات الحربية والدينية والأعياد نصيب إلى جانب المكدين والمخرّفين والشعراء فى العمل على تغذية خيال العامة المتعطش . وكثيراً ما لحقتهم مفاسد هذه المهمة ، فاتخذوا منها وسيلة للكسب ، وإن كان العصر الذى نتكلم عنه لم ينطبق عليه بعد ما قاله الجوبرى عن الوعاظ من أن صناعتهم « أعلى مرتبة بنى ساسان »[٤]. على أنه كان فى القرن الرابع من العلماء الصالحين من يكره الجلوس للعظة[٥] ، وكانوا مُحقِّين فى ذلك ؛ فإن كبار

(١) طبقات السبكى ج ٣ ص ٩١ .

(٢) حاضر المصريين لمحمد عمر طبعة القاهرة عام ١٣٢٠ ص ١٠٣ .

(٣) يجد القارئ بعض هذه الحكايات فى الجزء الأول من العقد الفريد طبعة مصر ١٣٠٢ هـ ص ٣٥٦ . ويقول مرجليوث (فى تعليقه على الترجمة الإنجليزية) إن السبحة ذكرت فى بيت لبشار ، (الكامل ج ٢ ص ٨٠) .

(٤) كشف الأسرار مخطوط ڤينا رقم ١٠٤ ص ١٧ ب .

(٥) بستان العارفين للسمرقندى ص ٢٢ .

الوعاظ كانوا بطبعهم أصحاب صناعة ، ولما كانوا خطباء مفوّهين فقد كانوا أيضاً يحبون أبهى عادات عصرهم والظهور بأحسن مظاهره .

وكان أشهر واعظ ببغداد فى القرن الرابع هو أبو الحسين بن سمعون (٣٠٠ — ٣٨٧ هـ = ٩١٢ — ٩٩٧ م) ، وكان من عادته أن يلبس أحسن الثياب ويأكل أطيب الطعام ، فقال له رجل : كيف هذا وأنت تدعو الناس إلى الزهد فى الدنيا والترك لها ؟ فأجابه : كل ما يصلحك لله فافعله ؛ إذا صلح حالك مع الله فالبس لين الثياب وكل أطيب الطعام ، فلا يضرك[١] . ويحكى الصاحب بن عباد فى كتاب الروزنامجة أنه رآه وسمعه ببغداد ، « وقد لبس فوطة قصب وقعد على كرسى ساج بوجه حسن ولفظ عذب »[٢] . ولما دخل عضد الدولة بغداد وكان أهلها قد هلكوا قتلا وحرقاً وجوعاً للفتن التى اتصلت فيها بين الشيعة والسنة ، أمر بمنع القصاص من القصص لأنهم كانوا يحرضون الناس على القتال والنهب . ولكن ابن سمعون لم يخضع لهذا الأمر ، فجلس على كرسيه يوم الجمعة وتكلم فى الناس ، فأمر عضدُ الدولة بإحضاره بين يديه ، فأحضره شكرٌ المتضدى ، وخشى عليه من مكروه يحل به من عضد الدولة ، وأوصاه أن يقبّل التراب ويتلطّف فى الجواب ، وأن يسلّم بخشوع وخضوع ، ودخل ليستأذن له من عضد الدولة ، فإذا هو إلى جانبه أمام الملك ، وقد حوّل وجهه نحو دار بختيار ، واستفتح فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ . ثم حوّل وجهه نحو الملك ، وقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ . وأخذ فى وعظه ، فأتى بالعجب حتى

(١) حكى ابن سمعون نفسه أن جده إسماعيل سماه سمعون بكسر السين ، انظر تاريخ بغداد مخطوط باريس ص ٨٥ أ وما بعدها .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣١٩ .

دمعت عينُ الملك على شدة تجبُّره وسطوته ، وما رؤى منه ذلك قط . ثم أراد الملكُ أن يمتحنه فأرسل إليه مالا وثياباً وعزم إنْ أخذها ليَقْتُلَنَّهُ ، فردّها ، ولم يَرْضَ أن يأخذها حتى لأصحابه ، وقال : أصحاب السلطان أفقر إلى هذا من أصحابى . وعرف السلطانُ الخبر فقال : الحمد لله الذى سلّمه منا وسلّمنا منه[1] . وكانت تقع له الكرامات ، فشفى بنتاً عرجاء بأن مشى على رجلها ، وكان يكشف له عن أحوال الجالسين ، ويحكى أن رجلا نام وهو فى مجلس الوعظ ، فأمسك ابن سمعون عن الكلام ساعة حتى استيقظ الرجل ورفع رأسه ، فقال له ابن سمعون : « رأيتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومك ، قال : نعم ، فقال أبو الحسين : لذلك أمسكْتُ عن الكلام خوفاً أن تنزعج وتنقطع عما كنت فيه »[2] . وبلغَ الخليفة الطائع أن ابن سمعون ينتقص علىّ بن أبى طالب ، فأحب أن يتيقّن ، وأرسل إليه ، وهو على صفة من الغضب ، وكان يُتقّى فى تلك الحال ، لأنه كان ذا حدّة ، فلما مثل ابن سمعون بين يديه كان أول ما افتتح به كلامه أن ذكر على بن أبى طالب وروى عنه أخباراً وأحاديث ، وأعاد وبدأ فى ذلك ، ولم يزل يجرى فى ميدان الوعظ حتى بكى الخليفة الطائع وسُمع شهيقُه ، وابتل منديل بين يديه بالدموع ، فأمسك ابن سمعون ، فعلم الخليفة أن الواعظ وُفّق إلى ما تزول به عنه الظنّةُ ، وخطر له أنه كوشف بما أُرسل إليه من أجله ، وأعطاه درجاً فيه طيب وغيره[3] . وكان أكبر واعظ قبل ابن سمعون بنصف قرن أبا الحسن على بن محمد الواعظ الملقب بالمصرى ، لأنه أقام بمصر مدة طويلة ، والمتوفى عام ٣٣٨هـ — ٩٤٩م ، وكان يحضر مجلس وعظه رجال ونساء ؛ فكان يجعل على وجهه برقعاً خوفاً أن يفتتن

---

(١) المنتظم ص ١١٢ ب .

(٢) نفس المصدر ص ١٤١ ا (؟) ؛ وتاريخ بغداد مخطوط باريس ص ٨٥ ب .

(٣) تاريخ بغداد ص ٨٥ ب — ٨٦ ا .

به النساء لحسن وجهه[1] . وكان من الوعاظ أيضاً أبو عبد الله محمد بن أحمد الواعظ الشيرازى المتوفى عام ٤٤٩ هـ — ١٠٤٧ ، قدم بغداد يتكلم بلسان الوعظ والزهد ، ويلبس المرقعة ، فافتتن الناس به لما رأوا من حسن طريقته ، وعمر مسجدا كان خراباً ، فسكنه ، ومعه جماعة من الفقراء . ثم نزع المرقعة ، ولبس الثياب الناعمة الفاخرة ، بعد أن حصل له المال الكثير ، وكثر أتباعه ، فأظهر أنه يريد الغزو ، فحشد الناس إليه ، وصار له من الأتباع عسكر كثير ، وصار إلى ناحية أذربيجان ، فاجتمع له بها جمعٌ حتى ضاهى أمير تلك الناحية[2] . بل يذكر لنا من أخبار القرن الرابع ظهور واعظة وهى ميمونة بنت ساقولة الواعظة البغدادية المتوفاة عام ٣٦٣ هـ — ١٠٠٢ م ، « وكان لها لسان حلو فى الوعظ » ، وكانت زاهدة ، ويُحكى عنها أنها قالت : « هذا قيمصى له اليوم سبع وأربعون سنة ألبسه وما تخرّق ، غزَلَتْهُ لى أمى ، الثوب إذا لم يُعصَ الله فيه لا يتخرق »[3] .

ولم يكن لهؤلاء القوم فى ذلك العصر أية صبغة رسمية ، فلا نجد مثلا ذكرا لعلماء معترف بهم فى ذلك القرن يخرجون لوعظ الناس ، ويحكى عن ابن الجوزى بعد ذلك بقرنين أنه حضر للاستماع لمجلس وعظه مائة ألف إنسان[4] . ولم يكن للإسلام فى الواقع أية صبغة كهنوتية ، بحيث كان يُسمح لهؤلاء الخطباء المتطوعين الذين يتكسبون بالوعظ أن يرتقوا المنابر فى المساجد دون أن يتعرض لهم أحد ، ولم يكن بينهم وبين خطباء الجمعة الرسميين فرق سوى أنهم كانوا لا يعظون وهم وقوف ، بل كانوا يجلسون على الكراسى ، ويُحكى عن أبى زكريا

---

(١) المنتظم ص ٨١ ا ، وحضر مجلسه أحد العلماء مستخفياً ، فلما أعجبه شهر نفسه وقال له : أيها الشيخ ! القصص بعدك حرام .

(٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ١١١ ا — ١١٢ ب من مخطوطة باريس .

(٣) تاريخ أبى المحاسن طبعة كلفورنيا ص ٤٦ [illegible]

يحيى بن معاذ الرازى الواعظ المشهور المتوفى عام ٢٥٨ هـ — ٨٧٢ م أنه جاء إلى شيراز فصعد المنبر ، واجتمع الناس فأول ما بدأ به أن قال شعراً :

مواعظ الواعظ لن تقبلا حتى يعيها قلبــــه أولا
يا قوم من أظلم من واعظ خالف ما قد قاله فى الملا
أظهر بين النـاس إحسانه وبارز الرحمن لمـا خلا

ثم وقع من على الكر سى ، ولم يتكلم فى ذلك اليوم[1] . وكذلك كان من عادة القاص من قبل — ب مصر على الأقل — أن يقرأ فى المصحف ثم يقص وهو جالس[2] . ولا بد أن يكون أصل هـذه العادة أيضاً راجعاً إلى ما كان عند المسيحيين الأولين لأنه حتى عصرنا هذا لا يتكلم الخطيب فى أيام الصوم الكبير عند الرومان الكاثوليك من على منبر ؛ بل من على منصة فى وسط الكنيسة ، ويجلس فى معظم الأحيان على كرسى . ونستطيع أن نلاحظ أنه منذ القرن السادس الهجرى فما بعده كانت ترسل إلى الخطيب رقاع ليجيب عنها[3] .

أما عند الفاطميين — ... كان للدين عندهم من صبغة إكليريكية فقد كان للخليفة جليس يذاكره بما يحتاج إليه من كتاب الله وأخبار الأنبياء والخلفاء ، ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق ، وله بذلك رتبة عظيمة تلى رتبة صاحب ديوان المكاتبات ، وهو يجتمع بالخليفة فى أكثر الأيام ، ومعه دواة مُحَلّاة ، فإذا فرغ من المجالسة ألقى فى الدواة كاغد فيه عشرة دنانير وقرطاس فيه ثلاثة مثاقيل ندٍّ ليتبخر به عند دخوله على الخليفة ثانى مرة[4] .

---

(١) زبدة الفكرة مخطوط باريس ص ١٠٩ ب — ١٢٠ أ . وهذا معنى ما قاله جولد زيهر فى مجلة المستشرقين الألمان . انظر Z d m g, 55, S. 507 anm 4.

(٢) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٢١ ، وعجائب المخلوقات للقزوينى ص ٢١٤ ، وكتابه الأذكياء لابن الجوزى ص ٩٥ . (٤) الخطط للمقريزى ج ٦ ص ٣٠٦ .

وكانت المساجد تظل مفتوحة ليلا ونهاراً إلا فى أحوال قليلة[١] . وهى بحكم الشرع يجوز أن تكون مأوى لمن لا يجد له مسكناً وللمسافرين والمتعبّدين ؛ وكان فى هذا ما يخفف بعض أعباء الحياة ومصاعبها ، ومما يحكى أنه كان يجتمع فى أحد المساجد بمصر جماعة من الرؤساء للنوم والحديث فى صحنه فى الليالى المقمرة ، فلما كانوا ليلة ، وأكلوا وتحدثوا ، انضم إليهم أحد الحواة ، فلما ناموا انفتحت سلة الحاوى ، وانطلق ما كان فيها من الأفاعى الغريبة ، فأيقظ القوم ، وكان معهم أطفال وصبيان ، فنهم من طلع على المنبر ، ومنهم من تسلق العمد ، ثم طلعوا المئذنة ، وناموا إلى بكرة . وكان قيّم المسجد يعلم أخبار هذه الاجتماعات التى تفرق شملها بعد تلك الليلة[٢] . على أنه كان يندر أن تكون « بيوت الله » خالية أثناء النهار[٣] ؛ وذلك فى المدن على الأقل ، وكانت أشبه بنوادٍ أو مجتمعات للناس . وخصوصاً المسجد الجامع ؛ حيث كان القاضى يجلس فى النهار للحكم بين الناس[٤] ؛ والعلماء يعقدون حلقات التدريس ؛ وكان موضع العالم يعرف بالسجادة التى يصلى عليها ، وكان من علامة سخط الحكومة على حلقة عالم من العلماء ومنعه من عقد مجلس علمه فى المسجد أن ترمى سجادته خارج

---

(١) وكان المسجد الجامع فى مصر على عهد الطولونيين يغلق بعد صلاة العشاء ، لأن بيت المال كان فيه (ابن رستة ص ١١٦) ، وفى عام ٢٩٤ أمر والى مصر بإغلاق المسجد الجامع فيما بين الصلوات ؛ فكان يفتح فى أوقات الصلوات فقط ، فضج الناس من ذلك ثم فتح لهم (الكندى ص ٢٦٦ من كتاب الولاة)

(٢) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢١٩ .

(٣) المحاسن والمساوى للبيهقى ص ٤٨٣ (؟) .

(٤) على أن حركة أهل السنة فى القرن الثالث بما كان لها من رد فعل قوى اعتبرت ذلك امتهاناً لحرمة المسجد ، فأمر المعتضد عام ٢٧٩ هـ ألا يجلس فى الجامع قاض ، وحلف باعة الكتب ألا يبيعوا كتب الفلاسفة والجدل ونحو ذلك — النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٨٧ طبعة ليدن ، والأصح أن كلمة قاض هنا هى تحريف لكلمة قاص ، لأن القصص هو الذى كان مكروهاً فى المساجد ، انظر تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢١٣١ ، ٢١٦٠ . (المترجم)

المسجد . وكان يبلغ النشاط فى المسجد أقصاه فى المساء ، وهو وقت النشاط الدينى عند الشرقيين ، وحوالى هذا العصر الذى نتكلم عنه يحكى لنا القدسى ما شاهده فى الفسطاط فيقول : « وبين العشاءين (بالفسطاط) جامع مغتص بحلق الفقهاء وأئمة القراء وأهل الأدب والحكمة ، ودخلتها مع جماعة من المقادسة ، فربما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين : دوّروا وجوهكم إلى المجلس ، فننظر فإذا نحن بين مجلسين ، على هذا جميع المساجد ، وعددت فيه مائة وعشرة مجالس »[1] .

وكان الناس بمصر يجعلون لأنفسهم كثيراً من الحرية فى المساجد ، وقد اندهش ابن حوقل ، لأنه من أهل المشرق ، حينما رأى الناس يأكلون فى المسجد ، وحينما رأى باعة الخبز والماء يباشرون حرفتهم هناك[2] . ويحكى لنا القدسى ، وهو شامىّ ، أن المصريين يكثرون النخع والمخاط فى المساجد ، ويجعلونه تحت الحصر[3] .

وكانت المساجد الصغيرة بالنسبة للمسلمين الذين يعيشون على مقربة منها بمثابة بيوت أخرى لهم ، وكانوا يستخدمونها فى منافع كثيرة ، فكان التاجر مثلا يودع فى المسجد درّابات دكانه التى يغلقه بها[4] . وفى فارس كان الناس يجلسون فى المساجد ثلاثة أيام للتعزية[5] . فقد ظل المسجد محتفظا بصبغته الأولى وهى أن يكون « بيت النداء » الذى لا بد للجماعة الإنسانية منه فى العادة فكان يجلس فيه الناس للحديث[6] ، ويقصون فى نهارهم حوادث ليلهم[7] . وفيه كانت تقال القصائد الشعرية كما كان ملتقى أصحاب المغامرات الغرامية وعشاق الغلمان[8] . وكان من أكبر مراكز المحتالين واللصوص كما تدل على ذلك مجموعتا المقامتين

---

(١) القدسى ص ٢٠٥ . (٢) ابن حوقل ص ٣٤١ (٢)

(٣) القدسى ص ٢٠٥ .

(٤) الفرج بعد الشدة للتنوخى ج ٢ ص ١١٠ . (٥) القدسى ص ٤٤٠ .

(٦) مقامات الهمذانى طبعة بيروت ١٨٨٩ ص ١٠٧ .

(٧) كتاب الأغانى ج ١٧ ص ١٤ .

(٨) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٣٠ ، وانظر فصل الأخلاق والعادات ؛ والمنتظم ص ٤٨ أ .

المشهورتين[١]. وقد وصلت لنا هذه الحكاية التالية عن بعض المتأخرين : « رأيت بحرّان سنة ثلاثة عشر وستمائة رجلا من بنى ساسان ، قد أخذ قرداً علّمه السلام على الناس ، والتسبيح والسواك والبكاء ، ثم رأيت لهذا القرد من الناموس ما لا يقدر عليه أحد ، فإذا كان يوم الجمعة أرسل عبداً هنديا حسن الوجه نظيف الملبوس إلى الجامع ، فيبسط عند المحراب سجادة حسنة ، فإذا كان فى الساعة الرابعة لبّس القرد ملبوساً خاصا من ملابس أولاد الملوك ، وجعل فى وسطه حياصة لها قيمة ، ثم طيّبه بأنواع الطيب ، ثم أركبه بغلة بمركوب مذهب محلّى ، ثم مشى فى ركابه ثلاثةُ عبيد هنود بأفخر ملبوس ، الواحد يحمل الوَطا ، والآخر يحمل الشرموذة ، والآخر يطرق قدامه ، وهو يسلم على الناس ، وكل من سأل عنه يقول هذا ابن الملك الفلانى من أكبر ملوك الهند ، وهو مسحور ، فلا يزال حتى يدخل الجامع فيفرش له الوَطا فوق السجادة ، ويحط له سبحة ومسواكا ، فيقلع القرد منديله من الحياصة ، ويضعه بين يديه ، ويستاك بالمسواك ، ويصلى ركعتين تحية المسجد ، ثم يأخذ السبحة ويسبح ، فإذا فعل ذلك نهض العبد الكبير على قدميه فسلم على الناس ، وقال : يا أصحابنا ؟ من أصبح مُعافًى فإن لله عليه نعمةً لا تحصى ، واعلموا أن هذا القرد الذى ترونه بينكم ، والله ، لم يكن فى زمانه أحسن شباباً منه ، ولا أطوع لله تعالى منه . ولكن المؤمن مُلْقًى لقضاء الله ، وكان من القضاء المدبَّر أنْ زوّجه والده ابنةَ الملك الفلانى ، فأقام معها مدة ، ثم قالوا لها إنه قد عشق مملوكا له ، فأدركتها الغيرة وطلبت دستوراً لها فى زيارة أهلها ، فأذن لها فى ذلك وجهزها بما تحتاج إليه ، فلما حصلت عند أهلها سحرته

(١) حكى الحريرى أنه أنشأ المقامة الحرامية وبنى عليها سائر المقامات بعد أن شهد فى مسجد البصرة أبا زيد السروجى ، وكان شيخاً شحاذاً بليغاً ومكديا فصيحاً حسن صياغة الكلام ، وكان أبو زيد يتنقل بين المساجد ، ويغير فى كل مسجد زيّه وشكله ، ويظهر ما عنده من فنون الحيلة وبلاغة الكلام . انظر الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ١٦٨ .

كما ترون ، فلما رأى والده ذلك قال هذا أختلف به عند الملوك ، فأمر بإخراجه من ذلك الإقليم ، فأخرج ، وقد سألناها بجميع الملوك فادعت أنهـا خلفت عنده أثاثاً قيمته مائة ألف دينار ، وقد تخلف عليه عشرة آلاف ، من يساعده بشيء من ذلك ؟ فارحموا هذا الشاب الذى عدم الأهل والملك والوطن ، فأخرج من صورته إلى هذه الصورة ، فعند ذلك يجعل القرد المنديل على وجهه ويبكى ، فترق قلوب الناس لذلك ، ويرفده كل أحد بما يسره الله فما يخرج من الجامع إلا بشيء كثير ، وهو يدور به البلاد على هذه الصفة »[1] .

ولا نجد فيا قبل القرن الثالث الهجرى أثراً لتمدين المسجد واعداده بالأدوات اللائقة به ، ثم أصبح مجالا للعمل الفنى الجميل ، فمثلا أمر الخليفة المأمون بالكتابة إلى الآفاق فى الاستكثار من المصابيح فى المساجد[2]. وقد امتازت الشام بنوع خاص بإضاءة المساجد على الدوام ، وربما كان ذلك تقليداً للمسيحيين ، وكانوا يضيئونها بالقناديل « ويعلقونها بالسلاسل مثل مكة »[3]. ويظهر أنه فى أواخر القرن الرابع حدثت عادة إضاءة المساجد بمصباح كبير يشبه التنور ، ويسمى لذلك بالتنور ، وكان فيـه مجال لأصحاب الفن الزخرف لـكى يظهروا روائع مبتكراتهم ، وفى عام ٣٨٧ هـ عُمل فى جامع عمرو تَنُّور يوقد كل ليـلة جمعة ؛ وفى عام ٤٠٣ هـ أُنزل إليه من قصر الخليفة الحاكم بأمر الله تَنُّورٌ كبير من فضة فيه مائة ألف درهم فضة ، وعُلِّق بالجامع بعد أن قُلعت عتبتاه حتى أدخل فيه[4] . وقد ذُكر من أثاث الجامع الأزهر ، الذى أُنشئ بالقاهرة عام ٣٦١ هـ وجدده الحاكم بأمر الله ووقف عليه أوقافاً ، هذه الأشياء ، كما جاء فى كتاب الوقف :

---

(١) كشف الأسرار الجوبرى مخطوط فينا ص ٢٥ ا — ب .

(٢) المحاسن والمساوئ للبيهقى ص ٤٧٢ .   (٣) المقدسى ص ١٨٢ .

(٤) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١٤٥ طبعة مصر ١٣٢٧ هـ .

الحصر العبادانية .

الحصر المضفورة .

عود هندى، ومسك وكافور للبخور فى شهر رمضان وأيام الجمع .

شمع ومشاقة لسرج القناديل وفحم للبخور .

أربعة أحبل وستة دلاء أدم وعشر قفاف ومائتا مكنسة .

أزيار فخار وأجهزة حملها .

زيت للوقود .

تنوران فضة وسبعة وعشرون قنديلا فضة[١] .

وكانت المساجد تحت إشراف القاضى ، وكانت عادته فى القاهرة على عهد الفاطميين إذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام طاف يوما على المساجد لينظر حصرها وقناديلها وعماراتها وما تشعث منها[٢]، ولم تكن صيانة المساجد كثيرة النفقات ، فذُكر مثلا أن نفقات المسجد بمصر فى ذلك العهد بلغت اثنى عشر درهما فى الشهر ؛ وإن كان فى عام ٤٠٣ هـ — ١٠١٢م قُدِّر عدد المساجد التى لا دخل لها فى مصر بنحو من ثمانمائة وثلاثين مسجداً . وفى عام ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م وقف الخليفة عدداً من الضياع للإنفاق منها على المساجد الجامعة التى يخطب فيها وعلى قرائها وعلمائها ومؤذنيها[٣] ، أما فيما يتعلق بالتفصيل فى تزيين بيوت الله فى داخلها فليس عندى فى ذلك مع الأسف إلا معلومات قليلة : ففى البلاد الآرامية لم يمكن القضاء على المعابد البعلية القديمة بما كان فيها من عبادة الأشجار ، وكان فى طبرية بفلسطين مسجد يسمى مسجد الياسمين لأن ساحته كانت مملوءة بشجر الياسمين[٤] . وكان بجامع الرقة شجرتا كرم وشجرة توت ، وكانت عادة أهل

(١) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٧٤ ، وانظر حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٢٩٥ .
(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٩٥ ؛ (٣) نفس المصدر ج ٢ ٢٩٥ .
(٤) ناصر خسرو ص ٥٦ .

مصر أنهم يضربون على جوامعهم شراعات وقت الخطبة[١] ، وهذا شبيه بما كان يعمله الهلينيون عند عقدهم حلقات الألعاب ، على أنه يحكى مثل ذلك عن شيراز والبصرة[٢] ، وكان فى جامع دار السلطان ببغداد منبران[٣] . وكان فى جوامع خراسان قدور كبار من نحاس على كراسى يطرح فيها الجمد مع الماء يوم الجمعة[٤] وكان فى جامع ابن طولون بمصر فوّارة على الصورة المألوفة حتى ذلك العهد : كان فى وسط صحنه قبة مشبكة من جميع جوانبها ، وهى مذهبة على عشرة عمد من رخام ، مفروشة كلها بالرخام ، وتحت القبة قصعة رخام سعتها أربعة أذرع فى وسطها فوارة تفور بالماء[٥] ، وهذه الفوارة ذات القبة حلت محل القبة التى كانت تحمل بيت المال فى المساجد الأخرى . وبعد ذلك بمائة عام عملت أول فوارة تحت قبة بيت المال فى جامع عمرو[٦] . ويحكى لنا ناصر خسرو بعد ذلك بمائة عام أنه رأى مثل هذه الفوارة وفيها أنبوبة من نحاس فى بلدتى آمد وطرابلس الشام[٧] . وكذلك كانت تجمع النفقات لبناء الجوامع أو إضافة البقاع والدور إليها ؛ فنى سنة ٢٢٦ هـ — ٨٤١ م كان لأحد الذين نصبوا أنفسهم لذلك أثر كبير فى توسيع جامع بأصفهان ، فكان يكلم الرجل بعد الرجل حتى اجتمعت له الجمل الكثيرة ، وكان لا يستحقر خاتماً أو قيمته أو كبة غزل أو قيمتها[٨] .

وقد اتخذت العبادة صورة تختلف باختلاف البلاد ؛ ولم تحتفظ فى أى مركز من المراكز الكبرى فى بلاد الإسلام بالصبغة الإسلامية الأولى فى بساطتها ونقائها .

(١) المقدسى ص ٢٠٥ . (٢) المقدسى ص ٢٠٥ ، ٤٣٠ .

(٣) المنتظم لابن الجوزى ص ٦٧ ب . (٤) المقدسى ص ٣٢٧ .

(٥) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١٣٧ . ؟ ومما يدل على أنها شىء مستحدث ما وجه لها من النقد . وابن طولون لم يعمل الميضأة فى المسجد ، بل بناها خلفه فى مؤخره . نفس المصدر . (٦) نفس المصدر ج ٢ ص ١٣٥ من طبعة مصر ١٣٢٧ هـ .

(٧) ناصر خسرو ص ٢٨ ، ٤١ من الترجمة . (٨) ذكر أخبار أصفهان مخطوط ليدن ص ١١ ب .

وقد دخلت على العبادة الإسلامية فى كل ناحية المظاهر الدينية القديمة ؛ وأهم ما نجده فى القرن الرابع ظهور التطريب فى القراءة والأذان فى جميع النواحى ؛ ويحكى ابن رسته أنه كان بمسجد صنعاء اثنان وعشرون مؤذناً يؤذنون جميعاً فى كل صلاة ؛ أحدهم فى إثر الآخر إلا فى صلاة المغرب خاصة ، ثم يأخذون جميعاً فى الإقامة بصوت واحد وهم يمشون من المنارة إلى الصف ، فإذا انتهوا إلى الصف يكونون قد فرغوا من الإقامة[1] . ومن هذه العادة نشأت هيئة المؤذنين الرسمية — وفى خراسان كان للمؤذنين سرير قدام المنبر يؤذنون عليه بتطريب وألحان[2] . وقراءة القرآن بالتلحين — وربما كانت تقليداً لما جرى عليه النصارى فى كنائسهم — أنكرها مالك رضى الله عنه ، وأجازها الشافعى ، وهى القراءة الذائعة الآن فى أكثر البلاد الإسلامية[3] . وفى عام ٢٣٧ هـ — ٨٥١ م ولى قضاء مصر الحارث بن مسكين بعد رجوع السلطان مذهب أهل السنة ، فمنع القراء الذين يقرءون القرآن بالألحان فى بعض المساجد الصغيرة ، لا فى المسجد الجامع ، من القراءة بالألحان ؛ وهو أول قاض فعل ذلك[4] . وكان أبو بكر الآدمى القاضى (المتوفى عام ٣٤٨ هـ — ٩٥٩ م) من أحسن الناس صوتاً بالقرآن ، حتى كان يسمى صاحب الألحان ، وقد حج مرة مع بعض العلماء فلما صاروا بمدينة الرسول عليه الصلاة والسلام وجد أحد أصحابه رجلا ضريراً قد جمع حلقة فى مسجد رسول الله وقصد يقدم ويروى الكذب من الأحاديث الموضوعة والأخبار المفتعلة ، وعرفوا أن النكير عليه لا يؤثر ، فأشار أحدهم على أبى بكر أن يستعيذ ويقرأ فما هو إلا أن ابتدأ حتى انحلت الحلقة من

(١) الأعلاق النفيسة لابن رسته ص ١١١ . (٢) المقدسى ص ٣٢٧ .
(٣) حاضر المصريين لمحمد عمر طبعة مصر ١٣٢٠ هـ ص ١٠٦ .
(٤) القضاة للكندى ص ٤٦٩ .

حول الضرير وانفضّ الناس جميعاً من حوله ، وأحاطوا بأبي بكر يسمعون قراءته ، تاركين الضرير وحده(١) . وفي سنة ٣٩٤ هـ — ١٠٠٣م خرج الأصيفر المتنفيق على الحاجّ ، وحصرهم ، وعزم على أخذهم ، وكان فيهم أبو الحسن الرفاء ، وأبو عبد الله الدجاجي ، وكانا يقرآن القرآن بأصوات لم يُسمع مثلها ، فحضرا عند الأصيفر ، وقرآ القرآن ، فترك الحاجّ ، وعاد وقال لهما : قد تركت لكما ألف ألف دينار(٢) . وهكذا أحرز هذان القارئان انتصاراً غريباً لم يكن يتوقع . وإن قصة أريون (Arion) ليصغر قدرها إذا قورنت بقصة هذين القارئين(٣) ، وكان الوعاظ المتطوّعون يجعلون هؤلاء القراء يجلسون على كراسي موضوعة أمام المنبر ، فيتوقّون ، ويشوّقون ، ويأتون بتلاحين معجبة ، ونغمات مطربة(٤) . وكان من الوعاظ الماهرين قوم يرتبون القراء حتى يقرءوا ما يقع من آيات في الخطبة(٥) .

حكى ابن طيفور (المتوفى عام ٢٧٨ هـ — ٨٩١ م) عن الخليفة المأمون أنه قال : « وإن الرجل ليأتيني بالقطيعة من العود ، أو بالخشبة ، أو بالشيء الذي لعل قيمته لا تكون إلا درهما أو نحوه ، فيقول إن هذا كان للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو قد وضع يده عليه ، أو شرب فيه أو مسّه ؛ وما هو عندي بثقة ، ولا دليل على صدق الرجل ، إلا أني بفرط النيّة والمحبة أَقبَلُ ذلك ، فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر ، ثم أضعه على وجهي وعيني وأتبرك بالنظر إليه وبمسه ،

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ٨٨ ب . (٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٢٩ .

(٣) كان أريون شاعراً وموسيقيا يونانيا عاش في القرن السابع قبل الميلاد ، وفي الأساطير أن القرصان رموه في البحر فنجاه من الموت نوع من السمك يسمى الدولفين Douphin ذلك لأنه ضرب على آلته الموسيقية فسحر السمك بحسن صوتها .

(٤) رحلة ابن جبير ص ٢٢١ . وكذلك كان يسمي باسم القراء من كان يقوم بالقراءة على المذبح في الكنيسة المسيحية . يقول أبو نواس (في ملحق الديوان طبعة القاهرة ١٣١٦ هـ ص ٨٠) : بداود وما يتلون منه بترجيع يردد في الحلوق

(٥) كشف الأسرار مخطوط فينا ص ١٧ ب .

فأستشفى به عند المرض يصيبنى أو يصيب من أهتم به فأصونه كصيانتى نفسى وإنما هو عود لم يفعل هو شيئاً ولا فضيلة له تستوجب المحبة ، إلا ما ذُكر من مسّ رسول الله صلى الله عليه وسلم »[1] . وفى القرن الرابع الهجرى كان تقديس المخلّفات عند أهل السنة مقصوراً فقط على ما خلفه النبى محمد عليه السلام ومن سبقه من الأنبياء ؛ وهذا دليل على أن تقديس الأولياء كان فى ذلك العصر فى دوره الأول[2] . ويحكى عن أبى العباس السيارى وهو شيخ من شيوخ الصوفية بمرو توفى عام ٣٤٢ هـ[3] أنه اشترى شعرتين من شعر رسول الله بمال كثير ورثه عن أبيه وأوصى أن توضعا فى فمه عنـد الممات[4] . وفى ذلك العصر تفاقم خطب التزوير ؛ ففى أوائل القرن الرابع رفع إلى أبى الحسن بن الفرات أن رجلا من اليهود ادعى أن معه كتاباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية عن أهل خيبر ، فأمر بإخراج الـكتاب ، فلما قرأه . قال : هذا مزوّر ؛ لأن خيبر افتتحت بعد تاريخ كتابك بسبعة وستين يوماً ، ولـكنا نحتمل عنك جزيتك إعظاماً لحقّ من لجأت إلى الاعتصام به[5] .

---

(١) كتاب بغداد ص ٢٦ .

(٢) وأستطيع أن أضيف إلى الآثار التى ذكرها جولتزيهر Goldziher Muh. Studien, II, 356 ff. ما يأتى : سرير النبى ، وقد اشتراه معاوية بواسطة أحد أصحابه ، بعد وفاة عائشة ، بمبلغ أربعة آلاف درهم (كتاب ألف با ج ١ ص ١٣١ نقلا عن ابن قتيبة) ؛ والبردة ، والعهد النبوى ، وهو مكتوب فى أديم وكانا [illegible] أذرح ، وهى مدينة متطرفة حجازية شامية كما يقول المقدسى (ص ١٧٨) .

(٣) رسالة القشيرى ص ٢٨ ، (٤) كشف المحجوب ص ١٥٨ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٦٧ — ٦٨ ، ويحكى أيضاً أنه فى عصر الخطيب البغدادى أظهر بعض اليهود كتاباً ، وادعى أنه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية عن أهل خيبر ، وفيه شهادات الصحابة ، وفيه خط على بن أبى طالب ، فعُرض على أبى بكر الخطيب فقال إنه مزوّر ؛ لأن فيه شهادة معاوية ، ومعاوية أسلم يوم الفتح ، وخيبر كانت فى سنة سبع ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ؛ وكان قد مات يوم الخندق فى سنة خمس ، انظر الإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٤٧ — ١٤٨ .

والأثر الوحيد الذى كان له حق لا نزاع فيه فى المساجد ، وشأن لا جدال فيه وخصوصاً بالنسبة لدين أساسه كتاب منزّل هو مخطوطات القرآن ، ولا سيما المصاحف التى يرجع أصلها إلى عثمان ، والتى تُعتبر لذلك أصح المصاحف . وكان يوجد من أمثال هذه المصاحف خمسة : المصحف الذى كان عند أسماء ، والذى كان محفوظا بجامع عمرو بمصر ؛ وكان يُقرأ منه ثلاث مرات فى الأسبوع ؛ وكان الخليفة الفاطمى يقبّله ويتبرّك به(١) . وكذلك كان فى الجامع الكبير بدمشق ، كما حكى ابن جبير فى القرن السادس الهجرى — خزانة كبيرة ، فيها مصحف من مصاحف عثمان ، وهو المصحف الذى وجّه به إلى الشام ، وتفتتح الخزانة كل يوم بعد الصلاة فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله ويكثر الازدحام عليه(٢) ، وهذا هو الأثر الوحيد الذى وجده ابن جبير . ولما ولى قضاء مصر الحارث بن مسكين عام ٢٣٧ هـ — ٨٥١ م كشف أمر المصاحف التى فى المسجد وولى عليها أميناً من قبله ، وهو أول من فعل ذلك من القضاة(٣) . وفى القرن الرابع زادت المصاحف التى تنسب لعثمان زيادة غريبة مما يدل على خفة الناس فى الاعتقاد بصحة نسبها . يحكى لنا المقريزى أن رجلا من أهل العراق جاء إلى مصر ، وأحضر مصحفاً ذكر أنه مصحف عثمان رضى الله عنه ، وأنه الذى كان بين يديه يوم الدار ، وكان فيه أثر الدم ، وذكر أنه استُخرج من خزائن المقتدر ، فدُفع المصحف إلى القاضى ، فأخذه ، وجعله فى الجامع ، وشهره ، وجعل عليه خشباً منقوشاً ؛ وكان الإمام يقرأ فيه يوماً وفى مصحف أسماء يوماً ، ولم يزل على ذلك إلى أن رُفع واقتصر على القراءة فى مصحف أسماء أيام العزيز بالله عام ٣٧٨ هـ — ٩٨٨ م(٤) . وفى عام ٣٦٩ هـ — ٩٧٩ م كان عند الخليفة ببغداد مصحف ينسب

(١) النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ج ٢ ص ٤٧٢ طبعة ليدن .
(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٧٠ (٣) القضاة للكندى ص ٤٦٩ .
(٤) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٥٥ .

لغيَّان . وضعه بين يديه وعلى كتفيه البردة و بيده القضيب ، وذلك عند تتويج عضد الدولة[١] . وحكى الشريف الإدريسى أنه كان فى مخزن جامع قرطبة « مصحف يرفعه رجلان لثقله ؛ فيه أوراق من مصحف عثمان بن عفان ، وهو المصحف الذى خطه بيمينه رضى الله عنه ، وفيه نقط من دمه ، وهذا المصحف يخرج فى صبيحة كل يوم جمعة ، ويتولى إخراجه رجلان من قومة المسجد ، وأمامهم رجل ثالث بشمعة ، وللمصحف غطاء بديع منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه ، وله بموضع المصلى كرسى يوضع عليه ، ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه ثم يُرَدّ إلى موضعه »[٢] . وكانت ثم مخلّفات أخرى محفوظة لقلة شأنها فى بعض الجوامع الإقليمية . ولم يكن علماء الدين يسمحون بحفظ هذه الأشياء لما فيها من تقليد للنصارى ، فكان فى مسجد ببرون نعال الرسول[٣] . وكان فى محراب الجامع بمدينة قُرْح المشهورة بتجارة فى جزيرة العرب عظم قالوا هو الذى قال للنبى صلى الله عليه وسلم : لا تأكلنى ، فأنا مسموم[٤] .

وكان يقابل النزعةَ الدينيةَ القوية من الجانب الآخر فئةٌ يحتقرون كل ما هو دينى ، ويجرءون على الجهر بذلك على نحو لم يسبق له نظير فى عصر من العصور ، فكان أبو العلاء المعرى الشاعر بالشام (ولد عام ٣٦٣ هـ — ٩٧٤ م وتوفى عام ٤٤٩ هـ — ١٠٥٧ م) يهاجم كل ما هو دينى مستنداً فى ذلك إلى وجهة نظر عقلية ، وهو من أسرة من القضاة الفضلاء[٥] . وقد أصابته علة الجدرى وهو ابن أربع سنين ، وذهب فيها بصره[٦] . ثم درس اللغة ، وألّف فى علومها بعض

(١) المنتظم ص ١١٥ ب .
(٢) وصف إفريقية والأندلس للإدريسى طبعة دوزى ودى غوى ص ٢١٠ .
(٣) Goldziher, muh. Stud. II, s. 362 . (٤) المقدسى ص ٨٤ .
(٥) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٦٢ — ١٦٣ .
(٦) نفس المصدر ؛ و J R A S, 1902, s. 296 .

التصانيف . وفى السابعة والثلاثين من عمره رجع من بغداد إلى المعرّة بلدته ، وهو يقول : رحلت فلا دنيا ولا دين نلته   وما أوبتى إلا السفاهة والخرق[١]

وأزمع على ثلاثة أشياء : « نبذة كنبذة فنيق النجوم ، وانقضاباً من العالم كانقضاب القائبة من القاب ، وثباتاً فى البلدان إن حال أهله من خوف الروم »[٢] ولما بلغ ثلاثين عاماً سأل ربه إنعاماً ورزقه صوم الدهر ، فلم يفطر فى السنة ولا الشهر إلا فى العيدين[٣] ، وكان له فى السنة نيف وعشرون ديناراً يصير إلى خادمه معظمها ، ويبقى له أيسرها ، ومع ذلك فقد رفض عطية أرسلها إليه الخليفة من مصر وذلك من غير غرض خفى وراء الإرسال فيما نعلم[٤] .

وقد أدرك أبا العلاء فى كبره العجزُ حتى كان يصلى قاعداً[٥] . ولم يكن فيلسوفاً بالمعنى الفنى لهذه الكلمة ؛ فلا نجد عنده تفكير اليونان ، كما أنه لم يكن بحاجة إلى التعمق فى التفكير ، فقد كان أديباً مصلحاً ، وهو شبيه بتولوستوى ، ينادى بالرجوع إلى العقل وإلى حياة البساطة ، وهو نباتى مدقّق فى مبدئه ، ولم يقتصر على ترك أكل اللحم بل ترك أكل اللبن والبيض والشهد[٦] . وهو

---

(١) بعض أشعار أبى العلاء نشرها كريمر ، انظر مجلة جمعية المستشرقين الألمان Z D M G, s. 503 .   (٢) رسائل أبى العلاء طبعة مرجليوث ص ٣٤ .

(٣) J R A S, 1902, 298 .

(٤) نفس المصدر ص ٣٠٢ ؛ وفى هذا الوقت الذى حدث فيه ذلك ، وكانت فيه ثروة أبى العلاء عنية ، مر الرحالة الفارسى ناصر خسرو بمدينة المعرة ، ولم يلبث فيها إلا يوماً واحداً ولم ير أبا العلاء ، ولكنه يقول : « هو رئيس البلدة ، وله ثروة كبيرة ، وعبيد وخدم ، وأهل البلدة كلهم خدم له ، وهو قد ترهد ، فلبس بسيطاً ولزم بيته ، وقوته نصف منّ من خبز الشعير ، وبابه مفتوح دائماً للزائرين ، ونوابه وأصحابه يديرون أمر البلدة ، ولا يرجعون لرأيه إلا فى الكليات ، وهو لا يرد طالباً نعمته ، ويصوم الدهر ويقوم الليل كله ، ولا يشغل نفسه بأمور الدنيا » ويقول أبو العلاء نفسه (كريمر ص ١٠١ ، وطبعة بجاى ص ٢٠٢) :

وانهاى بالمال كملك أن   يطلب ما يقتضى التمويل

(٥) J R A S. 1902, 304 .   (٦) نفس المصدر .

يحارب الخرافات والتنجيم ، ويحارب كل ما هو ديني بنوع خاص ، فهو يقول :[١]

أفيقوا أفيقوا يا غُواة فإنما ديانتكم مكرٌ من القدماء
أرادوا بها جمعَ الحطام فأدركوا وبادوا وماتت سنة اللؤماء

ويقول[٢] :

يرتجى الناس أن يقوم إمام ناطق فى الكتيبة الخرساء
كذب الظن ، لا إمام سوى العقـل مشيراً فى صبحه والمساء

ويقول :

إنما هذه المذاهب أسبا ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة لا يرقو ن لدمع الشمّاء والخنساء

ويقول[٣] :

فى القدس قامت ضجة ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدق وذا بآذان يصيح
كل يشيّد دينه يا ليت شعرى ما الصحيح

ويقول[٤] :

أقيمى لا أعد الحج فرضاً على عجز النساء ولا العذارى
ففى بطحاء مكة شر قوم وليسوا بالحماة ولا الغيارى
وإن رجال شيبة سادنيها إذا راحت لكعبتها الجمارا
قيام يدفعون الوفد شفعاً إلى البيت الحرام وهم سكارى
إذا أخذوا الزوائق أولجوهم ولو كانوا اليهود أو النصارى

وقد راسل أبا العلاء أحدُ أهل عصره ، وكان قد قام فى نفسه أن عند

---

(١) Kremer, Z D M G, 30, s. 40 .
(٢) نفس المصدر ص ٤٣ .
(٣) Z D M G, 29, 637-638 .
(٤) Z D M G, 30, s, 45 .

أبى العلاء « من حقائق دين الله سرًّا قد أسبل عليه من التَقِيّة ستراً »[١]، فسأله فلم يظفر بما أراد ، ولم يكن عند أبى العلاء ما يعلّمه للناس من أصول الأخلاق سوى التسليم والرضا مع الفرح ، والدعوة إلى حياة الزهد والبساطة ، ويتجلى هذا فى رسالته المسماة رسالة الغفران التى كتبها ردًّا على رسالة مشهورة بعثها له ابن القارح[٢] ، ورسالة الغفران يتجلى فيها التهكم الخفى على أتمّه ، وإن كانت رديئة التأليف ؛ وفيها تكلم عن أشياء كثيرة ، وتناول الكلام عن الجنة والنار والزندقة والعقل[٣] . ولهذا فإن تعاليم أبى العلاء ، رغم كثرة تلاميذه ، ذهبت كما يتبدد الدخان فى الجو .

وعلى حين كان علماء الدين يتجادلون فيما إذا كان القرآن مخلوقاً أو قديماً ، وعلى حين كان أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك المتوفى عام ٤٠٦ ﻫ — ١٠١٥ م لا ينام قط فى بيت فيه مصحف حتى كان إذا أراد النوم انتقل عن المكان الذى فيه إعظاماً لكتاب الله عز وجل[٤] ، كان ابن الروندى المتوفى عام ٢٩٣ ﻫ — ٩٠٦ م ، وهو من أكبر مستحق اللعنة بين الملحدين فى الإسلام ، يقول : إنا نجد فى كلام أكثم بن صيفى ما هو أحسن من بعض القرآن ، « وقال : إن المسلمين احتجوا لنبوة نبيهم بالقرآن الذى تحدى به النبى فلم يقدر العرب على معارضته ، فيُقال لهم : لو ادعى مُدّعٍ لمن تقدم من الفلاسفة مثلَ دعواكم فى القرآن فقال : الدليل على صدق بطليموس أن إقليدس ادعى أن الخلق يعجزون عن أن يأتوا بمثل كتابه ، لكانت نبوته تثبت[٥] . وحكى عن أبى الحسين بن أبى البغل أحد كبار العمال أن الوزير الخاقانى اتهمه بالإلحاد والاستهزاء بالقرآن وطلب من الخليفة المقتدر أن يمكنه منه ويطلق يده

(١) J R A S, 1902, s. 308 .
(٢) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٤٢٤ .
(٣) J R A S, 1900 ff .
(٤) طبقات السبكى ج ٣ ص ٥٣ .
(٥) تاريخ أبى الفدا تحت عام ٢٩٣ ﻫ (ج ٢ ص : ٢٠ — ٢٠٨) .

فيه ، تعمل[١] . ويُروى عن أبي العلاء المعرى أنه عارض القرآن بكتاب عنونه بالفصول والغايات فى محاذاة السور والآيات ، وقد حفظ لنا الباخرزى مؤرخ الأدب قطعة من كتاب أبى العلاء هذا ، وهى جيدة ، ولكنها تشفّ عن سخرية ، وقد قيل لأبى العلاء : ما هذا إلا جيد إلا أنه ليس عليه طلاوة القرآن ، فقال حتى تصقله الألسن فى المحاريب أربعمائة سنة ، وعند ذلك انظروا كيف يكون[٢] .

وكان فى القرن الرابع أيضاً فريقٌ من الأغنياء المترفين الذين يحبون الحياة الجميلة واللهو ولا يعبأون بالدين ؛ وفريقٌ آخر من المتهكمين بالدين . يقول سعيد قاضى البقر الشاعر :

يارب دعنى بلا صلاح ... يارب ذرنى بلا فلاح
يدى مدى الدهر فوق ردْف ... وراحتى تحت كأس راح

ويقول أبو هريرة أحمد بن عصام أحد الشعراء المصريين فى النصف الأول من القرن الرابع ، وكان من أصحاب النوادر والمجون والإدمان على شرب الخمر :

مجلس لا يرى الإله به غـــير مصلٍّ بلا وضوء وطهر
سُجّد للكؤس من دون تسبيـــح سوى نغمة لعود وزمر[٣]
أنا أشهو الأنام فى مثل ذا المجـــلس لا مجلس لنهى وأمر

ويقول السلامى الشاعر :

فى جوار الصبا نحل بيوتا ... عمرت بالقصور والأقمار
ونصلى على أذان الطنابـ ... ـير ونصغى لنغمة الأوتار
بين قوم إمامهم ساجد للـ ... ـكأس أو راكع على المزمار[٤]

---

(١) كتاب الوزراء ص ٢٧٠ . (٢) انظر مجلة جمعية المستشرقين الألمان 7 D M J, 29, s. 640 . وقد طبع الجزء الأول من هذا الكتاب وليس فيه ما يدل على ذلك (المترجم) (٣) المغرب لابن سعيد ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٤) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٧١ ؛ وتوفى السلامى عام ٣٩٤ هـ .

وكان ابن الحجاج أكبر المتزندقين فى خمرياته ، فهو يقول فى خمرية له :

يا خليلى قد عطشت وفى الخمـ ـرة رىٌّ للحائم العطشان
فاسقيانى محض التى نطق الوحـ ـىُ بتحريمها من القرآن
والتى ليس للتأوّل فيها مذهبٌ غير طاعة الشيطان

. . . .

فاسقيانى بين الدنان إلى أن تريانى كبعض تلك الدنان
اسقيانى فى المهرجان ولو كا ن لخمس بقين من رمضان
اسقيانى فقد رأيت بعينى فى قرار الجحيم أين مكانى

ومن خمرية أخرى له :

أمسلم أنت ؟ قلت : نعم ، ظاهرى وباطنى فى الخمر نسطورى

. . . .

واستحضر العود ووجـــــه به حتى نصـــلى بالطنابير
الركعة الأولى سريجيـــــة وركعة التسليم ماخورى

ومن أخرى :

افضض الدن واسقنى يا نديمى اسقنى من رحيقه المختوم
اسقنى الخمرة التى نزلت فيـ ـها على القوم آية التحريم
اســــــقنى فأتى أنا والقسـ ـسُ جميعاً نبولها فى الجحيم[1]

أما تديُّن العامة وورعهم فلا نعرف عنه للأسف إلا القليل ؛ كان لهم عقائد بسيطة ثابتة وكان عند بعضهم استعداد شديد لاتباع كل خارج على الدين والتنازع فى ذلك ؛ ففى عام ٢٨٩ هـ — ٩٠١ م قُتل ببغداد أحدُ القرامطة ، وهو

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٦٣ .

المعروف بابن أبي القوس ، وعلق جسده على خشبة . يقول المسعودى : « وقد كان لأهل بغداد فى قتل ابن أبي القوس هذا أراجيف كثيرة ، وذلك أنه لما قُدِّم لتضربَ عنقه أشاعت العامة أنه قال لمن حضر قتله من العواء : هذه عمامتى تكون قِبلك ، فإنى أرجع بعد أربعين يوما ، فكان يجتمع فى كل يوم خلائق من العوام تحت خشبته ، ويحصون الأيام ، ويقتتلون ، ويتناظرون فى الطرق فى ذلك ، فلما تمت الأربعون يوما ، وقد كان كثر لغطهم ؛ واجتمعوا ، فكان بعضهم يقول : هذا جسده ، ويقول آخر : قد مرّ ، وإنما السلطان قتل رجلا آخر وصلبه موضعه كى لا تفتتن الناس ، وكثر تنازع الناس حتى نودى بتفريقهم ، فترك التنازع والخوض فيه(١) » .

على أننا نجد أبا محمد الفرغانى (المتوفى عام ٣٦٢ هـ — ٩٧٢ م) ، وكان مقرّبا عند أمير مصر ، يعتبر هذه الحكاية التالية أهلا لأن يذكرها فى تاريخه ؛ فهو يقول نقلا عن أبي سهل الصدفى المتوفى عام ٣٣١ هـ — ٩٤٢ م ، — وهو الزاهد الورع الذى كان الأخشيد محمد بن طغج يجلّه ويتبرك بدعائه من غير أن يشاهده ؛ بل بالمراسلة — : « حدثنى أبو سهل بن يونس فى مسجده سنة ٣٣٠ هـ قال : قَدِم علينا شيخ كبير راهب ، كان بميافارقين ، فحدثنا أنه كان مترهّباً فى شبابه فى صومعة بميافارقين ، وأنه أشرف فى يوم كثير الضباب ، فنظر إلى طائر قد سقط بحيث يراه ، وفى فمه قطعةُ لحم ، فتركها ، ثم طار فأتى بأخرى ثم أخرى ، إلى أن أتى بعدة قطع ، ثم إن قطع اللحم اجتمعت حتى صارت شخص رجل ، ثم أقبل الطائر عليه ينقره ويقطعه ويأكله ، وهو يستغيث ، قال الراهب : فلما نظرت إليه صحت به وقلت له : ما قصتُك يا إنسان ؟ وما الذى أرى بك ؟ قال : أنا عبد الرحمن بن ملجم قاتل على بن أبي طالب صلوات الله عليه ، قد وكّل الله بى

(١) مروج الذهب ج ٨ ص ٢٠٤ .

هذا الطائر ، يفعل بي ما ترى ، وينقلني من موضع إلى موضع ، قال الفرغاني : قال أبو سهل : قال لنا الراهب : فلما نظرت معه ما رأيت انحدرت من الصومعة فأسلمت »[١] .

وقد صرّح أحمد بن محمد الإفريقي الشاعر المعروف بالمتيّم ، وكان في بخارى في أواخر القرن الرابع الهجري بأن الدين إنما هو شأن الطبقة الأرستقراطية ، وهم اليوم سادة المسلمين في كل بلاد الشرق ، وجاهر بأن الفقراء ليس عليهم أن يصلوا حتى يغتنوا ، وأن الذي يجب عليهم أن يحافظوا على الصلاة هم الأغنياء والأمراء وأصحاب الضياع والأموال ، فقال :

تلوم على ترك الصلاة حليلتي ... فقلتُ: اعزبي عن ناظري ؛ أنت طالق
فوالله لا صليتُ لله مُفلساً ... يصلي له الشيخُ الجليل وفائق
وتاش وبكتاش وكِنباش بعده ... ونصر بن ملك والشيوخ البطارق
وصاحب جيش المشرقين الذي له ... سراديبُ مالٍ حشوُها متضايق
ولا عجب إن كان نوح مصلياً ... لأن له قصراً تدينُ المشارق
لماذا أصلي ؟ أين باعي ومنزلي ؟ ... وأين خيولي والحلى والمناطق ؟
وأين عبيد كالبدور وجوههم ؟ ... وأين جواريّ الحسان العواتق ؟
أصلي ولا فتر من الأرض يحتوي ... عليه يميني إنني لمنافق
نعم عاب صلاتي للذين ذكرتهم ... فمن عاب فعلي فهو أحمق مائق
بلى إنْ علىّ اللهُ وسّع لم أزَلْ ... أصلي له ما لاح في الجو بارق
فإن صلاة السّهوِ الحال كلها ... غنارق ليبعث تحتهن حقائق[٢]

ولما خان المسلمين الحظ في حروبهم مع الروم في الغرب ابتلوا في دينهم

---

(١) كتاب العيون مخطوط برلين ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٨١ ، ويتيمة الدهر ج ٢ ص ٤١ . (المترجم) .

وامتُحنوا فى إيمانهم بمطالباتٍ لم يُسمع بها من قبل . فلما أخذ الدمُسْتُق ملطية عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م بعد أن حاصرها مدة طويلة حتى هلك أكثر أهلها بالجوع ضرب خيمتين على إحداهما صليب ، وقال : من أراد النصرانية انحاز إلى خيمة الصليب ليُرَدّ عليه أهلُه وماله ، ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأخرى ، وله الأمان على نفسه ويُبلَّغُ مأمنه ، فانحاز أكثر المسلمين إلى الخيمة التى عليها الصليب طمعاً فى أهليهم وأموالهم ؛ وسيّر مع الباقين بطريقاً يبلّغهم مأمَنهم[1] . ولما عادت بلاد اللاذقية إلى قبضة الروم هاجر منها كثير من المسلمين ، ولكن بقى فى الإقليم كثير من أهله ، ودفعوا الجزية بدورهم للروم . ويقول ابن حوقل : « وأظنهم صائرين إلى النصرانية أنَفَةً من ذلة الجزية ، ورغبةً مع حذف المؤنة فى العز والراحة »[2] . ولكن انتصارات الروم لم يكن لها إلا صدى ضعيف فى داخل المملكة الإسلامية ، وقد تقبّلها المسلمون بإيمان قوى ، وفسّروا أمر هذا البلاء بالتفسير المألوف ، وهو أنه دليل على صحة دين الإسلام ، وجزاء لأهله الذين أهملوا أوامره[3] .

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢١ . (٢) ابن حوقل ص ١٢٧ .

(٣) أرسل نقفور للمسلمين بعد أن فتح الثغور قصيدة ساءتهم ، فيها تثريب وتعيير وضروب من الوعيد ، وقد ردوا عليها ردوداً شيقة بينوا فيها الحقيقة والفرق بين المسلمين وغيرهم فى الانتصار والمعاملة . ولمحمد بن على بن إسماعيل القفال المتوفى عام ٣٣٦ هـ قصيدة فى ذلك منها :

ونرجو وشيكا أن يسهل ربنا　　دخول خوالى الريش تحت القوادم
وقلتم ملكناكم بجور قضاتكم　　ويحكم أحكامهم بالدراهم
وفى ذاك إقرار بصحة ديننا　　وأنا ظلمنا فابتلينا بظالم

وثم قصيدة لابن حزم ؛ وفى هذه القصائد إقرار بأن الهزيمة ناشئة عن إهمال المسلمين لدينهم ، وعدم الاتحاد ، وكثرة الشقاق ، وضعف الخلفاء ، وانشغالهم بفتن الترك والديلم . انظر طبقات السبكى ج ٢ ص ١٧٩ — ١٨٩ (المترجم)

تعليـــق

علق مترجمُ هذا الكتاب إلى الإنجليزية المرحوم الأستاذ خدابخش الهندى على الفصل المتقدم بأن ترجم ما كتبه الأستاذ جولدزيهر فى كتابه المسمى دراسات إسلامية Goldziher, Mohammedanische Studien عن القُصّاص فى الجزء الثانى من ص ١٦١ — ١٧٠ . وهاك ما كتبه جولدزيهر :

القاصّ أو القَصّاص (والجمع قُصّاص) هو الرجل الذى كان يجمع الناس حوله فى الطرق أو فى المساجد — من غير أن تكون له صفة رسمية — فيعظهم حيناً بذكر الأحاديث والأخبار المأثورة ، ويسليهم بالقصص والحكايات حيناً آخر . وإن الصبغة الدينية لحديثهم هى التى كانت تميزهم عن القصاص غير الدينيين الذين كانوا يجمعون الناس إليهم فى الطرق ليسلوهم بالنوادر والمضاحك[1] ويقومون مقام الصحف الهزلية فى أيامنا هذه . ومن هؤلاء المضحكين من كان مقرّباً من الخلفاء .

ولم يكن يقترن باسم القاص فى عهد الإسلام الأول ما التصق به فى أثناء تطور القصص من الإنكار والمذمة . وقد سمى ما جاء به النبي عليه السلام قصصاً فقال تعالى : «فاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (سورة الأعراف ، آية ١٧٦) وقال جل شأنه : «نَحْنُ نَقُصُّ عليك أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هٰذَا الْقُرْآنَ وإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ» (سورة يوسف ، آية ٣) . ويروى عن النبي عليه السلام أنه امتدح الخطباء الصالحين الذين يسمّون القصاص[2] ، وفى الأخبار مايدل على أن القصص قديم فى الإسلام ، فيحكى عن عمر بن الخطاب

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ١٦١ وما بعدها ، والكامل للمبرد ص ٣٠٦ ونجد من هؤلاء من هم أهل الذكاء والنوادر ، الأغانى ج ٢١ ص ٩٠ سطر ٧ .

(٢) كتاب القصاص والمذكرين لابن الجوزى مخطوط ليدن رقم ٩٩٨ ص ٩ ا .

أنه أجاز لتميم الدارىّ ، أو لعُبَيد بن عمير فى رواية أخرى ، أن « يقصّ الناس[١] » وفى عهد معاوية ندب رجال من الصالحين لوعظ الناس ، وتقوية د. برواية القصص الدينية ؛ ورضى عن ذلك علماء الدين . ونجد القُصّاص أحد فى صفوف القاتلين يحرضونهم على القتال ويحمّسونهم كما كان الحال فى الجاهلية[٢] وأقدم ما وصلنا من أخبار هذا الفريق أمر القُصاص الثلاثة الذين ساروا حوالى عام ٧٠ هـ ، فى عهد مروان بن الحكم ، تحت قيادة سليمان بن صُرد للانتقام لمقتل الحسين رضى الله عنه ، فكان أحدهم مع الميمنة ، والثانى مع الميسرة ؛ وكان الثالث يدور الليل كلّه فى الجند يحمسهم بكلمات من نار ، ويقول : أبشروا عبادَ الله بكرامة الله ورضوانه ، فحقّ والله — لمن ليس بينه وبين لقاء الأحبّة ودخول الجنة والراحة من أبرام الدنيا وأذاها إلا فراقُ هذه النفس الأمارة بالسوء — أن يكون بفراقها سخيًّا وبلقاء ربه مسروراً[٣] . ويحكى لنا مثل هذا النشاط فى القرن الثالث الهجرى ، فيُذكر أن رجلا يسمى أبا العباس أحمد بن أبى أحمد الطبرى المعروف بالقاص سمى بذلك ؛ لأنه كان مع جيوش المسلمين فى حروبهم للديلم والروم يحرضهم ويقص لهم[٤] .

وقد اشتهر بعضُ القصاص أيضاً بتفسير القرآن ، ومن هؤلاء فى القرن الثالث الهجرى ؛ موسى الأسوارى وعمرو بن فائد الأسوارى ، وكان أولهما من أعاجيب الدنيا ، فكانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور ، ويقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، ثم يقرأ

(١) نفس المصدر ص ١٦ — ١٧ .

(٢) انظر Goldziher, Muh. St. vol 1, 44 ؛ وقد ذكر أبو حنيفة الدينورى (ص ١٢٨) أن سعداً قبل لقاء القادسية جعل عمرو بن معديكرب وقيس بن هبيرة وشرحبيل بن السمط يثيرون عزائم العرب بقصائدهم ويحرضونهم على القتال .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٥٥٩ .

(٤) العقد المذهب لابن الملقن مخطوط ليدن رقم ٥٣٢ ص ١١ أ ؛ وكتاب التهذ ص ٧٤١ .

الآية من كتاب الله ، ويفسرها بالعربية للعرب ، ثم يحول وجهه إلى الفرس ، فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يُدرى بأى اللسانين هو أبين ، يقول الجاحظ : « واللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيّار الأسوارى[١] » . أما عمرو بن قائد الأسوارى فكان يفصل فى التفسير حتى إنه قص ستا وثلاثين سنة ، فابتدأ بتفسير سورة البقرة ، فما ختم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظاً للسير ولوجوه التأويلات ؛ فربما كان يفسر الآية الواحدة فى عدة أسابيع[٢] .

حتى الآن نجد القُصّاص يخدمون غاية دينية هامة كوُعّاظ أو قُصّاص أخبار دينية ، ولم يتعرّض لهم أحد فى ذلك ، ورضى العلماء بهذه الطائفة من الوعاظ المتطوّعين الذين يثقّفون العامة ، لأنهم سواء فى خطبهم بالمساجد أو بجمعهم الناس فى الطرقات كانوا ينزلون إلى مستوى العامة ويبثون فيهم روح الزهد ، وهو ما لا يشتغل به علماء الشريعة المهتمون بالأحكام . والحق أن الزهد أصاب من القصاص دُعاةً له وناشرين ، وقد ذكر لنا الجاحظ قطعاً من قصص هؤلاء القوم[٣] . ولم يُذكر لنا أن أحداً منع القصاص أو تعرض لهم بمضايقة فى أوائلهم لهذه المهمة التى هى عنصر مكمل فى الحياة الدينية الإسلامية .

ولم يكن المنع موجّهاً إلا للقصاص الذين أساءوا استعمال القصص ، وخرجوا به عن غايته ؛ وليست الإجراءات التى ذكرها المؤرخون فيما يتعلق بالقصاص إلا موجهة إلى المحتالين على الكسب منهم ، وهم الذين لم يكن قصدهم الدين ؛ بل تسلية العامة باختراع الأحاديث ونشرها بينهم ، أو الذين كانوا يشوّهون القصص الدينية ويتخذونها أساطير ، وقد انصب غضب العلماء المحافظين على أصحاب هذا الصنيع وحدهم .

(١) البيان والتبيين للجاحظ طبعة القاهرة ١٣٣٢ هـ ج ١ ص ١٩٦ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) انظر كلام عبد العزيز الغزالى القاص فى البيان والتبيين ؛ ويشير المؤلف إلى ص ١٢٧ ب من مخطوط لهذا الكتاب .

وعندنا بعض الأخبار الخاصة بالعصر الأول للقصاص ، وأقدم خبر هو خبر نوف بن فضالة ، وكان يقص بالكوفة ، وقد ذكر البخاري[١] أن سعيد بن جُبَير سأل ابن عباس فيما زعمه نوف هذا من أن موسى صاحبَ الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل ، فقال ابن عباس : كذب عدو الله[٢] . وبمجرد تفطّن الناس للخطر الذى استهدف له الحديث بسبب القصاص حاول العلماء أن يطعنوا فى أسمائهم وينسبوهم إلى الخوارج[٣] . ولم يشتد اضطهادهم إلا بعد أن كثروا بالعراق ؛ حتى حكى ابن عون المتوفى عام ١٥١ هـ أنه فى مساجد البصرة كان لعلماء الفقه حلقة واحدة ، على حين كان للقُصاص حلقاتٌ لا تحصى حتى كانت المساجد مملوءة بهم[٤] . ومما يدل على خفة العامة فى تصديق القصاص وعبث هؤلاء بهم ما حُكى من أن كلثوم بن عمرو العتّابى الشاعر ، الذى عاش فى أيام الرشيد والمأمون ، كان يأكل خبزاً على الطريق ببغداد فرآه عثمان الوراق ، فقال له : ويحك ؛ أما تستحى ! فقال له كلثوم : أرأيتَ لو كنا فى دار فيها بقر كنتَ تستحى وتحتشم أن تأكل ، وهى تراك ؟ فقال : لا ؛ قال فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر ؛ فقام فوعظ وقصّ حتى كثر الزحام عليه ، ثم قال للناس : روى لنا غيرُ واحد أن من بلغ لسانه أرنبةَ أنفه لم يدخل النار ، فما بقى أحدٌ منهم إلا وأخرج لسانه يومئ به نحو أرنبة أنفه ليرى إن كان يبلغها أم لا[٥] . وليس من العسير علينا أن ندرك أن حكايات القصاص السهلة المسلية كانت أشد استهواء للعامة من كلام العلماء العويص ، خصوصاً

---

(١) البخارى ؛ كتاب التفسير ؛ سورة الكهف .

(٢) ويُذكر أن الحسن رضى الله عنه مرّ يوما وقاصّ يقصّ على باب مسجد رسول الله ؛ فقال له الحسن : ما أنت ؟ قال : أنا قاص يا ابن رسول الله ؛ قال : كذبت ، محمد القاص ، قال الله عز وجل : فاقصص القصص ؛ قال : فأنا مذكر ؛ قال كذبت ، محمد المذكر ، قال الله عز وجل : فذكر إنما أنت مذكر ؛ قال : فما أنا ؟ قال له الحسن : المتكلف من الرجال .
(تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢٧٠) . (٣) كتاب القصاص لابن الجوزى ص ١٨ .

(٤) نفس المصدر ص ١١ . (٥) كتاب الأغانى ج ١٢ ص ٥ .

وأن القصاص كانوا لا يتحرجون من اتخاذ أية وسيلة لجذب العامة إليهم ، وقد ذكر الجاحظ بعض ما حكى من عبث القاص المسمى أبا كعب[١] وسرعان ما نرى بعد ذلك إجراءات تتخذ ضد القصاص ، ففي عام ٢٧٩ هـ أمر الخليفة بالنداء في مدينة السلام ألا يقعد على الطريق ولا في المسجد قاصّ ولا منجم ولا عرّاف ، وجُدّد هذا الأمر في عام ٢٨٤ هـ[٢] . وإن الجمع بين القاصّ والمنجم والعراف في أمر واحد ليدل على رأى الدوائر الرسمية في مسألة القصص . وبعد ذلك بقليل يذكر المسعودى وصفاً شيّقاً للعامة في ذلك العصر فيقول : « وتفقّدْ العامةَ في احتشادها وجموعها ، فلا تراهم الدهرَ إلا مُرْقِلين إلى قائد دبّ ، وضارب بدفّ على سياسة قرد ، أو متشوّقين إلى اللهو واللعب ، أو مختلفين إلى متعبّد متنمّس مخرق ، أو مستمعين إلى قاص كذاب ، أو مجتمعين حول مضروب ، أو وقوفاً عند مصلوب ، يُنعَق بهم فيتبعون ، ويُصاح بهم فلا يرتدعون ، لا ينكرون منكراً ، ولا يعرفون معروفاً[٣] ... ومما هو أكثر بياناً للأسباب التي حدت بالحكومة إلى الالتجاء إلى هذه الإجراءات مما حكاه المسعودى وثيقة ترجع إلى القرن الرابع الهجرى ، وهي من قلم أبي دُلَف الخزرجي شاعر الملح والطرف ، فقد ألف قصيدةً مشهورة تسمى القصيدة الساسانية ذكر فيها المُكدِّين ، ونبّه على فنون حرفهم ، وأنواع رسومهم ، وهي وشرحها ذخيرة كبيرة تُستقى منها معلومات كثيرة متنوعة عن أحوال ذلك العصر الاجتماعية[٤] . وقد عرفنا بني ساسان من المقامة الساسانية للحريرى وفيها يوصى أبو زيد السروجي ابنه

---

(١) يشير جولدزيهر إلى ص ١٢١ ب من نسخة خطية لكتاب الحيوان .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢١٣١ ، ٢١٦٥ . وتاريخ أبي المحاسن ج ٢ ص ٦٧ حيث ذكرت كلمة قاض بدل كلمة قاص خطأ . وفي هذا الأمر حلّف المعتضد باعة الكتب ألا يبيعوا كتب الفلاسفة والجدل .

(٣) مروج الذهب ج ٥ ص ٨٦ .

(٤) كذلك أثْرَتْ بها المعاجم ، وألف الأحنف العكبرى المسمى شاعر المُكَدِّين قصيدة أخرى .

بلزوم حرفة بنى ساسان[١] . وقد بين أبو دلف فى قصيدته أصناف المكدين والمخرقين والمحتالين من أسوإ طراز ، ونجد القاص فيهم إلى جانب المحتالين ؛ يقول أبو دلف :

ومن قصّ لإسرائيل أو شبراً على شبر

(هو الذى يروى الحديث عن الأنبياء والحكايات القصار ويقال لها الشّبريّات) .

ومن يروى الأسانيد وحشو كل قمطر

(هؤلاء قوم يروون الأحاديث على قوارع الطرق) .

ومن ضرب فى حبّ علىّ وأبى بكر

وهم قوم يحضرون الأسواق ، فيقف واحد جانباً ، ويروى فضائل علىّ رضى الله عنه ، ويقف الآخر جانباً ويروى فضائل أبى بكر رضى الله عنه ؛ فلا يفوتهما درهم الناصبى والشيعى ؛ ثم يتقاسمان الدراهم[٢] .

وقد استمرت هذه الحال ، وفى القرن السادس الهجرى نجد ابن الأثير يجمع بين القصاص والمشعبذين فى عبارة واحدة[٣] . وليس الجمع بينهما غريباً إذا عرفنا ما ذكره ابن الجوزى (ص ١٠١ — ١٠٦) من حيلهم حوالى ذلك العصر ، فمنهم من كانوا يدهنون وجوههم بما يجعلها صفراء تشبهاً بالنساك الصائمين ؛ وكان آخرون يتخذون ما يسيل دموعهم متى أرادوا ؛ ومنهم من كان يوقع نفسه من على المنابر أو يضربها برجله إيهاماً للناس بشدة انفعاله ، وكان فريق يخدعون النساء باتخاذ اللباس الحسن . وعلى حين كان القصاص القدماء موضع تقدير العلماء وإعجابهم ، لما كان فى تعاليمهم من روح دينية وخلقية ، نجد القصاص المتأخرين قد شوهوا الدين طلباً لتسلية العامة ، وكانوا يوهمون الناس بعلمهم من طريق

---

(١) فيما يتعلق بأصل هذه التسمية ارجع إلى ما كتبه دى ساسى فى الجزء الأول ص ٢٣ وما بعدها من نشرته لمقامات الحريرى .

(٢) يتيمة الدهر للثعالبى ج ٣ ص ١٧٩ ، ١٨٢ — ١٨٣ .

(٣) المثل السائر ص ٣٥ .

التكلف أحياناً فى بيان أصول الكلمات[1] وكانت الإسرائيليات وما يتصل بها مادة لقصصهم ، وقد عملوا على نشرها ، وكانوا لا يترددون عن الإجابة عن كل سؤال يوجه إليهم ، لأن اعترافهم بالجهل كان من شأنه أن يزعزع ثقة العامة بهم ؛ فزعم بعضهم أنه يعرف اسم العجل الذى عبده القوم[2] ، وذكر آخر اسم الذئب الذى زعم أنه أكل سيدنا يوسف ، فلما قيل له إن يوسف لم يأكله الذئب ، قال هو اسم هذا الذئب الذى لم يأكله[3] . وكانوا يجبهون العلماء الذين يكشفون عن جهلهم وخداعهم بكل جراءة ، وكان العلماء ألد خصومهم ، وكان العامة يقدرون القصاص أكثر من تقدير العلماء . ويحكى عن أم أبى حنيفة أنها احتاجت مرة إلى معرفة مسألة من مسائل الشريعة ، فسألت ابنها ، فأجابها ، ولكنها لم تقتنع فذهبت معه إلى زرعة القاص ، فلما أقر رأى أبى حنيفة اقتنعت الأم[4] .

ولكن القصاص لم يكونوا جميعاً مع العلماء فى أدب زرعة وتواضعه ، فكانوا فى الغالب يعارضون العلماء بثبات وجراءة غريبين ، وكان العامة دائماً إلى جانبهم ، فيحكى عن الشعبى المحدث المتوفى عام ١٠٣ هـ أنه نزل تَدْمُرَ ، فوافاها يوم جمعة ، ودخل يصلى فى المسجد ؛ فإذا إلى جانبه شيخ عظيم اللحية ، قد أطاف به قوم ، فحدثهم وقال : حدثنى فلان عن فلان يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى خلق صورين ، له فى كل صور نفختان ، نفخةُ الصعق ونفخةُ القيامة ، قال الشعبى فلم أضبط نفسى أن خففت صلاتى ، ثم انصرفت فقلت يا شيخ ! اتق الله ولا تحدثن بالخطأ ، إن الله لم يخلق إلا صوراً واحداً ، وإنما هى نفختان : نفخة الصعق ونفخة القيامة ، فقال لى : يا فاجر ! إنما حدثنى فلان عن فلان وترد علىّ ، ثم رفع نعله فضربنى بها ، وتتابع القوم علىّ ضرباً معه ، فوالله ما أقلعوا

---

(١) سئل بعض القصاص لماذا سمى العصفور عصفوراً فقال لأنه عصى وفر (معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٢٩٣ .

(٢) المبرد ص ٣٥٦ ؛ والعقد ج ٢ ص ١٥١ ، وقارن مروج الذهب ج ٤ ص ٢٢ ، ٢٦ .

(٣) كتاب القصاص لابن الجوزى ص ١٢٩ . (٤) نفس المصدر ص ١٢٤ .

عنى حتى حلفت لهم أن الله خلق ثلاثين صوراً فى كل صور نفخة[١] . على أن هذه القصة إن لم تكن صحيحة من الناحية التاريخية فهى تدل على الأقل على إنكار العلماء على القصاص فيما يروونه من الأباطيل وقيام العامة على العلماء ، ويحكى عن أبى جرير الطبرى أنه سمع أحد القصاص يفسر قوله تعالى : «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً» (سورة الإسراء ، آية ٧٩) بأن الله يجعل لمحمد عليه السلام مكاناً على العرش إلى جانبه ، فأنكر ذلك بأن كتب على باب داره حاشاه به الله عن ذلك ، وفهم العامة قصده فرموا باب داره بالحجارة حتى سدوه[٢] .

يستطيع القارئ أن يتصور مقدار الخطر الذى كان يتهدد الحديث وصحة روايته من هذه الطائفة ، ومقدار نصيبهم فى اختراع الأحاديث الموضوعة ونشرها . ويظهر أنهم كانوا فى العصور الأولى منتشرين فى العراق انتشاراً عظيماً ، وبعد ذلك فى آسيا الوسطى . أما فى الحجاز فكانوا نادرين . ويحكى عن مالك بن أنس أنه منعهم من دخول مسجد الرسول بالمدينة . وكانوا أيضاً قليلين فى المغرب حيث كان يغلب على الناس العناية بالحديث والأمانة فى روايته ، حتى يقول المقدسى : إن أهل المغرب لا يعرفون إلا كتاب الله وموطأ مالك[٣] .

ويجب أن نفرق بين اختراع القصاص للأحاديث وبين اختراع غيرهم لها ، ذلك أنه لم تكن لهم صفة سياسية أو مذهبية أو حزبية ، وإنما كانوا يقصدون تسلية سامعيهم ، ورغبة منهم فى الكسب من العامة . ولما كان الكسب غرضهم فقد نشأ بينهم الحقد والبغضاء ، حتى صار من الأمثال الجارية أن القاص لا يحب القاص[٤] ، وفى الأثر أن عمران بن الحصين مرّ على قاص يقرأ ، ثم سأل ، فاسترجع ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من قرأ القرآن

(١) نفس المصدر ص ١٠٧ ، وتحذير الخواص من أكاذيب القصاص للسيوطى مخطوط ليدن رقم ٤٧٤ ص ٤٦ أ — ٤٩ ب ، وانظر الفصل التاسع من هذا المخطوط أيضا .

(٢) نفس المصدر . (٣) المقدسى ص ٢٣٦ .

(٤) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣ .

فليسأل الله به ، فإنه سيجيء أقوام يقرءون القرآن يسألون به الناس[1] . والذى يقوم فى مجلس القصص ليجمع الصدقة يسمى الكوّز (فعله كوّز) ، فكان القاص يأمر الحاضرين بإعطائه ، وإذا تفرق الجمع تقاسما ما اجتمع من المال[2] . وكان العامة يعتقدون الخير فى القصاص حتى كانوا يلجأون إليهم فى الدعاء لهم ، ومن الملح أن رجلا أعطى قاصا يسمى أبا سليمان فلساً ، وقال : ادع الله لابنى يردّه علىّ ، فقال وأين ابنك ؟ فقال : بالصين ، قال : أيردّه الله من الصين بفلس ؟ هذا مما لا يكون ، إنما لو كان بجنّابة أو بسيراف كان نعم[3] .

بل نحن نجد هؤلاء القصاص غير المسؤولين فى المدن الإسلامية[4] فى هذه الأيام . ويقول شاك Schaek فى روزنامجته عام ١٨٧٠ م عند ما كان بدمشق : « وكان أكبر منظر شاقنى منظر له دلالته شاهدته فى الجامع الأموى ، ذلك أن شيخاً وقف إلى جانب أسطوانة فى المسجد ، وحوله جمع عظيم ، فألقى درساً كان يشير فيه بإشارات مؤثرة ، وقد أخبرنى دليلى أنه ليس من العلماء الرسميين ، بل هو رجل يعظ طلباً للمال » ، هذا المنظر ذكر شاك بأبى زيد السروجى بطل مقامات الحريرى . والحق أن المقامة الحادية والأربعين تصف مثل هذا المنظر .

(١) صحيح الترمذى ج ٢ ص ١٥١ ؛ وكتاب القصاص لابن الجوزى ص ١٤٧ — ١٤٩ .

(٢) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٨ . (٣) معجم البلدان ج ٢ ص ١٢٣ .

(٤) فيما يتعلق ببخارى مثلا انظر كتاب بيترمان (Petermann) واسمه (Geog. Mitteilungen, 1889 s. 269) .

ويقول المرحوم خدابخش إن الهند بنوع خاص مملوءة بالقُصاص ، وإنهم أكبر عقبة فى سبيل التقدم ، ولهم تأثير قوى فى الجماهير ، أما بضاعتهم فقليل من القرآن والحديث قد حفظوه ، فهم يذكرونه فى مقامه وفى غير مقامه ، وهم يخترعون الأحاديث ويقلبون الحقائق ويشوهونها ، وسامعوهم يصغون إليهم أتم إصغاء ، وكلهم كالقانون . وقد رأيتهم يتأوهون ويتنهدون ويبكون فى مجالسهم . وطريقتهم هى طريقة قدماء القصاص . وكثيرا ما أدهشنى جهلهم وجراءتهم ، ولكن قوى يصغون إليهم من غير مناقشة ويطيعونهم بلا تردد فى توجيههم لهم وفى تفسير أمور الدين والشرع . ولا يمكن أن يتحقق إصلاح ما دام العامة تحت تأثير هؤلاء القصاص غير المسئولين . والأمل الوحيد هو المعقود على انتشار التعليم ، والتعليم هو الذى يعيد للعقل مكانته . وإن خطباء المسلمين الظاهرين اليوم فى كل مدينة وقرية بالهند هم فيما يلوح خلفاء أولئك القصاص الذين ظهروا فى أواخر عهد الخلافة .

الفصل العشرون

الأخلاق والعادات

استلزمت العادةُ فى بيوت السادة والكبراء عند الدول الشرقية القديمة وفى الدولة الرومانية البوزنطية أن تُهيَّأ هذه البيوت بالخصيان[1] ؛ وقد حرّم الإسلامُ ذلك ؛ وشدّد القرآن وشدّدت السنة فى تحريم خصاء الإنسان أو البهائم ، ووُكِل لوالى الحِسْبة أن يمنع ذلك ، ويؤدّب عليه[2] ، وهنا أيضاً — كما فى نواحٍ أخرى — دخل على الإسلام حوالى عام ٢٠٠ هـ — ٨١٥ م ، بسبب تقلّص ظل الروح العربية ، عاداتٌ شرقية قديمة ، رغم ما جاء به النبى عليه السلام فى شأنها من الإنكار والمنع الصريح . وذلك أن الخليفة الأمين ، وهو ابن هارون الرشيد ، لما ملك ، بلغ من كَلَفه بالخصيان أنه « طلبهم ، وابتاعهم ، وغالى بهم ، وصيّرهم لخلوته فى ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه ، وفرض لهم فرضاً سماهم الجرادية ، وفرضاً من الحبشان سماهم الغرابية ، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رُمى بهن »[3] وحتى قال أبو نواس ساخراً[4] :

احمدوا الله جميعاً يا جميع المسلمينا
ثم قولوا لا تملّوا ربنا أبقِ الأمينا

---

(١) وأصل ذلك دينى ، وقد أوجد هذا « الجنس الثالث » قديماً لإرضاء للآلهة ، وقد أنكر محمد عليه السلام هذه القيمة الدينية التى ادعيت له كما أنكرها الفصل الأول من قرارات مؤتمر نيقية . انظر مقالة سخاو : Sachau, MSQS, 2, s. 83 f. .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردى ص ٤٣١ من طبعة إنجر (Enger) .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٩٥٠ .   (٤) نفس المصدر ص ٩٦٥ .

صيَّر الخصيان حتى صيَّر التعنين دينا
فاقتدى الناس جميعاً بأمير المؤمنينا

وقد احتال المسلمون للإفلات من حرمة منع الخصاء بأن كانوا يشترون الخصيان ، تاركين لليهود[1] والنصارى إثم هذا العمل الشنيع ، وقد جاء فى خبر يرجع إلى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، أن مدينة هَدْيَة بالحبشة النصرانية هى التى كان يُداوى بها الخصيان دون غيرها من بلاد الحبشة[2] على أنه فى أوائل القرن التاسع عشر كان « فى الصعيد بمصر ديران قبطيان دخلُهما الأساسى مصدره الخصاء ، وكان هذا يُعمل بنسبة كبيرة » حتى كان يكفى لتموين مصر كلها وجزء من تركيا بالخصيان »[3] . « وكان بعض القبط بمدينة أسيوط يتّجرون بشراء صغار العبيد السود وخصائهم ، وكان كثير منهم يموت من هذا العمل ، أما الباقون فكانوا يُباعون بما يبلغ العشرين ضعفاً من ثمن شرائهم »[4] .

ويقسم المسعودى الخدم إلى أربعة أنواع : السودان ، والصقالبة ، والروم ، والصين[5] . ويذكر المقدسى[6] ، أن الخدم البيض صنفان : (١) الصقالبة ، وبلدهم خلف خوارزم ، إلا أنهم يحملون إلى الأندلس فيُخْصون ثم يخرجون إلى مصر[7] . (٢) الروم ، وهم يقصون إلى الشام وأقور ، وقد انقطعوا بخراب

(١) على أنه من الغريب فى هذا الباب أن اليهود كانت شريعتهم تحرم عليهم خصاء الخيل والثيران ، حتى كانوا يضطرون إلى ابتياع الثيران المخصية من النصارى . انظر : Krauss Talmudische Archaeologie, II, s. 116.

(٢) ابن فضل الله العمرى ، كما حكى ذلك ماركفارت Marquart, Die Reninsam-mlung. s, CCCVI,

(٣) Pückler, Aus Mehemed Alis Reich, III, s. 159.

(٤) Maltzan, Meine Wallfahrt nach Mekka, 1865, I, 48.

(٥) مروج الذهب ج ٨ ص ١٤٨ . (٦) المقدسى ص ٢٤٢ .

(٧) ويحكى ابن حوقل أيضا (ص ٧٠) أن جميع ما يقع إلى خراسان من الصقالبة فهو يبقى على حاله من غير خصاء . وكان يجلب من الأندلس إلى جانب الغلمان والجوارى =

الثغور . « وسألت جماعة منهم كيف يخصون ، فتحصّل لى أن الروم يسلّون أولادهم ويحرزونهم على الكنائس ، لئلا يشغلوا بالنساء ، وتؤذيهم الشهوة » وكان المسلمون إذا غزوا أغاروا على كنائسهم وأخرجوا الصبيان منها[١] .

أما الخدم الصقالبة فكانوا يجلبون إلى مدينة خلف بجّانه (هى بشينا Pechina) العاصمة القديمة لإقليم البيرة Almeria) أهلها يهود ، وكانوا يقومون بخصائهم[٢] . وقد اختلف فى الخصاء نفسه ، فقال البعض يمسح القضيبُ والمزودان فى مرة واحدة ، وقال بعضهم . يُشَقّ المزودان وتخرج البيضتان ، ثم تُجعل تحت القضيب خشبةٌ ، ويُقَطّ من أصله . وسألتُ عُريبا الخادم ، وكان من أهل العلم والصدق ، فقلت : أيها المعلم ؟ أخبرنى عن أمر الخدم فإن العلماء قد اختلفوا فيهم ، وأبو حنيفة يجعل لهم فراشاً ، ويُلْحق بهم ما تلد نساؤهم[٣] ، وهذا علم لا يُستفاد إلا منكم ، قال : صدق أبو حنيفة رحمه الله ، وسأخبرك بحالهم : اعلم أنهم إذا

= الذين يسبون من إفرنجة وجليقية الصقالبة' الخصيان أيضا . ويقول الجاحظ (الحيوان ج ١ س ٥١) إن الخصى يعرض له عنـد قطع ذلك العضو تغيّر الصوت حتى لا يخفى على من سمعه أنه خصى .

(١) لم يكن الخصيان فى الكنيسة الأورثوذوكسية يقومون بمهمة الغناء فقط ، بل كانوا يستطيعون أن يصيروا قساوسة ، خلافا لما كان عليه الحال فى الكنيسة اللاتينية . وفى أوائل القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى تولى بطريركان خصيان منصبَ بطريرك على القسطنطينية ذاتها ، أحدهما بعد الآخر (انظر تاريخ يحيى بن سعيد مخطوط باريس رقم ٢٩١ ص ٨٢ أ) . وكذلك حوالى عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م (انظر Barhebraeus Chron. ecclesiast., I, 414) وعام ٤١٠ هـ — ١٠١٩ م (يحيى بن سعيد ص ١٣١ أ) .

(٢) وكذلك كان يهود فرنسا يمارسون الخصاء ، وكان يهود فردان بنوع خاص مشهورين بذلك . انظر تاريخ البربر فى اسبانيا لدوزى : Dozy, Gesch. der Mauren in Spanien, II, 38.

(٣) ذكر ابن الأثير خادما يسمى صندلا ، وقال إن له زوجة — ج ٨ ص ١٩١ . ويقال إن مسائل غرامية بين جوارى خماروه وبين الخصيان كانت سببا فى قتل هذا الأمير ؛ وكان لعضد الدولة خادم يسمى شكراً تزوج جارية حبشية ، ولكن قلبها علق بغيره فأخبرت خصومه بمكانه الخ — ابن الأثير ج ٩ ص ٣٩ .

قربوا للاختصاء شُقّت الخصيتان ، فأُخرجت البيضتان ، فربما فزع الصبى ، فصعدت إحدى البيضتين ، وطُلبت فلم توجد فى الوقت ، ثم تنزل بعد ما التحم الشق فإن كانت اليسرى كانت له شهوة ومنىّ ، وإن كانت اليمنى خرجت له لحية مثل فلان وفلان ، فأبو حنيفة رحمه الله أخذ بقول النبى صلى الله عليه وسلم الولد للفراش . وجاز أن يكون من الخدم الذين بقيت بيضتهم . وذكرتُ قوله لأبى سعيد الجورى بنيسابور ، قال : قد يجوز هذا لأن إحدى بيضتىّ صغيرة ، وكانت لحيته نزراً خفيفة . وإذا خصوهم جعلوا فى منفذ البول مرور رصاص يخرجونه أوقات البول إلى أن يبرءوا كى لا يلتحم »[1] .

وكانت هذه العملية الشنيعة تقلل عدد الخصيان وتزيد أثمانهم ، فكان ثمن الخصىّ فى بوزنطة مثلا فى ذلك العصر يساوى أربعة أمثال الخادم العادى[2]

وحوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢م أطلق على هؤلاء التعساء أسماء أقرب إلى الاحترام فسُمّى الواحد منهم بالخادم[3] ، أو المعلم أو الشيخ أو الأستاذ[4] ، على حين كانوا فى العصور الأولى يسمون بالخصيان مع ما فى ذلك من تشهير .

وكان الخصيان دائماً يلقون من العوام كثيراً من السخرية ؛ ويحكى المسعودى أن العوام كانوا يستهزئون بالخدم السودان فى الشوارع ويصيحون بهم ويقولون : « يا عقيق ، صب ماء واطرح دقيق ؛ يا عاق ، يا طويل الساق »[5] وحدث فى عام ٢٨٤ هـ — ٨٩٧ م أن وجه الخليفة المعتضد خادماً أسود عشية الجمعة برقعة إلى ابن حمدون النديم ، فلما بلغ الخادم رأس الجسر من الجانب الشرقى صاح به صائح

(١) المقدسى ص ٢٤٢ — ٢٤٣ . (٢) Vogt, Basile, 1, 383 .

(٣) على أن الجوهرى — وهو الذى دوّن الاصطلاح اللغوى القديم — لا يذكر لهذه الكلمة معنى الخصىّ ، ولكنه يقول إنهم يسمون الخدم رجالا ونساء . أما إلياس النصيبينى (ولد عام ٣٦٤ هـ — ٩٧٤ م) فهو يترجم دائما بكلمة شاريشا ومعناها الخصى بالسريانية .

(٤) المقدسى ص ٣١ . (٥) مروج الذهب ج ٨ ص ١٨٠ .

من العامة : يا عقيق ، فشتم الخادمُ الصائحَ ، فاجتمع قوم من العامة ، وضربوا الخادم ، فضاعت الرقعة التى كانت معه ، فرجع إلى الخليفة وأخبره بالقصة ، أمر رجلا بالركوب والقبض على كل من تولّع بالخدم وضربه بالسياط[١] . وكانت قصص الخدم موضوعاً دائماً للقُصاص وأصحاب النوادر والمضاحك فى الطرق ، وكان تقليد أصواتهم وحركاتهم مما يجذب الناس إليهم[٢] .

وقد اشتهر الخصيان بالصبر على طول الركوب ، حتى فاقوا فى ذلك فرسان الترك[٣] . وكذلك يعرض لهم حبُّ الرمى بالنشاب[٤] . وبالجملة ظهر من بينهم قواد شجعان ؛ و إذا كان عند الروم منهم فى القرن الرابع الهجرى نارسيس (Narses) وسلمون (Salomon) ، فقد كان عند المسلمين مؤنس القائد ، وكذلك فائق قائد السامانيين ، فكان أيضاً خصيا[٥] . وكان ثمل الخادم هو القائد البحرى صاحب الانتصارات بطرسوس[٦] كما كان عند الروم الأمير نكيتاس (Niketas) الذى انتصر على صقلية ، فقد كان خصيا أيضاً . وفى الحرب البحرية التى وقعت بين أسطول الفاطميين وأسطول الخليفة عام ٣٠٧ هـ — ٩١٩ م كان الأميران اللذان توليا القيادة خصيّيْن[٧] . ولما وقعت الفتنة فى مصر أيام الحاكم بأمر الله لميله إلى المذهب الدرزى — مما كان سببا فى استهزاء الناس به ، وتأليفهم على لسانه أشعاراً وكتباً تُحبّب الناس فى هذا المذهب حتى غضب وفرّق عبيدَه السودان على المدينة يحرقونها ويسبون أهلها وينهبون أموالهم ، وتفاقم الأمر — كان الذى وجّه نظرَ الحاكم إلى هذه الحالة المنكرة خادماً صقلبيا له : ذلك أن

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢١٦٤ . (٢) مروج الذهب ج ٨ ص ١٦٢ ، ١٦٤ .

(٣) المحاسن والمساوئ للبيهقى ص ٦١٠ .

(٤) كتاب الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٦٢ . (٥) رسائل الهمذانى ص ١٩ .

(٦) كتاب العيون والحدائق ص ١٠٠ أ من الجزء الرابع .

(٧) الولاة للكندى ص ٢٧٦ .

الحاكم بعثه لتهدئة الفتنة ، فلما شاهد فظاعة الأمر قتلَ بعض العبيد ، وعاد إلى الحاكم حَنِقا مما شاهد ، وشرح له قُبْح النازلة ، وكان مما قال له : لو أن باسيل ملك الروم دخل مصر لما استجاز أن يفعل بها مثل هذا ، فنقم عليه الحاكم وقتله بسبب هذه الصراحة والجرأة[١] ولم يكن يتمتع بثقة عضد الدولة مع قلة ثقته وشدة تجبّره وقسوته على رعيته إلا غلامٌ خصى أسود يسمى شكراً ، فقد كان مستوليا على جميع أموره ، ولم يكن أحد من أولاده يجرؤ على الدخول إليه فى علته مع تطاولها . وقد استشعر ابنهُ الأكبر شرفُ الدولة أن أباه قد مات ، وأن شكراً يكتم ذلك ، فهجم ودخل إلى الموضع الذى فيه أبوه ، وكان حيا ؛ فاستوحش عضد الدولة من ولده ، ونفاه إلى كرمان[٢] . وكان الوصى على الخليفة الحاكم بأمر الله فى صغره خصيا أبيض يدير شؤون الدولة الفاطمية . ولم يكن الخصيان يُمنعون إلا من الوظائف الدينية ، إلى أن كان العصر الأخير من الحروب الصليبية فعيّن أحدهم قاضياً بدمياط[٣] . وقد عُرفوا فى الشرق بأن الواحد منهم لا يصلح ، ولم يُسمع قط بأن أحدا منهم كان مخنّثا ، مع أن ذلك كان ينبغى أن يكون فيهم[٤] . ومن صفاتهم التى يختصون بها ولوعهم بالعبث واللعب بالطير والفخ ؛ وهم أكثر من يرتاد أسواق الطيور[٥] . والخصىّ من صباه يحسن صنعة الدبرق ، ويجيد دعاء الحمام الضوارى[٦] . أما خصالهم القبيحة فثَبْتُها طويل · فمنها خُبْث العَرَق وصِنانه ؛ ونَتنُ الرائحة ، خلافا لما يُخصى من الحيوان ، فإنه ينقص نَتنُه ، ويذهب

---

(١) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٣٠ ا — ب .

(٢) نفس المصدر ص ١٠٧ ا وابن الأثير ج ٩ ص ٣٫٩ .

(٣) الأوائل للسيوطى .

(٤) البيهقى ص ٦٠٩ ، والحيوان للجاحظ ج ١ ص ٤٩ ، ٦٢ .

(٥) البيهقى ص ٦١٠ — ٦١١ ، والخطط للمقريزى ج ٢ ص ٩٦ .

(٦) الحيوان ج ١ ص ٥٣ ، والمؤلف يقرأ النص هكذا : صنعة الدوبر .

صنانه[١] ؛ وطولُ العظم وعرضه ، خلافا للحيوان ، فإنه متى خُصى دق عظمه وعاد رخصاً رطباً بعـد أن كان عَصِلا صلبا ؛ وطولُ القدم وأعوجاج الأصابع ويعرض لهم سرعة التغيّر والتبدّل ، والانقلاب من حد الرطوبة والبضاضة وملاسة الجلد وصفاء اللون ورقته والتقبّض إلى الهزال ؛ وسرعةُ الرضى والغضب وحب النميمة ، وضيق الصدر ، وسرعة الدمعة كالصبيان والنساء ؛ والبول فى الفراش ، وحب الشراب والإفراط فيه ، والشره عند الطعام والبخل عليه[٢] .

وقد اتهموا خاصة بحبهم لخدمة الملوك وامتلاكهم لهم بشدة استخفافهم بمن لم يكن ذا سلطان عظيم أو مال كثير أو جاه عريض[٣] ، وكان أبو الفتوح برجوان خادماً أبيض خصيا رُبّى فى دار الخليفــة العزيز بالله ، وولاه أمر القصور ، فلما حضرته الوفاةُ وصّاه على ابنه الحاكم بأمر الله ، وقام بتدبير الدولة أبو محمد الحسن بن عمار الـكتانى ، فدبر الأمور وبرجوان يناكده ، حتى أفسد عليه أمره بتدخله فى التدبير ، وترقت أحواله حتى بلغ النهاية ، وصار هو الواسطة بين الحاكم وبين الناس . ثم قصّر عن الخدمة وتشاغل باللذات وكثر استبداده حتى نقم عليه الحاكم أموراً ، منها تجرؤه عليه ومعاملته له بالإذلال . ومن ذلك أنه استدعاه يوماً وهو راكب معه ، فصار إليه وقد ثنى رجله على عنق فرسه وصار باطن قدمه قبالة وجه الحاكم . وكان آخر أمره أنه قتله أحد الخدم فضربه بسكين فى عنقه وهو فى بستان ، وأثخنه آخرون بالخناجر[٤] .

وقد ظهرت مع اتخاذ هؤلاء الخصيان عادة جديدة ظريفة وهى خلط زىّ الخدم . يحكى المسعودى أنه لما أفضى الأمر إلى الأمين قدّم الخدم وآثرهم ورفع

---

(١) يقول المسعودى ص ١٤٩ إن آباطهم ليست نتنة .

(٢) انظر بقية خصالهم عند الجاحظ والبيهقى .

(٣) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٦٢ ، ٧٢ .

(٤) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٣ — ٤ .

منازلهم ، فلما رأت أم جعفر شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه وعمّمت رءوسهن وألبستهن الأقبية والمناطق ، فماست قدودهن ، وبرزت أردافهن ، وبعثت بهن إليه ، فاختلفن بين يديه فاستحسنهن واجتذبن قلبه إليهن ، وأبرزهن للناس من الخاصة والعامة ، فاتخذ الناس الجوارى المطمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق ، وسموهن الغلاميات [1] وكانت عريب المغنية المشهورة ، وهى فى سن سبع عشرة ، وصيفة للأمين الذى « كان أحسن خلق الله ، ولم يُرَ ذكر ولا أنثى مثله جمالا وحسنا » ، وهى تقول : « فكنت ألبس قباء ومنطقة وأقوم على رأسه ، وربما سقيته [2] » . ونجد فى قصور الخلفاء بعد ذلك بقرن جوارى يلبسن ملابس الغلمان [3] ، وكذلك امتدت هذه العادة أيضاً إلى ساقيات الشراب [4] .

ولم يكن لهذا الولوع بالغلمان شأن طوال العصور التى كانت السيادة فيها للروح العربية ، ولم يكن ثم ما يدعو الفقهاء الأولين إلى الكلام فى ذلك . أما فى القرن الرابع فقد اختلفت آراء الفقهاء فى اللواط بالغلمان اختلافاً بيّنا ، فأراد البعض أن يعتبروه كالزنا ، وأن يجعلوا عقابه القتل والرجم [5] . وأراد آخرون أن يفرّقوا بين اللواط بالغلام المملوك وغير المملوك ، وقالوا إن الحدّ لا يلزم الأول بخلاف الثانى ؛ والأكثرون على أنه لا حدّ فيه ، وهو يوجب التعزير من القاضى [6] . وفى الأخبار المأثورة عند المسلمين أن هذا اللواط أتى من المشرق مع جيوش العباسيين

---

(١) مروج الذهب ج ٨ ص ٢٩٩ .

(٢) كتاب الديارات للشابشتى ص ٧٠ أ من مخطوط برلين .

(٣) مروج الذهب ج ٨ ص ٣٠٠ .

(٤) ديوان أبى نواس ص ٢٣٤ ، ٢٤٠ ؛ وحينما يتكلم هذا الشاعر (ص ٣٧٠) عن الجارية بضمير المذكر أحيانا (هو) فهو يشير إلى هذه العادة .

(٥) كتاب الخراج لقدامة مخطوط رقم ٥٩٠٧ بمكتبة باريس ص ٢٩ ب .

(٦) طبقات السبكى ج ٣ ص ١٨ .

الذين جاءوا من خراسان[١] . على أن بلاد الأفغان كانت مشهورة بذلك فى القرن الثالث أو الرابع للهجرة[٢] . ثم شاع واستقر فى القرن الرابع ، والغزل الذى قيل فى التوجع من هوى الذكران يعادل ما قيل فى النساء على الأقل ؛ أما الشعراء الذين كان تشبيبهم مقصوراً على الغلمان دون غيرهم ، وكانوا مجاهرين فى الاستهتار بالغلمان ، فقد كانوا قليلين ، مثل مصعب[٣] والسلامى المتوفى عام ٣٩٤ هـ — ١٠٠٣ م[٤] . على أن الشعراء الآخرين الذين اقتصروا على التشبيب بالنساء ليسوا هم أيضاً بالكثيرين . بل نجد للشاعر أبى فراس مع شرفه ونبله واتزانه قصائد فى التشبيب بالغلمان[٥] . وحوالى عام ٣٣٠ هـ كان بالبصرة نصرُ بن أحمد الخبز أرزى الشاعر ، وكانت حرفته خبز الأرز فى دكانه بمربد البصرة ، فكان يخبز وينشد أشعاره فى الغزل ، والناس يزدحمون عليه ، وكان أحداثُ البصرة يتنافسون فى ميله إليهم وذكره لهم ، ويحفظون كلامه لسهولته وقرب مأخذه ، ومن ذلك قوله :

ودِدْتُ أنى بكفه قلم   أو أننى مدة على قلمه

---

(١) حكى الجاحظ (المتوفى عام ٢٥٥ هـ — ٨٦٨ م) فى كتاب المعلمين سبب حدوث هذه الفاحشة فى الخراسانيين ، وهو خروج الأجناد فى البعوث مع الغلمان ، وذلك حين سنّ أبو مسلم ألا يخرج النساء مع الجند خلافاً لبنى أمية الذين كانوا يسمحون بخروج النساء مع العسكر . فلما طال مكث الغلام مع صاحبه فى الليل والنهار وعند البأس والسفر — وهم جنود طول تقع أبصارهم على خد كخد المرأة وردف كردفها وساق كساقها — تولدت هذه الفاحشة . انظر حمزة الأصفهانى فى ديوان أبى نواس مخطوط برلين رقم ٧٥٣٢ ص ١٩٣ ب — ١٩٤ أ — وانظر Mittwoch, MSOS, 1910, s. 138.

(٢) المضاف والمنسوب للثعالبى (ZDMG, VIII, s, 56) .

(٣) كتاب الديارات ص ٨٣ أ .   (٤) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٦٣ وما بعدها .

(٥) Dvorak, s. 165 ff قال أبو فراس :

سكرت من لحظه لا من مدامته   ومال بالنوم عن عينى تمايله
فما السلاف دهتنى بل سوالفه   ولا الشمول ازدهتنى بل شمائله
ألوى بعزمى أصداغ لوين له   وغال صبرى ما تحوى غلائله

يأخذنى مرة ويلثمنى إن علقت منه شعرة بفمه[١]

وكان الولع بالغلمان شأن العامة والخاصة ، ولكننا لم نسمع أن أحد الخلفاء استهتر بغلام . على أنه يحكى عن الأمير بختيار البويهى أنه أُسِر له فى إحدى المواقع غلامٌ تركى ، فجن عليه جنوناً ، وحدث له من الحزن ما لم يسمع بمثله ، « وزعم أن فجيعته بهذا الغلام فوق فجيعته بالمملكة والانسلاخ منها ومن النعمة » وما زال يظهر الشكوى حتى خف ميزانه عند الناس وسقط من عيونهم[٢] ولكن بختيار هذا كان سيء الحكم مذموماً . بل يحكى أن سيف الدولة صاحب حلب المشهور بحروبه وغزواته كان له غلام يسمى باسم مؤنث وهو : نُمل ، وكان عزيزاً عليه[٣] . وكان من ذوق ذلك العصر أن يكون الغلام الذى يستهتر به أغن الصوت ، غنَّاجاً ، ألثغ السين[٤]. على أنه كان على شاطئ دجلة مكان للهو فيه إلى جانب الخمار والخمر « ظبيٌ غرير » أو « ظبية غريرة » ، وقاصده لا يدفع لهذا كله فى الليلة إلا درهمين[٥] . ويحكى عن الخليفة الحاكم بأمر الله بمصر أنه عنَّ له فى أثناء ركوبه بالليل رأىٌ سخيف ، فكان يأمر أحد رجاله بأن يأتى شيخاً خليعاً بمشهد منه ومن الجمع الحاضر ، ويضحك من هذا المنظر القبيح ويطرب له[٦] . وقد كان التولع بالغلمان سبباً فى قصص غرامية شيقة ، فيُحكى عن أبى عبد الله بن محمد نفطويه المتوفى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م ، وكان عالماً

---

(١) يتيمة ج ٢ ص ١٣٣ ومروج الذهب ج ٨ ص ٣٧٤ .
(٢) مسكويه ج ٦ ص ٤٦٩ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٩٥ .
(٣) مسكويه ج ٦ ص ٨١ .
(٤) كتاب الديارات للشابشتى ص ١٢٧ ا ، والإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٤٠ :

وشادن قلت له ما اسمكا فقال لى بالغنج عباث
فصرت من لثغته ألثغا فقلت أين الكاث والطاث

(٥) يتيمة الدهر ج ١ ص ٤٨٣ .
(٦) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٢٧ ا — ب من مخطوط باريس .

بالعربية واللغة والحديث ، أنه كان بينه وبين محمد بن داود الأصفهانى الفقيه صا
المذهب المسمى باسمه مودةٌ أكيدة وتصافٍ تام ، وكان ابن داود يهوى أبا الحـ
محمد بن جامع الصيدلانى[١] هوى أفضى به إلى التلف ، فدخل عليه رجل
مرضه الذى مات فيه ، فقال له : يا سيدى ما بك ؟ فقال : حب من تعلم أور
ما ترى ... ثم قال : حدثنى سُوَيْد بن سعيد الحدثانى عن أبى يحيى القتات
مجاهد عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من حبّ فعفّ وكتم ،
ثم مات ، مات شهيداً ... ثم مات من ليلته فى عام ٢٩٧ هـ ؛ فيقال إن نفطويه
تفجّع عليه وجزع جزعاً عظيما ، ولم يجلس للناس سنة كاملة[٢] .

ويحكى عن أحمد بن كليب النحوى المتوفى عام ٤٢٦ هـ — ١٠٣٥ م أنه
كان يحضر مجلس أحد النحاة فى جماعة ، وكان معه م ولدٌ لأحد القضاة يسمى
أسلم ، وكان من أجمل من رأت العيون ، فاشتد كلفه بأسلم ، وصرّف فيه القول
إلى أن فَشَتْ أشعارُه فيه وجرت على الألسنة ، وتنوشدت فى المحافل ، فلما بلغ
الأمر هذا المبلغ انقطع أسلم عن جميع مجالس الطلب ، ولزم بيتـه والجلوس على
بابه ، فكان أحمد بن كليب لا شغل له إلا المرور على باب أسلم سائراً ومقبلا نهاره
كله ، فانقطع أسلم عن الجلوس على باب داره نهاراً ، وكان إذا صلى المغرب
واختلط الظلام خرج مستروحاً ، وجلس على باب داره ، فعيل صبر أحمد بن
كليب ، فاحتال فى بعض الليالى ، وتَزَيّا بزى أهل [illegible] ية ، وأخذ بإحدى يديه
دجاجاً وبالأخرى قفصاً فيـه بيض ، وتحيّن جلوس أسلم عند اختلاط الظلام ،
فتقدم إليه ، وقبّل يده مدّعياً أنه أحد أصحابه فى الضياع التى يملكها يقـدم له
هدية ، فأمر أسلم بأخذ ذلك منه ثم جعل يسأله عن الضيعة ، فلما أجابه أنكر

(١) كان نفطويه غير مكترث بإصلاح نفسه . وكان يتأذى الناس بكثرة صنانه .
(٢) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

الكلام ، ثم تأمله ضرنه ، فقال له : يا أخى ، وهنا بلغت بنفسك ... أما كفاك انقطاعى عن مجالس الطلب وعن الخروج جملة ؟ ... وأقسم ألا يقعد على باب داره ليلا ولا نهاراً ، فلما يئس أحد من رؤيته ألبتة نهكته العلة وأضجعه المرض ، وزاره أحد أصحابه فوجده بأسوإ حال ، وقال له : إن دوائى نظرة من أسلم ، فلو سعيت فى أن يزورنى لأعظم الله أجرك ، وكان هو والله أيضاً يؤجَر ، فذهب الصاحب إلى أسلم ، وما زال به حتى وعده بالزيارة بعد تأبٍّ وتأجيل ، حكى هذا الصاحب : « فأخذ رداءه ونهض معى راجلا إلى منزل أحمد بن كليب ، وكان يسكن فى آخر درب طويل ، فلما توسط الدرب وقف واحمرّ وخجل وقال لى : الساعةَ والله أموت ، وما أستطيع أن أنقل قدمى ، ولا أن أعرض لهذا نفسى ، فقلت : لا تفعل بعد أن بلغت المنزل أن تنصرف ؛ قال : لا سبيل والله إلى ذلك ألبتة ، ورجع مسرعاً فاتبعته وأخذت بردائه فتمادى وتمزّق الرداء ، و بقيت قطعة منه فى يدى ... فرجعتُ ودخلت الدار على أحمد بن كليب ، وقد كان غلامه دخل إليه إذ رآنا من أول الدرب مبشراً ، فلما رآنى دونه تغير لونه وقال : أين أبو الحسن (أسلم) فأخبرته بالقصة ، فاستحال من وقته ، واختلط وجعل يتكلم بكلام لا يُعقل منه أكثر من الترجع ... ، فخرجت عنه فوالله ما توسطت الدرب حتى سمعت الصراخ عليه وقد فارق الدنيا » . ثم رُؤى أسلم فى يوم شديد المطر لا يكاد أحد يمشى فى طريق ، وهو قاعد على قبر أحمد بن كليب زائراً له ، وقد تحيّن غفلة الناس فى مثل ذلك الوقت . وكان أحمد بن كليب قد أهدى إلى أسلم فى أول أمره كتاب الفصيح وكتب عليه :

هذا كتاب الفصيح   بكل لفظ مليح
وهبته لك طوعا   كما وهبتك روحى (١)

(١) كتاب المنتظم لابن الجوزى ص ٢٨٩ ب — ١٩٠ ب والإرشاد لياقوت ج ٢ ص ١٩ — ٢٣ .

وثم قصة أخرى حكاها أبو بكر الصنوبرى الشاعر الشامى المتوفى عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م قال : « كان بالرُّها ورّاق يقال له سعد ، وكان فى دكانه مجلس كل أديب ، وكان حسن الأدب يعمل شعراً رقيقاً ، وما كنا نفارق دكانه أنا والمعوج الشامى الشاعر وغيرنا من شعراء الشام وديار مصر ، وكان لتاجر بالرها نصرانى من كبار تجارها ابنٌ اسمه عيسى من أحسن الناس وجها ، وأحلام قدًّا ، وأظرفهم طبعاً ومنطقاً ، وكان يجلس إلينا ويكتب عنا أشعارنا وجميعنا يحبه ويميل إليه وهو يومئذ صبى فى الكتاب ، فعشقه سعدٌ الوراق عشقاً مُبرّحاً ، وعمل فيه الأشعار . . . . ثم شاع بعشق الغلام فى الرها خبره ، فلما كبر وشارف الأشلاف أحب الرهبنة ، وخاطب أباه وأمه فى ذلك ، وألح عليهما حتى أجاباه ، وخرجا به إلى دير زكّى بنواحى الرقة ، وهو فى نهاية حسنه ، فابتاعا له قلاية ، ورفعا إلى رأس الدير جملة من المال عنها ، فأقام الغلام فيها . وضاقت على سعد الوراق الدنيا بما رحبت ، وأغلق دكانه ، وهجر إخوانه ، ولزم الدير مع الغلام ، وسعد فى خلال ذلك يعمل فيه الأشعار . . . . ثم إن الرهبان أنكروا على الغلام كثرة إلمام سعد به ، ونهوه عنه وحرموه إن أدخله ، وتوعدوه بإخراجه من الدير إن لم يفعل ، فأجابهم إلى ما سألوا من ذلك . فلما رأى سعد امتناعه منه شق عليه ، وخضع للرهبان ، ورفق بهم فلم يجيبوه ، وقالوا : فى هذا علينا إثم وعار ، ونخاف السلطان ، فكان إذا وافى الدير أغلقوا الباب فى وجهه ، ولم يدعوا الغلام يكلمه ، فاشتد وجده وزاد عشقه حتى صار إلى الجنون ، فخرق ثيابه وانصرف إلى داره ، فضرب جميع ما فيها بالنار ، ولزم صحراء الدير ، وهو عريان يهيم ، ويعمل الأشعار ويبكى ! قال أبو بكر الصنوبرى : ثم عبرت يوما أنا والمعوج من بستان بتّنا فيه ، فرأيناه جالساً فى ظل الدير ، وهو عريان ، وقد طال شعره ، وتغيرت خلقته ، فسلمنا عليه ، وعذلناه وعاتبناه فقال : دَعَانى من هذا الوسواس ، أتريَان ذلك الطائر على

هيكل ؟ وأومأ بيده إلى طائر هناك ، فقلنا : نعم ، فقال : أنا وحقكما يا أخوىّ أناشده منذ الغداة أن يسقط فأحمله رسالة إلى عيسى ، ثم التفت إلىّ وقال : يا صنوبرى معك ألواحك ؟ قلت : نعم . قال اكتب :

بدينك يا حمامةَ دير زكّى وبالإنجيل عنـدك والصليب
قفى وتحملى عنى سـلاماً إلى قمـر على غصن رطيب
حماه جماعة الرهبانـ عنى فقلبى ما يقرّ من الوجيب
وقالوا : رابنا إلمام سعد ولا والله ما أنا بالمريب
وقولى سعدك المسكين يشكو لهيب جوى أحر من اللهيب
فصله بنظرة لك من بعيد إذا ما كنت تمنع من قريب
وإن أنا متّ فاكتب حول قبرى محب مات من هجر الحبيب
رقيب واحد تنغيص عيش فكيف بمن له مائتا رقيب

ثم تركنا وقام يعدو إلى باب الدير وهو مغلق دونه ، وانصرفنا ، وما زال كذلك زماناً ، ثم وُجد فى بعض الأيام ميتاً إلى جانب الدير ، وكان أمير البلد يومئذ العباس بن كيغلغ ، فلما اتصل ذلك به وبأهل الرها خرجوا إلى الدير ، وقالوا : ما قتله غير الرهبان ، وقال لهم ابن كيغلغ لا بد من ضرب رقبة الغلام ، وإحراقه بالنار ، ولابد من تعزير جميع الرهبان بالسياط ، وتعصّب فى ذلك ، فافتدى النصارى نفوسهم وديرهم بمائة ألف درهم . فكان الغلام بعد ذلك إذا دخل الرها لزيارة أهله صاح به الصبيان : يا قاتل سعد الوراق ، وشدّوا عليه بالحجارة يرجمونه ، وزاد عليه الأمر فى ذلك حتى امتنع من دخول المدينة ، ثم انتقل إلى دير سمعان وما أدرى ما كان منه »[1] . وكان بعض الظرفاء يمنعون الشبان غير الملتحين من

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٢٣ — ٢٦ .

حضور دروسهم ، ولعل ذلك لخوفهم من مثل هذه القصص الغرامية ، وكان بعض شديدى الإقبال على التعلم من الصبيان يتخذون لحًى مصطنعة ، ليتمكنوا من التسرب إلى مجالس أولئك العلماء[١] .

أما البغاء فليس شيئاً يستعيض به العزاب عن الزواج كما يرى المفكرون الاجتماعيون ، بل هو من حيث أصله نظام فى الديانات القديمة غريب شأنه شأن نظام الخصيان . وقد انتشر البغاء على الرغم من أن إباحة الزواج بأكثر من واحدة ، وأن العرف كان من شأنهما أن يجعلا حال الرجل غير المتزوج أو المرأة غير المتزوجة أمراً يستلفت النظر لأنه شاذ جدا ، وعلى الرغم من أن الشريعة جعلت حد الزانى المتزوج قاسياً ، فقضت أن يُرْجَمَ حتى يموت . على أن الشارع شدّد واحتاط فى إثبات تهمة الزنا إلى حد لا يمكن معه الحكم بهذه العقوبة[٢] . وقد وصف أحد الرحالة المسلمين حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م حال البغاء فى الصين وتكلم عن الزوانى ، وهن يُثْبَتْنَ فى ديوان خاص بهن يسمى ديوان الزوانى ، وعليهن فى كل سنة ضريبة يؤدّينها لبيت المال ، ثم قال : « ونحن نحمد الله على ما طهّرنا به من هذه الفتن »[٣] . ولكن لم تمض على ذلك خمسون سنة حتى بلغ من إهمال عضد الدولة المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م الشريعة أنه فرض على الراقصات والقحاب بفارس ضريبة ، وكان يضمّن هذه الضريبة . يقول البيرونى بعد حكاية ما كان عليه ملوك الهند من فرض الضريبة على المغنيات والراقصات طلباً للمال : « وهكذا كان عضد الدولة ، وأضاف إليه حماية الرعية من عزّاب

---

(١) Wüstenfeld, AGOW, 37, Nr. 88.

(٢) محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٢٩ .

(٣) سلسلة التواريخ طبعة Reinaud ص ٧٠ ، عن أبى زيد السيرافى ؛ قارن المسعودى (مروج الذهب) ج ١ ص ٢٩٥ .

الجند »[١] . وقد أخذ الفاطميون بهذا النظام ففرضوا الرسوم على بيوت الفواحش[٢] . وفى حكاية اختُرعت حوالى آخر القرن الرابع الهجرى أن عضد الدولة خطب الأميرة جميلة الحمدانية ، فامتنعت عليه ، فلما أسرها استولى على جميع أموالها ، وقيل إنه فرض عليها مالا ، وألزمها إما أن تؤديه أو تختلف إلى دار القحاب لتكتسب ما تؤديه ، حتى إذا ضاق بها الأمر انتهزت غفلة الموكلين بها ، وغرّقت نفسها فى دجلة[٣] . ومن عجائب ما كان بمدينة اللاذقية أن المحتسب كان يجمع القحاب والغرباء المؤثرين للفساد من الروم فى حلقة ، وينادى على كل واحدة منهن ، ويتزايد الفسقة فيهن لليلة ، ثم يؤخذن إلى الفنادق التى يسكنها الغرباء ، بعد أن تأخذ كل واحدة منهن خاتماً يسمى خاتم المطران ؛ ليكون حجة بيدها من تعقب الوالى لها . وإن وجد خاطئ مع خاطئة من غير خاتم المطران عوقب . على أن هذا النظام لم يذكر إلا بعد أن عادت مدينة اللاذقية إلى حكم الروم[٤] . غير أن المقدسى يحكى لنا أنه فى مدينة السوس قصبة خوزستان تُرى دُور الزنا عند أبواب الجامع ظاهرة[٥] ، هذا على حين أن ابن حوقل يقول إنه ليس فى بلدان المغرب من الفواحش الظاهرة ، وتعاطى الأمور المنكرة والفسق الشنيع ؛ مثل ما فى المشرق[٦] .

وفى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٤ م قام الحنابلة ، وهم مسلمون متطرفون ، لمطاردة المنكر فى بغداد ، وعظم أمرهم ، وقويت شوكتهم ، حتى صاروا يكبسون دور القواد والعامة ، فإن وجدوا نبيذاً أراقوه ، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء ،

(١) كتاب الهند للبيرونى ص ٢٧٩ والمقدسى ص ٤٤١ .
(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٨٩ .
(٣) انظر هامش ص ٤٣ من الجزء الأول لهذا الكتاب .
(٤) أخبار الحكماء للقفطى ص ٢٩٨ من الطبعة الأوروبية .
(٥) المقدسى ص ٤٠٧ ، ٤٤١ . (٦) ابن حوقل ص ٧٠ .

وصاروا يعترضون فى البيع والشراء ، وفى مَشى الرجال مع النساء والصبيان ، فإذا رأوا ذلك سألوا الرجل عن الذى معه من هو ، فأخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة ، حتى أرهجوا بغداد [١] . على أن الماوردى يقول إن المحتسب « إذا رأى وقفة رجل مع امرأة فى طريق سابل لم تظهر منهما أمارات الريب لم يعترض عليهما بزجر ولا إنكار ، فما يجد الناس بدا من هذا ؛ وإن كانت الوقفة فى طريق خال نخلوّ المكان ريبة ، فينكرها ولا يعجّل بالتأديب عليها حذراً من أن تكون ذات محرم ، وليقل : إن كانت ذات محرم فصنها عن مواقف الريب ، وإن كانت أجنبية نخف الله تعالى من خلوة تؤديك إلى معصية الله تعالى » [٢] على أن العادة المستحسنة فى نظر الشرع هى أن يقرّ النساء فى بيوتهن ، ولا تُحمد لمن كثرة الخروج . وقد عن للحاكم بأمر الله فى مصر أن يغلو فى مراعاة آداب الشريعة ، فمنع النساء من المشى فى الطرقات ، ومنع الأساكفة من عمل خفاف لهن ، وإذا دعت الضرورة إلى حضور غاسلة أو قابلة استؤذن فى ذلك برقعة ترفع إليه فيوقع عليها إلى متولى الشرطة ليسمح بذلك [٣] . وبعد أن كانت عادة استقرار النساء فى البيوت أدباً شرعيا صارت عادة بين الأشراف والكبراء ، حتى فى اسبانيا ، « وبتأثير الأسبان كانت لا ترى امرأة قط فى شوارع إيطاليا حوالى منتصف القرن السابع عشر الميلادى » [٤] .

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٢) الأحكام السلطانية طبعة إنجر Enger ص ٤١٨ .

(٣) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٢٤ أ ؛ والخطط المقريزى ج ٢ ص ٢٨٩ ؛ وملحق أخبار القضاة والولاة للكندى ص ٦٠٦ . ويقول فستنفلد (Wüstenfeld, Staathalter Aegyptens, II, s. 58) إن هذا النص حدث فى مصر عام ٢٥٣ هـ — ٨٦٧ م وقد حكى الكندى ذلك على صورة أخرى (الولاة للكندى ص ٢١٠) ، وقد توفى الكندى عام ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م .

(٤) Stendhal, Promenades, II, s. 358 .

حكى صاحب العقـد الفريد أن «أحق الناس بثلاث لطمات من دُعى إلى طعام فقال لصاحب المنزل : ادْعُ ربّة البيت تأكل معنا »(١). وكان يحل محل ربة البيت على موائد الدعوات ضربٌ من الخطايا كما كان الحال عنـد اليونان القدماء ، وكُنّ نساء متقنات مدرّبات على أرقى الآداب الاجتماعية ؛ حائزات كل مظاهر الجمال والثقافة والفن ، متعودات على الحديث مع الرجال من غير وجل . ويشعر الإنسان أن هذا الفصل كان فيه راحة للبيت وللجماعة . وكان أغلب هؤلاء النساء جوارى مملوكات ، ولـكن كان منهن من تعمل بأجر ومعظم هؤلاء معتقات . ومما يذكر أن مغنية مشهورة كانت تشتغل فى النهار بدينارين وفى الليل بدينار(٢) . ويحكى أن غلاماً وقع فى هوى جارية مغنية ، فأخذ فى استعطافها بالمراسلات والمـكاتبات ، والجارية بغدادية لا تعرف إلا الدينا والدينار ، وجعل يصف فى رقاعه عشقَه وسهرَه فى الليالى وتقلُّبَه على حرّ المقالى وامتناعَه من الطعام والشراب ، وما يشا كل هذا من المذيان الفارغ الذى لا طائل فيه ، فلما أعياه أمرها ، ويئس من تعطُّفِها عليه ، كتب إليها فى رقعة : وإذْ قد مَنَعْتِنى زيارتَك واستزارتك فَمُرى بالله خيالك أن يطرقنى ويبرّد حرارة قلبى ، أرشدينى إلى خيالك حتى أتقاضاه موعداً لى عليه ، فقالت لرسولته : قولى لهذا الرقيع : يامُدْبِر ، أنا أعمل بك ما هو خير لك من أن يطرقَك خيالى ، احمل دينارين فى قرطاس حتى أجيئك بنفسى(٣) . على أنه فى هذه الناحية كان عرف البلاد ظاهراً إلى جانب النظريات الشرعية . وقد لاحظ العرب تلك الحرية الـكبيرة التى تركها رجال القبط لنسائهم ، وعلّل بعضهم ذلك بأنه لما غرق فرعون وقومه لم يبق من الرجال إلا العبيد والأجراء ، ولم يصبر النساء عن الرجال فطفقت المرأةُ تعتق عبدها

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ٢٨٥ من طبعة مصرية .
(٢) الأغانى ج ١٩ ص ١٣٦ . (٣) حكاية أبى القاسم طبعة متز ص ٧٣ .

وتتزوّجه ، وتتزوج الأخرى أجيرها ، وشَرَطْن على الرجال ألا يفعلوا شيئاً إلا بإذنهن ، فأجابوهن إلى ذلك ، فكان أمر النساء ينفذ على الرجال . قال يزيد بن أبي حبيب إن نساء القبط على ذلك إلى اليوم اتباعاً لمن مضى منهم لا يبيع أحد منهم ولا يشترى إلا قال أستأمر زوجتى[1] . وقد احتفظ النساء بمصر بعد الإسلام بشيء من ذلك ، فيقول المقدسى إن النساء بمصر لا يتورّعن عن الفجور ، وللمرأة زوجان[2] . وهو يقول عن أهل شيراز « وحُدِّثْتُ عن نسائهم بشيء قبيح » ، ويحكى أن نساء هراة « يغتلمن إذا ازدهرت أشجار الغبيراء كما تغتلم السنانير »[3] .

ويظهر أنه فى تلك العصور ظهر صوت يطالب للنساء بالحق فى المهام الكبيرة حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م ؛ لأن ابن بسام الشاعر يقول[4] :

ما للنساء وللكتا بة والعمالة والخطابه
هذا لنا ، ولهنّ منّـا أن يَبِتْن على جنابه

وكان من النساء عالمات فاضلات يقبل الناس على دروسهن مثل ستيتة بنت القاضى أبى عبد الله الحسين بن إسماعيل الضبى المحاملى ، وكان ابنها أيضاً قاضياً ، وتُكنى أم الواحد ، كانت فاضلة عالمة ، ومن أحفظ الناس للفقه على مذهب الشافعى ، وكانت تفتى مع العلماء ، وحدَّثَتْ وكُتب عنها الحديث ، وتوفيت عام ٣٧٧ هـ ؛ ومثل أم الفتح بنت القاضى أبى بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة التى توفيت عام ٣٩٠ هـ ، وأخذ عنها كثير من العلماء ، وكانت موصوفة

---

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٣٩ .

(٢) المقدسى ص ٢٠٠ .

(٣) نفس المصدر ص ٤٢٧ ، ٤٣٦ .

(٤) صبح الأعشى للقلقشندى ص ٦٤ من الجزء الأول طبعة دار الكتب عام ١٣٤٠ هـ — ١٩٢٢ م .

بالديانة والعقل والفضل[١] . ومن الفقهاء من جوّز للمرأة أن تتولى القضاء ، فتقضى فيما تصح شهادتها فيه ، وهو أبو حنيفة ، وجوّز ابن جرير الطبرى قضاءها فى جميع الأحكام[٢] . وتدل جميع الأخبار والحكايات على أن أهل الطبقة الوسطى كانوا يكتفون بزوجة واحدة ، ففى مقامة من مقامات الهمذانى مثلا أن أحد التجار يدعو رجلا إلى وليمة ، ويصف له نشاط زوجته ، فيقول : « يا مولاى ؟ لو رأيتها والخرقة فى وسطها ، وهى تدور من التنّور إلى القدور ، ومن القدور إلى التنور ، تنفث بفيها النار ، وتدقّ بيـدها الأبزار ، ولو رأيت الدخان وقد غبّر فى ذلك الوجه الجميل ، وأثّر فى ذلك الخد الصقيل ، لرأيت منظراً تحار فيه العيون ، وأنا أعشقها لأنها تعشقنى ، ومن سعادة المرء أن يُرزق المساعدة من حليلته ، وأن يسعد بظعينته »[٣] . ويحكى عن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى أنه خاطب جماعة من شيوخ كتامة قائلا لهم : « وأقبلوا بعد الأعمال على نسائكم ، والزموا الواحدة التى تكون لكم ، ولا تشرهوا إلى التكثّر منهن ، والرغبة فيهن ، فينغص عيشكم ، وتعود المضرّة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضـعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة »[٤] . وكذلك يستحسن أبو العلاء ألا يشرك الإنسان مع المرأة سواها ويقول[٥] :

متى تشرك مع امرأة سواها ... فقد أخطأت فى الرأى التريك
فلو يرجى مع الشركاء خير ... لما كان الإله بلا شريك

(١) المنتظم لابن الجوزى ص ١٢٦ أ ، ١١٤٦ أ . وقد اشتهرت بين النساء بعلم الحديث كريمة بنت أحمد المروزى بمكة وقد قرأ عليها الخطيبُ البغدادى صحيحَ البخارى فى خمسة أيام (الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٧) .
(٢) الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٠٧ — ١٠٨ .
(٣) مقامات الهمذانى ص ١٠٣ من طبعة بيروت .
(٤) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٣٥٢ .
(٥) Kremer ZDMG, 38, s. 509 .

أما الكبراء فلم يكن عندهم تعدد الزوجات إلا من طريق اتخاذ الجوارى للاستمتاع بهن ، وخلفاء القرن الرابع كلهم أمهاتهم جوار صقلبيات ، ولذلك فإنهم لم يكونوا يتزوجون غير المملوكات إلا نادراً ، ونظراً لغلبة المملوكات على الخلفاء سميت زوجة الخليفة — إن كان له زوجة — بالحرة[١] . وقد بين الجاحظ العلة التى من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المهيرات بأن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شيء فيها وعرفه ما خلا حظوة الخلوة ، فأقبل على ابتياعها بعد وقوعها فى نفسه ؛ أما الحرة فإنما يستشار فى جمالها النساء ، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلا ولا كثيراً ، والرجال بالنساء أبصر ، وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة ، فأما الخصائص التى تقع من نفوس الرجال فلا تعرفها[٢] .

أما زواج الأرامل فقد أجازته الشريعة ، ولكن العرف سخطه سخطاً شديداً ، ويحكى أنه فى عهد الخليفة المعتصم فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، امتحن رجلٌ كاتباً فسأله عن صديق تزوجت أمُّه هل تُكتب إليه تهنئة أم تعزية ، فقال هو إلى التعزية أقرب ؛ فقيل له فكيف تعزيه ، فقال لا أجد إلى ذلك سبيلا ، وأخيراً قال يُكتب له : « إن الأقدار تجرى بخلاف محابّ المخلوقين ، وسِتْرٌ فى عافيــة خير من شماتة فى أهلها ، والله يختار للعباد ، نخار لك الله فى قبضها إليه ، فإن القبور أكرم الأ... »[٣] وكذلك كتب الخوارزمى (المتوفى عام ٣٩٣ هـ — ١٠٠٣ م) إلى ابن مسكويه المؤرخ بعد أن

---

(١) المنتظم س ١٢١ ا .

(٢) كتاب الفصول للجاحظ مخطوط رقم ٣١٣٨ بالمتحف البريطانى بلندن س ٦١ ا .

(٣) المحاسن والمساوئ للبيهقى س ٤٤٩ ؛ وجمهرة الإسلام للشيرازى مخطوط ليدن رقم ٢٨٧ س ٢٠٠ ب .

تزوجت أمه : « وقد كنتُ أسأل الله أن يبارك لك فى حياتها ، والآن أسأله أن يعجّل بوفاتها ، فإن القبر أكرم صهر ، وإن الموت أستر ستر ، ولا تذهب نفسك حسراتٍ على ما سبقك عليه الدهر ... والحمد لله الذى كان العقوق من جهتها ، ووقوع الجفاء من جنبتها ، فإنك بَرَرْتَها صغيراً ، وبلغت مرادها كبيرا ، فاجتمع لك بِرّان ، ووقع لك على الله أجران »[1] .

وكان ميلاد البنت دائماً مناسبة للتهنئة الحقيقية ، وقد كتب الشريف الرضى إلى أخيه مهنئاً بمولودة :

الآن جاءت خيولُ السعد راكضة تجرى بيوم مضىء الوجه مجدود
بمولد صقل الآباء حليته فطوّق المجدُ أعناق المواليد
مولودةٌ تهب الراءون بهجتَها لثما وعانَقْتَها فى ثوب محسود[2]

على أن الخوارزمى كتب معزّيا لرجل عن فقد ابنته ، وهو يختم كتابه داعياً لأبيها أن يعوضه الله عنها «أخاً لها سوىّ الخلق والخلق شريف الفعل والعرق»[3] .

ولم يكن انفصالُ النساء عن الرجال فى الحياة الاجتماعية هو وحده السبب فيما يُلاحظ فى كلام أم الجنوب من فحش ننفر منه ؛ فإننا لو قارنا قِصَصَ العرب فى عصرهم الأول ونوادرهم وكلامهم وشعرهم بما فى القرنين الثالث والرابع للهجرة لأدهشنا ما نجده فى هذين القرنين من ميل شديد إلى الإفحاش فى القول . وليس هذا أيضاً — شأنه شأن غيره — إلا من أثر سيطرة العادات الشرقية غير العربية التى كانت قبل الإسلام ، سيطرةً عادت لها من جديد ؛ ولا يزال البدوى إلى اليوم أعف وأطهر من غيره[4] . وتسيطرت على شعر الهجاء بنوع خاص الألفاظُ

---

(١) رسائل الخوارزمى طبعة القسطنطينية ص ١٧٣ .

(٢) ديوان الشريف الرضى ج ١ ص ٢٤٥ . (٣) رسائل الخوارزمى ص ٦١ .

(٤) Landberg, Proverbes arabes, XVL ، وانظر الفصل الخاص بالأدب فى الجزء الأول من هذا الكتاب (عند الكلام عن الشعراء الماجنين) .

البذيئةُ الفاحشةُ ، ولو نظرنا إلى الأشعار القديمة التي جمعها أبو تمام في ديوان ا سة وأشعار البحتري — الذي كان يعتبر من أتباع طريقة القدماء — لوجدناه ا شد عفة وطهارة . أما ابن المعتز ، وهو الأمير العباسي الشاعر ، المتوفى عام ٢٦٩هـ — ٩٠٩م فإنه أجاب على حبيب له في ظهر كتابه ، وهو يبيّن سبب ذلك فيقول :

وأجبت في ظهر الكتاب إذا أتى ليلوط خطي في الكتاب بخطه[١]

وفي القرن التالي زاد الفحش حتى يحكي عن الوزير سليمان بن الحسن حوالى عام ٣١٩هـ — ٩٣١م أنه أظهر « من سخف الكلام وضرب الأمثلة المضحكة وإظهار اللفظ القبيح بين يدي الخليفة ما يجل الوزراء عنه ، فاستنقصه الخلق ، وهجاه الشعراء ، واستعظموا الوزارة لمثله »[٢] . ولكن في أواخر هذا القرن نجد ابن عباد الوزير الجليل المشهور بالصاحب يستعمل في شعره أفحش الأوصاف[٣] وهو يبيّن رأيه في أحد شعراء أهل عصره في ثوب من الفحش[٤] . ولما ورد بغداد قصد دار الوزير المهلبي ، فلم يستطع استقباله لوقته بسبب شغل كان فيه ، فلما طال انتظار الصاحب كتب لأبي إسحاق الصابي رقعة فيها :

وأترك محجوبا على الباب كالخصي ويدخل غيري كالأيور ويخرج[٥]

بل نجد أن الصابي هـذا ، مع أنه مفخرة النثر العربي ، إذا هجا أتى بألفاظ فاحشة مقذعة من ألفاظ المقاذر والمجون[٦] . ونستطيع أن نصور لأنفسنا بعد هذا كيف يكون السخف والفحش في كلام المجان الحقيقيين كابن الحجاج .

---

(١) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ٨٧ . (٢) عريب بن سعيد القرطبي ص ١٦١ .

(٣) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٠٢ وما يليها .

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ١٢٩ — ١٣٠ ، حيث يقول ابن عباد في أبي سعيد الرستمي مداعبا :

أبو سعيد فتى ظريف يذل في الظرف فوق وسعه
ينيك بالشعر كل ظبي فأيره في عيال طبعه

(٥) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٣٨ . (٦) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٦٣ — ٥ .

ويحكى أحد الشعراء كيف كان يغوى الصبيان فى الجامع الكبير بالبصرة ، وهو يبين كيف يمكن أن يستغوى من كان منهم مستعصيا فيقول(١) :

ألا يا جامع البصـــرة لا خرّبك الله
وسقى صحنك الغيثُ من المزن فرواه
فكم من عاشق فيـــك يرى ما يتمناه
وكم ظبى من الإنـــس مليح فيك مرعاه
نصبنا الفخ بالعلـــم له فيك فصدناه
. . . .
وكم من طالب للشعـ ـر بالشـــعر طلبناه
فما زالت يد الأيا م حتى لان متناه
. . . .
ولو كان من البعـــض بريًّا حين تلقاه
فرح بالدرهم الضر ب إليـــه يتلقاه
فبالدرهم يســتنزل ما بالجـــو مأواه
وبالدرهم يســـتخر ج ما فى القفر مثواه

ويقول الهمذانى هاجيا :

لو كانت النيراتُ أَخمصكا أو كنت ممن يساير الفلكا
ما كنت إلا مؤاجرا حَلِقا إذا رأى وجه دانق بركا(٢)

وهـذا ينطبق على كثيرين من معاصريه ، ثم عادت إلى الظهور الأوضاع

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ١٣٠ ؛ والإرشاد ج ٦ ص ٣١٧ — ٣١٨ .
(٢) ديوان الهمذانى مخطوط بباريس رقم ٢١٤٧ ص ٥٩ أ وطبعة القاهرة سنة ١٣٢١ هـ — ١٩٠٣ م ص ١٥

القديمة ، وأصبحت للمال قوة عظيمة ، حتى سحقت طاحونه الكبيرة كلَّ قيمة أخرى ، وكل شىء عُرِض من أجل المال ، وبلغت وصمة حب المال والمكر لتحصيله أعلى طبقات الشعب في الدولة . ويحكى أنه فى عام ٣٢١ هـ — ٩٣٣ م أمر الخليفة القاهر بتحريم الخمر والغناء وسائر الأنبذة ، وأمر ببيع الجوارى المغنيات على أنهن سواذج لا يعرفن الغناء ، ثم وضع من يشترى له كل حاذقة فى صنعة الغناء ، فاشترى منهن ما أراد بأرخص الأثمان . وكان القاهر مولعا بالغناء والسماع ، فجعل ذلك طريقا إلى تحصيل غرضه رخيصا[1] . وكذلك يحكى عن أمير مصر فى ذلك العهد حكايات طريفة ، فقد كان يأخذ أشياء الناس أخذ طماع لا يستحى ؛ حكى مزاحم بن رائق قال : استُعمل لى فَرْوٌ ، قام علىّ بستمائة درهم ، فمن حسنه وفرحى به لبسته بدمشق ، وركبت إلى الأخشيد ، فلما رآه قلّبه واستحسنه ، وقال : ما رأيت مثله قط ، فلم تسمح نفسى بأن أنزعه للوقت ، فلما انصرفت اعترضنى فاتك ، وقال لى : اجلس فإن الأخشيد يريد أن يخلع عليك ، وجاءوا برزمة وقالوا : اخلع الفرو ، وطووه ، ومضوا به ، وبقيت جالسا . ثم قالوا : قد نام ، تعود إليه العشيّة ، فانصرفت إلى دارى ، وقلت : هاتوا الفرو ، فقالوا أيما فرو ؟ ما جاءنا شىء . فلما كان عشية دخلتُ على الأخشيد فإذا الفرو عليه ، فلما رآنى ضحك ، وقال : كيف رأيتَ ، ما أصفق وجهك ؛ ولكنك ابنُ أبيك ، وكم عرّضت لك ، وأنت لا تستحى ، فلم تفعل حتى أخذناه بلا شكر ولا منة[2] . ويحكى أن محمد بن على المادرائى نزّه الأخشيد فى بستانه ببنى وائل ، وفرش له ، وأكثر من الطعام والفواكه والطيب والفرش ، وقام بجميع العسكر ، فأكل ثم نام ، فلما استيقظ فُرش له عند البركة ونصبت بين يديه التماثيل من الذهب والفضة والكافور والعنبر ، وجُمع بين يديه المغنون من الرجال والنساء ، فطابت بذلك

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٤ . (٢) المُغرب لابن سعيد ص ٣٤ .

نفسه ، ثم جعل بين يديه صينيتان من الفضة ، إحداها مملوءة بالدنانير والأخرى بالدراهم للنثار ، فأخذ صينية الدنانير وجعلها خلفه ونثر الدراهم ، فلما انصرف حمل جميع ما كان جالسا عليه وما كان بين يديه وما شرب وما أكل فيه فأرسل خلفه ، وحمل على فرسين بسرج ولجام من ذهب(١) .

وقد نشأ عن قلة شعور الإنسان بكرامة نفسه وشرفه قلة تقديره لكرامة الغير ؛ وفى سنة ٢٦٨ هـ — ٨٨٤ م خالف العباس بن أحمد بن طولون على أبيه ، وخرج عليه وهو بالشام ، وسار إلى برقة ، فسيّر إليه أبوه جيشا هزمه وقبض عليه وعلى من كان معه ، وأراد أن يعاقبهم ، فنصب دكة عظيمة رفيعة السمك ، وجلس فى علو يوازيها ، وشرع من ذلك العلو إليها طريقا ، ووقف العباس بين يدى أبيه فى خفتان ملحم وعمامة وخف ، وبيده سيف مشهور ، وكان أعوان العباس فى الثورة ومن حسن له الخروج على أبيه جالسين على الدكة ، فكان الواحد منهم يضرب بالسوط ثم يؤمر العباس بأن يقطع يديه ورجليه من خلاف ، ثم يلقى من الدكة إلى الأرض(٢) . ولما خُلع الوزير حامد بن العباس لم يزل ابن الفرات — وهو الذى خلفه على الوزارة — بالخليفة حتى سلّمه إليه ، فكان يصفع ويضرب . وكان المحسّن ، ابن الوزير الجديد ، يُخرِجه إذا شرب ، « فيلبسه جلد قرد له ذنب ويقيم من يرقصه ويصفعه ، ويشرب على ذلك ، وأجرى على حامد أفاعيل قبيحة ليست من أفاعيل الناس ، ولا يستجيزها ذو دين ولا عقل »(٣) .

على أنه تروى عن النبى عليه السلام حكايةٌ تصور لنا مقدار شعور العربى بكرامته ، حكى ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدّل صفوف أصحابه

(١) نفس المصدر ص ٢٩ .
(٢) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٤١٥ — ٤١٦ ؛ والكندى ص ٢٢٤ .
(٣) عريب ص ١١٢ .

يوم بدر ، وفى يده قِدْح يعدّل به القوم ، فمر بسواد بن غزية حليف بنى ع
ابن النجار ، وهو مستنتل (مستنصل) من الصف ، فطعن فى بطنه بالقـد
وقال : اسْتَوِ يا سواد ، فقال : يا رسول الله أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق والعد
فأقِدْنى ، قال : فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه فقال : استقِدْ
فاعتنقه سواد ، وقبّل بطنه[١] . هذا مثال لشعور العربى الأول بكرامته ؛ أما فى القرن الرابع فقد كانت العقوبة البدنية لا تكاد تعتبر مزرية بالكرامة . ويحكى عن الأمير معز الدولة أنه فى سنة ٣٤١ هـ ضرب وزيره أبا محمد المهلبى بالمقارع مائة وخمسين مقرعة ، يراوح بينها بأن يرفع عنه الضرب حتى يوبخه ويبكته ثم يعيد عليه الضرب ، ولكن هذا الوزير قَبِل بعد أن استقل من هذا الضرب أن يرجع إلى الوزارة[٢] . وقد تولى الوزارة بمصر فى القرن الخامس رجل كانت يداه قد قطعتا بسبب الخيانة[٣] ، وبلغ الحال إلى ما يشبه ما عند الزنوج ، حيث لا يتولى أحدٌ قيادة القوافل إلا بعد أن تُمتَحَنَ مقدرتُه على احتمال الضرب بالسياط[٤] .

وكان الثوار الذين يؤسرون وسلاحهم فى أيديهم يعاملون بحسب جرمهم وعلى قدر ما أثاروه من سخط ورُعب . وكان الأسرى الأجانب يعاملون بغير معاملة الخوارج من أهل البلاد ، ويحكى أن الأعراب الذين سبقوا الحجاج إلى مواضع الماء فنزحوها وألقوا فيها الحنظل ، حتى بلغ العطش من الحجاج مبلغا كبيراً ، وهلك منهم خمسة عشر ألفا ، عوقبوا بأن أُشْهِروا وحُبسوا ، وأُجيع منهم جماعة وأُطعموا المالح ، ثم تُركوا على دجلة حتى ماتوا عطشا وحسرة ، وهم يشاهدون

---

(١) سيرة ابن هشام ص ٤٤٤ من طبعة جوتنجن سنة ١٨٥٨ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ١٩٠ .

(٣) Becker, Beiträge Zur Gesch. Aegyptens 1, 34 نقلا عن المسبّحى (المتوفى عام ٤٢٠ هـ ?) .

(٤) Vierkandt, Naturvölher, s. 264 .

الماء[١] . وفى عام ٢٨٩ هـ — ٩٠١ م قُبض على ابن أبى الفوارس القرمطى ، فقُلعت أضراسُه أولا ثم خلع بمدّ إحدى يديه ببكرة وتعليق صخرة فى الأخرى ، وترك على هـذه الحالة من نصف النهار إلى المغرب ، ثم قطعت يداه ورجلاه من غد ذلك اليوم ، وضُربت عنقه ، وصُلب[٢] . وفى عام ٢٩١ هـ — ٩٠٣ م قبض على « صاحب الشامة » وهو أحد قواد القرامطة القُساة ، وكان يذبح المسلمين كما تُذبح الأنعام ، وأُدخل هو وأصحابه بغداد . وقد عزم الخليفة على أن يُشْهره حتى يراه الناس جميعا ، فأمر أن يُصلب على دقل ، والدقل على ظهر فيل ، وأمر بهدم طاقات الأبواب التى يجتاز بهـا الفيل ، ثم استسمج ذلك فأمر بعمل كرسىّ ، وركبه على ظهر الفيل فى ارتفاع ذراعين ونصف ، وأُقعد فيه القرمطى ، وسار بين يديه الأسرى مقيدين على جمال ، وعليهم دراريع وبرانس من حرير ، وكان بينهم المطوق أحد أصحاب القرمطى ، وهو غلام لم تنبت لحيته ، وقد جعلت فى فمه خشبةٌ مخروطة ، وأُلجم بها فمه ، ثم شُدّت إلى قفاه كاللجام ، وذلك لأنه لما دخل الرقّة كان يشتم الناس إذا دعوا عليه ، ويبزق فى وجوههم ، فجعل ذلك فى فمه لئلا يتكلم . ثم أمر المكتفى ببناء دكة ارتفاعها عشرة أذرع ، وذُكر عن « صاحب الشامة » أنه أخذ وهو فى حبس المكتفى سكرجةً من المائدة التى كانت تدخل عليه ، فكسرها وقطع بشظية منهـا بعض عروقه فسال منه دم كثير ، فتُرك أياما بعد أن شُدت يده إلى أن رجعت إليه قوته ، ثم قُدِّم قواد القرامطة ، وقطعت أيديهم وأرجلهم ، وضُربت أعناقهم واحدا بعـد واحد ، وكانت ترمى جثثُهم وأعضاؤهم من أعلى الدكة إلى الأرض ، ثم قُدِّم « صاحب الشامة » ، فقطعت يداه ورجلاه ، وأُضرمت نار عظيمة وأدخل فيها خشب صليب ، وكانت توضع الخشبة الموقدة فى خواصره وبطنه وهو يفتح عينيه ويغمضهما ، حتى خُشى

---

(١) المنتظم ص ١٥٩ ا .   (٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٢٠٦ .

عليه أن يموت ، فضُربت عنقه ، ورفع رأسه فى خشبة ، وكبّر من كان على الد ة ، وكبر سائر الناس فى أسفلها ، ثم ضُربت أعناق الأسرى ، فلما كان من ا سد حملت الرءوس إلى الجسر ، وصلب بدنُ القرمطى على الجسر الأعلى ببغداد[١] .

وبعد ذلك بقرن أى فى عام ٣٩٧ هـ — ١٠٠٧ م قبض الخليفةُ الحاكم بأمر الله على أبى ركوة ، وهو ثائر خرج على الحاكم واستفحل أمره حتى استولى على برقة وغيرها وكسر عسكر الحاكم وزعزع دولته ، « فأُركب جملا بسنامين وأُلبس طرطوراً ، وجعل خلفه قردٌ يصفعه معلّماً بذلك ، والعساكر حوله ... ، وأمر به الحاكم أن يخرج إلى ظاهر القاهرة ، وتضرب عنقه ... فلما حمل إلى هناك أُنزل فإذا به ميت »[٢] . وقد حكى المؤرخ النصرانى يحيى بن سعيد الذى كان يعيش بمصر فى ذلك العهد ، بدلا من هذه القصة الطريفة ، أن أبا ركوة أحضر إلى مصر أسيراً ، فأُشهر بها ، ثم قُتل فى موضع يعرف بمسجد تبْر ، وصلب فيه وأحرق بالنار[٣] .

هذه هى أقسى وأفظع العقوبات التى كانت الحكومة تعاقب بها أشد الثوار غلظة وأشدهم أذى ، وهم الذين كانوا يسفكون دماء الآلاف من الأبرياء ، وإذا عرفنا أن قطع اليد والرجل عقوبة قضت بها الشريعة الإسلامية من قبل ، ولا تزال إلى اليوم تستعمل مع الثوار فى مراكش ، ثم نظرنا بعد هذا فى قائمة العقوبات المروّعة التى كان يُلجأ إليها فى مثل هذه الأحوال فى أواخر العصور الوسطى الأوروبية ؛ لشعرنا بشىء من الراحة ، لأن القاهرة وبغداد لم تبلغا مبلغ أوروبا من حيث قسوة الحاكم المتسلّط وغلظته بمن يقع فى يده . وكان الثوار الذين

---

(١) عريب ص ٢ — ٥ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٤٤ ، وابن تغرى بردى طبعة (W. Popper) ص — ١٠٠ . (٣) يحيى بن سعيد ص ١١٧ ب .

يؤخذون فى الأسر بين المسلمين يُشهرون عادة فى المدن على بغال[١] أو أفيال[٢] أو على جمل ذى سنامين وهو الأحب[٣] . وكان هؤلاء الخوارج يُلبسون على أشكال متنوعة ، فأحياناً يُلبسون ثياباً خشنة كما حدث للحسين بن حمدان وابنه حينما عاد بهما مؤنس إلى بغداد ، فقد أُلبسا برانس طوالا من اللبود ، وقمصاناً من الشعر الأحمر[٤] ، وأحياناً أخرى يُلبسون درّاعة ديباج و برنس خزّ طويل[٥] أو برنساً طويلا بشفاشج وجلاجل[٦] ، أو برنساً بأذناب الثعالب[٧] ، أو برنساً طويلا ملوناً كما يلبس النساء[٨] . وفى القرن الرابع كان يجمع بين الإشهار والصلب ، فكان الثائر يُشهر على جمل عليه نِقنِق وهو مصلوب[٩] . ولما أُشهر الحسين بن حمدان ببغداد عام ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م صُيّر مصلوباً على نِقنِق وتحته كرسى فوق جمل ، ويدير النِقنِقَ رجلٌ ، فيدور الحسينُ من موقفه يميناً وشمالا ، وعليه دراعة ديباج سابغة قد غطت الرجل الذى يدير النقنق حتى لا يراه أحد من الناس[١٠] ولما ضعفت سلطة الخليفة وصار يشق عصا الطاعة عليه أمراء الأقاليم كان إذا هزمهم لم يُعتبروا خارجين ، بل محاربين ، وأصبحت هذه العقوبات لا تستعمل مع الأسرى المحاربين ، ففى عام ٣٠٧ هـ — ٩١٩ م هزم يوسف بن أبى الساج ، وكان قد خرج على الخليفة وأسس لنفسه مملكة فى شمال

---

(١) نفس المصدر ص ١٠٧ ب .
(٢) نفس المصدر ص ١٩٤ ا ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٩ (؟) ، ومروج الذهب ج ٨ ص ١٦٩ . (٣) عريب ص ٧٧ ، ٥٧ والمروج ، ج ٨ ص ١٦٩ ، ١٩٨ .
(٤) زبدة الفكرة مخطوط باريس ص ١٧٩ ب .
(٥) كما فُعِل بالقرمطى الخارج (مروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ١٦٩) ، وبوصيف الخادم (المروج ، ج ٨ ص ١٩٨) ، والحسين بن حمدان (عريب ص ٥٧) ، ويوسف بن أبى الساج (عريب ص ٧٧) . (٦) عريب ص ٧٧ .
(٧) زبدة الفكرة ص ١٨٢ ا ، وابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .
(٨) مسكويه ج ٦ ص ٥٠١ (؟) . (٩) مسكويه ج ٦ ص ١٧
(١٠) عريب ص ٥٧ .

غربى إيران ، فلما أدخل بغداد وألبس برنساً طويلا بشفاشج وجلاجل وحمل على الفالج ، ساء الناسَ ذلك لأنه لم تكن له فعلة ذميمة فى كل من أسره أو ظفر به[١] ، ولما خرج ياقوتُ لمحاربة عماد الدولة بن بويه أخذ معه برانس لبود وعليها أذناب الثعالب ، وقيوداً وأغلالا ، وذلك ليجعلها على ابن بويه وأصحابه ويشهرهم بها فى البلاد ؛ ولكن ياقوتاً هُزم ، ووُجد ذلك معه ، فأشار أصحابُ ابن بويه عليه أن يفعل بياقوت وأصحابه مثلَ ذلك فامتنع ، وقال إنه بَغْىٌ ولؤمُ ظفر ، ولقد لقى ياقوت بَغْيَه ، ثم أحسن ابن بويه إلى الأسارى[٢] .

أما القسوة وإلحاق الأذى من جانب القاضى الذى يحقق فى مسألة — ولهذه القسوة فى تاريخنا صحائف طويلة مملوءة — فقد منعتها الشريعة الإسلامية ، وذلك بأن اعتبرت الإقرار الذى يُكْرَه عليه الإنسان بالأذى والتعذيب أو بمجرد صياح القاضى به إقراراً باطلا غير قانونى . أما صاحب الحرس فكان له أن يسأل من يحقق أمره ويؤذيه « ويضربه بالسوط والقلوس والمقارع والدرّة على ظهره وقفاه ورأسه وأسفل من رجليه وكعابه وعضله »[٣] . وكانت المقرعة تعتبر أقل إيذاء من السوط[٤] . وثَمّ ضروبٌ أخرى من التعذيب كان لا يأتيها إلا الذين يتولون مسائل الإدارة والخراج ، ليكرهوا الناس على إخراج المال . وكان التعذيب الذى اختصوا به أن يعلقوا من يُبْتَلَى بهم من يده أو رجله ، ويتركوه معلقاً حتى تنحل قوته[٥] . وأقسى عقوبة عند القاضى المسلم هى الرجم للشخص المُحْصَن إذا زنى ، وهى عقوبة كأنها لم تُفرض ؛ لأن الشريعة تحتم فى الإثبات

---

(١) نفس المصدر ص ٧٧ .
(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .
(٣) مروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ١٥٤ . (٤) كتاب الوزراء ص ١٠٢ .
(٥) انظر الفصل الخاص بالمسائل المالية فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، وراجع كتاب الوزراء ص ٣٨١ ، وعريب ص ١٨٤ .

شروطا يكاد توفرها يكون مستحيلا . وكذلك جعلت عقوبةَ من أخذ وقطع الطريق وحارب أن تُقْطَع يدُه ورجلُه؛ فإن قَتَل قُتِل[١] . وعقاب السارق قطعُ اليد . ولما كان الاعتقاد أن الروح تعود للاتصال بالبدن بعد الموت فإن التمثيل ببدن المعاقب كان يُعتبر ضرباً من تشديد العقوبة ، فكان يصلب فى كثير من الأحيان مع مدّ الذراعين وكان يُحْرَس بالليل وتوقد أمامه النيران[٢] . ولم يحدث قط فى ذلك العصر أن صُلب أحدٌ وهو حى إلى أن مات ، ويحكى فى بعض الكتب أن الحلاج الذى قُتل عام ٣٠٩ هـ — ٩٢١ م لانتحاله مذهباً اعتبره البعض خروجاً عن الدين صُلب حيا إلى أن مات[٣] . ولكن الصحيح هو أنه صُلب فى أول دعوته ، ثم اعتقل ، ولكن ذلك وقع قبل قتله بثمان سنين حين ضرب بالسياط ، وقد ذكر ابن المعتز[٤] من الفظائع المنكرة التى فعلها السودان فى القتل ببغداد « الصلب قبل الموت » . وكانت أشد عقوبة هى إحراق الجثة ، وهذه الدرجة العليا فى إتلاف المعاقَب ظهرتْ أيضاً فى مظهر آخر وهو أنه لا تدفع للمحروق دِية[٥] . وفى سنة ٣١٢ هـ — ٩٢٤ م قُبض على أعجمى وُجد فى دار الخلافة ، وظُنّ به أنه كان يريد أن يفتك بالمقتدر ، « فضُرب وعُنِّف فلم يقرّ بخبره ، وعوقب حتى تلف ، ثم صُلب ، ولُفّ

---

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٠٨ .

(٢) وقع هذا لابن بقيّة الوزير لما قُتل وصلب عام ٣٦٧ هـ كما تدل على ذلك قصيدة الأنبارى فى نديم الأديب لأحمد سعيد البغدادى نقلا عن كتاب عيون السير للهمذانى .

(٣) الأصطخرى ص ١٤٩ ، ٢١٠ . (٤) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٢٩ .

(٥) هذا هو الحال اليوم ، وكذلك كان قديما . انظر مثلا ما اشترطه أبو بكر على وفد المرتدين لما قَدِم عليه ، وهو أنه « خيّرهم بين الحرب المجلية ، أو السلم المخزية ، فقالوا : قد عرفنا الحرب المجلية ، فما السلم المخزية ؟ قال : أن ننزع منكم الحلقة والكراع ، ونغنم ما أصبنا منكم ، وتَدُوا قتلانا ، ويكون قتلاكم فى النار » . وكان قوّاد المسلمين فى ذلك العصر يحرقون المرتدين حقيقة (انظر فتوح البلدان للبلاذرى طبعة ليدن ١٨٦٦ ص ٩٥ ، ٩٨ . وكذلك كان إلغاء الدية عند اليونان مرتبطا بظهور عادة إحراق الأجساد عندهم .

عليه حبل من قنب ومشاقة ، ولُطِّخ بالنفط ، وضرب بالنار »[١] . وفى سنة ٣٩٢هـ — ١٠٠١م سُمِل أحدُ العمال المكروهين فمات ، فبعد أن دُفن نبشه أهلُ البلد وأحرقوه لسوء معاملته لهم ، ولمّا قدّم من القبيح إليهم[٢] . ولا أعلم أن أحداً من المسلمين فى ذلك العصر أُحرق وهو حىّ قط[٣] . ولا نسمع عن السلخ إلا عند الفاطميين ، بإفريقية ؛ ففى سنة ٣٤١هـ — ٩٥٢م أسر أحد الثوار بعد أن كان قد أفسد المغرب وقطع فى بسكرة وحدها ثلاثمائة ألف نخلة ، فسُلخ من جلده وهو حىّ وحُشِىَ بالتبن وصُلب[٤] . وأسر أحد الثوار ، فجرح نفسه وهو فى سجنه ، فرض حتى مات وكان قد أتعب جوهراً فاتح مصر فسُلخ بعد موته وحشى جلده تِبْناً وصُلب بين مصر والقاهرة[٥] . ويحكى عن أبى بكر النابلسى الزاهد أنه قال فى حق الفاطميين : إذا كان مع الرجل المسلم عشرةُ أسهم وجب عليه أن يرمى فى الروم سهماً واحداً وفى الفاطميين تسعة ، فأحضره المعز لدين الله ، وقال له : بلغنا عنك كيت وكيت ، فقال : ما قلت هذا ، فظن المعز أنه رجع عن قوله ، وسأله عما قال ، فأجاب : قلتُ : إذا كان معه عشرة وجب أن يرميكم بتسعة ويرمى العاشر فيكم أيضاً ؛ فإنكم غيّرتم الملّة وقتلتم الصالحين ، وادعيتم نور الإلهية ، وكان المعزُّ بطّاشاً ، فشهره وضربه بالسياط ثم أمر بسلخه ، فتولى ذلك رجلٌ يهودى ، وكان أبو بكر يقرأ القرآن ولا يتأوّه ، فداخلت اليهودىَّ رحمةٌ له ؛ فطعنه بالسكين فى فؤاده ليموت عاجلا[٦] . وهذه حكاية تخالف ما نعرفه

(١) مسكويه ج ٥ ص ٢٠٨ . (٢) كتاب الوزراء ص ٤٧١ .

(٣) على أنه يذكر حكاية واحدة فيها أن الخليفة المعتضد حرق شيلمة الكاتب حيّا — الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٤٩٤ وما بعدها .

(٤) كتاب العيون ج ٤ ص ٢٥٣ ب — ٢٥٤ أ .

(٥) يحيى بن سعيد ص ١٠٠ أ ، والمقريزى ج ٢ ص ٤١٣ .

(٦) المنتظم لابن الجوزى ص ١١١ أ .

من خصال المعز . وكذلك يحكى المقريزى عن مصر حكاية كالسابقة لا نكاد نصدقها ، وهى أنه فى عهد الملك الناصر كان يعذِّب البعض بأن توضع الجمارين على رأسه ، وتُغَطَّى بقماش أحمر ، فلا تمضى ساعة حتى تخرق رأسه وتصل إلى دماغه فيموت[١] . ويحكى عن الخليفة المجنون الحاكم بأمر الله أنه لما عنّ له إظهارُ الزهد غرّق بعض حظاياه وأمهات أولاده ، وذلك بأن وُضِعْن فى صناديق ، وسمِّرت عليهن ، وثُقِّلَتْ بالحجارة وأُلقيت فى النيل[٢] . على أن مؤرخى النصارى بنوع خاص اخترعوا كثيراً من الحكايات القاسية ونسبوها للحاكم لتقوية إيمان النصارى ، فاتهموه مثلا بأنه عذّب أورستيس بطريرك بيت المقدس تعذيباً شديداً وقتله ، والكنيسة تحتفل باستشهاد أورستيس فى شهر مايو ، ولكن يحيى بن سعيد المؤرخ النصرانى الذى كان معاصرا لهذا البطريرك يؤكد ثلاث مرات أنه مات فى القسطنطينية[٣] .

ولم تكن المنازعات التى تقوم عند تنصيب الخليفة تنتهى من غير ارتكاب بعض الفظائع ، وربما كان الباعث الأكبر على الفظائع دون القتل تهيب الناس بدافع الدين من إراقة دم الخليفة[٤] . ولكن هذه الفظائع قليلة متفرقة ، هذا إلى أن خيال العامة أضاف كثيراً إلى الأخبار القديمة . وفى عام ٢٥٥ هـ — ٨٦٩ م خُلع الخليفة المعتز ، ويقول المسعودى الذى ولد بعد هذا التاريخ بقليل إن أصحاب السير والتواريخ تباينوا فى مقتله ، فنهم من ذكر أن المعتز مات فى حبسه فى خلافة

---

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤٢٦ (؟) ولم أجد ما يقابل هذا الكلام (المترجم) .

(٢) يحيى بن سعيد ص ١٢٣ ب .

(٣) Schlumberger, Epopée byzantine, II, 808.

(٤) هذا التهيب كان سببا فى فظائع ليس لها ضرورة فيما نرى . يحكى الرحالة ماركوبولو (Marco Polo II 5) أن خان الأكبر لفّ نيانًا فى بساط ، وما زال يُحمل ويُرمى حتى مات .

المهتدى بالله حتفَ أنفه ؛ ومنهم من ذكر أنه منع فى حبسه من الطعام والشرب فمات عند قطع مواد الغذاء عنه ، ومنهم من رأى أنه حقن بالماء الحار المغلى فمن أجل ذلك وُجد جوفه وارما حين أُخرج للناس ، والأشهر بين من عُنى بأخبار العباسيين أنه أُكره على دخول حمام مُحمّى ومُنع الخروج منه ، ثم تنازع هؤلاء فنهم من قال إنه ترك فى الحمام حتى فاضت نفسه ، ومنهم من قال إنه أخرج بعد أن كاد يتلف ، وسُقى ماء مقرورا بالثلج فنثر كبده وأمعاءه فخمد من فوره[1] . أما أبو الفداء ، وهو مؤرخ متأخر فيقول إنهم أدخلوه سرداباً جصصوه عليه فمات[2] . وقد اختلف أيضاً فى قتل المهتدى الذى ولى الخلافة بعد المعتز : فقيل إنه قتل خنقا ؛ وقيل كبس عليه بالبساط والوسائد حتى مات ؛ ومن المؤرخين من رأى أنه جعل بين لوحين عظيمين ، وشد بالحبال إلى أن مات ؛ وقيل إنه أعصرت مذاكيره إلى أن مات ؛ والأشهر عند المسعودى أنه قتل بالخناجر[3] . وكذلك يحكى ابن الأثير وهو مؤرخ متأخر أن ابن المعتز ، وهو الخليفة الذى قتل عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م ، عصرت خصيتاه حتى مات[4] . أما المصادر القديمة فلا تعرف شيئا عن قتله .

وفى القرن الرابع الهجرى ظهرت عادة سَمل الخلفاء للحيلولة دون تبوّئهم منصب الخلافة ، وذلك احتذاء لعادة الروم البوزنطيين من قبل . وكان أول من ذاق هذا العذاب بين خلفاء الإسلام الخليفة القاهر حينما أُرسل إليه القضاة والشهود ليقرّ على نفسه بالخلع ، فأبى أن يُحل الناس من بيعته ، وذلك فى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م[5] . واستُدعى أحمد بن أبى الحسن الصابى فكحله بمسمار

(١) مروج الذهب ج ٨ ص ٣ — ٤ .
(٢) تاريخ أبى الفدا تحت عام ٢٥٥ هـ ، ج ٢ ص ٢٢٤ من الطبعة الأوروبية .
(٣) المسعودى ج ٨ ص ١١ . (٤) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣ .
(٥) يحيى بن سعيد ص ٨٦ أ ؛ مسكويه ج ٥ ص ٤٥٥ — ٤٥٦ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٢١١ .

مُحمى دفعتين[١] . وكان المتقى ثانى من سمل عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م ، وذلك بأمر توزون رئيس الحرس التركى ؛ فلما صاح المتقى صاح معه النساء والخدم ، فأراد توزون أن يخفى الصراخ ، فأمر بضرب الدبادب[٢] . ثم صار هذا الصنيع محبوبا جدا عند البويهيين حوالى عام ٤٠٠ هـ وهو يُذكر فى تاريخهم . على أن الخليفة قبض فى عام ٣٥٧ — ٩٦٧ م على ثائر خطر من بنى العباس فاكتفى بأن جدع أنفه . وكذلك فعل السلطان عضد الدولة بن بويه عام ٣٦٦ هـ — ٩٧٦ م بأبى الفتح بن العميد وزير أبيه[٣] ، وهذا تعلمه المسلمون أيضا من الرومان البوزنطيين .

أما القتل شنقا فلم يكن متبعا ، ولا أعلم إلا مثالا واحدا يشبه ذلك ، وهو أن أحد الوزراء عُلّق بأن عُمل فى قلبه كلاّبين ، فلم يزل يضطرب حتى مات[٤] .

وأما القتل بالسمّ فلم يكن له الدور الذى ننتظره لهذه الطريقة التى استعملت مئات السنين ؛ ولم يصلنا من ذلك إلا أمثلة قليلة ، والذى يعرف ما للخيال من حظ فى مثل ذلك فى الشرق اليوم ، يجب عليه أن يسقط نصفه ، ومن أمثلة ذلك أن أحد مؤرخى ذلك العهد يخمن فى مقتل الوزير حامد بن العباس — وكان قد جاوز الثمانين — أنه مات ببيض مسموم[٥] ؛ ثم جاء بعض المؤرخين المتأخرين فذكر أنه سم فى بيض مشوى أحدث له إسهالا أماته ، معتبِراً ذلك حقيقة واقعة[٦] ، هذا على حين أن صاحب كتاب العيون والحدائق ، وهو يعتمد على أقدم المصادر ، يقرر أنه مات من ضرب لحقه[٧] . بل يُقال فى حكايات من أقدم حكايات السمّ وقعت فى عهد

---

(١) كتاب العيون ص ١٤٣ أ .

(٢) المسعودى ج ٨ ص ٣٥١ ، Elias Nisib. 212 نقلا عن ثابت بن سنان .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٣١ ، ٤٩٧ ؛ والإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٤٩ .

(٤) طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٩٥ .

(٥) أمدروز (Amedroz) فى كتاب الوزراء للصابى ص ١٩ .

(٦) زبدة الفكرة ص ١٩٣ ب . (٧) كتاب العيون ص ١٠٨ أ .

الخليفة الهادى (١٦٩ — ١٧٠ هـ = ٧٨٥ — ٧٨٦ م) : « وقيل غير ذلك »[١] ، وقد ذكر المسعودى ، وهو من مؤرخى ذلك العهد ، ما قيل فى وفاة المعتضد : « وقيل مات بسم إسماعيل بن بلبل قبل قتله ، فكان يسرى فى جسده ، ومنهم من ذكر أن جسمه تحلل فى مسيره فى طلب وصيف الخادم ... ومنهم من رأى أن بعض جواريه سمته فى منديل أعطته إياه يتنشف به ، وقيل غير ذلك مما عنه أعرضنا »[٢] .

على أن طريقة السم كان أكثر استعمالها فى تاريخ البيوت الحاكمة ببخارى بالنسبة لغيرهم ، كما بين ذلك ميرخند ، وهو من المؤرخين المتأخرين . على أننا لو قارنا ما حكاه بما عندنا من الأخبار القديمة مقارنة دقيقة لتبين لنا أن مقادير السم نقصت نقصا كبيراً .

وكان من بين الحكام القساة قليلى الرحمة فى ذلك العصر المعتضد والقاهر ، ويحكى من تعذيب الأول منهما أنه كان يأخذ الرجل ، فيأمر بتكتيفه وتقييده ، ثم يأمر بأن تحشى أذناه وخيشومه وفمه بالقطن ، وتوضع المنافخ فى دبره ، فإذا صار كالزق المنفوخ وورم سائر أعضائه وبرزت عيناه سُدّ دبره ، وضُرب فى عرقين فوق الحاجبين ، فعند ذلك يخرج منهما الريح والدم ، ولهما صوت وصفير حتى يخمد ويتلف[٣] . أما فظائع القاهر فكانت مناسبة لطبيعته السيئة ، فيُحكى عنه أنه أمر بطرح إسحاق بن إسماعيل وأبى السرايا نصر بن أحمد فى بئرحَيَّيْن مقيَّدين ، وتضرع أحدهما ، وسأله العفو ، فلم يلتفت إليه ، وتعلق بسعف نخلة كانت قريبة من البئر فأمر القاهر بضرب يديه ، ودَفْعِهِ فى البئر إلى جانب صاحبه . ثم أمر بطمّ البئر بالتراب حتى امتلأ ، وهو واقف[٤] . ولما ظفر بمؤنس اعتقله هو وعلى

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٦ ص ٢٦٦ . (٢) نفس المصدر ج ٨ ص ٢١١
(٣) نفس المصدر ج ٨ ص ١١٦ ، ١٦٠ . (٤) مسكويه ج ٥ ص ٤٤٦ — ٤٤٧ .

ابن يلبق وابنه ، ثم ذُبح عليٌّ بحضرته ، وحُمل رأسُه إلى أبيه ، ثم ذُبح يلبق ، وحُمل رأسه ورأس ابنه إلى مؤنس ، فلما رآهما لعن قاتلهما ، فأمر القاهر به فجُر برجله إلى البالوعة وذُبح كما تُذبح الشاة ، والقاهر يراه . ثم أخرجت الرؤوس الثلاثة فى ثلاث طسات إلى الميدان حتى شاهدها الناس ، وطيف برأس على ابن يلبق فى جانبى بغداد ، ثم رُدّ إلى دار السلطان وجعل مع سائر الرءوس فى خزانة الرءوس[1] . ويحكى ابن الأثير وحده أن الجند ندموا على مساعدة القاهر فى هذه الفعلة الشنيعة[2] . وكان القاهر أيضاً هو الخليفة الوحيد الذى قتل رجلا — وهو أمير عباسى كان يطلب الملك — بأن أمر به أن يُقام فى فتح باب ويُسد عليه بالجص والآجر ، وهو حىّ[3] . وكذلك قتل السلطانُ عضد الدولة المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م أحد الوزراء مع صاحب له ، لأنهما عملا ضده ؛ فأمر بطرحهما إلى الفيلة ، وأُضريت عليهما ، فقتلتهما شر قتلة[4] . وهذا هو المثال الوحيد من نوعه فى ذلك العصر .

أما الانتحار فلم يبلغنا منه إلا مثالان فى ذلك العصر ، إذا صرفنا النظر عمن حاولوا قتل أنفسهم ، وهم معتقلون ينتظرون العقوبات الشنيعة . فيحكى عن أبى أحمد ابن أبى بكر الكاتب ، وكان ابن أحد وزراء بنى سامان وشاعراً هجّاء ، أنه فقد الرياسة والمال حتى قاسى من ذلك قذاة عينه وغصة صدره ، فانتهى أمره بأن شرب السم فمات[5] . والثانى هو ابن غسان الطبيب ، وكان فتى مليحا ظريفاً

(١) نفس المصدر ج ٥ ص ٤٢٣ نقلا عن ثابت بن سنان .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٤ .

(٣) مسكويه ج ٥ ص ٤٢١ ، والمنتظم لابن الجوزى ص ٤٥ ا ، وزبدة الفكرة ص ٢٢٥ ب ، وابن الأثير ج ٨ ص ١٩٣ .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٤٨١ ، ٥١٧ . وكان عضد الدولة أول من استعمل الفيول فى القتال (مسكويه ج ٦ ص ٤٦٤) .

(٥) وكان يكثر من إنشاد بيتى المنصور الفقيه (يتيمة ج ٤ ص ٢ — ٧) : =

حسن الأدب ، غرّق نفسه فى كلواذى ، لأسباب اجتمعت عليه ، منها عشق حرق قلبه على غلام الآمدى الحلاوى ، وكان نصرانيا[١] .

ويحكى عن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى عماله حوالى عام ١٠٠ هـ — ٧٠٠ م بألا يُغَلَّ مسجون[٢] . وفى عهد هارون الرشيد رأى الفقهاء أن أهل الدعارة والفسق والتلصص إذا أُخذوا فى شىء من الجنايات وحبسوا ، فلا بد أن يُجرى عليهم من الصدقات أو من بيت المال ما يقوتهم ، ويُجرى على كل منهم عشرة دراهم فى الشهر ، تُعطى له فى يده دَفْعاً لظلم السجان لهم أو حرمانه إياهم من طعامهم وشرابهم ، ولا بد أن يكسوا فى الشتاء قميصاً وكساء ؛ وفى الصيف قميصاً وإزاراً ومقنعة ، وذلك إغناء لهم عن الخروج فى السلاسل لطلب الصدقة[٣] وقد جعل فى ميزانية المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ — ٨٩٢ — ٩٠٢ م) ألف وخمسمائة دينار فى الشهر لنفقات السجون وثمن أقوات المحبوسين ومائهم وسائر مؤنهم[٤] ، وكثيراً ما نجد الأخبار بأن المسجونين كانوا يشتغلون بعمل التكك ، وهى لا تزال إلى اليوم أجمل ما يصنع ببغداد ، يقول ابن المعتز[٥] :

تعلمت فى السجن نسج التكك ... وكنت امرأً قبل حبسى ملك
وقُيِّدتُ بعد ركوب الجياد ... وما ذاك إلا بدور الفلك

= قد قلت إذ مدحوا الحياة فأسرفوا ... فى الموت ألف فضيلة لا تعرف
منهــا أمانُ لقائه بلقائه ... وفراق كل معاشر لا ينصف

وقال فى معناها :

من كان يرجو أن يعيش فإننى ... أصبحت أرجو أن أموت فأعتقا
فى الموت ألف فضيلة لو أنها ... عرفت لكان سبيله أن يعشقا

(١) حكاية أبى القاسم طبعة متز ص ٨٣ .
(٢) كتاب العيون والحدائق ج ٣ طبعة دى غوى سنة ١٨٦٩ ص ٦٣ .
(٣) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٨٨ . (٤) كتاب الوزراء ص ٢١ .
(٥) المحاسن والمساوئ للبيهقى ص ٧١ ه من الطبعة الأوروبية . وهذان البيتان ليسا فى ديوان ابن المعتز .

وفى أوائل القرن الرابع الهجرى عيّن الوزير لمن فى السجون أطباء أفردوا لذلك ؛ فكانوا يدخلون إليهم فى كل يوم ، ويحملون معهم الأدوية والأشربة[١] أما فى مصر على عهد الفاطميين فكانت السجون تُضَمَّن ، وكانت أحب شىء إلى من يضمن أمور الحكومة ، وكانوا يتزايدون فى ضمانها لكثرة ما يتحصل منها . وكان يؤخذ من كل من يسجن ستة دراهم بمجرد دخوله السجن ، ولو لم يُقم به إلا لحظة[٢] .

أما الزكاة عند المسلمين فقد جعلت لها الشريعة حداً أدنى هو نصف العشر من الثروة لا من الدخل ، وذلك فى كل سنة[٣] . وقد نقل لنا الكثير من أخبار الزهاد وغير الزهاد التى تدل على سموهم فى الشعور بالصدقات . ويحكى عن أبى عبد الله بن أبى ذهل الضبى الهروى المتوفى عام ٣٧٨ هـ — ٩٨٨ م أنه كانت تضرب له الدنانير ، وزن الدينار منها مثقالٌ ونصف أو أكثر ، فيتصدق بها ، ويقول : « إنى لأفرح إذا ناولتُ فقيراً كاغداً فيتوهم أنه فضة ، فإذا فتحه ورأى صفرته فرح ، ثم إذا وزنه فزاد على المثقال فرح أيضاً » ، وكانت لهذا الرجل غلة كثيرة لا يدخل داره إلا دون عشرها ، والباقى يفرقه على المستورين وسائر المستحقين[٤] . ويحكى عن دعلج بن أحمد بن دعلج أبى محمد السجزى وكان تاجراً غنيا وعالماً (توفى عام ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م) ، أنه بعث بالمسند إلى ابن عقدة لينظر فيه ، وجعل فى الأجزاء بين كل ورقتين ديناراً[٥] . ويحكى عن أحد التجار المشهورين بكثرة المال ببغداد أنه أرسل لابن سمعون الواعظ خمسمائة

(١) أخبار الحكماء للقفطى ص ١٩٣ من الطبعة الأوروبية .
(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٨٩ .
(٣) كشف المحجوب للهجويرى ص ٤٠٦ من الأصل الفارسى ، ٣١٥ من الترجمة الإنجليزية (٤) المنتظم ص ١٢٨ ا وطبقات السبكى ج ٢ ص ١٦٥ .
(٥) طبقات السبكى ج ٢ ص ٢٢٢ .

خشكنانكة فى كل منها دينار[١] . ويحكى عن جحظة الشاعر المتوفى عام ٣٢٤ هـ — ٩٣٦ م أنه وقع فى ضيق شديد حتى صار بيته أفرغ من فؤاد أم موسى ، فعرف حالَه أحدُ العمال المتقاعدين فزاره ؛ وأحضر له من بيته فرشاً وقماشاً وكلَّ ما يحتاج إليه البيت من آلات ومؤونة ، وجلس عنده طول يومه ؛ (وفى اليوم التالى أرسل إليه كيساً فيه ألفا درهم ورزمة ثياب من فاخر الثياب . ولما أراد الخروج قام جحظة ليخرج معه فقال له : إحفظ بابك فكل ما فى دارك لك)[٢] ، وكان لأحد الكتاب أمٌّ صالحة ، تعوَّدته منذ وُلد أن تجعل تحت رأسه عند نومه فى كل ليلة رغيفاً فيه رطل ، فإذا كان الصباح تصدقت به ، فظل ابنها يفعل ذلك طول حياته[٣] . وكان فى بلاد كرمان نخيل كثير ، وكان لأهلها سنة حسنة ، فكانوا « لا يرفعون من تمورهم ما أسقطته الريح ، فيأخذه غير أربابه ، وربما كثرت الرياح فيصير إلى الضعفاء والمساكين من التمور فى التقاطهم أكثر مما يصير إلى أربابه »[٤] .

وكان العشاق يظهرون فى تهاديهم بالهدايا الصغيرة كثيراً من دقة الذوق وسموّه ، فمثلا كان لا يستحب إهداء ليمونة للحبيب لأنها طيبة فى ظاهرها ولكن باطنها حامض ، وفى ذلك صفة غير محمودة ، وفى كثير من الأحيان ترسل المحبوبة تفاحة عليها أثر عضتها لها ؛ يقول ابن المعتز :

وآثار وصل فى هواك حفظتها   تحيات ريحان وعضات تفاح
وكتب لطاف [illegible] بها المسك أدرجت   على وصف أحزان وتعذيب أرواح

ويقول :

جاء الرسول مبشرا بزيارة   من بعد طول تهجّر وتغضّب

---

(١) المنتظم ص ١٤٢ ب .
(٢) نفس المصدر ص ٤٦ ب .
(٣) كتاب الوزراء ص ٦٤ .
(٤) ابن حوقل ص ٢٢٤ .

وبكفه تفاحة قد مسّكت آثار عضتها كقرنى عقرب[١]

وكان ذلك من عادات الرومان أيضا[٢] . وكان الشاعر أحيانا يطرز منديلا غالى الثمن بأبيات شعرية ويرسلها لحبيبته[٣] .

ولما كان النبى عليه السلام يتيما ، صار المسلمون يعطفون على اليتامى عطفا خاصا وإن لم يُجمعوا فى بيوت أعِدّتْ لهم ، ففى أصفهان مثلا كان أحد الصالحين يذهب بالأيتام يوم الجمعة إلى منزله ، ويدهن رءوسهم[٤] .

أما بناء المستشفيات فكان مسألة دنيوية بحتة ، ولم يكن الصالحون يحبون أن يعرفوا شيئا عن معالجات الأطباء ، واسم دور المرضى بيمارستانات ، وهو فارسى معرب لا أصل له فى لغة القرآن ، وأول من بنى داراً للمرضى فى الإسلام الوليد ابن عبد الملك[٥] ، وهو أقل الخلفاء تدينا ؛ ثم جاء البرامكة ، وكانوا بعيدين عن الإيمان كل البعد ، فأسسوا بيمارستانا أسندوا رياسته لطبيب هندى[٦] . ويحكى عن طاهر بن الحسين أنه كتب إلى ابنه عبد الله : « وانصب لمرضى المسلمين دورا تؤويهم ، وقوّاما يرفقون بهم ؛ وأطباء يعالجون أسقامهم »[٧] . وبنى أحمد بن طولون عام ٢٥٩هـ — ٨٧٣م أول مارستان كبير بمصر ؛ وكان به حمامان ، أحدهما للرجال ، والثانى للنساء ، وشرط فى هذا المارستان ألا يُعالج فيه جندى ولا مملوك ؛ وإذا جاء العليل أن تُنْزع ثيابه ونفقته ، وتوضع عنـد أمين المارستان ، ثم يُلبس ثياباً ، ويفرش له ، ويعالج حتى يبرأ ، فإذا أكل فرّوجاً ورغيفاً أمر بالانصراف ، وأُعطى ماله وثيابه . وكان ابن طولون يركب بنفسه فى كل يوم

(١) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ٦٨ ، ٧٣ .
(٢) V. Gleichen-Russwurm, Elegantiae, S. 277.
(٣) كتاب الديارات ص١١٧ ا . (٤) ذكر أخبار أصفهان مخطوط ليدن ص١٦١ ا .
(٥) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٤٠٥ . (٦) الفهرست ص ٢٤٥ .
(٧) كتاب بغداد لطيفور ص ٥٠ .

جمعة ليتفقد المارستان والمرضى [١] . وكذا جعل فى المسجد خزانة شراب فيها جميع الأدوية والأشربة وطبيب يجلس يوم الجمعة للعلاج [٢] . وكان فى المارستان قسم للمجانين ، على حين أنه كان ببغداد مارستان كبير خاص بالمجانين ، وهو دير هِزِقل القديم الذى كان يقع على مرحلة إلى الجنوب فى طريق واسط [٣] . وكان أهم ما يلزم لمثل هـذا المارستان السلاسل والسياط ، كما كان الحال عندنا منذ بضع عشرات من السنين [٤] . وفى عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ — ٩٠٢ م) ببغداد كانت نفقات البيمارستان الصاعدى وأرزاق المتطببين والملاّحين والكحالين ، ومن يخدم المغلوبين على عقولهم ، والبوابين والخبازين وغيرهم ، وأثمان الطعام والأدوية والأشربة ؛ أربعمائة وخمسين ديناراً فى الشهر [٥] . ثم زادت المارستانات فى بغداد زيادة كبيرة ، وفى سنة ٣٠٤ هـ كانت خمسةً تقلّدها طبيبٌ غيرُ مسلم وهو سنان بن ثابت [٦] ، وبفضل هـذا الطبيب الكبير وإشارته فُتح ببغداد عام ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م مارستانان آخران كبيران ، أحدهما اتخذه الخليفة نفسه ، وسُمّى المارستان المقتدرى ، وكان يقع فى باب الشام ، والثانى بيمارستان السيدة أم المقتدر اتخذه لها سنان بسوق يحيى على نهر دجلة ورتب له المتطببين ، وكانت النفقة على بيمارستان الخليفة من ماله الخاص ، وبلغت مائتى دينار فى كل شهر . أما نفقة مارستان السيدة فكانت ستمائة دينار فى كل شهر [٧] . وفى عام ٣١١ هـ

---

(١) الخطط للمقريزى ج ٢ س ٤٠٩ وقد سخر أحد الشعراء بمارستان ابن طولون بقوله (الكندى س ٢١٧) :

فيا ليت مارستانه نيط باسته   وما فيه من علج عتل مقلّل

(٢) الخطط ج ٢ س ٢٦٧ (٣) جغرافية اليعقوبى س ٣٢١ ، والعقد الفريد ج ٣ س ٢٤٠ (٤) كتاب الأغانى ج ١٨ س ٣٠ (٥) كتاب الوزراء س ٢١ .

(٦) المنتظم س ١٤ ا وهذا مصدر جيد لأنه يعتمد على تاريخ ثابت بن سنان نفسه ، وأقدم مارستان ببغداد هو الصاعدى عند باب المحوّل (المنتظم س ٦٦) .

(٧) أخبار الحكماء للقفطى س ١٩٤ — ١٩٥ ، وعيون الأنباء لابن أبى أصيبعة ج ١ س ٢٢٠ وما بعدها ، والمنتظم س ١٦ ا ، وتاريخ أبى المحاسن ج ٢ س ٢٠٣ .

— ٩٢٣م أسس الوزير ابن الفرات أيضاً مارستاناً ببغداد ، وأنفق عليه من ماله مائتى دينار فى كل شهر[(١)] .

ولما استولى بجكم على بغداد أكرم سنانا وعظّمه غاية التعظيم ، فأشار سنان عليه أن يتخذ فى عام ٣٢٩ هـ — ٩٤١م مارستانا ثالثاً[(٢)] فوق ربوة جميلة على الشاطئ الغربى لدجلة ، كانت تحمل قصر هارون الرشيد من قبل ، وظل هذا المارستان زماناً طويلا حتى جدده عضُد الدولة عام ٣٦٨ هـ — ٩٧٨م ، وافتتحه عام ٣٧١ هـ — ٩٨١م ، وزوده بالأطباء والمعالجين والخُزّان والبوابين والوكلاء والناظورين[(٣)] . وكذلك أسس معز الدولة فى عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م مارستاناً آخر عند الجسر الذى على دجلة ، ووقف عليه أوقافاً وضياعاً يرتفع منها خمسة آلاف دينار[(٤)] . هذا إلى أنه كان بالمدن الكبرى فى الولايات مثل شيراز وأصفهان وواسط مستشفياتها الخاصة[(٥)] .

ويحكى أنه فى ٣١٩ هـ — ٩٣١م اتصل بالمقتدر أن رجلا من الأطباء غلط فى معالجة رجل فمات ، فأمر مُحْتَسِبَه أبا بطيحة بمنع جميع الأطباء من المعالجة إلا من امتحنه سنانُ بن ثابت ، وكتب له رقعه بما يطلق له التصَرُّفُ فيه من صناعة الطب ، وأمر سناناً بامتحان الأطباء ، وأحصى الأطباء فى جانبى بغداد لامتحانهم فكانوا ثمانمائة ونيفا وستين رجلا سوى من استغنى عن امتحانه لاشتهاره بالتقدم فى الصناعة وسوى من كان فى خدمة السلطان . وكان إذا جاء الرجل إلى سنان

---

(١) المنتظم ص ٢٣ ب .

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص ١٩٢ — ١٩٣ .

(٣) المنتظم ص ٦٨ ا ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٢ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٥ .

(٤) المنتظم ص ٩٨ ب .

(٥) القدسى ص ٤٣٠ ، والمنتظم ص ٦٩ ا ويحكى عن بجكم أنه بنى فى واسط وقت المجاعة دار ضيافة للضعفاء والمساكين (المنتظم ص ٦٨ ا ، ب ، والقفطى ص ١٩٢) ولم يصبح بمدينة واسط مستشفى حقيق إلا فى عام ٤١٣ هـ (المنتظم ص ١٧٠ ب) .

ليمتحنه بدأ بإجلاسه ، ثم قال له : « قد اشتهيت أن أسمع من الشيخ شيئاً أحفظه عنه وأن يذكر شيخه فى الصناعة[1] » . ولم يصلنا قط فى أخبار هـذا القرن أن أحد الأطباء كان يعتبر مسئولا عن حياة مريضه . بحيث يقتل إن مات بين يديه ، وفى عام ٣٢٤ هـ — ٩٣٥ م توفى هارون بن المقتدر أخو الخليفة المطيع لله فحزن عليه واغتم ، واكتفى بنفى الطبيب بختيشوع بن يحيى ، لأنه اتهم بتعمد الخطأ فى علاجه[2] .

---

(١) أخبار الحكماء للقفطى ص ١٩١ .
(٢) تاريخ أبى المحاسن ج ٢ ص ٢٧٧ من طبعة ليدن .

الفصل الحادي والعشرون

مستوى المعيشة

كان يكفي الرجل من عامة الناس هو وزوجته في عصر الرشيد ثلاثمائة درهم في السنة[1]؛ وكانت الثروة التي تبلغ سبعمائة دينار تعتبر ثروة غير قليلة[2]. ويحكى عن أحد أبناء العمال أنه أضاع ثروته على بعض المغنيات، ثم مات خادم كان مولى لأبيه وابن عم في يوم واحد فحصل له من تركتهما أربعون ألف دينار، فعمر داراً بألف دينار، واشترى آلات وفرشاً وثياباً وجواري بسبعة آلاف دينار؛ وسلم لتاجر ألفي دينار يتجر له فيها، وأودع في بطن الأرض عشرة آلاف للشدائد، وابتاع بالباقي ضيعة تُغِلُّ في كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته[3].

وقد كشفت لنا حفائر سامرا عن طريقة بناء الدور عند أهل العراق في القرن الثالث الهجري، « فقد كانت الدور بسامرا تُبنى على مثال واحد: يصل بينها وبين الشارع أو الدرب دهليز مسقوف يفضي إلى صحن واسع قائم الزوايا يبلغ عرضه ثلثي طوله في العادة، ويتصل به من جانب العرض القاعة الكبرى وصورتها هكذا ⊥، وفي أركانها غرف صغيرة، ويحيط بالصحن أيضاً غرف متجاورات مربعة للسكنى وللمرافق المنزلية، وفي معظم الدور أفنية صغرى ثانوية تشتمل على أماكن للمرافق المنزلية أيضاً. ولا تخلو الدور قط من حمامات ومجاري تحت الأرض، وكثيراً ما يكون فيها آبار . . . . وتشتمل أحيانا على صحون ذات أساطين tarmah's وعلى سراديب للسكنى مهيأة بوسائل التهوية، والدور كلها

---

(١) مصارع العشاق ص ١٥٩ . (٢) نفس المصدر ص ٥ .

(٣) الفرج بعد الشدة للتنوخي ج ٢ ص ١٧ .

من طابق واحد ، وإذا كانت الأرض المحيطة بها غير مستوية اتخذ منها أصحاب الدور مسطحات مرتفعة بمهارة لهم فى ذلك ، وقد يبلغ عدد الغرف فى الدار الواحدة ستين غرفة ، وبها شبابيك تقفل بألواح من الزجاج المتنوع الألوان ، ويتراوح عرض اللوح بين العشرين والخمسين سنتيمترا »[١] .

ولا نجد فيما بين أيدينا من أخبار القرن الرابع بالعراق ما يدل على استعمال السراديب للسكنى فى فصل الصيف ، ولا تشير لذلك أية حكاية من الحكايات الكثيرة التى ترجع إلى ذلك العصر[٢] . ويرجع أصل هذه العادة — عادة اتقاء الحر الشديد بالنزول فى السراديب — إلى بلاد آسيا الوسطى حيث يحكى لنا الرحالة وانْج يِنْ تى Wang yen te فى عام ٩٨١ م أن بعض أهل تلك البلاد يسكنون فى الصيف غرفا تحت الأرض[٣] . أما فى بلاد الإسلام لذلك العهد فقد كانت مدينة زَرَنْج ، أكبر مدن سجستان ، ومدينة أرّجان بفارس أول مدينتين اتخذ أهلهما فى الصيف سراديب تحت الأرض يجرى فيها الماء[٤] . وفى القرن الخامس الهجرى يذكر الرحالة الفارسى ناصر خسرو أن من خصائص مدينة أرجان أن فيها من الأبنية تحت الأرض مثل ما فوقها ، وأن الماء يجرى تحت الأرض وفى السراديب ، وفى أشهر الصيف يستروح الناس فيها[٥] .

---

(١) Sarre und Herzfeld, Erster vorläufiger Bericht uber die Ausgrabungen von Sāmarra, Berlin, 1912, S. 14.

(٢) كان السرداب فى ذلك العصر عبارة عن مكان تحت الأرض ، فيحكى مثلا أن الخليفة المقتدر أمر بحفر سرداب لمؤنس ، وأن مؤنسا وقع فيه ومات (كتاب العيون ص ١١٤ ب) ؛ وكان عند رجل فى داره سرداب تحت الأرض عليه باب من حديد (عريب ص ١٠) . بل يحكى أنه فى عهد المنصور سير جماعة من أبناء على إلى الكوفة « وحبسوا فى سرداب تحت الأرض لا يفرقون بين ضياء النهار وسواد الليل » (مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٠) .

(٣) JRAS, 1898, p. 819.

(٤) ابن حوقل ص ٣٠٠ .

(٥) سفرنامه ص ١٣٦ من طبعة برلين .

ويذكر المقريزى بعد ذلك بقرون أن من محاسن مصر أن أهلها لا يحتاجون فى حرّ الصيف إلى الدخول فى جوف الأرض كما يعانيه أهل بغداد[١] . وكان أهل الترف فى ذلك العصر يستعيضون عن دخول السراديب بنصب قبة الخيش أو بيت الخيش . وكانت عادة الأكاسرة أن يُطيَّن سقف بيت فى كل يوم صائف فتكون قيلولة الملك فيه ، وكان يؤتى بأطباق الخلاف طوالا فتوضع حول البيت ، ويؤتى بقطع الثلج الكبار فتوضع ما بين أضعافها ، وكانت هذه عادة الأمويين أيضاً ؛ ولكن فى عهد المنصور العباسى اتخذت طريقة أخرى للتبريد ، فكانوا ينصبون الخيش الغليظ ولا يزالون يبلونه بالماء فيبرّد الجو[٢] . وكان الخيش ينصب على قبة ، ثم اتخذت بعدها الشرائح فاتخذها الناس[٣] . ويحكى المقدسى أنه رأى فى دار عضد الدولة بشيراز بيوت الخيش يبللها الماء على الدوام بواسطة قُنى حولها من فوق[٤] ؛ ويظهر أن هذه الطريقة فى التبريد كانت شائعة جدا فى بغداد ، حتى يحكى عن أحد القواد فى القرن الرابع أنه لم يَرَ فرقة من الجند أتت من بغداد أهلا للقيام بغزوة هامة لأنهم فى رأيه قد ألفوا بيوت دجلة وشرب النبيذ والثلج وبيوت الخيش المبلل وسماع القيان[٥] . وكان يستعمل فى هذه البيوت الصيفية مروحة تشبه شراع السفينة ، تُعلّق فى سقف البيت ويُشَدّ بها حبل يديرها ، وهى تُبَلّ بالماء وتُرَشّ بماء الورد ، فإذا أراد الرجل أن ينام وقت القائلة جذبها بحبلها فتذهب بطول البيت وتجئ ويهب منها نسيم بارد طيب[٦] . وكانت حرّاقات

---

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٤١٨ ، وكتاب الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٩٩ فى أبيات لشاعر فى عهد عبد الله بن طاهر . (٣) لطائف المعارف للثعالبى ص ١٤ من طبعة ليدن .

(٤) المقدسى ص ٤٤٩ .

(٥) De Goeje, Carmathes, p. 218. نقلا عن ابن مسكويه .

(٦) مطالع البدور للغزولى ج ١ ص ٦٥ ، ويدل على استعمالها فى القرن الرابع ما ذكر عن السرى .

دجلة التى يستعملها رجال الدولة فى غدوهم ورواحهم يُمَدّ فيها الثلج ، ويعلّق عليها الخيش المبلّل بالماء ، وكانت ترخى على الخيش ستور الكرابيس[١] . وكان أهل بغداد ينامون فى ليل الصيف على سطوح البيوت[٢] . أما فى مدينة آمل فكانت السطوح مسنّمة لكثرة الأمطار صيفاً وشتاء[٣] . أما فى اليمن فكان الغالب على صنعاء البرد ، حتى كان إذا اشتدّ بها الصيف ودخل الرجل ليقيل على فراشه لم يكن له بدّ من أن يتدثّر ؛ لأن البيوت باردة بسبب القصة التى تسيع بها بواطن البيوت ، وربما دخل الرجل فى المخدع على فراشه وأطبق عليه الباب وأسبل الستر والسجف فلا يتغير ضياء البيت لما فى الجدران والسقف من الرخام ، بل إذا كان فى السقف رخامة صافية نظر عوّم الطائر بظلّه عليها إذا حاذاها ، وتؤدى الرخامة لمعان الشمس إلى القصة فتقبلها بجوهرها و بريقها[٤] .

وحوالى منتصف القرن الثالث الهجرى أحدث المتوكل بناء لم يكن الناس يعرفونه ، وهو المعروف بالحيرى ، وصار متبعاً فى القصور الكبيرة ؛ فصار يُبنى لها مُقَدَّم أو ثلاثة أجزاء أوسطها الباب الأكبر ، وإلى جانبيه البابان الصغيران (ويسميان عند العرب الكمّين) . وكان المتوكل يجعل دون قصوره ثلاثة أبواب عظام جليلة يدخل منها الفارس برمحه ؛ وقد اتبع الناس المتوكل ائتماما بفعله حتى

(١) جمهرة الإسلام للشيزرى ص ١٩٩ أ من مخطوط ليدن ؛ والمحاسن والمساوى للبيهقى ص ٤٤٧ .

(٢) يدل على هذا ما حكاه معظم المؤرخين من ظهور حيوان يسمى الزبزب فى عام ٣٩٤ هـ كان يحسب زعم الناس يأكل الأطفال بالليل من على السطوح ؛ وما كان حيوانا بل ربما نشأ من وجود اللصوص . ويقول ابن الجوزى (المنتظم ص ١٨ أ — ب) . إنه فى تموز من عام ٣٠٨ هـ « برد الجو حتى نزل الناس من السطوح وتدثروا باللحف » .

(٣) الأصطخرى ص ٢١١ .

(٤) كتاب صفة جزيرة العرب لأبى محمد الحسن بن أحمد الهمدانى طبعة ليدن ج ٦ ص ١٩٦ .

اشتهر هذا البناء[١] ، وهو يسمى الحيرى نسبة إلى الحيرة أى أنه هيليني الأصل . وقد جاء فى التقرير المتقدم عن حفائر سامرا أن الباب الأوسط كان يزيد على البابين الجانبين فى الارتفاع والاتساع ، فهو منقول عن طريقة الهيلينيين (المتأثرين بالحضارة اليونانية المتأخرة) فى بناء أبواب الشوارع وأقواس النصر[٢] . وكان قصر التاج الذى بُنى فى بغداد بعد ذلك بأربعين سنة صورة مكبّرة للطراز الحيرى ، فكان وجهه مبنيا على خمسة عقود كل واحد منها على عشرة أساطين والأسطوانة خمسة أذرع[٣] . وكذلك كان وجه قصر ابن طولون بمصر ثلاثة أبواب كأكبر ما تكون الأبواب ، وكانت متصلة بعضها ببعض ، وكانت تفتح كلها فى يوم العيد أو يوم عرض الجيش أو يوم الصدقة ، وفيما عدا ذلك لم تكن تفتح إلا بترتيب معلوم فى أوقات معروفة[٤] . وقد نقل ابن طولون هذه الصورة فى البناء كما نقل صورة مئذنة مسجده ، عن بغداد . وكانت دار الخلافة وما يتصل بها كأنها لِكبَرها مدينة قائمة بذاتها ؛ ويحكى الأصطخرى أن قصور الخلافة و بساتينها تفترش مساحة كبيرة ، وتمتد الجدران المحيطة بها فراسخ كثيرة[٥] . وكانت دور الكبراء تتألف من قصور كثيرة ؛ ويحكى عن الوزير أبى الحسن بن الفرات أنه أنفق على الدار التى كان ينزلها فى وزارته الثانية ثلاثمائة ألف دينار ، واشتهى فى وزارته هذه أن يجمع حُرَمَهُ و بنات إخوته وأصاغر ولده فى الدار المعروفة بدار البستان

(١) جغرافية اليعقوبى ص ٢٦٦ ، ومروج الذهب للمسعودى ج ٧ ص ١٩٢ ، ١٩٣

(٢) انظر ص ٣٤ من التقرير المتقدم ؛ وانظر أول هذا الفصل ؛ وقد سميت الضاحية الشرقية من ضواحى بغداد ، وهى التى يخرج منها طريق الجيوش نحو فارس ، بالأبواب الثلاثة لمثل هذا النوع من البناء .

(٣) معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٨٠٩ من الطبعة الأوربية .

(٤) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٣١٥ .

(٥) الأصطخرى ص ٨٣ ؛ وقد حكى رجل طاف دار الخلافة عامرها وخرابها وما يجاورها ويتاخمها حوالى آخر القرن الرابع ، فقال إنها مثل مدينة شيراز (تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٤٩) .

من الدار الكبرى ، فأمر بإصلاحها وتنظيفها وإنفاق ما يحتاج إليه فى إعدادها ، فبلغت النفقة خمسين ألف دينار[١] . وكان يلى الأبواب من داخل القصر البهو[٢] ، وهو مُقدّم الدار وأعلاها بناء ، ويقف شامخا تزيّنه الشرفات . يقول ابن المعتز فى وصف قصر الثريا[٣] :

حلّتَ الثريّا خيرَ دار ومنزل ... فلا زال معموراً وبورك من قصر
وبنيان قصر قد عَلَتْ شرفاته ... كصفٍّ نساء قد تربّعن فى الأزر

وكان قصر الخلافة يشتمل على دور وبساتين ومسطّحات مظلّلة بالأشجار ، وعلى قباب وأروقة ، وكانت تزيد فى جماله البرك والأنهار الجارية . ويُحكى عن الخليفة القادر أنه كان يجلس فى البيت المعروف ببيت الرصاص ، وبين يديه نهر يجرى فيه الماء إلى دجلة[٤] . وكانت الأروقة تسمى بالأربعينى أو الستينى أو التسعينى بحسب الغلمان أو الحرس الذين يجتمعون فيها[٥] ، وكان من بين القباب قبة الأترجّة[٦] ، وقبة الحمار[٧] . وكان الأمراء إذا جاءوا إلى دار الخلافة دخلوها راكبين حتى إذا وصلوا إلى الموضع الذى ينزلون فيه ترجّلوا ودخلوا والحجاب بين

---

(١) كتاب الوزراء ص ١٧٩ .

(٢) انظر هذه الكلمة عند الجوهرى ، وحكاية أبى القاسم طبعة متز ص ٣٦ .

(٣) الديوان ج ١ ص ١٥ . (٤) كتاب الوزراء ص ٤٢٠ .

(٥) وكان الغلمان يسمون بذلك بحسب طول شهر راتبهم الذى كان أحيانا أربعين أو ستين أو تسعين .

(٦) ابن مسكويه ج ٥ ص ٣٢٤ . وتاريخ سنى ملوك الأرض لحمزة الأصفهانى ج ١ ص ٢٠٤ ؛ وديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣٨ سطر ٦ ، وهو قوله : والقبة العليا والأترجة .

(٧) المنتظم لابن الجوزى ص ١٦٠ ب ؛ وهى التى يقصدها ابن المعتز بقوله : والقبة العليا ؛ ويقال إنها سميت بذلك لأن الخليفة كان يستطيع أن يصعد إلى أعلاها راكبا على حمار ، ولكن هذا لم يرد إلا عند ياقوت (معجم البلدان ج ١ ص ٨٠٦ من الطبعة الأوروبية) ، ويظهر أنها حكاية موضوعة ، وهى تشبه ما حكى عن منارة الإسكندرية من أنه كانت معلقة بها مرآة يجلس الرجل تحتها فيرى من بالقسطنطينية ، وبينهما عرض البحر ، وأن الفارس والفارسين يركبان إلى أعلاها بغير درج (ابن خرداذبة ص ١١٤) .

أيديهم[١] . ويذكر الكتاب المتأخرون أنه كان هنالك سراديب تصل القصور بعضها ببعض ، فيحكى ناصر خسرو أن قصور الفاطميين كانت مؤلفة من بيوت كبرى وصغرى تصل بينها سراديب تحت الأرض[٢] . ولكننا لا نجد فى الحكايات الكثيرة المفصلة التى ذُكرت عن القصور ذكراً لهذه السراديب التى يدخل منها الناس أو يخرجون بحيث لا تراهم الأعين ، فأمرها لا يخلو من مبالغة .

وقد رأى المقدسى قصر عضد الدولة بشيراز بعد موت هذا السلطان بقليل ، وحكى رئيس الفراشين للمقدسى أن فى القصر ثلاثمائة وستين حجرة كان السلطان يجلس كل يوم فى واحدة إلى الحول[٣] . وكان يقال إن بمنارة الإسكندرية ثلاثمائة وستة وستين بيتاً دائرة بها[٤] . وكان بقصر Eldenburg بمدينة مارك برندنبرج Marke Brandenburg من الحُجَر بقدر عدد أيام السنة[٥] .

وقرب أواخر القرن الثالث الهجرى نجد ضروباً من التفنن فى إعداد القصور تنتقل من بلاط إلى آخر ؛ وكأنما كان ذلك مقروناً بابتداء التكلف والصناعة فى الأدب ؛ فكان فى قصر الطولونيين بمصر بركة من الزئبق طولها خمسون ذراعاً وعرضها خمسون ، وكان فى أركانها أساطين من الفضة الخالصة فيها زنانير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من الفضة ، وعُمل لخمارويه فرش من أدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شدّه ويلقى على تلك البركة ، وتشدّ زنانير الحرير التى فى حلق الفضة بالأساطين ، ثم ينام الأمير على ذلك الفرش ، « وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به من الهمم الملوكية ، فكان يُرى لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب إذا تألّف نور القمر بنور الزئبق »[٦] .

---

(١) المنتظم ص ١٦٠ ا .

(٢) رحلة ناصر خسرو ص ١٢٩ ، ١٥٨ ؛ وذكر ذلك المقريزى ، (الخطط ج ١ ص ٤٥٧)

(٣) المقدسى ص ٤٤٩ . (٤) ابن خرداذبة ص ١١٤ .

(٥) Fontane, Fünf Schlösser, S. 96. (٦) الخطط المقريزى ج ١ ص ٣١٧

ويحكى أن الخليفة المقتدر بالله لما وفد عليه رسل ملك الروم سنة ٣٠٥ هـ — ٩١٧م زيّن قصره ورتب آلته فيه ثم أدخلهم إليه ، فرأى الرسل فيه العجب ، ثم أخرجوا إلى « الجوسق المحدَث » . وكان داراً بين بساتين فى وسطها بركة رصاص حولها نهر رصاص « أحسن من الفضة المجلوة » ، وطول البركة ثلاثون ذراعاً فى عشرين ذراعاً ، وكان فيها أربع طيارات لطاف مذهبة مزينة بالدبيق المطرّز ، وأغشيتها دبيق مذهب(١) .

« وقد ظهرت بمدينة رومة فى عصر أوغسطوس Augustus عادة إنشاء البساتين على الطريقة المسماة بالمصرية ، وهى فى العصر القديم تشبه على وجه التقريب ما صار يعرف فيما بعد بالبساتين الإنجليزية ، وكان فى ذلك ردّ فعل ضد نظام إنشاء البساتين على نحو يجعل البيوت كأنها جزء من الحدائق المحيطة بها أو جزء من الطبيعة الخضراء بما كان فى ذلك النظام من صلابة فى مراعاة طريقة العمارة »(٢) .

ولما أسس أمير الأندلس الناصر لدين الله الأموى مدينة الزهراء التى قال بعض المؤرخين إنه لم يُبن فى الإسلام أحسن منها ، عمل فيها أيضاً بحيرة ملأها بالزئبق(٣) .

وقد أولع خمارويه فوق ما تقدم بالأزهار ، وهذا الولوع من صفات الترك ؛ فصار خُمارويه بذلك كله أكبر منشئ البساتين بين أمراء الإسلام ، ذلك أنه أقبل على بستان أبيه فزاد فيه ، وأخذ الميدان الذى كان لأبيه فجعله كله بستاناً وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، ونقل إليه النخل اللطيف الذى ينال

---

(١) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٥٣ .

(٢) V. Gleichen-Russwurm, Elegantiae, S. 387.

(٣) البـ [illegible] طبعة ليدن ج ٢ ص ٢٨١ (عام ٣٢٥ هـ) .

ثمره القائم ، ومنــه ما يتناوله الجالس من أصناف خيار النخل ، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعّم العجيب وأنواع الورد ، وزرع فيــه الزعفران ، وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة ؛ يتعاهدها البستانى بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة ، وزرع فيــه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر والجنوى العجيب ، وأهدى إليه من خراسان كل أصل عجيب ، وطعّموا له شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك مما يستطرف ويستحسن ، وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة[١] ، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص ، وأجرى فيها الماء المدبّر ، فكان يخرج من تضاعيف قوائم النخل عيون الماء وتنحدر إلى مساق معمولة ، ويفيض منها الماء إلى مجار تسقى سائر البستان ، وبنى فيــه برجاً من خشب الساج[٢] ، فكانت هذه الفوّارات والبرك والعيون المائية الصناعية — على طريقة المصريين القدماء فى عمل البساتين — إلى جانب أبراج الخشب مما يزيد البستان جمالا . وكانت فكرة إنشاء بستان على الطريقة الإنجليزية بعيــدة كما كانت بعيدة عن أهل العصر القديم ، بحيث أن أحد حكام مصر — وكان من أكبر المولعين بإنشاء البساتين — جعل جميع دهاليز بستانه مغطاة بالحصر العبّادانية[٣] . وكذلك كان بالجوسق المحدث فى قصر المقتدر بركة رصاص حولها بستان بميادين فيــه نخل قيل إن عدده أربعمائة نخلة ، وطول كل واحدة خمسة أذرع قد لبس جميعها ساجاً منقوشاً من أصلها إلى حد الجمّارة بحلق من شبه مذهبة[٤] .

وكانت لذة الخليفة القاهر من الدنيا بستانه الكبير الذى غُرس فيه النارنج

---

(١) هذا ضرب من الذوق العرقى القديم ، وكان ملوك الفرس من قبــل يجلسون إلى الناس تحت أشجار قد كسيت أجسامها بالفضة .

(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٣١٦ . (٣) نفس المصدر ج ١ ص ٤٨٧ .

(٤) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٥٣ — ٥٤ .

وحمل إليه مما حمل من أرض الهند ، قد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره ، وكان فيه أنواع الأطيار ، وكان الخليفة كثير الجلوس والشراب فيه وهو يقول عنه : وكان لذتى من الدنيا[1] . وحوالى ذلك العصر كان بالشام الصنوبرى وكشاجم شاعرين من شعراء الطبيعة تغنيا فى شعرهما بجمال البساتين والأشجار والأزهار ؛ ولكن الأزهار لم تكن كثيرة جدا : كان هناك الورد والنرجس والشقيق والباقلاء والكافور والبهار والأقحوان والسوسن والبنفسج والياسمين والخيرى والنوار ، ولم يكن الخيرى البرى قد جلب من سهول آسيا . وكانت زراعة الورد متقدمة جدا ، فقد حكى صاحب نشوار المحاضرة (المتوفى عام ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م » أنه رأى ورداً أسود حالك السواد له رائحة زكية ، وأنه رأى بالبصرة وردة نصفها أحمر قانى الحمرة ؛ ونصفها الآخر أبيض ناصع البياض ، والورقة التى وقع الخط فيها كأنها مقسومة بقلم[2] ، وكان النخل والسرو هما الشجرتين اللتين تزرعان فى البساتين .

وكان ابتداء هذا الميل الشديد إلى البساتين والولوع بها فى مصر ، وفيها استمر على أقوى ما يكون طوال ذلك العصر ، فيحدثنا الرحالة الفارسى ناصر خسرو أنه رأى بمصر ناساً يتجرون بالأشجار ، وأن عندهم أشجاراً فى أُصُص يضعونها على سطوح بيوتهم حتى تصير السطوح كأنها حدائق ، فإذا اشترى أحد هذه الأشجار حُملت إليه ثم حُفر لها فى الأرض ، ونقلت من أصصها دون أن يصيبها شىء ؛ ويقول ناصر خسرو إنه لم ير مثل هذا فى مكان آخر ولم يسمع به ، ويُحكى أنه كان بمصر يهودى كثير المال قد وضع على سقف داره ثلاثمائة جرة

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ٣٣٦ — ٣٣٨ .
(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٢٣٧ .

من الفضة ، فى كل منها شجرة مزروعة ، وكل هذه الأشجار مثمرة محملة كأنها بستان[١] .

وكان فى دار الشجرة من قصر المقتدر بالله شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم ، وهى تقوم وسط بركة مدورة صافية الماء ، وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها مذهّب ، وهى تتمايل فى أوقات لها ، وللشجرة ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريحُ ورق الشجر ، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر ، وقد أدخل الخليفة رسل الروم إلى هذه الدار فكان تعجبهم منها أكثر من تعجبهم من جميع ما شاهدوه[٢] . على أنه كان بقصر الإمبراطور بالقسطنطينية كثير من قطع الأثاث حول عرش الإمبراطور ، عليها طيور جاثمة تغنى ، وقد رآها وسمع تغريدها الأسقف ليتپراند Luitprand رسول الملك أتو Otto ملك ألمانيا . بل لقد كان حول عرش إمبراطور الروم كثير من السباع المذهّبة تحف بالعرش . وكانت فى أثناء استقباله الناس تفتح أفواهها بين حين وآخر ، وتزأر وتضرب الأرض بأذنابها ، وفوق ذلك كان العرش الإمبراطورى مصنوعاً بحيث يمكن رفعه بآلة إلى سقف المجلس[٣] . وهذا ضرب من الذوق الفاسد البعيد عن طريقة الشرقيين . وقد ذكر ابن المعتز الشاعر الأمير هذه الشجرة فى شعره[٤] .

وكان لمعظم الدور ببغداد كواشك ورواشن فى الطابق الأسفل يصطدم بها راكب الحمار إن لم يتنبه لها[٥] . وكان يستتر بها أهل العبث والفساد حتى اشتهرت

(١) رحلة ناصر خسرو ص ٨٠ ، ٨٨ من النص الفارسى .

(٢) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٥٢ وما بعدها .

(٣) J. Ebersolt, Le grand palais de Constantinople, Paris, 1910, p., 68.

(٤) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣٨ . (٥) حكاية أبى القاسم ص ٣٣ .

بذلك[١] . وكانت الشوارع بمدينة شيراز ضيقة لا تتسع لسير بهيمتين معاً ، وكان أهلها في بلاء من اصطدام رءوسهم بالرواشن[٢] .

وكانت أبواب الدور تصنع من الخشب المحلى بالنقوش ، وعلى الباب حلقة تدور بلولب يُطرق بها الباب[٣] ، وبالجملة كان الخشب يستعمل كثيراً ، وكان أحب أصنافه عند السراة خشب الساج الهندى ، ولكثرة استعمال الخشب كانت الغرف من داخلها تكاد تثير الانقباض مثل دور الفلاحين عندنا ، وإذا رأى الإنسان الحجرة المحفوظة فى متحف القاهرة أحدثت رؤيتها فى نفسه مثل هذا الأثر .

ولم تكن العادة أن يملأ كل فراغ الحجرات بالأثاث ، فكان يبقى فيها مجال لظهور الناس ولحركاتهم وملابسهم ، وفراغ للستور والبسط المعلقة على الحيطان تتنافس بألوانها وما عليها من جميل الرسوم . وكانت التخوت هى الأثاث الوحيد فى الغرف ، فكانت تحفظ فيها الثياب مثلا[٤] أما الدواليب لم تكن معروفة ، وكانت الخوانات لا تستعمل إلا للطعام . وكان كبراء القرن الثالث يحبون الخوانات المصنوعة من خشب الجزع ، وكذلك بعض أدوات المائدة[٥] ؛ ثم استخدمت خوانات قوائمها منها بلا وصل[٦] ، وقد ورد فى كتاب حكاية

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى ج ٢ ص ٢٥٣ ؛ وجمهرة الإسلام مخطوط ليدن رقم ٢٨٧ ص ٧٧ أ . (٢) المقدسى ص ٤٢٩ .

(٣) مقامات الهمذانى طبعة بيروت ص ١٠٥ .

(٤) كتاب الوزراء ص ١٧٢ ؛ ويتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٣٧ ، ومروج الذهب ج ٢ ص ٢٠ .

(٥) كتاب البخلاء للجاحظ طبعة فان فلوتن ص ٥٧ ، ومروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ٢٦٩ .

(٦) مقامات الهمذانى ص ١١٣ ؛ وحكاية أبى القاسم ص ٣٨ ؛ والخطط للمقريزى ج ١ ص ٤١٩ .

أبى القاسم البغدادى وصف خوان حسن ؛ قوائمه من خلنج خراسانى بلا وصل ، ثم صار حجم هذه الخوانات يزداد باستمرار ، حتى يحكى أنه لما طهر المقتدر بعض ولده عام ٣٠٥ هـ — ٩١٧ م ؛ أهدى إلى ابن الفرات ثلاث موائد ؛ استدارة المائدة الكبرى منها خمسون شبراً ، فضاق الباب عن دخولها حتى قلع ووسع الموضع لإدخالها[١] .

وكان خشب الخلنج يستعمل أيضاً فى قصور الفاطميين لصنع الطيافير[٢] ؛ وكان هذا الخشب يجهز بكثرة فى جرجان على بحر الخزر[٣] . وفى القرن الثالث الهجرى بالمشرق أعجب الجاحظ بآنية من الخلنج الكيالى (التركى) إلى جانب آنية الصينى الملمّع ، وكانت هذه محبوبة فى جميع البلاد[٤] ، وكانت أدوات الطبيخ تسمى الصفر[٥] . ويحدثنا ناصر خسرو فى القرن الخامس الهجرى أنه كان بمصر امرأة تملك خمسة آلاف قدر ، وأنها كانت تؤجرها كل قدر بدرهم[٦] .

أما الحمامات الساخنة فنجد فى عناية المسلمين بها وتشييدهم الكثير منها ميراثاً من أحسن ما أخذ عن اليونان والرومان ، ولم يكن اتخاذ الحمامات العامة من مظاهر الحياة فى العصر القديم ، حتى إنه ليحكى عن بلاش ملك الفرس (من عام ٤٨٤ م — ٤٨٨ م) أنه لما أمر بإنشاء الحمامات للناس فى مدن مملكته جلب على نفسه سخط الكهنة[٧] ؛ لأنهم رأوا فى ذلك انتهاكاً لحرمة الدين[٨] . ولما جاء قُباذ بعد ذلك واستولى على مدينة آمد ، ودخل أحد حماماتها العامة سُرَّ به كثيراً ،

---

(١) كتاب الوزراء ص ٦٥ . (٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤٢٠ .

(٣) جغرافية اليعقوبى ص ٢٧٧ .

(٤) كتاب البخلاء طبعة فان فلوتن ص ٥٧ ، وانظر شعراً فى العقد ج ٣ ص ٢٩٦ .

(٥) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٣٩٢ .

(٦) رحلة ناصر خسرو ص ٧٥ من النص الفارسى .

١ Josua Stylites, ed. Wright § 19

جة الطبرى لنولدكه ص ١٣٤ هامش رقم ٥ .

وأمر أن يُبنى حمام مثله فى كل مدينة من مدن فارس (١) . ويذكر الطبرى وهو من مؤرخى العرب المتقدمين أن الفرس لم يكن لهم قبل عهد الإسلام حمامات (٢) .

على أن المتشدّدين من المسلمين كانوا دائماً ينظرون إلى اتخاذ الحمامات العامة نظرة الارتياب ، ويحكى عن أبى بكر السلَمى المتوفى عام ٣١١ هـ — ٩٢٣ م أنه قيل له : لو حلقت شعرك فى الحمام ، فقال : لم يثبت عندى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل حماما قط (٣) . ويحكى عن الزمخشرى أنه قال : ويكره أن يعطى الرجل امرأته أجرة الحمام ، لأنه يكون معيناً لها على المكروه (٤) . وقد ذكر الخليفة القاهر عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م عن أحد سلفه أنه بنى « حمامات رومية » للحرَم ، وهذا الاسم الذى أطلقه عليها القاهر لايخلو من دلالة (٥) . أما زخرفة الحامات فلم تكن إسلامية بالكلية ، ففى حمامات سامرّا كانت الدرجات تُزَيَّن بالصور بدلاً من البلاط المختلف الألوان ، وهذه عادة كانت بالشام ، وترجع إلى العصر الأخير من الحضارة اليونانية (٦) . وقد ذكر المسعودى أن الناس يصوّرون العنقاء فى الحامات ، والعنقاء صورة لحيوان خيالى عند الشرقيين ، وهى تمثل بطائر وجهه وجه إنسان وله منقار نسر ، وأربعة أجنحة من كل جانب ويدان ذات مخالب (٧) ، ويؤثر عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال : بئس البيت

---

(١) Josua Stglites, § 75 وانظر Land, Anecdota, III, 210.

(٢) تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ١٩٩ . (٣) طبقات السبكى ج ٢ ص ١٣١ .

(٤) مطالع البدور الغزولى ج ٢ ص ١٧ .

(٥) مسكويه ج ٥ ص ٤٤٩ وكان يسمى المكان الذى تخلع فيه اللابس باسم مأخوذ من السريانية وهو كلة مشلح (المغرب لابن سعيد ص ٤٣) ، وكان أهل الشام يسمون آجرّ الحمام بالقراميد وهو اسم مأخوذ من الرومية Keramidi . انظر المعرّب للجواليق طبعة سخاو ص ١١٦ .

(٦) Sarre und Herzfeld, Erster vorläufiger Bericht über die Ausgrabungen von Samarra, Berlin 1912, S. 24.

(٧) مروج الذهب للمسعودى ج ٣ ص ٢٩ .

الحمّام ، تُكشف فيه العورات ، وترتفع فيه الأصوات ، ولا تُقرأ فيه آية من كتاب الله[١] .

وكان فى الجانب الشرقى من بغداد وحده فى القرن الثالث الهجرى خمسة آلاف حمام[٢] ، وكان فى جانبى بغداد فى النصف الأول من القرن الرابع عشرة آلاف[٣] ، وفى النصف الثانى كان بها خمسة آلاف فقط[٤] ؛ وهذا العدد لم يزل فى نقصان حتى ذكر فى القرن السادس أنه كان ببغداد ألفا حمام[٥] . وكانت الحامات تُطلى بالقار وتسطّح به حتى يُخَيّل للناظر أنهما مبنية من رخام . وكان هذا القار يُجلب من عين بين البصرة والكوفة[٦] .

أما بمصر فلم تكن العناية بإنشاء الحامات كبيرة مثل ما كانت بالشام ، فيذكر لنا المقريزى أنه كان بالفسطاط ألف ومائة وسبعون حماما ؛ وكانت حامات القاهرة فى عام ٦٨٥ هـ — ١٢٨٦ م ثمانين حماما فقط[٧] وكان يقوم بخدمة الحمام خمسة نفر على الأقل : حمّامىّ ، وقيّم ، وزبّال — لأن الوقود فى الحامات كان فى الغالب من الزبل اليابس — ووقّاد ، وسقّاء[٨] .

أمر أبو جعفر المنصور فى عام ١٥٣ هـ بلبس القلانس الطوال ، والدراريع مكتوب عليها بين كتفى الرجل فسيكفيكهم الله ، كما أمرهم بتعليق السيوف فى أوساطهم ، فدخل عليه أبو دُلامة ، وعليه قلنسوة طويلة وبقية الملابس التى أمر بها الخليفة ، فقال له : كيف أصبحت يا أبا دلامة ؟ قال : بشرّ ، قال المنصور :

(١) مطالع البدور ج ٢ ص ١٧ . (٢) جغرافية اليعقوبى ص ٢٥٤ .

(٣) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٧٦ وما بعدها .

(٤) نفس المصدر ص ٧٦ ، وجاء فى ص ٧٤ أنه كان ببغداد ستون ألف حمام ، وهنا فيه مبالغة وتخيل . أما السبعة والعشرون ألفاً فيجب أن تؤخذ على أنها المساجد لا الحامات .

(٥) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٨٠ . ورحلة ابن جبير ص ٢٣٠ .

(٦) رحلة ابن جبير ص ٢٣٠ . (٧) الخطط ج ٢ ص ٨٠ .

(٨) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٧٤ .

كيف ؟ ويلك ؟ قال : ما ظنك برجل وجهه فى نصفه ، وسيفه فى استه ، وقد نبذ كتاب الله وراء ظهره ! فأمر المنصور بتغيير الزى ، وقال أبو دلامة هذا لما أمر المنصور بما أمر به :

وكنا نرجى من إمام زيادةً فزاد الإمام المصطفى فى القلانس
تراها على هام الرجال كأنها دِنان يهود جُلِّلت بالبرانس[1]

ولما اتصل أهل أوروبا بالشرقيين أيام الحروب الصليبية نقلوا إلى بلادهم هذه القلانس الطوال ومعها الخمر وجعلوها لباس النساء فى الغرب[2] .

ولما جاء المستعين (٢٤٨ هـ — ٢٥٢ هـ = ٨٦٢—٨٦٦ م) صغّر القلانس ، بعد أن كانت طوالا كأقباع القضاة[3] ؛ وأحدث المستعين أيضاً لبس الأكمام الواسعة التى لم تكن تُعهد من قبل فجعل عرضها ثلاثة أشبار أو نحو ذلك[4] . وكانت هذه الأكمام تقوم مقام الجيوب يحفظ فيها الإنسان كل ما يحتاج إلى حفظه مثل

---

(١) لب اللباب فى رد جوابات ذوى الألباب ؛ مخطوط رقم ٨٣١٧ بمكتبة برلين ص ١٢٤ ا ، وكتاب أوليّات على دده مخطوط برلين رقم ٩٣٧٢ ص ٥٨ ا ، وكانت هذه القلانس تدعم بعيدان من داخلها (الأغانى ج ٩ ص ١٢١) ، ولما فتح عباد بن زياد الهند ووصل قندهار رأى قلانس أهلها طوالا فعمل عليها (الفتوح للبلاذرى ص ٤٣٤) . وكانت القلانس والمناطق فى نظر العرب الجاهليين من لباس الفرس Jacob' Oltarab. Beduinen-leben, S. 237 . وكان الرشيد لا يحب هذا التجديد الذى أحدثه المنصور ، فيحكى الجاحظ أن العمانى الراجز دخل على الرشيد لينشده شعراً وعليه قلنسوة طويلة وخف ساذج ، فقال له : إياك أن تنشدنى إلا وعليك عمامة عظيمة الكور وخفان ومالقان . (البيان والتبيين ج ١ ص ٤٤٢) . ويحكى المسعودى (المروج ، ج ٨ ص ٣٠٢) أن المعتصم أعاد لبس القلانس تشبهاً بملوك الأعاجم فلبسها الناس اقتداء بفعله وسميت المعتصميات . وكان زىّ أهل مصر حوالى عام ٢٣٠ وجِلّة شيوخهم وأهل الفقه والعدالة منهم لبس القلانس الطوال ، وكانوا يبالغون فى ذلك ، فأمرهم محمد بن الليث القاضى بتركها لأنها من لباس القضاة وزجرهم فلم ينتهوا حتى ضربهم (القضاة للكندى ص ٤٦٠) .

(٢) وكان من العادات النادرة بفرنسا فى القرن الثانى عشر الميلادى لبس مصبس. وأصلها عادة شرقية انظر Jac. Falke, Gesch. des Geschmackes im mittel alter S. 66

(٣) مروج الذهب ج ٧ ص ٤٠٢ . (٤) نفس المصدر .

الدنانير[١] والكتب ، وكان المهندس يضع فيها ميله[٢] ؛ والسيرفى يجعل فيها رقاعه[٣] ، والخياط يحمل فيها الجلم[٤] ، والقاضى يضع فيها الكراسة التى يقرأ فيها الخطبة يوم الجمعة[٥] ؛ والكاتب يحفظ فيها الرقعة لعرضها[٦] . وكان بعض العمال يحفظ المستندات فى خُفّه ، ويحكى عن الحسن بن مخلد وزير المعتمد أنه لما كان كاتباً بين يدى الموفق بن المتوكل سأله يوما كم عنده فى الخزائن من ثوب أعجبه ، فأخرج من خفه دستوراً فيه جُمَل ما فى الخزائن من الأمتعة والثياب ، وأجاب الخليفة بما أراد[٧] . وكان بعض الندماء يضعون مخازن مملوءة أدهانا فى خفاف غلمانهم أو القّفات مدرجة فى المناديل ، فإذا أمضّهم الجوع وشحذهم الشراب تناولوا ما أعدوه من ذلك[٨] .

وفى أوائل القرن الرابع الهجرى وأواخره كان من عادة الظرفاء اجتناب لبس الثياب ذات الألوان ، لأنهم كانوا يعتبرون ذلك من شأن النساء والإماء ، وكان أقصى ما يجوز للإنسان أن يلبسه فى خاصة بيته وفى أيام الاحتجام وفى حلقات الشراب ، أما فى الشوارع فليس اتخاذها من شأن الظرفاء . وكان يحسن بسروات الناس لبس الثياب البيض ، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : خلق الله الجنة بيضاء ، وخير ثيابكم البيض تلبسونها فى حياتكم

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٥٤ ، والمكتبة العربية الاسبانية ج ٣ ص ٤٩ . وحكى التوحيدى (رسالة فى الصداقة ص ١١) عن محمد بن على بن الحسين الباقر رضى الله عنه أنه قال لأصحابه : أيدخل أحدكم يده فى كم صاحبه فيأخذ حاجته من الدراهم والدنانير ؟ قالوا : لا ، قال : فلستم إذن بإخوان .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٤٩ . (٣) نفس المصدر ج ١ ص ٣٩٩ .

(٤) مروج الذهب ج ٦ ص ٣٤٥ . (٥) الخطط ج ١ ص ٣٩٠ .

(٦) الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٦٩ ؛ وكانت الأكمام فى عصر الإسلام الأول طويلة حتى كان يُقص منها ما زاد على الأصابع (بستان العارفين ص ٩٠) .

(٧) المنخزى ص ٢٩٨ . (٨) أدب النديم ص ١٥ ا .

وتكفنون بها موتاكم[١] ، ويحكى عن عطاء بن رباح فى العصر الأموى أنه لقى ابن سُرَيْج فى أحد شوارع المدينة ، وعليه ثياب مصبّغة ، وفى يده جرادة مشدودة رجلها بخيط يطيّرها ويجذبها كلما تحلّقت ، فقال له عطاء : يا فتّان ! ألا تكفّ عما أنت عليه ! كفى الله مؤونتك ، فقال ابن سريج . وما على الناس من تلوينى ثيابى ولعبى بجرادتى ! [٢] ؛ ولا يجيز أهل الظرف والأدب لبس شىء من الثياب الدنسة مع ثياب مغسولة ، ولا المغسول مع الجديد ، ولا الكتان مع المروى ، وهم يرون أن « أحسن الزى ما تشاكل وانطبق ، وتقارب واتفق »[٣] وكان البياض من لبس الرجال ، وكان أيضاً لباس النساء المهجورات ، أما غيرهن فيجتنبنه إلا أن يعملن منه سراويلات . ولا يلبس الملوّن إلا إذا كان لونه طبيعيا ، لأن الألوان غير الطبيعية من لبس النساء النبطيات والإماء والمتقيّنات . وكان الأزرق فى المشرق لبس الحداد[٤] ، أما فى الأندلس فكان البياض يُلبس لذلك[٥] . وكانت السراويلات مما يكمل به لباس الرجال ، وهى لباس غير عربى[٦] ، وكانت طوائف العمال الثلاثة الكبرى تتميّز بلباسها ، فكان الكتاب يلبسون الدراريع[٧] ، وهو ثياب مشقوقة من الصدر ، وكان العلماء يلبسون الطيلسان[٨] ، وكان القواد يلبسون الأقبية الفارسية القصيرة . وقد صار القباء لباساً رسميا لرجال الدولة حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م حتى كان

---

(١) بستان العارفين ص ٩٠ . (٢) التذكرة ا... ية ص ١٤٨ ا .

(٣) الموشى ص ١٢٤ ؛ والمرواة الثعالبي ص ١٢٩ ب .

(٤) الموشى ص ١٢٦ ؛ وديوان كشاجم ص ١٦٩ ؛ وكتاب ...سيون ص ١١٠ ا — ب .

(٥) الطراز الموشى ص ٢٠٢ .

(٦) مسكويه ج ٥ ص ٢٨ ٥ مثلا ، وكتاب الوزراء ص ١٧٦ ، وجمع السراويل سراويلات (الموشى ص ١٢٦) . (٧) مسكويه ج ٦ ص ٣٠٨ .

(٨) وكان اتخاذ الطيالس شائعاً بمدينة شيراز حتى يقول المقدسى (ص ٢٤٩) : ولا ترى بها لصاحب طيلسان مقداراً ؛ ولقد رأيت أهل الطيالس سكارى ؛ وهو لم يرض أن يقابل الوزير بطيلسان .

لا يدخل المقصورة فى يوم الجمعة إلا من كان من الخواص المتميزين بالأقبية السود ؛ وحضر بعضهم مرة بدرّاعة فرُدّ حتى مضى ولبس القباء ، وكان هذا الرسم جارياً مأخوذاً به فى سائر مقاصير الجوامع ثم بطل فيا بعد ؛ حتى يحدثنا الخطيب البغدادي، حوالى عام ٤٠٠ هـ أنه كان لا يلبس القباء والسواد سوى الخطيب والمؤذنين[(١)] . وكان التاجر الغنى أو الغنى من الناس يلبس قميصين ورداء فوق السراويلات ، وهذا كله لباس الخليفة القاهر يوم أحضر للبيعة فى عام ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م[(٢)] . ويحكى عن أبى بكر الفرغانى الصوفى ، وكان من المجتهدين فى العبادة (توفى عام ٣٣١ هـ — ٩٤٣ م) أنه لم يكن يُرى أحسن منه ممن يظهر الغنى فى الفقر ، كان يلبس قميصين ورداء وسراويل ونعلا نظيفاً وعمامة وفى يده مفتاح ، وليس له بيت ، ينطرح فى المساجد ويطوى الخمس والست[(٣)] . ثم حل الخفتان محل الملابس العربية ، فيحكى عن سعيد الشاعر المعروف بقاضى البقر أنه ركب إلى الأخشيد فى ليلة شتاء باردة وعليه ملابس منها الخفتان[(٤)] . وكان الخفتان أيضاً من جملة ملابس أدباء الشام[(٥)] . ولما ركب الخليفة المقتدر عام ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م لقتال مؤنس ، وهى ركبته التى قتل فيها ، كان عليه خفتان[(٦)] . أما المِمطر الذى يُعمل من القماش المشمّع للوقاية من المطر بحيث لا يمكن أن ينفذ منه الوابل ، فقد جاء من الصين ؛ وقد سأل البحترى (المتوفى عام ٢٨٤ هـ — ٨٩٧ م) فى قصيدة من قصائده ممدوحه أن يهب له مِمطراً يتقى به المطر[(٧)] . وقد وصف المقدسى قلة المطر فى اليمن بأن أهلها لا يرد ذكر الماطر فى كلامهم[(٨)] . أما الجوارب فكان يلبسها

---

(١) تاريخ بغداد مخطوط باريس ص ١٠ ا .

(٢) عريب ص ١٨٢ . (٣) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٠٣ طبعة ليدن .

(٤) المغرب لابن سعيد ص ٣٣ .

(٥) الصنوبرى فى جمهرة الإسلام للشيرازى مخطوط ليدن ص ١١٣ ب .

(٦) عريب ص ١٧٧ . (٧) ديوان البحترى ج ١ ص ١٨٠ .

(٨) المقدسى ص ٩٦ .

الرجال[١] والنساء على السواء[٢] . وكان لبس الخفاف الحمر معيباً ، وإن كان قد لبسها قيصر الروم وعامة المسلمين ، وكان ولىّ العهد عند الروم البوزنطيين يلبس خفا أحمر وخفا أسود[٣] ، كما كان يلبس ذلك الخيلاء من المتظرفين المتخنثين الجهال .

وقد جرت العادة دهراً طويلا بأن يلوى الغلمان والجوارى شعر أصداغهم على صورة حرف النون (ن) أو على صورة العقرب ، ويقول ابن المعتز :

لوى صدغه كالنون من تحت طُرّة ممسّكة تُزهى بعـــاج جبين

ويقول :

ريم يتيه بحسن صورته عبث الفتور بلحظ مقلته
وكأن عقرب صدغه وقفت لما دنت من نار وجنته[٤]

وقد تغنى أبو نواس بذلك قبل ابن المعتز بمائة عام فقال :

أصداغهن معقربا ت والشوارب من عبير[٥] .

وكان القوط الشرقيون فى بعض العصور يخيفون أهل أوروبا الجنوبية بأن يصبغوا شعرهم باللون الأخضر ؛ وكان أهل تراقية يصبغون شعورهم الشقراء باللون الأزرق[٦] . وكانت عادة خضاب الشعر منتشرة فى بلاد الشرق سواء فى جزيرة العرب أو فى إيران ، حتى اختلف العلماء فى حكم الشرع فيها ، ونجد أبا نُعَيم صاحب تاريخ أصفهان المتوفى فى عام ٤٣٠ هـ — ١٠٣٩ م حريصاً على أن يذكر فى

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٤٣ ، وكانت من الإبريسم أو الخز .
(٢) الأغانى ج ٦ ص ٨٥ .
(٣) الموشى ص ١٢٥ ، وابن خرداذبة ص ١٠٩ .
(٤) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦٦ ، ص ٧٠ .
(٥) ديوان أبى نواس ص ٨٢ — ٨٣ .
(٦) Gebhart, Italie Mystique وانظر Thomaschek, Die Thraker

ترجمة رجاله إن كانوا يخضبون شعورهم أم لا ، بل هو يحكى عن أبى إسحاق إبراهيم بن أيوب المنبرى — وكان صاحب تهجد وعبادة ، لم يعرف له فراش أربعين سنة — أنه كان يخضب رأسه ولحيته(١). على أنه يظهر أن عادة الخضاب هذه كانت نادرة بين سروات الناس ، ولذلك نجد صاحب الفهرست فى الترجمة القصيرة التى كتبها لأبى الحسن المنجم ، وكان أديباً وممن يجالس الخليفة ، يذكر فى شيء من التأكيد أنه كان يخضب إلى أن مات عام ٣٢٥ هـ ، وله من العمر ست وسبعون سنة(٢) . وقد كان من الذوق المتكلف فى العصر الأخير لقياصرة الرومان أنهم كانوا يدخلون فى حلبات السباق غنما مصبوغة باللون الياقوتى ، وثيراناً مصبوغة باللون الأبيض ، وسباعاً مصبوغة لبدها باللون الذهبى ، ونعامات مصبغة باللون الأخضر القانى(٣) . ولم يحدثنا عن مثل هذا أحد من مؤلفى القرن الرابع الهجرى ؛ على أنى شاهدت فى بغداد فى أيامنا حميراً مصبوغاً نصفها باللون الأحمر ، وحمارا نظيفاً مصبوغاً باللون الوردى ؛ وربما يكون هذا من بقايا عادات قديمة .

وفى القرن الرابع الهجرى ظهرت من جديد فيما يتعلق بالمقابر عادة غير إسلامية بالكلية ، وهى بناء الكبراء لأنفسهم فى حياتهم تربا ليدفنوا بها ؛ وأول من فعل ذلك أم المقتدر ، وهى أم ولد رومية ، بنت لنفسها تربة بالرصافة(٤) وكذلك بنى الخليفة الراضى المتوفى عام ٣٢٩ هـ — ٩٤٠ م تربة بالرصافة أيضاً(٥) ثم بنى معز الدولة المتوفى عام ٣٥٦ هـ — ٩٦٦ م تربة فى مقابر قريش(٦) . وعمّر

(١) تاريخ أصفهان مخطوط ليدن ج ١ ص ٩٨ ا ، ١٠٨ ا ، ١٢٢ ا ؛ ج ٢ ص ٢٥ ب .
(٢) الفهرست ص ١٤٤ .
(٣) V. Gleichen-Russwurm, Elegentiae S. 461.
(٤) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٠٣ طبعة ليدن .
(٥) المنتظم لابن الجوزى ص ٦٩ ا . (٦) نفس المصدر ص ١٠٢ ا .

الطائع بعد ذلك تربة لنفسه بالرصافة [١] . وفى هذه الناحية ظهرت عدا ذلك مجموعة عادات أخرى بعيدة كل البعد عن روح الإسلام ، ثم رسخت أصولها ، فقد نهى كثيراً عن الصياح على الجنائز ؛ ولكن النهى لم يثمر ، ففى سنة ٢٥٠ هـ — ٨٦٤ م كانت تشق الجيوب وتصبغ الوجوه بالسواد ، وتقص الشعور بمصر [٢] . وقد منع العامل من ذلك وسجن النائحات ، وكذلك فى عام ٢٩٤ هـ — ٩٠٧ م [٣] . ثم جاء الخليفة الحاكم بأمر الله فحظر عام ٣٩٤ هـ على النساء كشف وجوههن وراء الجنائز والبكاء والعويل وخروج النائحات بالطبل والزمر على الميت [٤] ؛ ولما قُتل الحجاج ونكبوا على يد الجنابى خرج نساء بغداد إلى الطرقات مسودات الوجوه ، منشرات الشعور ، يصرخن ويلطمن [٥] . وفى عام ٣٠٥ هـ — ٩١٧ م مات غريب خال المقتدر ، فأمرت أم المقتدر بهدم القبة الخضراء التى كان قد بناها لنفسه ببغداد ، وبتحطيم طياره ومركبه على نهر دجلة [٦] . ولما مات زيرك الخادم القاهرى عام ٣٢٩ هـ — ٩٤١ م اشتد عليه حزن الراضى ، وخرج من داره مستوحشاً وانتقل إلى الشماسية — وهذه عادة معروفة عند شعوب كثيرة — وصب من دنان المطبوخ أربعمائة دنّ فى دجلة حزناً على زيرك [٧] . وقد أوصى أبو الفضل الهمذانى إذا جاءه الحق وتوفاه الموت ، ألا تعقد عليه مناحة ولا يلطم خد ، ولا يخمش وجه ، ولا ينشر شعر ، ولا يمزق ثوب ، ولا يشق جيب ، ولا يهال نقع ، ولا يرفع صوت ، ولا يدعى ويل ، ولا يسود باب ، ولا يحرق متاع ، ولا يقلع غرس ، ولا يهدم بناء ، وأن يكفن فى ثلاثة أثواب بيض لا سرف فيها ، وحرج على من يتولى أمره أن يقرنه ثوب خيلاء من مطرز

(١) ديوان الشريف الرضى ص ٦٦٦

(٢) الولاة للكندى ص ٢٠٣ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ص ٢٦٦ .

(٤) يحيى بن سعيد ص ١٢٥ ب .

(٥) كتاب الوزراء ص ٤٩ .

(٦) كتاب العيون والحدائق ص ٩٦ ب .

(٧) نفس المصدر ص ١٨١ أ — ب .

أو معلم أو إبريسم أو منسوج بذهب(١) . وكان يعمل فى تغسيل الكبراء وتكفينهم من الترف والسرف ما هو غريب عن الإسلام ، فيحكى أنه لما مات الأمير سيف الدولة بن حمدان عام ٣٥٦ هـ — ٩٦٧ م غسل تسع مرات أولاها بالماء ثم بزيت النيلوفر ثم بالصندل ، وبعد ذلك بالضريرة ثم بالعنبر ثم بالكافور ثم بماء الورد ، وغسل بعد ذلك ثلاث مرات بالماء المقطر ، ونشف بعد غسله بدبيقى ثمنه خمسون ديناراً أخذه الغاسل وهو قاضى الكوفة إلى جانب أجرته ؛ ثم دهن بالزعفران والكافور ووضع على خديه ورقبته مائة مثقال من الغالية ، وفى عينيه وأذنيه ثلاثون مثقالا من الكافور . وبلغ ثمن كفنه ألف دينار ، ثم وضع فى تابوته ورش عليه الكافور(٢) ، وفى عام ٣٧٥ هـ — ٩٨٥ م مات تميم بن المعز فكفن فى ستين ثوبا(٣) . وقيل إن ابن كلّس لما توفى عام ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م كفن وحفظ بما قيمته عشرة آلاف دينار(٤) . وكان للنداء على الموتى صورة لم ينكرها رجال الشريعة ، إذ نادى الناس فى جنائز العلماء بمثل ما كان جماعة ينادون بين يدى الخطيب البغدادى قائلين : هذا الذى كان يذبّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا الذى كان ينفى الكذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا الذى كان يحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم(٥) ؛ وبمثل ماقاله جماعة بين يدى نعش أحد العلماء : لاينال الشفاعة إلا من أحب السنة والجماعة(٦) . وكثيراً ما كان العلماء يُدفنون فى دورهم ، ثم ينقلون بعد عدة سنين

---

(١) رسائل الهمذانى ص ٥٣٦ وما بعدها .

(٢) ابن شداد مخطوط بيروت ص ٥١ أ ؛ وقد تفضل الدكتور سراسين (W: Sarasin) باطلاعى على هذا النص . (٣) الوفيات لابن خلكان (طبعة فستنفلد) ج ٢ ص ٢٣ .

(٤) النجوم الزاهرة طبعة كلفورنية ص ٤٦ نقلا عن الذهبى .

(٥) طبقات السبكى ج ٣ ص ١٥ .

(٦) ابن بشكوال ص ١٣٤ ، ويظهر أن هذه العادة كانت منتشرة فى الأندلس .

إلى المقبرة[١] . وفى النصف الثانى ظهرت بين الشيعة عادة لا تزال باقية إلى اليوم وهى حمل موتاهم إلى النجف وكربلاء[٢] ، وهذه أيضاً إنما كانت جريا على عادة قديمة ، فيحكى لنا القمى العالم الشيعى المتوفى عام ٣٨١ هـ ٩٩١ م أن اليهود والنصارى فى عصره كانوا لا يزالون يدفنون موتاهم فى فلسطين[٣] .

***

وكانت صور الدعوات إلى المجالس تتناسب بالضرورة مع الذوق البلاغى فى ذلك العصر ، وفى هذا الباب نجد كثيراً من القطع الأدبية المدهشة التى تتجلى فيها اللباقة الأدبية[٤] ، فمن ذلك أن الصاحب بن عباد كتب لأحد أصحابه : « نحن ياسيدى فى مجلس غنى إلا عنك ، شاكر إلا منك ، قد تفتحت فيه عيون النرجس ، وتوردت فيه خدود البنفسج ، وفاحت مجامر الأترج ، وفتقت فارات النارنج ، ونطقت ألسنة العيدان ، وقام خطباء الأوتار ، واهتزت رياح الأقداح ، ونفقت سوق الأنس ، وقام منادى الطرب ، وطلعت كواكب الندماء ، وامتدت سماء الندّ ؛ فبحياتى لما حضرت لنحصل بك فى جنة الخلد ، وتتصل الواسطة بالعقد »[٥] وفى أوائل القرن الرابع الهجرى كان الوزير أبو الحسن على بن الفرات يدعو إلى طعامه فى كل يوم تسعة من الكتاب الذين اختص بهم ، وكان منهم أربعة

---

(١) طبقات السبكى ج ٢ ص ٢٥٧ (ترجمة إمام الحرمين) ، وكذلك قاضى القضاة عبد الله بن معروف المتوفى عام ٣٨١ هـ (المنتظم لابن الجوزى ص ١٣٣ ب) ، والاسفرايينى المتوفى عام ٤٠٦ هـ ببغداد ، ولم ينقل إلى المقبرة إلا سنة ٤١٠ هـ (الوفيات طبعة فستنفلد ج ١ ص ٣٥) ؛ والقاضى عبد الجبار المعتزلى قاضى قضاة الرى (توفى عام ٤١٠ هـ — طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٢٠) ؛ والقدورى المتوفى عام ٤٢٠ هـ (الوفيات ج ١ ص ٣٨) .

(٢) انظر الفصل الخاص بالشيعة .

(٣) كتاب العلل مخطوط برلين رقم ٨٣٢٧ ص ١١٥ ب ؛ ولما مات على بن الأخشيد عام ٣٥٥ هـ حمل فى تابوت إلى البيت المقدس ودفن مع أخيه ووالده بباب الأسباط (الكندى ص ٢٩٦) .

(٤) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٨٠ وما بعدها .

(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٨١ .

نصارى ، « فكانوا يقعدون من جانبيه و بين يديه ، ويقدّم إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة فى الوقت من خير شىء ، ثم يُجعل فى الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف ، وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبها مايحتاج إلى قطعه من سفرجل وخوخ وكمثرى ؛ ومعه طست زجاج يرمى فيه الثفل ، فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شيلت الأطباق وقدمت الطسوت والأباريق فغسلوا أيديهم وأُحضرت المائدة مغشاة بدبيقى فوق مكبّة خيازر ، ومن تحتها سفرة أدم فاضلة عليها ، وحواليها مناديل الغمر . . . . . فإذا وُضعت رُفعت المكبّة والأغشية ، وأخذ القوم فى الأكل ، وأبو الحسن بن الفرات يحدثهم ويؤانسهم ويباسطهم ، فلا يزال على ذلك والألوان توضع وترفع أكثر من ساعتين ، ثم ينهضون إلى مجلس فى جانب المجلس الذى كانوا فيه ، ويغسلون أيديهم ، والفراشون قيام يصبون الماء عليهم ، والخدم وقوف على أيديهم المناديل الدبيقية ورطليات ماء الورد لمسح أيديهم وصبّه على وجوههم[١] » .

وإنما ذكر وضع ألوان الطعام بعضها بعد بعض لأنه كان عادة مستحدثة ؛ أما العادة الإسلامية القديمة فكانت تقضى بأن يوضع الطعام كله مرة واحدة يأخذ كل واحد منه ما يشتهى[٢] . وكانت هذه الطريقة أعنى وضع الطعام كله مرة واحدة هى الطريقة الفرنسية فى القرن الثامن عشر ، ثم حلت محلها الطريقة الروسية وانتشرت فى أوروبا كلها . وكان غسل المدعوين أيديهم معاً على المائدة قبل الطعام عادة شائعة ، ويكون غسل الأيدى من وعاء واحد ، ويبدأ رب البيت لئلا يحتشم أحد[٣] . أما الغسل بعد الطعام فكان أشبه بتنظيف حقيقى ،

---

(١) كتاب الوزراء ص ٢٤٠ .

(٢) المستطرف ج ١ ص ١٤٦ ، وغير ذلك من الحكايات القديمة .

(٣) كتاب العلل للقمى المتوفى عام ٣٨١ هـ مخطوط برلين ص ١١٢ ب ، وأدب النديم لكشاجم مخطوط باريس ص ٤٨ ب .

ورب البيت يغسل بعد جميع ضيوفه ، وذلك بأن يبتدى الدور عن يساره ثم يسير حتى ينتهى إليه فيكون آخر من يغسل[1] . أما إذا كان الغسل مع الرؤساء لامع النظراء كأن يكون الإنسان مع الوزير مثلا فكان الأليق أن يغسل الضيوف أيديهم فى ناحية خاصة ، ويقول كشاجم فى أمر غسل اليد : قد اصطلح الناس على إجلال رؤسائهم وملوكهم عن غسل أيديهم بحضرتهم ، واستجازوا ذلك مع نظرائهم ومن يسقط التحفظ بينه وبينهم ، ولو آثر الناس الاعتزال لغسل الأيدى مع كل طبقة حتى لا يرى بعضهم بعضاً لكان ذلك عندى أليق بالظريف ، لما يحتاج إليه من استقصاء الغسل والمبالغة فى التنظيف وإجالة الأنامل فى اللهوات والخلال فى الأسنان « مما لا يشك أحد أن ستره عن عين المحب والمبغض والرفيع والمتواضع أحمد من اطلاعه عليها ، وإن المرء ليتأذى أن يرى ذلك من نفسه فكيف من غيره ، وربما يحسن الرئيس ويجمل فيقول لنديمه : اغسل يدك مكانك ولا تتزعزع فالثقى يغتنم ذلك والفطن يأباه ويغلب الأدب ويستفيد الحظوة »[2] . وكانت هذه العادة شائعة ، فى العراق مثلا كان الخاصة ينتظرون من العامة أن يقوموا عن مجلسهم ليغسلوا أيديهم جانباً[3] . ويحكى أن الأفشين كان حظيًا عند المعتصم ، فكان أول غضبه عليه أنه أكل عنده يوماً ، ثم دعا بالطست فغسل يديه بحيث يراه المعتصم ، فقال المعتصم : هذا التيس الطويل اللحية يدعو بالطست حيث أراه ؟[4] وكان أحد كبراء البربر الأكراد بمصر أيضاً يقدم الطعام إلى ضيوفه حتى إذا فرغوا منه دعاهم إلى غرفة أخرى

(١) كتاب الطل ص ١١٢ ب ؛ وأدب النديم ص ٤٨ ب ؛ وقد ذكر القمى ، وهو من أهل خراسان ، عادة أخرى ، وهى أنه إذا فرغ من الطعام يبدأ الغسل من يمين الـ[illegible] ـالس أو عبداً . (٢) أدب النديم ص ٤٨ ا — ب ، ٤٩ ا -
[illegible] المحاسن والمساوى للبيهقى ص ٤٤٧ ؛ ومروج الذهب للمسعودى
[illegible] بالم البدور للغزولى ج ٦ ص [illegible]

ليغسلوا أيديهم [١] . ويظهر أن عادة الاعتزال لغسل الأيدى ظهرت فى القرن الثانى الهجرى كما تدل عليه الحكاية التالية : كان عيسى بن يزيد بن دأب الليثى المتوفى عام ١٧١ هـ من رواة الأخبار والأشعار ومن حفاظها ، وكان تيّاها ينادم المهدى ولا يتغدّى معه ولا بين يديه فقيل له فى ذلك ، فقال : أنا لا أتغدى فى مكان لا أغسل فيه يدىّ ، فقال له المهدى فتغدّ ، فكان الناس إذا تغدوا تنحوا لغسل أيديهم وابن دأب يغسل يديه بحضرة المهدى [٢] . وتخليل الأسنان كان لا بد أن يُعمل جانباً كما تقدم القول [٣] .

يقول ابن المعتز فى خليل لاتُحمد صحبته :

مَنْ عذيرى من صاحب خادع الوعـــــد وهـذا من الأخلاء يختى
أبداً ماشـــــياً ويمسح نابا بسـواك كضرب البردست [٤]

وهو حين يذكر أن الوزير يحادث ضيوفه على الطعام يصف أيضاً عادة زمانه ، على أن الناس قد اختلفوا فى موقع الحديث على الطعام فاستحسنه قوم وكرهه آخرون ، وهو من صاحب المنزل والمائدة أحسن منه من الآكل والزائر ، كما قال بعضهم :

صادف زاداً وحديثاً ما اشتهى إن الحديث طرف من القرى

واستجيد قولُ بعض المحدثين :

كيف احتيالى لبسط الضيف من خجل عنـد الطعام فقد ضاقت به حِيَلى
أخاف ترداد قول لى فأحشمه والصمت ينزله منى على البخل [٥]

وكان قول الإنسان : الحمد لله فى وسط الطعام غير مستحسن ؛ لأنه قد يدفع

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٨٥ (؟) .
(٢) الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ١٠٥ .
(٣) أدب النديم ص ٤٨ ب . (٤) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦ .
(٥) أدب النديم ص ٤٤ ب — ٤٥ ب .

الأضياف إلى النهوض قبل أن يشبعوا ، ومن المأثور قول بعضهم :

وحمد الله يحسن كل وقت ولـكن ليس فى وقت الطعام
لأنك تحشم الأضياف عنه وتأمرهم بإسراع القيام
وتؤذنهم ، وما شبعوا ، بشبع وذلك ليس من خلق الكرام(١)

ويستحسن الجاحظ (المتوفى عام ٢٥٥ هـ ٨٩٦ م) من النـديم ألا يمشش العظام ، ولا يبادر إلى البيض الموضوع على البقل ، ولا يأخذ لنفسه أكباد الدجاج وصدورها أو المخ أو الكلى أو العيون — وهى لا تزال حتى اليوم أحب ما فى الشاة إلى أهل البلقان — أو صغار الفراريج(٢) . ولـكن بعـد الجاحظ بقرن يذكر صاحب كتاب الموشى فى باب زى ذكر الظرفاء فى الطعام : اعلم أن أول ما استعملوه تصغير اللقم ، والتجالل عن الشره والنهم ، وأكل الأوساط الرقاق ، والبزماورد الدقاق ؛ وليس يأكلون العصبة والعضلة ، ولا العرق والكلوة ، ولا الكرش والقبّة ، ولا الطحال والرئة ، ولا يأكلون القديد ، ولا الثريد ، ولا ما فى القدر من الورق ، ولا يتحسّون المرق ، ولا يتبعون مواضع الدسم ، ولا يلوثون أيديهم بالزهم ، ولا يملّون الملح ، وهو عندهم من أكبر القبيح ، ولا يكوكبون فى الخل ، ولا يمعنون فى أكل البقل ، ولا يأكلون الطلع الشبيهة رائحته برائحة الماء الدافق ، ولا يمششون من العظام كراديس قصب الساق الغليظ ، وإنما مشاشهم ما لان وصغر لا ما غلظ وكبر ، ويأخذون ما تقل من المشاش على ظهور الأصابع ويطرحونه ناحية من الخوان ، ولا يزهمون ما بين أيديهم من الرغفان ، ولا

---

(١) أدب النديم ص ٤٥ ب ، وأحسن ما سمعت للثعالبي طبعة مصر ١٣٢٤ هـ ص ١٠٣ .

(٢) عمد المنسوب للثعالبي فى مجلة جمعية المستشرقين الألمان ZDMG, VIII, S. 518. وهو كتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب . وكان القصابون يذبحون كثيرا يوم الجمعة فيأكل الناس اللحم يوم الجمعة ، ثم تؤكل الرءوس يوم السبت (كتاب البخلاء للجاحظ طبعة فان فلوتن ص ١٢١) . ولذلك كان الناس بالأندلس حتى بعـد العصر الإسلامى بزمان طويل يأكلون رءوس الغنم يوم السبت انظر Mendoza, Lazarillo de Tormes, Reclam, S. 31.

يتعدون مواضعهم ، ولا يلطمون أصابعهم ، ولا يملؤون باللقم أفواههم ، ولا يدسمون بكبرها شفاههم ، ولا يقطرون على أكفهم ، ولا يعجلون في مضغهم ، ولا يأكلون بجانبي الشدقين ، ولا يزاوجون بين الاثنين ، ولا يأكلون قدراً بائتة ولا قدراً مسخنة ، ولا يأكلون شيئاً من الكوريج والصحناء ، ولا الربيثاء والسميكات ، ولا شيئاً من الكواميخ والمالح ، وأكل ذلك عندهم من الفضائح[1].

ولم يكن يفرد لأحد من الضيوف طبق على حدة ؛ ويحكى عن أبي رياس (عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) أنه كان آية في حفظ أيام العرب وأنسابها وأشعارها ؛ ولكنه كان وسخ اللبسة قليل التنظيف شَرِها على الطعام سيء الأدب في المؤاكلة ، دعاه والي البصرة أبو يوسف اليزيدي إلى مائدته يوماً فلما أخذ في الأكل مدّ يده إلى بضعة لحم فانتهشها ثم ردّها إلى القصعة ، فكان بعد ذلك إذا حضر مائدته أمر بأن يهيّأ له طبق ليأكل عليه على حدة ، ودعاه الوزير المهلبي يوماً إلى طعامه فامتخط في منديل الغمر وبزق فيه ، ثم أخذ زيتونة من قصعة فغمزها بعنف حتى طفرت نواتها فأصابت وجه الوزير[2].

وقد نال فن الطبيخ عناية كبيرة من جانب المؤلفين ، حتى لنجد أبا الحسن على بن هارون المعروف بالمنجم وكان ممن يجالس الخلفاء ، وإبراهيم بن المهدى وكان أميراً يحسن الغناء ، وجحظة وكان شاعراً مجيداً ؛ نجدهم جميعاً يؤلفون كتبا في الطبيخ في القرن الثالث الهجري[3] ؛ بل يذكر المؤرخ الشهير ابن مسكويه (عاش حتى عام ٤٢٠ هـ) — وكان خازن كتب عضد الدولة — كتاب « في تركيب الباجات من الأطعمة » « أحكمه غاية الإحكام وأتى فيه من أصول علم الطبيخ بكل غريب حسن[4] » . ويقول الهمداني في أهل اليمن : « ولهم مع ذلك ألوان الطعام

---

(١) كتاب الموشى ص ١٢٩ — ١٣٠ . (٢) اليتيمة ج ٢ ص ١٢٠ .
(٣) الفهرست ص ١٤٥ . (٤) أخبار الحكماء للقفطي ص ٣٣١ وما بعدها .

والحلاوى والشربة التى تؤثر على غايات ألوان كتب المطابخ[١] » . ولكن يظهر أن جميع هذه الكتب قد ضاعت مع الأسف ، وكتب الطبيخ التى وصلت إلينا كلها حديثة العهد ، وهى تشتمل على ضروب من الطبيخ هى مزيج غريب قوامه اللحم والمسك والكافور وماء الورد[٢] كما كان إلى ذلك يميل الإيطاليون فى عصر النهضة . أما الكتب التى بقيت من العصر الأول[٣] فتدل على ذوق خير من ذلك ، وهى تجعل ماء الورد والعنبر والكافور لصنع الحلوى . وكانت الحلوى أحسن ما يصنع فى طعام الأعياد ، ويظهر أنها كانت تصنع بأكبر مهارة بلغها فن الطبيخ ، فكانت تصنع أبراج من السكر وتوضع فى وسط المائدة ؛ ويحكى عن المتنبى مثلا أنه قال شعراً يشكر فيه رجلا أهدى إليه هدية فيها سمك مصنوع من سكر ولوز فى عسل[٤] .

وكان وقت المسامرة بمعناها الصحيح يفصل عن وقت الطعام فصلا تاما ، وكان لا يبتدئ إلا مع أقداح الشراب ، ولم يكن النبيذ يشرب على الطعام حتى فى أشد العصور فساداً ، وكانت المشهيات تتألف من أشياء حرّيفة وكانت تسمى النُّقل وربما كان ذلك أخذاً عن الكلمة اليونانية Nogalmata أو الكلمة اللاتينية Nuclei ، وهما على ما تدل عليه كلمة نقل العربية . وكان أهل التظرف لا يكثرون من أكل النقل ، وإنما يعبثون منه بالشيء اليسير ، ويجتنبون الهندبا والأكشوث لبردهما ، والفجل والحُرْف لنتنهما ، والكراث والبصل لرائحتهما ، ولا يقع الثوم أو البصل فى قدر فيأكلونه ، ولا يقربون الجمار والقثاء والهليون ، ويرغبون عن أكل الزيتون لنواه ، وكذلك عما خالطه النوى من فاكهة الصيف

(١) وصف جزيرة العرب للهمدانى ص ١٩٨ .

(٢) حكاية أبى القاسم ص ٣٩ — ٤٠ من مقدمة متز .

(٣) مروج الذهب ج ٨ ص ٣٩٢ وما بعدها . (٤) ديوان المتنبى ص ١٨ .

كالقَسْب والتمر والمشمش والنبق والعناب والخوخ والشاهلوج والأجاص وهو عندهم من أكل العوامّ لا من أكل الخواصّ ، ولا ينفق عندهم الرمان والتين والبطيخ لصوته إذا انكسر ، ولا يأكلون الحنطة المحمّصة ولا السمسم المقلوّ ولا الزبيب الأسود وهم يشبهونه بالبعر ، ولا يأكلون الباقلّى والبسر المقلو والبلوط والقريثاء والغبيراء والشاهبلوط والخرنوب الشامى ونحو ذلك ، وأكثر ما يتنقلون به مملوح البندق ومقشر الفستق والملح النفطى والعود الهندى والطين الخراسانى والملح الصنعانى وسفرجل بلخ وتفاح الشام وقصب السكر المغسول بماء الورد[١] .

وكان الشراب منتشراً رغم نهى القرآن عنه ، ولكن مسألة الشراب كانت تختلف باختلاف البلاد ، فبينما كان يعاقب عليه فى الحجاز حتى يحكى أنه فى عام ١٦٩ هـ — ٧٨٥ م قبض عمر بن عبد العزيز على أحد العلويين مع آخرين على شراب فأمر بضربهم جميعاً وبأن تجعل فى أعناقهم الحبال ويطاف بهم فى المدينة ، كان أهل العراق لا يرون بالشراب بأساً[٢] ، وانتشرت دور الخمر كما كان عليه الحال قبل الإسلام ، وكان الخمّار والساقون والساقيات فى الغالب نصارى ، ويقول ابن المعتز :

من كفّ ظبى مُقرْطق غنج يعشقه من عليه يعذلنى
تلوح صلبانه بلبّته كنور خيرية بلا غصن
ياليت من جاءه يقرّبه من فضل قربانه يقرّبنى[٣]

وكذلك كان حال الشراب فى مصر ، فيحكى المقدسى أن المشايخ فيها لا يتورعون عن شرب الخمور حتى ترى الشيخ منهم سكران[٤] ، وذهبت كل أوامر رجال الشرطة سدى ، وفى آخر عهد الفاطميين كان يكتفى بإغلاق قاعات

---

(١) الموشى ص ١٣٠ — ١٣٢ ؛ وحكاية أبى القاسم ص ٤٨ .
(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٥٥٢ . (٣) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦٤ .
(٤) المقدسى ص ٢٠٠ .

الخمارين بالقاهرة ومصر ومنع بيع الخمر فى آخر جمادى من كل سنة[١] . ويحكى عن نساء مراكش وهى بلاد كثيرة الأعناب أنهن كنّ مولعات بالشراب[٢] . ويحدثنا أحد الرحالين المحدثين أنه فى أول جنى العنب يكون الكثير من أهل مراكش سكارى[٣] . ويحكى عن الأزهرى اللغوى المشهور أنه ذهب إلى ابن دريد العلامة البصرى (المتوفى عام ٣٢١ هـ — ٩٣٣ م وقد جاوز التسعين) فوجده سكران فلم يعد إليه بعدها أبداً ، وكان زوّاره يدخلون عليه فيستحيون مما يرونه من العيدان المعلقة والشراب وهو فى تلك السنّ العالية[٤] . وفى عام ٣٢١ هـ أيضاً أمر الخليفة القاهر بتحريم الغناء والخمر ، « وكان هو مع ذلك يشرب المطبوخ ، ولا يكاد يصحو من السكر »[٥] ، ويذكر عن الخليفة الراضى الذى جاء بعد القاهر أنه كان أعطى الله عهداً ألا يشرب ، ولم يزل من خلافته نحو سنتين محافظا على عهده لا يشرب ، وكان جلساؤه يشربون بين يديه فلا يشرب معهم إلا الجلاّب ، ولكن أصحابه لم يزالوا به ليشرب ، فكتب رقعة بلفظ يمينه وعرضها على الفقهاء فوجدوا له رخصة ، فأعطى أستاذه ونديمه الصولى ألف دينار ليتصدق بها عنه وشرب[٦] ، وكان الخليفة المستكفى قد ترك النبيذ فلما أفضت إليه الخلافة عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م دعا به من وقته وعاد إلى شربه[٧] ، وكان فى بيوت الكبراء إلى جانب صاحب المطبخ رجل يسمى الشرابى شأنه العناية بالشراب وآلته وبالفاكهة والروائح[٨] . وكان الشراب عادة للكثيرين حتى كبار ذوى

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤٩١ .
(٢) زناد الوادى مخطوط ليدن رقم ١٠٥٣ ص ٦٣ ا .
(٣) Rohlfs, mein erster Aufenthalt in Marokko, S. 75
(٤) المنتظم لابن الجوزى ص ٤٩ ب ، والنجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٥٦ طبعة ليدن .
(٥) مسكويه ج ٥ ص ٤٢٤ ، والنجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٥٤ .
(٦) الأوراق للصولى مخطوط باريس ص ٦١ — ٦٢ .
(٧) مروج الذهب ج ٨ ص ٣٩٠ .
(٨) الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١١ .

المناصب الشرعية ، فيحكى أنه كان جماعة من الكبراء ينادمون الوزير المهلّبى ، ويجتمعون عنده فى الأسبوع ليلتين على اطّراح الحشمة والتبسُّط فى القصف والخلاعة ، منهم ثلاثة قضاة هم ابن قريعة ، وابن معروف ، والتنوخى ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ، فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذّ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه وضع فى يد كل منهم كأسُ ذهب وزنه ألف مثقال مملوء شرابا قطّربليا أو عكبريا ، فيغمس لحيته فيه بل ينقعها فيه حتى تتشرّب أكثره ، ويرش منه بعضهم على بعض ، ويرقصون أجمعهم وعليهم المصبّغات ومخانق البرم ، فإذا أصبحوا عادوا إلى عادتهم من التزمُّت والتوقّر والتحفظ بأبهة القضاة وحشمة المشايخ الكبراء[1] . وكان يحضر إلى مجلس الشراب فى منزل كاتب للخليفة قاضٍ من قضاة بغداد توفى عام ٤٢٣ هـ — ١٠٣١ م ، وكان لا يشرب إلا قارصاً ، فأرسل صاحب المنزل غلاما وأحضر خماسية من دكان إسحاق الواسطى فيها من الشراب الذى كان بأيديهم إلا أن على رأسها كاغداً وختما مكتوب عليه « قارص من دكان إسحاق الواسطى » ، فشرب القاضى منه ثم سأل عن الشراب فقيل له : قارص ، فقال : لا بل والله الخالص ، ثم ثنى وثلّث ، فكان الغلام كلما أتاه القدح سأله عنه ، فيقول تارة : مدام وتارة خندريس ، فإذا قال له خمر حَرِد واستخف به ، فلم يشرب القاضى إلا بمقدار ستة أسماء أو سبعة من أسماء الخمر حتى تبطّح فى المجلس ولُفّ فى طيلسانه وحمل إلى داره[2] . ويحكى عن ابن طباطبا نقيب الطالبيين بمصر المتوفى عام ٣٥٢ هـ — ٩٦٣ م ، وهو يشغل منصباً دينيا من الطبقة الأولى أنه كان له شعر فى الخمر فمن ذلك قوله[3] :

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى ج ٢ ص ١٠٦ .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٢٦٠ وما بعدها .

(٣) المغرب لابن سعيد ص ٤٩ .

أأترك الشَّرْب والأنوار دائمة والطلّ منها على الأشجار منثور
والغصن يهتز كالنشوان من طرب والورد فى العود مطوىّ ومنثور
لا والتى تركتنى يوم فرقتها كأنما الرمل فى عينى منثور

على أنه يحكَى عن المتنبى الشاعر الكبير المتوفى عام ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م أنه هجر الخمر، وعزم على ألا يشرب إلا ما يشرب به الكرم يعنى الماء، من قوله :

هجرت الخمر كالذهب المصفّى فخمرى ماء مُزْنٍ كالجين[1]

ولكن هذا لم يكن من المتنبى تورعا، فهو لم يكن له بالدين اكتراث. ويُذكر عن الحاكم بأمر الله أنه لما عنّ له أن يعيد العمل بأحكام الإسلام الأولى نهى الناس عن شرب النبيذ وتشدّد فى ذلك، حتى استطبّ أبا يعقوب إسحاق ابن إبراهيم بن أنسطاس، فأشار عليه بشرب النبيذ وذكر له ما فيه من المنافع فجنح إلى مشورته ليتداوى بشربه، وأغضى عما كان قد أمر به من منع الخمر، بل استدعى المغنين وأصحاب الملاهى إلى مجلسه وشرب على غنائهم وخلع العذار معهم، وأحسن إليهم، ورجع الناس فى أمر النبيذ إلى ما كانوا عليه من قبل؛ ولكن لما مات ابن أنسطاس عاد الحاكم إلى النهى عن الخمر، ومنع منه أشد منع حتى منع من بيع الزبيب والعسل، وأحرق منهما ورمى فى النيل شيئاً كثيراً للتجار يُقدّر بمال عظيم، وكسر الظروف التى يوعى فيها النبيذ ومنع من عملها[2].

أما كثرة الشاربين وقلتهم فكان يُكره جلوس الاثنين للشراب، وهو يسمى المنشار؛ لأن المنشار يجلس عليه رجلان؛ وكان الثلاثة يعتبرون أتم مجلساً، لأن الاثنين ينهض أحدهما لبعض حاجته فيبقى الآخر وحده واجماً[3].

(١) ديوان المتنبى طبعة بيروت ١٢٧٦ هـ ص ٥١، وكان يخفى أن تضر الخمر بصحته؛ انظر الديوان ص ٢٤٢. (٢) يحيى بن سعيد ص ١١٨ أ.
(٣) أدب النديم لكشاجم ص ٣٢ أ.

وإذا كان القدماء قد استحسنوا الشراب مع نساء ذوات أدب ولباقة يتراوح عددهن بين ثلاثة وتسعة فإننا نجد أبا نواس يقول :

ثلاثة في مجلس طيب ٭ وصاحب الدعوة والضارب
فإن تجاوزت إلى سادس ٭ أتاك منهم شغب شاغب[1]

وقدا رتضى المتأخرون بعد أبي نواس هذا العدد ، قال الشاعر :

فليدْعُ منا خمسة ٭ متخيِّرين ولا يزد
فدُوَيْنَ هذا وحشة ٭ وفويقه سوق الأحد

وقال الشاعر فيمن لا يعتد بمجالسته :

خرجنا جميعاً إلى نزهة ٭ وفينا زياد أبو صعصعه
فستة رهط به خمسة ٭ وخمسة رهط به أربعه[2]

وكانت أرض قاعة الشراب يُنثر عليها الزهر ، كما كان الحال عند القدماء وعند الروم البوزنطيين ، وكانت أكاليل الزهر تزيّن رءوس الشاربين . قال السلامي الشاعر في الدير الذي بقنطرة النوبندجان وقد شربوا هنالك ، ولبسوا أكاليل الزهر :

أقنطرة النوبندجان وديرها ٭ وحور مهى لا تألف الحور غيرها
شربنا بها والروض يخلع زهره ٭ على الشرب والأشجار تنثر طيرها[3]

وقال الصنوبري في رفاقه على الشراب :

على ذا تاج ورد ٭ وعلى ذا تاج نسرين[4]

وكان المتظرفون يحيي بعضهم بعضاً بالورد ، وكان لا يستحسن أن يدفع

(١) ديوان أبي نواس ص ٣٠٦ ، ٣٥٨ .
(٢) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ .
(٣) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٧٠ .
(٤) جمهرة الإسلام مخطوط ليدن رقم ٢٨٧ ص ١١٣ أ .

بعضهم إلى بعض وردة واحدة ، « ولا تقول متظرّفة لأخرى : هذه وردتك » فهذا عندهن من أكبر العيوب ويعتبرونه من كلام العوام [١] . وكان الأدباء يحيي بعضهم بعضاً بالفاكهة على الشراب ، ويقول عبدان الأصبهانى :

سقيت وفى كف الحبيبة وردة   وأترجة تغرى النفوس بصوتها
مداماً فلما قابلتنى بوجهها   شربت تحيّتى بلونى ولونها [٢]

وكان من مستلزمات الشراب الغناء والرقص ، وكانت آلات الموسيقى فى أغلب الأحيان أربعاً [٣] كما هو الحال اليوم ، وكان الجوارى يغنين من وراء ستارة ، ولكن كان من المبالغة فى إكرام الضيف أن تغنى المغنيات بين يدى الستار ، ويحكى أن أبا الحسن على بن الفرات خلا للشراب فى وزارته الأولى ، وحضر جماعة من كتابه وأصحابه ، وحضر من المغنيات بين يدى الستار ومن ورائها ما لا يحصى كثرة [٤] . وكان التأثر بالغناء قويا ، فكان منه ما يسر وما يبكى ، وما يزيل العقل حتى يغشى على صاحبه ، ويُذكر أنه لم يكن فى الإسلام أحسن صوتاً من مخارق ، غنى يوماً فى متنزّه ، وقد سنحت ظباء فجاءت إعجاباً بغنائه ، وتوسط دجلة يوماً وغنّى فلم يبق أحد إلا بكى ، وكان غناؤه أحياناً يسرّ من جماله كل قلب [٥] . وغنى الأمير إبراهيم بن المهدى مرة فى مجلس المأمون فأحسن ،

---

(١) الوشى ص ١٣١ ، ويتيمة الدهر ج ٢ ص ٤٠ (؟) .

(٢) اليتيمة ج ٣ ص ١٢٩ .

(٣) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ١١٨ : الجنك والعود والقانون والزمار ، ويذكر التنوخى (هامش المستطرف ج ٢ ص ١٤٤) أنها العود والطنبور والزمار والجنك ؛ وانظر فيما يتعلق بالإيقاع الموسيقى ودرجاته والرقص وأنواعه وشمائله والصفات المحمودة من الراقص فى طباعه وخلقه وعمله مروج الذهب ج ٨ ص ١٠٠ وما بعدها . وكان الرقص يسمى بأسماء الموسيقى من خفيف ورمل وهزج وخفيف الثقيل الأول أحياناً أو يسمى بأسماء خاصة من نحو رقص الحجل أو رقص الكرة ونحوها أحياناً أخرى .

(٤) كتاب الوزراء ص ١٩٣ ، وكان ذلك حوالى عام ٣٠٠ هـ .

(٥) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٤٤٣ — ٤٤٤ .

وكان فى المجلس كاتب من كتاب طاهر بن الحسين يُكنى أبا زيد ، وكان قد بعثه فى بعض أموره ، فطرب أبو زيد ، فأخذ بطرف ثوب إبراهيم[١] فقبّله ، فنظر إليه المأمون كالمنكر لما فعل ، فقال له أبو زيد : ما تنظر ! أقبله والله ولو قتلت ، فتبسم المأمون[٢] . وفى أواسط القرن الثالث الهجرى نزل عبيد الله بن طاهر عند المعتز فأراه أشياء عجيبة منها أنه أسمعه غناء سارية وزمر زنام الزامر ؛ وأدخله إلى شباك ، وأمر أن يجمع بين السبع والفيل فرأى تواثبهما ، ثم سأله أى أطرف فيما رأى ، فقال : غناء سارية ، وكان عبيد الله نفسه مما يحسن الشعر[٣] ، ويحكى أنه اشتريت من بغداد جارية رائعة الحسن والغناء للأمير تميم بن المعز لدين الله بمصر (توفى تميم عام ٣٦٨ هـ — ٩٧٨ م) فغنت له ولجلسائه فأطربته ، ولم يزل غناؤها يزيده طرباً حتى أفرط جدا فقال لها : تمنّى ما شئت فلك مناك ، فقالت : أتمنى عافية الأمير وبقاءه ، فأعاد عليها ، فتمنت أن تغنى ما غنت ببغداد ، فلم يجد الأمير بدا من الوفاء لها وأرسلها إلى بغداد ، فلما فارقتها أقلقت ممن أرسلت معهم ، وبقى الأمير بمصر ذاكراً لها واجداً عليها[٤] . وثمّ حكايات كثيرة من هذا القبيل . وكان يعترى البعض عند سماعه الغناء تأثر شديد ، فكان أحدهم يمزق ثيابه ، ويدقّ الحائط برأسه ، ومنهم من كان يتمرّغ فى التراب ، ويهيج ويزبد ويعض بنانه ، ويركل برجله ، ويلطم وجهه[٥] . وكانت تذكر على الشراب وتستحسن الحكايات

---

(١) كان إبراهيم ممن رُشح للخلافة وخرج على المأمون فقبض عليه .

(٢) كتاب بغداد لطيفور ص ١٩٢ .

(٣) كتاب الديارات الشابشتى ص ٤٤ ا — ب .

(٤) المنتظم لابن الجوزى ص ١١٤ ا — ب .

(٥) حكاية أبى القاسم ص ٧٨ وما بعدها ، يقول ستندهال : إن الغناء الحقيق فى جمال الموسيقى ؛ وهو مضحك نادر فى فرنسا أو يعتبر فى العادة ضربا من الادعاء ، يشاهده الإنسان كثيرا فى إيطاليا ، فلما كنت معسكراً بمدينة بريشيا قدمت لرجل يعتبر أكثر أهل المكان تأثراً بالموسيقى ، وهو رقيق جدا وعظيم الأدب ، ولكنه كان إذا حضر حفلة

القصيرة من النوادر الهزلية والأحاديث التى تتجلى فيها اللباقة العقلية . فيحكى عن طاهر ذى اليمينين (حوالى عام ٢٠٠ هـ) أنه كان إذا تغدّى مع أصحابه وخرج عن حد الجدّ بسطوا فى أخبار العامة وما يحسن من الهزل[1] . أما الحكايات الطوال التى يغنى باقتصاصها زمان المجلس ، وتتعلق بها النفوس ، وتحبس على أواخرها الكؤوس ، فكان ينبغى التنكب عنها لأنها بمجالس القصاص أولى منها بمجالس الخواص[2] . يقول ابن المعتز[3] :

ونداماى فى شباب وحسن   أتلفت مالهم نفوس كرام
بين أقداحهم حديث قصير   هو سحر وما سواه كلام
وكأن السقاة بين الندامى   ألفات على سطور قيام

وكان البعض يؤثرون هذه اللذة — لذة محادثة الرجال — إيثاراً شديداً ، فيحكى عن فَنَن — وكانت جارية من آدب الجوارى فى زمانها — أنها سألت مسلماً المعروف بالمتيّم : أى الأمور عنده ألذ وأشهى ، لمحادثة الرجال أم استماع الغناء أم الخلوة بالنساء ، فقال : محادثة الرجال[4] . ويقول المسعودى : قالوا فى المثل : الحديث ذو شجون . يريدون بذلك تشعّبه وتفرّعه عن أصل واحد إلى وجوه من المعانى كثيرة إذ كان العيش كله فى الجليس الممتع[5] . وقال الأخشيد مرة للشاعر سعيد المعروف بقاضى البقر : حدثنى بحديث صغير .... صغير بطول

= موسيقية وأخذ منه الطرب إلى درجة ما ، خلع نعله من غير أن يشعر ، فإذا وصل الموسيقيون إلى قطعة بالغة الجمال لم يغفل قط عن رمى نعليه وراءه على السامعين . ورأيت فى بولندة أشح الناس يرمى ماله إلى الأرض إذا بلغت منه الموسيقى مبلغها (Stendhal, vie de Rossini, p. 18)

(١) كتاب بغداد لطيفور ص ١٠٨ .

(٢) أدب النديم لكشاجم ص ٤٣ ا ؛ ومروج الذهب للمسعودى ج ٦ ص ١٣٢ — ١٣٣ . (٣) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦٣ .

(٤) أدب النديم لكشاجم ص ٤٠ ا — ب

(٥) مروج الذهب ج ٦ ص ١٣١ — ١٣٢ .

الإصبع[١] ، فهو مشتاق للحديث كأنه طفل صغير . وكان الأدباء — من له ملكة شعرية ومن ليس له — يرتجلون القصائد القصيرة فى وصف الزهر وآنية الشراب الجميلة والمغنين والمغنيات والسماء ، ويُحكى أنه أُحضرت فى مجلس لأصحاب الشاعر الكبير أبى الطيب صورة دمية تدور حول نفسها وقد رفعت أحد ساقيها وأمسكت بيديها باقة زهر ، فكانت كلما أدارت وجهها نحو أحدهم شرب على ذلك ثم دفعها لتدور ، وكان المتنبي كلما جاء دوره يقول فيها بعض الشعر[٢] .

وكان شرب النبيذ مقللاً لانتشار المخدرات الأخرى ، فالكلام فى تناول الحشيش لم يظهر فى مؤلفات الفقهاء إلا فى القرن الثالث الهجرى ، وقد حرّمه الشافعيـة وأباحه الحنفية[٣] ؛ ولا نجد له ذكراً فى الحكايات المأثورة من القرن الرابع . ويدل تاريخ الحشاشين على أن تناول الحشيش كان يعتبر شيئاً جديداً كل الجدة عند العامة ، أما الشاى الصينى فلم يكن قد استعمل للشراب فى ذلك العصر ، وإن كان أحد الرحالين قد حكى فى وصفه للصين فى كتاب كتبه حوالى عام ٢٣٧ هـ — ٨٥١ م أن الشاى كانت تدفع عليه المكوس كغيره من الأشياء[٤] .

ولا نجد أن التدخين بأى نوع من أنواعه كان من أنواع اللذات ، ولكن كان الطين يمضغ (انظر الفصل الخاص بالحاصلات) . ويحكى المسعودى فى أوائل القرن الرابع الهجرى أنه كان يأتى من الهند ورق التانبتول ليمضغ ، وأنه فى ذلك العصر غلب مضغه على أهل مكة وغيرهم من الحجاز واليمن بدلا من الطين[٥] .

وكان الماء المثلَّج أكبر لذة للناس فى فصل الصيف ، ويحكَى أنه لما ولى

---

(١) المغرب لابن سعيد ص ٣٣ . (٢) ديوان المتنبي ص ٦٦٠ وما بعدها .
(٣) الخلاصة للعاملي ص ١٨٦ . (٤) سلسلة التواريخ طبعة رينو ص ٤١ ، ولم يكن قد استعمل فى الصين قبل ذلك بزمن طويل ، وأول ما فرضت عليه الرسوم كان عام ٧٩٣ م (Pfizmaier, SWA, 67, 422) .
(٥) مروج الذهب ج ٢ ص ٨٤ .

ابن الفرات الوزارة ، وكان اليوم الذى خُلع عليه فيه شديد الحرّ ، سقى فى داره أربعون ألف رطل من الثلج فى يوم وليلة(١) . وكان الكبراء يحملون الثلج فى حرّاقاتهم(٢) . وكان الثلج يحمل من الشام إلى قصر كافور الأخشيدى بمصر ليستعمل فى تبريد المشروبات(٣) . وكان يدخل إلى دار ابن عمار الوصى على الحاكم بأمر الله والوسيط بينه وبين الناس نصف حمل ثلجاً فى كل يوم ، وذلك فى أواخر القرن الرابع الهجرى(٤) . أما فى مكة(٥) والبصرة فلم يكن الثلج ميسوراً . يقول أبو إسحاق الصابى :

لهف نفسى على المقام ببغدا ... د وشربى من ماء كوز بثلج
نحن بالبصرة الذميمة نُسقى ... شر سقيا من مائها الأترجّى
أصفر منكر ثقيل غليظ ... خاثر مثل حقنة القولنج
كيف نرضى بشربه وبخير ... منه فى كُنف أرضنا نستنجى(٦)

وقد حكى التنوخى حكاية جماعة من الكتاب كانوا قاصدين مصر للتصرّف ، فلما وصلوا دمشق أقبلوا يخترقون الطرق لا يدرون أين ينزلون ، حتى اجتازوا برجل شاب حسن الوجه جالس على باب دار شاهقة وبناء فسيح ، وبين يديه غلمان ، فدعاهم إلى النزول عنده وألح عليهم ، فاستحوا من حسن ظاهره وهيئته وقبلوا الدعوة ، فأكرمهم إكراماً كثيراً فى بابه ، وضيّفهم بضروب من الإضافة تذكر لغرابتها ، فأقبل غلمان هذا الرجل وحملوا متاع الكتاب ولم يدعوا غلمانهم يخدمونهم ،

(١) هروب ص ٦١ . (٢) المحاسن والمساوئ للبيهقى ص ٤٤٧ .
(٣) مطالع البدور للغزولى ج ٢ ص ٧١ .
(٤) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٣٦ . (٥) كتاب الفرج بعد الشدة .
(٦) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٤٧ ، ويقول ابن الأثير (ج ٩ ص ١٦) أن السلطان عضد الدولة منع من عمل الثلج والقز وجعلهما متجرا الخاص ، أليس يجوز أن [illegible] النص مصحفين كلمة ثلج بكلمة ملح ؟

وأحضروا لهم الطسوت والأباريق نغسلوا وجوههم ، ثم أجلسوهم فى مجلس حسن مفروش بأنواع الفرش ، وإذا الدار فى نهاية الحسن ، ثم عرض عليهم الحمام فدخلوه ، ودخل معهم غلمان مُرْد وصبيان فى نهاية الحسن ، نخدموهم بدلا من القيّم ، ثم خرجوا إلى مجلس آخر ، وقدمت إليهم مائدة حسنة عليها خير ألوان الطعام فأكلوا ، ثم دخل إليهم غلامان أمردان فى نهاية الحسن فغمزوا أرجلهم ، حتى لحقهم من ذلك مع الغربة وطول العهد بالجماع عنت ، فأمروهم بالانصراف ، وتعففوا عن التعرض لهم لنزولهم على صاحبهم . ثم أخذوا إلى مجلس فى بستان حسن ، وأحضرت الأنبذة الطيبة ، فشربوا أقداحا يسيرة ، ثم ضرب صاحب الدار بيده على ستارة ممدودة ، وإذا جوارٍ خلفها ، فأمرهن بالغناء فغنّين أحسن غناء ، فلما توسطوا الشراب قال صاحب الدار للجوازى : « ما هذا الاحتشام لأضيافنا أعزهم الله ! أخْرُجْنَ » ، وهتك الستارة ، فخرج عليهم جوارٍ لم يُرَ قط أحسن ولا أملح ولا أظرف منهن ، ما بين عوّادة وطنبورية وزامرة وصنّاجة ورقاصة ودفّافة بفاخر الثياب والحلى ، وأحطن بالضيوف ، فاشتدت محبتهم لهن ، ولكنهم ضبطوا أنفسهم ، فلما كادوا أن يسكروا ومضى بعض الليل أقبل عليهم صاحب الدار وقال : يا سادة ! إن تمام الضيافة وحقها الوفاء بشرطها ، وأن يقوم المضيف بحق الضيف فى جميع ما يحتاج إليه من طعام وشراب وجماع ، وقد أنفذت إليكم نصف النهار الغلمان فأخبرونى بعفافكم عنهم ، فقلت : هم أصحاب نساء ، فأخرجت هؤلاء ، فرأيت من انقباضكم عن ممازحتهن ما لو خلوتم بهن كانت الصورة واحدة ، فما هذا ؟ فقالوا : يا سيدى أجللناك عن تبذل ما فى دارك ، وفينا من لا يستحل الحرام ، فقال : هؤلاء مماليكى ، وهن أحرار لوجه الله تعالى ، وإن كان لابد من أن يأخذ كل واحد منكم بيد واحدة ويتمتع بها ليلة ، فمن شاء زوجته بها ومن شاء غير ذلك فهو أبصر ، لأكون قد قضيت حق الضيافة ، فلما سمعوا ذلك ،

وقد انتشوا طربا ، أخذ كل واحد منهم بيد واحدة وأجلسها إلى جانبه ، وأقبل يقبلها ويقرصها ويمازحها ، فمنهم من تزوّج ومنهم من لم يفعل ، وجلس معهم ساعة ثم نهض ، فإذا بخدم قد جاءوا فأدخلوا كل واحد وصاحبته إلى بيت في نهاية الحسن مفروش بفاخر الفرش وتركوا معهما ما يحتاجان إليه فباتا في أرغد عيش ، فلما جاء الصباح جاء الخدم وعرضوا عليهم الحمام ، فدخلوه ودخل معهم المردان ، فمنهم من أطلق نفسه معهم فيما كان امتنع منه بالأمس ، وخرجوا فبُخروا بالندّ وأعطوا الماورد والمسك والكافور ، وكذلك كان حال غلمان الضيوف كحال سادتهم ، ذلك أنهم قدمت إليهم الجوارى الروميات فوطئوهن ، وأقبل بعضهم على بعض يقص حكايته حتى حسبوا أنفسهم في منام لا في يقظة ، فأقبل عليهم صاحب الدار وسألهم عن ليلتهم فوصفوها فسألهم : أيما أحب إليكم الركوب إلى بعض البساتين للتفرج حتى يجيء وقت الطعام أو اللعب بالشطرنج والنرد أو النظر في الدفاتر ؟ فاشتغل كل منهم بما أحب ، ثم أحضرت لهم مائدة كمائدة الأمس ، فأكلوا ، ثم تكرر ما حدث بالأمس من أمر المردان والجوارى ، وقد زال الاحتشام ودام أصحابنا على هذه الحالة أسبوعا[1] .

وكان الفقهاء في البداية لا يجيزون لعب الشطرنج ، ثم تساهلوا في أمره ، ويُذكر أن من رشيق فتاوى سهل بن أبي سهل مفتي نيسابور المتوفى عام ٤٠٤ هـ — ١٠١٣ م في الشطرنج : إذا سلم المال من الخسران ، والصلاة عن النسيان ، فذلك أنس بين الخلان[2] . وكان الصولى حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م

---

(١) ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى على هامش المستطرف طبعة مصر ١٣٠٨ هـ ج ٢ ص ٢٦٣ — ٢٦٩ .

(٢) طبقات السبكى ج ٣ ص ١٧٢ ؛ وسئل أبو العباس شريح عن الشطرنج ، فقال : إذا سلمت أيديهما من الطغيان ، ولسانهما من العدوان ، وصلواتهما من النسيان ، فهو مباح بين الإخوان ، غير محرم على الخلان — محاضرات الأدباء ج ١ ص ٤٤٧ .

أحسن لاعب للشطرنج ، وقد مهّد له ذلك دخول دار الخلافة[١] وكان من الشطرنج نوع يُلعب فى قصر الخليفة المعتضد حوالى آخر القرن الثالث الهجرى يسمى اللعب بالجوارح أو الجوارحية ؛ فيه كل حاسة من حواس الإنسان تناقس الأخرى[٢] ، ولم يكن جلوس اللاعبين صامتين بعضهم إلى جانب بعض من عادات العرب ، وكان العربى القح يشعر بما فى ذلك من غرابة عن طباعه ، ويحكى أن أهل المدينة كانوا لا يزوّجون لاعب الشطرنج ، وقال العرب إنما وضع الشطرنج للعجم الذين لا علم لهم ؛ لأنهم كانوا إذا اجتمعوا تلاحظوا تلاحظ البقر فجعلوا لعب الشطرنج مشغلة[٣] . أما العرب فكان أعظم شىء عندهم الموسيقى والإيقاع مع الغناء إلى جانب ما امتازوا به من الأمثال والنوادر اللطيفة والعبارات البليغة ، ويحكى عن الخليفة المأمون بعد قدومه من خراسان وارتقائه عرش الخلافة أنه اشتهى الشطرنج ، فاستحضر كبار أهله ، فكانوا يتوقّرون بين يديْه حتى ضاق بذلك وقال : إن الشطرنج لا يُلعب مع الهيبة ؛ قولوا ما تقولون إذا خلوتم[٤] . ونوادر الشطرنج التى وردت فى كتاب حكاية أبى القاسم مأخوذة من مجالس الشطرنج[٥] ، وكان الغالب فى لعب الشطرنج يتطلع إلى شىء من المتاع كأن تُعمل بعده أكلة طيبة[٦] ؛ أما النرد ، وهو يُلعب على رقعة بها اثنا عشر أو أربعة

---

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٣١١ ؛ وكان الشطرنج يلعب على ورقة مربعة حمراء من أدم (مروج الذهب ج ٨ ص ٣١٦ ؛ وكتاب بغداد لطيفور ص ٢٩٣) ، ويذكر المسعودى فى مروج (ج ٨ ص ٣١٣ وما بعدها) آلات الشطرنج على اختلاف هيئاتها ، فيذكر إلى جانب الآلة المربعة المشهورة عندنا آلة مستطيلة وآلة مدورة منسوبة إلى الروم ، وأخرى تسمى النجومية أو الفلكية وأبياتها اثنا عشر على عدد بروج الفلك ؛ فيها ينقل سبعة أمثلة مختلفة الألوان على عدد الخمسة الأنجم والنيرين وعلى ألوانها ، وهذا ما يقوله المسعودى عام ٣٣٢ هـ .

(٢) مروج الذهب ج ٨ ص ٣١٤ ، والفهرست ص ١٣١ .

(٣) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٤٤٨ . (٤) نفس المصدر ص ٤٤٩ .

(٥) حكاية أبى القاسم ص ٩٣ وما بعدها .

(٦) كتاب الديارات ص ٣٥ ب .

وعشرون منزلا بثلاثين حجراً وفصَّين ، فكان لعبة تدور على الصدفة والاتفاق .
وشبّه بعض الحكماء رقعة النرد بالأرض الممهّدة لساكنها ، ومنازل الرقعة ، وهى أربعة وعشرون ، بساعات الليل والنهار ، وبيادتها وهى ثلاثون بعدد أيام الشهر ، واختلاف ألوانها باختلاف بياض النهار وسواد الليل ، ومنازلها الأربع بالطبائع الأربع ، وهكذا ، وشبّه ما يخرج من الفصين إذا رمى بهما بالقضاء الجارى على العباد ؛ ولهذا ظل أهل الورع ساخطين عليه ، ويسميه أبو الليث السمرقندى « عمل الشيطان » هو وسباق الحير والصيد بالكلاب ومهارشة الكباش والديوك .
وكان النرد يلعب ابتغاء الكسب صراحة ، فيحكى أن رجلا لاعب آخر فغلبه ، فأخذ منه عشرين ديناراً . ويحكى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سابق بين الخيل ، وروى عنه عليه السلام فى روايات كثيرة أنه قال : لا تحضر الملائكة من اللهو شيئاً إلا ثلاثة : لهو الرجل مع امرأته ، وإجراء الخيل ، والنضال .
غير أن الفقهاء اشترطوا فى هذه الرياضة التى أباحوها وهى مسابقة الخيل ألا تُلعب طلباً للمال ، وكان سباق الخيل كثيراً بمصر ، وبلغ من شغف الناس به وتقديرهم له أن السابق كان يأخذ حصان المسبوق ؛ وذلك عام ١٩٠هـ — ٩٠٦م ، وتولى على مصر يزيد بن عبد الله التركى عام ٢٤٢هـ — ٨٥٦م ، وكان متشدداً فعطّل الرهان ، وأمر ببيع الخيل التى كانت تُتّخذ للسلطان[1] ؛ وكانت هذه الخيل يُنفق عليها من مال الدولة على العادة الجارية قبل الإسلام ؛ ولكن الخيل جرت من جديد عام ٢٤٩هـ — ٨٦٣م[2] . وكانت حلبة السباق فى أيام خمارويه تقوم مقام الأعياد[3] . وفى عام ٣٢٤هـ شرع الأخشيد فى إجراء حلبة السباق

---

(١) الولاة للكندى ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ . (٣) نفس المصدر ص ٢٠٤ .
(٢) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٠٨ .

على رسم أحمد بن طولون[١] ، ويذكر المسعودي أن لعيسى بن لهيعة المصري كتاباً يسمى كتاب الجلائب والحلائب ذكر فيه كل حلبة أجريت في الجاهلية والإسلام[٢].

وكان الناس مولعين بسباق الحمام رغم إنكار الفقهاء له[٣] ، وكان منتشراً في مصر ، وزاد كثيراً في القرن الخامس الهجري . ويُحكى عن الخليفة المعز أنه سابق بحمامه حمامَ الوزير أبي الفرج يعقوب ، فسبق حمامُه حمامَ الخليفة ، فعظم ذلك على المعز[٤] ، وكذلك كان البعض يحارش بين الكباش والديوك والكلاب[٥] وكان عند سبكتكين التركي قائد جيوش السلطان معز الدولة كبش قوي النطاح وقد ذكره ابن الحجاج في شعره ، وتمنى لو ترك لينطح زوجاً كريه الصورة لمغنية كان متعلقاً بها[٦] . وكان بعض الناس يلعبون بالسمان[٧] بل نجد الناس اليوم مولعين بالمهارشة بين هذا الطير في تركستان ولعاً شديداً ، حتى إن رجلا يملك هذه الطيور صار رجلا ذا شأن بتلك البلاد ، وقد استطاع أن يفوز بحياة رغدة بالمهارشة بين طيوره[٨] . وكان القمار أكثر ما يلعب بفصي النرد[٩] ، وقد شغف الناس بذلك رغم تحريم القرآن للقمار . بل يُحكى من أخبار عصر النبي عليه السلام أن أبا لهب قامر العاصي بن هشام فقمره حتى أخرجه من ماله ، ثم عرض عليه العاصي أن يقامره فأيهما قمر كان عبداً لصاحبه[١٠] . ورُوى عن ابن جامع

(١) المغرب لابن سعيد ص ١٨ .

(٢) مروج الذهب ج ٤ ص ٢٥ .

(٣) Goldziher, AFR, VII, p. 422.

(٤) مطالع البدور للغزولي ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٥) كتاب بغداد لطيفور ص ٣٨ أ ، والتذكرة الحمدونية مخطوط باريس رقم ٣٣٢٤ ص ٢٥ أ ، ومروج الذهب ج ٨ ص ٢٣٠ ، ٣٧٩ .

(٦) ديوان ابن الحجاج مخطوط بغداد ص ١٤١ .

(٧) مروج الذهب ج ٨ ص ٣٧٩ .

(٨) V. Schwarz, Turkestan, S. 290.

(٩) انظر مثلا كتاب بغداد لطيفور ص ٣٨ أ .

(١٠) الأغاني ج ٣ ص ١٠٠

المغنى فى عصر الرشيد أنه قال : « لولا أن القمار وحب الكلاب شغلانى لتركت المغنين لا يأكلون الخبز[1] . ويحكى عن الشريف الرضى فى أواخر القرن الرابع الهجرى أنه عاقب أحد العلويين وأفرط فى معاقبته لأنه كان يقامر بما يتحصل له من حرفة يعانيها ويترك أطفاله محتاجين[2] . وكانت مراقبة دور القمار ومنعها من جملة المهام التى يقوم بها المحتسب[3] . وكان بمصر شيوخ يسمون المطمِّعين ؛ لهم جراية من دور القمار ليجلبوا الناس إليها ويطمعونهم فى اللعب . وقد حكى ابن سعيد : أن الأخشيد فى وقت من الأوقات أمر بهدم المواخير ودور المقامرين والقبض عليهم فأُخذوا ، وأُدخل عليه جماعة منهم وعرضوا عليه وفيهم شيخ له هيئة ، فقال : هذا الشيخ مقامر ؟ فقالوا : هذا يقال له المطمع ، فقال الأخشيد : وإيش المطمع ؟ قالوا : هو سبب عمارة دار القمار ، وذلك أن الواحد إذا قُمر ما معه ، قال له : العب على ردائك ، فلعلك تغلب ، فإذا ذهب رداؤه قال له : إلعب على قميصك حتى تغلب به كل شىء ، حتى يبلغ إلى نعليه ، وربما اقترض له ، ولهذا الشيخ جراية يأخذها على ذلك كل يوم من متقبل دار القمار ، فضحك الأخشيد وقال : يا شيخ ! تُبْ إلى الله وحده من هذا ؛ فتاب وأمر له الأخشيد بثوب ورداء وألف درهم ، وقال يجرى عليه فى كل شهر عشرة دنانير ، فانصرف الشيخ شاكراً داعياً فقال : ردّوه ، وقال : خذوا ما أعطيناه وابطحوه فضربه مائتى عصا ثم قال : خلوه ، أين هذا من تطميعك[4] ؟

أما الرياضة التى كان أكثر ما يشتغل بها الكبراء والوزراء فكانت اللعب بالصوالجة ، كما هو الحال عندنا اليوم ، واللعب بالصوالجة هو ضرب كرة من على

---

(١) نفس المصدر ج ٦ ص ٧٠ . (٢) ديوان الشريف الرضى ص ٣ من المقدمة .

(٣) الأحكام السلطانية للماوردى طبعة أنجر ص ٤٠٤ .

(٤) المغرب لابن سعيد ص ٣٠ .

ظهور الخيل وأصلها فارسي[١] . وكان الخلفاء يلعبون بالصوالجة في ميادين خاصة في قصورهم[٢] . ويحكى أنه في سنة ٢٦٣ ﻫ دخل الوزير أبو الحسين عبد الله بن يحيى بن خاقان التركى ميداناً في داره يوم الجمعة ليضرب الصوالجة ؛ فركب ولعب فصدمه خادمه وسقط من على دابته ميتاً[٣] . وكان اللاعبون بعد الفراغ من لعبهم يدخلون الحمام الساخن ويدلكون[٤] . ومن إجادة الضرب بالصوالجة ؛ أن يضرب اللاعب الكرة ضربة خلسة ، ويكون ضربه متشازراً مترفقاً مترسلا ، وأن يتوخى الضرب للكرة تحت حزم الدابة من قبل ليها في رفق ، وألا يستعين بسوط ، وألا يؤثر في الأرض بالصولجان أو يكسره أو يعقر قوائم دابته ، وعليه أن يحترس من إيذاء من جرى معه في الميدان ، وأن يحسن الكف للدابة في شدة جريانه ، متوقياً من الصرعة والصدمة في تلك الحال ، وأن يجانب الغضب ويتحفظ من إلقاء كرة على ظهر بيت ، وإن كان ست كرين بدرهم ، وأن يتجنب طرد النظارة والجالسين على حيطان الميدان ، لأن غرض الميدان إنما جعل ستين ذراعاً لئلا يحال ولا يصال من جلس على حائطه[٥] . أما الديلم فكانوا شعباً جبليا ، فآثروا الرياضة البدنية البسيطة ، فيحكى أن معز الدولة لما جاء إلى بغداد اشتهى رؤية الصراع ؛ فكان يعمل بحضرته حلقة في ميدان ، فتقام شجرة وتجعل عليها ثياب الديبلج والمروى ونحوها ، وتوضع تحتها أكياس فيها دراهم ، ويقف

(١) يجد القارئ وصفا حسنا لهذه اللعبة كتبه أحد مؤرخي الروم وذلك في كتاب كاترمير Quatremère, Hist. des Mameloucs I, p. 11 f.

(٢) كتاب الوزراء ص ١٣٨ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٨ من طبعة ليدن ، وفي عام ٣١٥ ﻫ — ٩٢٧ م سقط أسفار بن شيرويه والى جرجان من على دابته وهو يلعب الكرة فمات (زبدة الفكرة ص ٢٠٣ ب) .

(٤) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٣٢٧ .

(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة طبعة بروكلمان ص ١٦٦ — ١٦٧ ، نقلا عن كتاب العيون والحدائق .

على سور الميدان أصحاب الطبول والزمور ، وعلى الباب أصحاب الدبادب، ثم يؤذن للعامة فى دخول الميدان ، فمن غلب أخذ الثياب والشجرة والدراهم ؛ ثم دخل فى ذلك أحداث بغداد حتى صار بكل موضع صراع ، فإذا برع أحدهم صارع بحضرة معز الدولة ، فإن غلب أجريت عليه الجرايات ؛ فكم من عين ذهبت بلطمة وكم من رجل اندقت . وشغف شبان معز الدولة بالسباحة فتعاطاها أهل بغداد حتى أحدثوا فيها الطرائف ، فكان الشاب يسبح قائماً وعلى يده كانون فوقه حطب يستعمل تحت قدر إلى أن ينضج ؛ ثم يأكل من القدر إلى أن يصل دار السلطان[1] .

على أنه بالرغم من كل هذه الرياضات بقى الصيد محتفظا بكل ماله من شأن ، بل ظهرت فى تمجيده قصائد خاصة[2] ، إلا أن معظمها يدور حول مدح كلاب الصيد ووصفها ، وكان أشهر الوحوش الضارية هو الأسد ، ولم تكن السباع فى ذلك العصر نادرة بالشام ، ولا على شواطئ نهرى الدجلة والفرات ؛ بل كانت أحيانا تدنو قريباً جدا من بغداد ، حتى يحكى أنه فى عام ٣٣١ هـ — ٩٤٣ م خرج الخليفة المتقى إلى الشماسية بجوار بغداد لصيد السباع[3] . ويحكى عن خمارويه صاحب مصر أنه كان لايسمع بأسد إلا بحث فى طلبه[4] . وكانت قصص السباع وصيدها تحتل مكانا كبيراً من أحاديث التسلية[5] . وكانت إذا اختفت آثار رجل فى طريق فأول ما يتبادر إلى الذهن أن يقال أكله الأسد[6] . كان بقصر الخليفة

(١) المنتظم لابن الجوزى ص ٥٧٣ — ٧٤ ا .

(٢) تسمى قصائد الصيد بالقصائد الطردية ، ولم تستعمل كلمة طرد فى معنى الصيد إلا عند المتأخرين ، ويقول (Lane) إن أول من استعملها الزمخشرى ، وأصلها شامى ، وكان أهل غرب الشام يستعملون كلمة طارد بدلا من كلمة صاد . انظر كتاب : Barhebraeus, Buch der Strahlen, S. 30 (ترجمة موبرج Moberg)

(٣) المنتظم لابن الجوزى ص ٧١ ا ؛ وفيما يتعلق بالشام راجع قصائد المتنبى فى الصيد .

(٤) الخطط ص ٣١٦ . (٥) الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٧٠ وما بعدها .

(٦) رسائل أبى العلاء طبعة مرجليوث ص ٢٦ .

بسامرا على عهد المعتصم مكان يُحفظ به الحيوان ، وهو يسمى حير الوحش[١]
ويحكى عن المعتز حوالى منتصف القرن الثالث الهجري أنه أطلع عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وقد نزل ضيفا عنده عراكا بين أسد وفيل ، وكان ذلك أحد العجائب التى أطلعه عليها[٢]. ولكن حب الاطلاع على غرائب الحيوان زاد حتى صار اهتماما كبيراً به ، فيُحكى عن خمارويه بن أحمد بن طولون أنه بنى فى داره الكبيرة موضعاً للسباع ، وعمل فيه بيوتا ، كل بيت لسبع لا يسع غير السبع ولبؤته[٣].
وكان فى قصر الخليفة المقتدر ببغداد حوالي عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م دار بها قطعان من أصناف الوحش[٤]، وصار يرسل إليها كل غريب من الحيوان من جميع البلاد.
وكان جعفر بن الفضل بن الفرات الوزير بمصر المعروف بابن خنزابة المتوفى عام ٣٩١ هـ يهوى النظر إلى الأفاعى والحيات والعقارب وما يجرى مجراها من الحشرات ، وكان فى داره قاعة لطيفة مرخمة فيها سلل الحيّات ، ولها قيّم فراش حاوٍ من الحواة ومعه مستخدمون ، وكان كل حاو فى مصر وأعمالها يصيد له ما يقدر عليه ، وكان الوزير يثيبهم ويبذل لهم الجزيل حتى يجتهدوا فى تحصيلها ، وذات يوم انساب إلى دار ابن المدبر الكاتب — وكان يسكن إلى جوار الوزير — الحيّة البتراء وذات القرنين الكبرى والعقربان الكبير وأبو صوفة ، فكتب إليه أن يأمر حاشيته وصبيته بعون ما يوجد منها إلى أن ينفذ الحواة لأخذها ، فلما وقف ابن المدبر على ما فى الخطاب قلبه وكتب فى ذيله : أتانى أمر مولانا الوزير أدام الله نعمته وحرس مدته بما أشار به فى أمر الحشرات ، والذى يعتمد عليه فى ذلك أن الطلاق يلزمنى ثلاثا إن بت أنا او أحد من أولادي فى الدار والسلام[٥].

---

(١) الأغانى ج ١٠ ص ١٢٠ .　　(٢) كتاب الديارات ص ٢٤ ب .
(٣) النجوم الزاهرة ٣ ص ٦٠　　(٤) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٥٣ .
(٥) ٤٠٩ — ٤١٠ ، الخطط ص ٣١٦ .

وكان اللعب بالخيال معروفا ، فكان لأحد طباخي المأمون ابن يسمى عبادة ، وكان من أطيب الناس ، وأخفهم روحا وأحضرهم نادرة ، قال له دعبل يوما : والله لأهجونك ، قال : والله لئن فعلت لأخرجن أمك في الخيال [١] . وكذلك كان الناس بمصر يخرجون في بعض الأعياد ، ويطوفون الشوارع بالخيال والتماثيل والسماجات [٢] وكان ثم مقلدون بالمعنى الصحيح أيضاً ، وكان يسمى الحاكية ، وكان التقليد والمحاكاة يعتبران فنين جديرين بالعناية ؛ فكان ببغداد رجل يعرف بابن المغازلي يقف على الطريق ويقص على الناس أنواع الأخبار والنوادر المضحكة ، وكان في نهاية الحذق يقلد كل طوائف الناس ؛ فلا يدع حكاية أعرابي أو نجدي أو نبطي أو زطي أو زنجي أو سندي أو تركي أو خادم إلا حكاها ، وكان يخلط ذلك بنوادر تضحك الثكول وتصبي الحليم ، وقد سمع المعتضد بنوادره فأعجب بها وأمر بإحضاره بين يديه [٣] . وفي القرن الرابع الهجري كان أبو الورد من عجائب الدنيا في الطايبة والمحاكاة ، وكان يخدم الوزير المهلبي ، ويحكي شمائل الناس وألسنتهم فيؤديها كما هي فيعجب الناظر والسامع ويضحك الثكلان [٤] . وفي القرن الخامس الهجري نجد محمد بن أحمد أبا المطهر الأزدي يؤلف كتابا سماه حكاية أبي القاسم البغدادي جعل فيه مثل هذه المحاكاة والتمثيل موضوعا للأدب ، وجعل ذلك وسيلة لوصف أخلاق عامة بغداد وكلامهم القبيح ، وكل ذلك في شخص أبي القاسم هذا [٥] . ويذكر لنا الرحالة فون فيردى V. Werde أنه شاهد

(١) كتاب الديارات ص ٨١ أ .

(٢) الخطط ج ١ ص ٢٠٧ نقلا عن المسبحي المتوفى عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م .

(٣) مروج الذهب ج ٨ ص ١٦١ وما بعدها ، وقد أضيفت هذه القصة في المستطرف (ج ٢ ص ٢٠٣) إلى شخصية أكثر جاذبية هي شخصية الرشيد . وتكلم عن الحاكية الجاحظ في البيان والتبيين (ج ١ ص ٣١) والثعالبي في ثمار القلوب ZDMG, V .

(٤) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٤٢ ، وكتاب ثمار القلوب ZDMG, V .

(٥) نشر حكاية أبي القاسم متز Mez مؤلف هذا الكتاب .

بحضرموت حاكياً هزليا يقلد أفعال الترك والبحريين بل الأعراب[١] ، ويحدثنا سخاو Sachau فى العصر الحديث عن رجل كهذا[٢] . وقد نجد أحيانا ذكر ما يسمى بالسماجات ، فهى تذكرنى مصر فى بعض الأعياد[٣] ، وفى بغداد فى يوم النيروز ، حيث كان أصحاب السماجات يلعبون بين يدى الخليفة وكل منهم متنكر بصورة منكرة[٤] .

---

(١) V. maltzan, II, S, 119

(٢) Esachau, Am Euphrat und Tigris, S. 655 f

(٣) الخطط ج ١ ص ٢٠٨ نقلا عن المسبحى .

(٤) كتاب الديارات للشابشتى ص ١٠ أ — ب وانظر الفصل الخاص بالأعياد .

الفصل الثانى والعشرون

أحوال المدن[1]

لانعرف عن القرن الرابع إلا تصنيفاً واحداً للمدن ، وهو لا يقوم على أساس سياسى ، ويفرق بين المدن على هذا النحو :

(١) الأمصار ، وهى البلاد التى يحلها السلطان ، وتجتمع فيها الدواوين ، وتقلّد منها الأعمال ، وتضاف إليها مدن الأقاليم .

(٢) القصبات ، وهى عواصم الأقاليم ، ومقامها من الأمصار مقام الحجاب من الملوك .

(٣) المدن أو المدائن ، وهى مايلى القصبة فى الأقاليم ، ومقامها مقام الجند .

(٤) النواحى مثل نهاوند وجزيرة ابن عمر .

(٥) القرى وهى الملحقة بالمدن ومقامها مقام الرجّالة[2] .

والعلامة التى تُعرف بها المدينة هى أن يكون بها مِنبَر ، وقد شدَّد الحنفية بنوع خاص فى أنه لا تقام الجمعة إلا فى الأمصار الجامعة التى تُقام فيها الحدود ، ولما كان رأى أصحاب أبى حنيفة هو الممثل عند الأمير ببخارى فلذلك كان ببلاد ما وراء النهر قرى كبار لايعوزها من رسوم المدن وآلاتها إلا الجامع[3] ؛ «وكم تعب

---

(١) ظهر هذا الفصل بعنوان : von der Muhammedanuschen Stadt im 4, Jahrhunderi فى مجلة ZABd. 27 (1912) S. 65 — 74 .

(٢) القدسى ص ٣٥ ، ٤٧ ، ورويت تقسيمات البلاد لوحظ فيها الخصال النفسية كقول الجاحظ : إن الأمصار عشرة ، الصناعة بالبصرة والفصاحة بالكوفة والخير ببغداد والغدر بالرى والحسد بهراة والجفاء بنيسابور والبخل بمرو والطرمذة بسمرقند والمروءة ببلخ والتجارة بمصر . (انظر تاريخ بغداد مخطوط باريس ص ١٥ آ) .

(٣) القدسى ص ٢٨٠ .

أهل بيكند حتى وضعوا بها المنبر ! » . وقد كان بفلسطين على ضيق رقعتها نحو خمسين منبراً(١) .

وكان من أثر تلك القيمة التى للمنبر ؛ أن الإنسان حتى فى المدن الكبرى كان يلزم مسجداً جامعاً واحداً لا يجد غيره(٢) . وكان ببغداد حوالى عام ٣٠٠ ﻫ نحو من سبعة وعشرين ألف مسجد(٣) ، ولكن صلاة الجمعة كانت لا تقام إلا فى المسجد الجامع ، وفى مسجد دار الخلافة — لعهد المعتضد حوالى عام ٢٨٠ ﻫ — وكان هذان المسجدان بطبيعة الحال يضيقان بمن يسعى إليهما من جموع المصلين ، حتى كانت الصفوف تمتد من المسجدين فى الشوارع حتى تنتهى إلى دجلة ؛ وكان المتباطئون فى السعى إلى الجمعة يدركون المصلين ، وقد ضاق الوقت والمكان ، فيصعدون من سميرياتهم ويفرشون بعض ما عليها ، وإذا قامت الصلاة نقل المكبّرون التكبير للناس عند الركوع والسجود والنهوض والقعود(٤) . وكان بالفسطاط أيضاً مسجدان للجمعة : المسجد الذى بناه عمرو بن العاص والمسجد الذى بناه أحمد بن طولون(٥) . أما البصرة فكان فيها فى القرن الثالث الهجرى سبعة آلاف مسجد ، وكان بها فى القرن الرابع ثلاثة جوامع(٦) . وهذا يبعث على الدهشة وذلك لتغير المعنى الإسلامى القديم للمدينة ، وتتلخص أهمية ذلك العصر فى أن الرسوم الإسلامية الأولى رقّت وتضاءلت فى جميع مظاهر الحياة ،

---

(١) الأصطخرى ص ٥٨ .

(٢) كان الشافعية بنوع خاص متشددين فى ذلك ؛ انظر حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١٥٥ .

(٣) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٧٦ حيث ذكر عدد الحمامات بدلا من عدد المساجد ، ويذكر اليعقوبى (كتاب الجغرافية ص ٢٥٠ ، ٢٥٤) أنه كان بالجانب الغربى من بغداد خمسة عشر ألف مسجد ، وبالجانب الشرقى ثلاثون ألفاً .

(٤) تاريخ بغداد مخطوط باريس ص ١١٥ . (٥) الأصطخرى ص ٤٩ .

(٦) جغرافية اليعقوبى ص ٣٦١ ، والمقدسى ص ١١٧ .

كما أنها تتلخص فى ظهور الرسوم الشرقيـة القديمة من جديد وبقائها بالإجمال على الصورة التى اتخذتها فى ذلك العهد . فنى القرن الرابع بدأ أولو الأمر فى جعل عدد المساجد ذات المنابر متمشياً مع حاجات الناس ومطالبهم ، فيذكر المقدسى أنه كان إلى جانب مسجد عمرو بن العاص ستة جوامع تقام فيها صـلاة الجمعة ، وأن الزحام كان يشتد فى جامع عمرو حتى تمتد الصفوف فى الأسواق على أكثر من ألف ذراع من الجامع ، وحتى تكون القياسير والمساجد الصغيرة والدكاكين حوله من كل جانب مملوءة بالمصلين[١] . وقد أحصى ناصر خسرو فى عام ٤٤٠ هـ غير هـذه المساجد السبعة أربعة أخرى فى القاهرة[٢] . أما فى بغداد فكان ازدياد عدد المساجد أبطأ سيراً ؛ فكانت الصـلاة لا تقام فى أول الأمر إلا فى مسجدى المدينـة والرصافة إلى وقت خلافة المعتضد ، فانه فى عام ٢٨٠ هـ جعل الناس يصلون فى دار الخلافة بقصر الحسنى على دجلة ، ولما جاء المكتفى أقام فى هذا المكان مسجداً جامعاً ؛ فاستقرت الصلاة فى المساجد الثلاثة حتى عام ٣٢٩ هـ ؛ وذلك أنه كان بالموضع المعروف ببراثا مسجد يجتمع فيه قوم من الشيعة رُفع للمقتدر أنهم يجتمعون على سب الصحابة والخروج على الطاعة فأمر بكبسه وأخذ من فيه ، ثم هُدم حتى سُوى بالأرض ، فأمر بجكم باعادة بنائه وإحكامه وتوسيعه ، وكتب فى صدره اسم الخليفة الراضى بالله ، ثم جُمّع فيه وصار أحد مساجد الحضرة . وفى سنة ٣٧٩ هـ وسع مسجد صغير بقطيعة أم جعفر فى الجانب الغربى بعد أن رأت امرأة فى المنام أنها ماتت وأن النبى عليه السلام صلى عليها فيه ووضع كفه فى حائط القبلة ، واستأذن أبو أحمد الموسوى الخليفة الطائع فى أن يجعله مسجداً يصلى فيه أيام الجمعة ، واحتج بأنه من وراء خندق يقطع بينه

---

(١) المقدسى ص ١٩٨ — ١٩٩ .

(٢) رحلة ناصر خسرو طبعة شيفر ص ١٤٥ .

و بين المدينة ، و يصير به ذلك الصقع بلداً آخر ، فأذن الخليفة فى ذلك . وفى سنة ٣٨٣ ﻫ ، جُمّع فى مسجد بناه أحد الهاشميين بالحربية ؛ وذلك بعد إباء من الخليفة المطيع و إذن من الخليفة القادر بعد استفتاء الفقهاء[١] . وفى القرن السادس الهجرى وجد ابن جبير أن المساجد التى يجمّع فيها ببغداد أحد عشر مسجداً ، هذا مع أنها فقدت كثيراً مما كانت عليه حتى أصبحت — على حد تعبير ابن جبير — داخلة تحت قول حبيب : لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديار[٢] .

ولم يكن فى الدواوين سجلات إحصائية للناس سوى التى يحصى فيها من يلزمهم دفع الجزية ، ويظهر أنه فى عام ٣٠٦ ﻫ أحصى المغنون والمغنيات[٣] ، كما يذكر أيضاً إحصاء للفقراء[٤] ، وقد عنى جغرافيو القرنين الثالث والرابع بذكر كثير من الأرقام مثل أعداد الأبواب فى المدن وأعداد المساجد والحمامات ونحوها ، ولكنهم لم يهتموا قط بذكر عدد السكان . وأخيراً ظهرت طريقة ساذجة فى الإحصاء ؛ فقد ذكر ابن حوقل مرة واحدة أن بمدينة بَلَرْم قصبة صقلية ما يزيد على مائة وخمسين حانوتا للقصابين ؛ وأراد أن يتخذ من ذلك دليلا على كثرة عدد أهلها[٥] . وكذلك أراد بعض من روى للخطيب البغدادى أن يقدر عدد سكان بغداد فى القرن الثالث مستدلا بما ذُكر له من عدد الحمامات مع ما كان فيه من مبالغة ؛ فقد ذُكر له أنه كان ببغداد ستون ألف حمام ، فقدّر أن بإزاء كل حمام خمسة مساجد فيكون ببغداد ثلاثمائة ألف مسجد ، وأقل ما يكون فى المسجد خمسة أنفس فيكون أهلها ألف ألف وخمسمائة ألف إنسان[٦] . أما فى القرن الخامس فقد تغير ذلك ، فنجد الرحالة الفارسى ناصر خسرو يقدر أن

(١) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٦١ وما بعدها .
(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٣٠ — ٢٣١ . (٣) حكاية أبى القاسم ص ٨٧ .
(٤) التحفة البهية طبعة القسطنطينية عام ١٣٠٦ ﻫ ص ٣٢ .
(٥) ابن حوقل ص ٨٣ . (٦) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٧٤ .

من أهل أرجان ما يزيد على عشرين ألفاً من الذكور ، ومن أهل جدة ما يقارب خمسة آلاف ، على حين أنه يقدر أهل مكة بألفين ، ويقول إن الباقين فروا من المجاعات ، وهو يقدر أيضاً أهل كل من مدينتي بيت المقدس وطرابلس الشام بعشرين ألفاً من الذكور — ويظهر أن العشرين عنده رقم محبوب[١] . وأوضح من ذلك كله ما قيل في قرطبة حوالى عام ٣٥٠ هـ من أن عدد الدور التي بها للرعية دون دور الوزراء وأكابر أهل الخدمة مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار ، وأن مساجدها ثلاثة آلاف[٢] .

وكان في المملكة الإسلامية أربعة أنواع من المدن : مدن على الطراز الهلّيني المعروف في حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ والمدن التي على طراز جنوب جزيرة العرب مثل مدينة صنعاء ، ومن هذا الطراز مكة والفسطاط ؛ والمدن التي كانت تُشيّد على الطراز البابلي ؛ والمدن التي كانت على الطراز المعروف في شرق المملكة الإسلامية . وتختص المدن العربية بضيق الدور وارتفاعها ؛ وكان بالفسطاط دور من طبقات كثيرة تبلغ الثمان حتى كأنها المنابر ، وأسفل الدور غير مسكون ، وربما سكن الدار الواحدة المائتان من الناس[٣] ، بل يقول ناصر خسرو : « وتُرى مصر من بعيد كأنها جبل ، وبها بيوت من أربع عشرة طبقة ، وبيوت من سبع طبقات . . . وبها أسواق وشوارع توقد فيها القناديل ؛ لأن ضوء الشمس لا يصل إلى أرضها »[٤] . أما المدن الإيرانية فكانت تتألف من قلعة (قهندز) ومن المدينة الرسمية (ولها في العادة أربعة أبواب) ومن قسم تجاري يشتمل على

---

(١) نفس المصدر ص ٦٥ ؛ ٦٧ .

(٢) البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى المراكشي طبعة ليدن عام ١٨٤٩ م ج ٢ ص ٤٧ .

(٣) الأصطخري ص ٤٩ ، وابن حوقل ص ٩٦ ، والمقدسي ص ١٩٨ .

(٤) رحلة ناصر خسرو ص ٧٠ — ٧١ من النص الفارسي .

الأسواق ؛ وكان كل قسم من هذه الأقسام محصناً بسوره الخاص ؛ وكان بين المدينة الرسمية والأحياء الخارجة عنها شغب دائم .

وقد ظهر منذ منتصف القرن الثالث الهجرى طراز آخر خامس ، وذلك أن الملوك صاروا يبنون لأنفسهم إلى جانب العاصمة مدنا خاصة يتخذونها مقرا لهم مثل مدينة سامرّا والجعفرية على نهر دجلة إلى جانب بغداد ، ورقّادة التى اتخذها بنو الأغلب بجوار القيروان ، والقطائع التى اتخذها الطولونيون إلى جوار مصر ، وفى القرن الرابع بُنيت المدن التى اتخذها خلفاء الفواطم مقرا لهم مثل المهدية والمنصورية والمحمدية والقاهرة ؛ فكانت أعظم المدن نجاحا فى القرن الرابع بل فى تاريخ الإسلام . أما فى الأندلس فقد بنى عبد الرحمن بن محمد فى غرب قرطبة مدينة سماها الزهراء ؛ وخط فيها الأسواق والقصور والحمامات ، وأمر مناديه بالنداء : ألا من أراد أن يبتنى داراً أو يتخذ مسكنا بجوار السلطان فله أربعمائة درهم ، فتسابق الناس إلى العمارة وتكاثفت الأبنية حتى كادت تتصل بين قرطبة والزهراء[(١)] .

وكذلك ابتنى السلطان عضد الدولة المتوفى عام ٣٧٢ هـ مدينة فناخسرو (وهو اسم عضد الدولة) اختطها على مسافة نصف فرسخ من مدينة شيراز ، وشق إليها نهراً كبيراً أجراه من مرحلة ، وجعل إلى جنبيه بستانا سعته فرسخ ، ونقل إليها الصوّافين وصناع الخزّ ، واتخذ بها القواد دوراً حسنة وعقارات جليلة ، وجعل لها عيداً فى كل سنة يجتمع فيه القوم للفسوق واللهو ، ولكن بعد أن مات عضد الدولة خفّت وأشرفت على الخراب وبطل سوقها[(٢)] .

وكانت هذه المدن تمتاز بالاتساع ، حتى نجد اليعقوبى فى كلامه عن سامرّا لايملّ من وصف اتساعها ، فيقول : إن المتوكل جعل عرض الشارع الأعظم بها

---

(١) ابن حوقل ص ٧٧ (٢) المقدسى ص ٤٣٠ — ٤٣١ . ومعجم ياقوت ؛ وانظر : Schwary, Iran, s. 50 .

مائتي ذراع ، وقدّر أن يحفر في جنبي الشارع نهرين يجري فيهما الماء من النهر الكبير[١] . وكانت القاهرة في أول وضعها تكاد تكون مدينة حدائق ، فيذكر ناصر خسرو (ص ٤٥) أن كل الدور منفصل بعضها عن بعض حتى إن أشجار إحداها لا تبلغ حائط الأخرى[٢] .

وقد نالت مياه الشرب في المملكة الإسلامية عناية كبيرة ، ولكن مجاريها — رغم هذه العناية — لم تبلغ من الكِبَر ما بلغته مجاري الماء عند القدماء ؛ وذلك لأن المسلمين كانوا يشفقون من الإسراف في العناية بالأبدان إشفاق أهل العصور الوسطى في الغرب ، وكانوا أكثر تعجباً من أشياء أخرى بناها القدماء ؛ فنجد في كتاب الولاة للكندي (المتوفى عام ٣٥٠ هـ) هذا السؤال : ما هو أعجب شيء في الدنيا ؟ والجواب : منارة الإسكندرية ومجاري مياه قرطاجنة[٣] ، وقد أطرى ياقوت (ج ٤ ص) عقود هذه المجاري وأعمدتها التي تشبه المنابر .

وكانت طريقة إمداد الناس بالماء في قصبة القطر المصري طريقة لا أثر فيها لرقي قط ، فكان أهل مصر يشربون ماء النيل ، يحمله الحمالون في الروايا ويصعدون الدور كل طبقة بنصف دانق[٤] . ويحكي ناصر خسرو (ص ٢٤٤) في عام ٤٤٠ هـ أنه كان بمصر والقاهرة اثنان وخمسون ألف جمل لحمل قِرَب ماء الشرب في هاتين المدينتين . وفي سنة ٣٨٢ هـ نودي بالسقائين في مصر أن يغطوا الروايا التي تحملها الجمال والبغال مملوءة بالماء لئلا يصيب الماء الذي يتساقط منها ثياب الناس[٥] .

---

(١) جغرافية اليعقوبي ص ٢٦٦ .

(٢) وقد أصاب القاهرة فيما بعد ما أصاب غيرها من المدن ، حتى نجد ابن سعيد في القرن السابع يشكو ضيق دروبها وكثرة التراب والأزبال فيها ، وارتفاع مبانيها حتى ضيقت مسالك الهواء والضوء (الخطط للمقريزي ج ١ ص ٣١٦) .

(٣) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ١٦١ (؟) .

(٤) القدسي ص ٢٠٢ . (٥) [illegible] المقريزي ج ٢ ص ٨ [illegible]

وكان أكثر شرب أهل بغداد من ماء دجلة ؛ وكان السقاؤون يأخذونه إما من النهر مباشرة ويحملونه إلى الدور أو من مواضع تقوم مقام الخزانات وتغذيها نهيرات صغيرة ، بل كان هناك قناتان يجرى فيهما الماء إلى المدينة ، وكلاهما مُغطاة ومحكمة العقد ، وإحداهما القناة التي كانت تأخذ من نهر كرخايا الآخذ من الفرات . وكانت هاتان القناتان أقل إحكاما من القنوات والمجارى الحجرية التي كانت معروفة عند الرومان ، فكانت إحداهما معقودة وفي أسفلها محكمة بالصاروج والآجر من أعلاها[1] .

ولما كانت عين الماء بمكة مُرّة حتى كان لا يستطيع الإنسان أن يشرب منها ، فسرعان ما أصبح إمداد هذه المدينة المقدسة بالماء باباً من أكبر أبواب البرّ . وكانت القناة المعقودة تحت الأرض والتي أمرت بإنشائها السيدة زبيدة كثيراً ما تنهدم ، ففي سنة ٢٤٥ هـ غار الماء بمكة حتى بلغ ثمن القربة ثمانين درهماً ، فبعثت أم المتوكل آمرة بإصلاح القناة والإنفاق عليها[2] . وحوالى عام ٣٠٠ هـ كان أصحاب السلطان يسخرون جمال الناس وحميرهم لنقل الماء من جدة إلى مكة ، وكان الوزير على بن عيسى في ذلك الوقت بمكة مغضوبا عليه من السلطان ببغداد ، ورأى ضيق الماء على أهل مكة ورأى تلك السخرة ، فابتاع كثيراً من الجمال والحمير ووقفها على حمل الماء ، وأقام لها العلوفة الراتبة ومنع السخرة وحظرها ، وحفر بئراً عظيمة في الحنّاطين فخرجت عذبة شروبا وسماها الجراحية ، وابتاع عيناً غزيرة بألف دينار ووسّعها حتى كثر ماؤها واتسع الماء بمكة[3] .

وكانت عناية أهل البرّ بماء الشرب في سمرقند أعظم مما تقدم ، فيحكى لنا ابن حوقل : « وقلّ ما رأيت خاناً أو طرف سكة أو محلّة أو مجمع ناس إلى حائط

(١) جغرافية اليعقوبي ص ٢٥٠ . (٢) الطبرى ج ٣ ص ١٤٤٠ .
(٣) كتاب الوزراء ص ٢٨٦ .

بسمرقند يخلو من ماء جمد مسبّل ، وذكر لى من يرجع إلى خبره أن بسمرقند فى المدينة وحيطانها فيما يشتمل عليه السور الخارج زيادة على ألفى مكان يُسقى فيه ماء الجمد مسبّلا عليه الوقوف من بين سقاية مبنية وجباب نحاس منصوبة وقلال خزف فى الحيطان مبنية »[١] . ولهذه المدينة مياه جارية تدخل فى نهر كان أصله خندقاً قديماً ، وقد بنيت له فى بعض المواضع مسنّاة عالية عن الأرض يجرى عليها الماء ، ووجه هذا النهر رصاص كله ، وهو نهر قديم جاهلى يشق سمرقند ، وهو من أعمر المواضع بها ، وله حاشية غلات موقوفة لمرمّته ومصالحه ، وعليه حفظة من المجوس شتاء وصيفاً فى شرط عليهم بذلك ، ولا تؤخذ منهم الجزية لبيت المال لهذا السبب[٢] . أما مجارى الماء المبنية تحت الأرض فكانت توجد فى مدن إيران الشمالية بنوع خاص مثل قمّ ونيسابور ، وكانتا أكبر مدن المشرق فى ذلك العصر[٣] . ويحكى ناصر خسرو أنه كان بنيسابور كثير من مجارى الماء المغطاة بعضها يظهر فى خارج المدينة ويروى البساتين ؛ وبعضها الآخر يمدّ الدور بالماء ، وكانت هذه على أعماق متفاوتة تفاوتاً كبيراً ، حتى يضطر الإنسان أن ينزل إليها مائة درجة ، ولذلك قال أحد أصحاب النوادر : ما كان أبهى مدينة نيسابور لو أن مجارى الماء فيها أصبحت ظاهرة ، ودخل أهلها تحت الأرض[٤] . وكان على هذه المجارى والأودية قوّام وحفظة[٥] ، وكانت مدينة الدينَوَر مدينة جبلية

---

(١) الأصطخرى ص ٢٩٠ ؛ وابن حوقل ص ٣٣٩ .

(٢) الأصطخرى ص ٣١٦ ؛ وابن حوقل ص ٣٦٦ .

(٣) جغرافية اليعقوبى ص ٢٧٤ — ٢٧٥ .

(٤) رحلة ناصر خسرو ص ٢٧٨ .

(٥) الأصطخرى ص ٢٥٥ ، وابن حوقل ص ٣١٢ ، ومعجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٨٥٧ ، وفيما يتعلق بالسراديب المائية فى الأجزاء التى ليس بها نظام للصرف بفارس اليوم انظر كتابى : Gratne. Wanderungen in Persien, 1910, s. 103 ; Hedin, Zu Land nach Indien I, s. 184 .

تتفجر عيونا ، ولم يُرَ أنظف من مائها ، وقد بلغ من رقى أهلها أنهم جعلوا على أفواه العيون مزمّلات وأنطونيات يخرج منها الماء[١] .

أما مسألة تصريف الإفرازات الإنسانية ، وهى من المسائل العسيرة ، فيظهر أنها كانت تُحَل حلا سهلا بالبصرة المشهورة بتجارتها ، ولعله كان بها تجار لهذه المهمة . وكان ذلك موضوعا لأصحاب النوادر ، فيُحكى أن رجلا من أهل المدينة دخل البصرة ثم انصرف ، فقال له أصحابه : كيف رأيت البصرة ؟ قال خير بلاد الله للجائع والعزب والمفلس : أما الجائع فيأكل خبز الأرز والصحناء ...... وأما المحتاج فلا عيلة عليه استُهُ يخرأ ويبيع[٢] .

وكان اكتراء الحمير منذ القرن الثالث الهجرى وسيلة قريبة للانتقال تستعملها الطبقة الوسطى من أهل المدن ، وكان أكبر محل يقف فيه الحارون بحميرهم ببغداد عند باب الكرخ ، وهو مدخل القسم التجارى[٣] . وكان بالفسطاط موضع لاكتراء الحمير بالقرب من دار الحرم ، وكان كراء الحار قيراطين[٤] . أما فى المدن التى تقوم على الأنهار كبغداد والبصرة فقد كان الانتقال بالقوارب أيضاً . وقد أُحصيت السُمَيْريات المعبرانيات بدجلة فى أيام الخليفة الموفّق (من سنة ٢٥٦هـ — ٢٧٩هـ) فكانت ثمانين ألفاً يُقدَّر كسب ملاحيها فى كل يوم بتسعين ألف درهم[٥] .

أما إدارة المدينة فكان الحظ الأوفر منها فى يد عمال الدولة ، وكان من هؤلاء العمال فى كل بلد من خراسان مثلا أربعة وهم : القاضى ، وصاحب البريد ، والبندار ، وصاحب المعونة[٦] . أما بغداد فكان جزؤها الشرقى تحت إدارة الخليفة مباشرة ،

---

(١) المقدسى ص ٢٩٤ .

(٢) معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٦٤٨ ، وعيون الأخبار طبعة بروكلمان ص ٢٦٥ .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٣١ . (٤) ابن سعيد ص ٣٣ ، ويقول ناصر خسرو عام ٤٤٠ هـ إنه كان بمصر خمسون ألف حمار للكراء (ص ٥٣ من الرحلة) .

(٥) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٧٣ . (٦) ابن حوقل ص ٣٠٩ .

والجزء الغربي كله كان يدخل ضمن عمالة بادوريا ، ولذلك كان لا يتقلد هذا الإقليم إلا أجل العمال ، وذلك لكثرة معاملاته واختلافها وكونها مع الكبراء ، ومن ضبط ذلك كله صلح للأمور الكبيرة [1] . وحوالى عام ٣٢٥ هـ كان أبو الحسين ابن سعد الكاتب يشتغل بتدبير أصبهان ، ووكلت إليه فوق ذلك جباية الخراج ، فكان صاحب البلد [2] . وكان إلى جانب التنظيم الرسمي تنظيم خاص ، فمثلا لما أسست بغداد قسمت الأرباض إلى أرباع ، وقلد كل ربع لرجل من الحاشية ليديره ، وكان في كل ربض زيادة على ذلك رئيس وقائد [3] . وكان الذي يعنى بالأمن في مقر الأمير أو الوالى صاحب الشرطة ، أما في المدن الأخرى فكان يتولى ذلك صاحب المعونة ، وكان يقوم إلى جانبهما المحتسب ، باعتباره المثل الأكبر للمجتمع الذي يعتبر أن له الكلمة العليا ، والتي يشرف على الأفراد ويزعهم إلى اتباع الحق ، وقد كان منصب المحتسب حوالى عام ٣٠٠ هـ من المناصب الوطيدة ، وكان محتسب بغداد في جملة أصحاب المخاطبات المعزوفة للكتاب ، وكان يجرى مجرى الطبقة الأولى من العمال [4] ، وأول من بيّن الواجبات المتعددة التي يقوم بها الماوردي [5] وابن الطوير [6] ، وفي كثير من الأحيان كان يعهد إليه تولى مهام ، مثل الإشراف على سوق الرقيق ودار الضرب والطرز ، وقد صدر منشور إلى الولاة من بغداد حوالى عام ٣٦٦ هـ جاء فيه فيما يختص بأسواق الرقيق أن يأمر الوالى من تسند إليهم أمرها بالتحفظ فيمن يطلق بيعه ويمضون أمره ، وبالتحرز من وقوع تجوز فيه وإهمال له ، إذ كان ذلك عائداً بتحصين الفروج

---

(١) كتاب الوزراء ص ٧٦ . (٢) الإرشاد لياقوت ج١ ص ١٢٩ — ١٣٠
(٣) جغرافية اليعقوبي ص ٢٤٠ وما بعدها ، وكان رستاق الكرخ اثنى عشرة قرية (كتاب الوزراء ص ٢٠٨) .
(٤) كتاب الوزراء ص ١٥٨ . (٥) الأحكام السلطانية ص ٤٠٤ وما بعدها من طبعة انجر . (٦) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٤٦٣ .

وتطهير الأنساب ، و بأن يبعدوا عنه أهل الريبة ويقروا أهل العفة ، و بألا يمضوا بيعاً على شبهة ، ولا عقداً على تهمة ؛ وفيما يتعلق بدور الضرب أمر صاحبها بتخليص عين الدرهم والدينار ليكونا مضرو بين على البراءة من الغش ، و بإثبات اسم أمير المؤمنين على ما يضرب ذهباً وفضة ، و إجراء ذلك على الرسم المعروف ببغداد ، وأمر المشرف على دور الطرز بأن يراعى أن يكون النسج جيداً صحيحاً متيناً ، وأن ينقش اسم الخليفة على ما يعمل من الثياب والفرش والأعلام ونحوها[1] . وكان المحتسبون يختارون فى الغالب من بين القضاة ، ففى سنة ٣١٩ هـ خلع على محمد بن ياقوت وقلد مع الشرطة الحسبة ، فعظم ذلك على مؤنس ، وسأل المقتدر صرف محمد بن ياقوت عن الحسبة ، وقال : هـذا عمل لا يجوز أن يتولاه غير القضاة والعدول[2] .

وكان أصحاب الشرطة يحملون آلة من السلاح تسمى الطبرزين ، وهى عبارة عن سكين طويل يحملونها معلقة[3] . وكانوا يقومون بالطوف أو العسس طول الليل إلى صلاة الفجر[4] .

ولم يكن فى القرن الثانى الهجرى بالمشرق نظام لضبط أسماء الأغراب قبل دخولهم من أبواب المدن[5] . وقد تكلم أحد الرحالين المسلمين فى القرن الثالث

(١) رسائل الصابى طبعة بعبدا ص ١١٣ .
(٢) عريب ص ١٤٧ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١٦٥ .
(٣) مقامات الهمذانى طبعة بيروت ص ١٦٢ .
(٤) الفرج بعد الشدة للتنوخى ج ١ ص ١٩ .
(٥) الأغانى ج ١٩ ص ١٤٧ ، حيث أوقف الرشيد ببغداد قائداً على جسر النهروان ليتصفح الناس الذين يدخلون بغداد ويتعرف رجلا كان الخليفة يطلبه ، وهذه طريقة كان غنى لو وجدت ثم سجلات . (المترجم)

الهجرى عن نظام جواز المرور المعروف بالصين كلام من يعتبر ذلك شيئاً جديداً لا عهد له به[١] ، وقد أحدث السلطان عضد الدولة فى القرن الرابع الهجرى لأول مرة نظام مراقبة الأبواب فى مدينة شيراز عاصمة بلاده ، حتى قال المقدسى فى حقها « ومنع الخارج منها إلا بجواز ، وحبس الداخل والمجتاز »[٢] .

---

(١) سلسلة التواريخ طبعة رينو ص ٤٢ . وقد كان بمصر منذ أول العصر الإسلامى نظام جوازات دقيق فيما يختص بالانتقال الداخلى C. H. Becker, Papyri Sehatt — Reinh I, 40 وكذلك لم يكن يجوز للرجل أن يخرج من مصر على عهد الطولونيين إلا بجواز (المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد طبعة فولرز بيرلين ص ٥٢ عام ١٨٩٤) .

(٢) المقدسى ص ٤٢٩ .

الفصل الثالث والعشرون

الأعيـاد

تدل الأعياد عند المسلمين على مقدار رقّة المظهر الإسلامى الذى يحيط بالحياة العامة ، فقد كان المسلمون يحتفلون بجميع الأعياد النصرانية ؛ وكان معظم هـذه الأعياد النصرانية صورة جديدة لمراسم قديمة للبلاد . وكثير من المواضع التى كان يحج إليها المسيحيون فى مصر وفى العراق إنما كانت مواضع مقدسة عند الوثنيين من قبل ، ولم تكن أعياد القديسين التى كانت تعمل فى الأديرة الناشئة هناك إلا صورة جديدة لأعياد الآلهة القدماء ، ولم يَرْض الذين دخلوا فى الإسلام من أهل تلك البلاد بأن يُحرموا من الاحتفال بهذه الأيام التى كانت تزدهى بها حياة آبائهم الوثنيين من قبل ، ولـكن المسلمين خلافا للـكنيسة المسيحية ، أنفوا فى الغالب من وضع الأساطير ، وقد تركوا النصارى يتصرفون فى أمورهم الدينية من غير تدخل فى ذلك ، واشتركوا فى الجانب الاجتماعى المسلّى من تلك الأعياد كما فعل آباؤهم من قبل ؛ فمثلا كانت أعياد أهل بغداد تـكاد تـكون نصرانية من كل وجه ، وكانت أعياد القديسين فى مختلف الأديرة أكثر الأعياد نصيباً من احتفال الناس ؛ ولـكن هذه الأديرة كانت لا تخلو حتى فى غير الأعياد من الزوار الذين لا تربطهم بالدين صلة[1] . وكانت الأديرة ببساتينها الفسيحة ، وقاعات شرابها الباردة ؛ مجتمع أهل البطالات ومقصد طلاب اللذات من البغداديين ، وكثيراً ما يقترن ذكر الأديرة بذكر الشراب فى كلام الشعراء ، قال ابن المعتز :

بدير المطيرة نقرى المـدا م لدى القس لما أتيناه زوراً

(١) كتاب الديارات للشابشتى ص ٨ ا .

وكان شراب القربان مشهوراً بنوع خاص ، ويقول ابن المعتز :

كم أردت التقى فما تركتنى   خندريس يديرها طاووس
من شراب القربان يوصى الشمّـ   ـاسَ خزان بيتها والقسوس

ولم يكن الحال فى مصر يختلف كثيراً عما تقدم ، فقد أحصى إبراهيم بن القاسم الكاتب حوالى أواخر القرن الرابع معاهد اللهو بالقاهرة ، وذلك فى قصيدة له قالها يحن فيها إلى مصر ويذكر معاهد لهوها ، كمصايد الغزلان بجانب الأهرام ، ومواخير الجيزة وجسرها ، وبستان القس وملعب دير مرحَنّا ، وأحسنها كلها دير القصير ، وكان على جبل المقطم ، وكان له منظر جميل ، وهو يقول فيه :

وكم بت فى دير القصير مواصلا   نهارى بليلى لا أفيق من السكر[(٢)]

وقد أمر أبو الجيش خمارويه الطولونى أن تُبنى له فى أعلى دير القصير طبقة لها أربع طاقات على الجهات الأربع[(٣)] .

وكان يوم أحد الشعانين يوم عيد كبير للعامة ؛ ولابد أنه كان عيداً قديما من أعياد الأشجار وخصوصاً أشجار الزيتون[(٤)] ، وكان فى مصر يسمى عيد

---

(١) ابن المعتز (ديوان) ج ٢ ص ٤٦ ، ٥٠ . ويحكى شلتبرجر Schiltberger أنه وجد قاوسة الروم فى المملكة الإسلامية يشتغلون خمارين (انظر : Bibl des Literar Vereins s. 50 وكذلك كان الرهبان النصارى فى قرى الشام ـ ـون لنا النبيذ تحت ثيابهم .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٩١ .

(٣) تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى ص ٤٩ أ .

(٤) وفى القرن الرابع الميلادى كانت عادة الأطفال فى هذا اليوم ببيت المقدس أن يدوروا حول جبل الزيتون وبأيديهم سعف النخل وأغصان الزيتون (انظر : Silvia pergrinatio s 91) ولا يزال الموارنة إلى اليوم يذهبون فى يوم أحد الشعانين إلى الكنيسة بشجرة كبيرة من الزيتون ، ويباركونها ويعطونها لمن يدفع فيها ثمناً أوفر ، فيجعل مقتنيها ابنه أو صبيا يحبه فوقها ، ويطوفون بها فى الكنيسة بين أصوات الفرح ، ثم يهجم القوم عليها ويأخذ كل منهم غصناً يحفظه للبركة . أما الأقباط فكانت عادتهم أن يقطعوا قلوب النخل وسعفه وأغصان =

الزيتونة فقط[١] ، وكانت الوصائف فى يوم أحد الشعانين يظهرون فى قصر الخلافة ببغداد متزينات فى ثياب جميلة غالية وفى أعناقهن صلبان من الذهب و بأيديهن قلوب النخل وأغصان الزيتون[٢] . وفى القرن الهجرى كان رسم النصارى ببيت المقدس فى هذا العيد أن يحملوا شجرة من شجر الزيتون من الكنيسة التى بالعازرية إلى كنيسة القيامة و بينهما مسافة بعيدة و يشقوا بها شوارع المدينة بالقراءة والصلوات ، حاملين الصليب مشهوراً ، و يركب والى البلد فى جميع موكبه معهم و يذبّ عنهم[٣] . وكان الرسم بمصر وسائر البلاد أيضاً أن تُزَيَّن الكنائس فى هذا العيد بأغصان الزيتون وقلوب النخل ويُفرّق منها على الناس على سبيل التبرّك ؛ فمنع الحاكم بأمر الله ذلك فى بيت المقدس وفى سائر أعمال مملكته ، وأمر ألا تُحمل ورقة من ورق الزيتون ولا من سعف النخل فى كنيسة من الكنائس ، وألا يُرى من ذلك شىء فى يد مسلم ولا نصرانى[٤] . وكان الخميس المقدس يسمى فى مصر خميس العدس ، لأن عامة النصارى كانوا يأكلون العدس فى هذا اليوم ؛ وكان العدس يعتبر طعام الحداد ، وكان نصارى مصر يأكلونه فى كل يوم جمعة[٥] . وفى يوم خميس العدس كانت تضرب خراريت تفرق على أهل الدولة[٦] . وكان أهل

= الزيتون يوم سبت العازر ويضفرونها زيتونة كبيرة بالصلبان ويكللونها بالشموع ويرفعونها إلى محل إقامة البطريرك ، ثم توضع يوم الأحد أمام الهيكل ويبتدئ البابا فى القداس ، وتحمل الشجرة إلى كل ركن من أركان الكنيسة الأربعة ويقرأ أمامها فى كل ركن من أحد الأناجيل الأربعة ، ثم يأخذ الناس منها على سبيل البركة ، وكان بعض يدورون بالزيتونة فى الأديرة والطواحين والأفران (مجلة المشرق ج ٨ (عام ١٩٠٥ م) ص ٢٤٢) .

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٦٤ .

(٢) الأغانى ج ١٩ ص ١٣٨ . (٣) يحيى بن سعيد مخطوط باريس ص ١١٨ ب .

(٤) نفس المصدر ، وكان من العادات الخاصة بالنصارى فى هذا العيد لبس الثياب البيض (ديوان الشريف الرضى ص ٩١٢) .

(٥) الرازى ترجمة شتينشنيدر فى Virchows Archiv S. 574 .

(٦) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٤٠٠ .

الإسكندرية فى يوم خميس العدس يخرجون إلى المنارة بما كلهم ، فمنهم من يذكر الله ومنهم من يصلى ومنهم من يلهو ، ولا يزالون هناك إلى نصف النهار [١] . وفى الشام كان هذا اليوم يسمى الخميس الأزرق أو خميس البيض ، وكان يباع فيه بأسواق القاهرة بيض مصبوغ عدة ألوان « فيقامر به العبيد والصبيان والغوغاء ، وينتدب من جهة المحتسب من يرد عنهم » [٢] . وفى يوم عيد الفصح ببغداد كان المسلمون والنصارى يقصدون دير سمالو شرق بغداد بباب الشماسية على نهر المهدى ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلا حضره ، وهناك يدور الشراب ، وفى ذلك قال أحد الشعراء :

فتلاعبت بعقولنا نسـوانه　　وتوقدت بخدودنا نيرانه
حتى حسبت لنا البساط سفينة　　والدير ترقص حولنا حيطانه [٣]

وكان عيد دير الثعالب فى آخر سبت من أيلول ، وهذا الدير يقع فى الجانب الغربى من بغداد عند الموضع المعروف بباب الحديد ، وكان لا يتخلف عن عيده أحد من النصارى والمسلمين ، لأنه فى أعمر موضع ببغداد لما فيه من البساتين والنخل والرياض ولتوسطه فى البلد [٤] ، وكان فى اليوم الثالث من تشرين الأول عيد القديسة أشمونى ، وكان يعمل بدير أشمونى بقطربل غربى دجلة ، وكان من الأعياد العظيمة ببغداد ؛ يجتمع أهلها إليه كاجتماعهم إلى بعض أعيادهم ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلا خرج إليه ، كل [illegible] على حسب قدرته ، فمنهم من يأتى فى الزبارب ، ومنهم من يركب الطيارات أو السميريات ، ويتنافسون فيما يظهرون به هناك من زينتهم ، ويباهون بما يعدونه لقصفهم ، ويعمرون ديره

(١) نفس المصدر ج ١ ص ١٥٧ .
(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٢٦٦ ، والمدخل ج ١ ص ٣٠٥ .
(٣) كتاب الديارات للشابشتى ص ٤ أ ـ ب .
(٤) نفس المصدر ص ٨ أ ، وكتاب الآثار الباقية للبيرونى ص ٣١٠ .

وأكنافه وحاناته، ويضرب لذوى البسطة منهم الخيام والفساطيط، وتعزف عليهم القيان، فيظل كل إنسان منهم مشغولا بأمره، ومكبا على لهوه، فهو أعجب منظر وأنزهه، وأطيب مشهد وأحسنه[1]. وكان الغريب الذى يهبط بغداد ويسأل عن أعجب وأبهى ما يستحق أن يُرى فيها يُسَرّ ويتسلّى بأن ينتظر شهراً لرؤية عيد أشمونى. وكان عيد بربارة يُعمل فى أول الشتاء (الرابع من كانون أول) « وكان المسلمون يعرفونه، فيقول المقدسى إنه من أعياد النصارى التى يتعارفها المسلمون ويقدرون بها الفصول، وبه يعرف وقت الأمطار » ومن أمثال الناس: إذا جاء عيد بربارة فليتخذ البناء زمارة؛ يعنى فليجلس فى البيت »[2]، والمقدسى يفتخر بأنه رأى عيد بربارة[3]. وفى ليلة عيد الميلاد (٢٥ ديسمبر) وعيد الشمس كان يُحتفل بها بإيقاد النيران، وقد تكلم ابن بابويه القمى الشيعى الفارسى المتوفى عام ٣٨١ هـ — ٩٩١ م[4] عن العلة التى من أجلها يوقد النصارى ليلة عيد الميلاد ويلعبون بالجوز، وروى عن وهب بن منبّه أنه لما ألجأ المخاض مريمَ عليها السلام إلى جذع النخلة اشتد عليها البرد فعمد يوسف النجار إلى حطب فجعله حولها كالحظيرة، ثم أشعل فيها النار، فأصابتها سخونة الوقود من كل ناحية حتى دفئت، وكسر لها سبع جوزات وجدهن فى خرجه فأطعمها، ومن أجل ذلك يوقد النصارى النيران ليلة عيد الميلاد ويلعبون بالجوز، ولكن المسلمين كانوا يحتفلون أيضاً بليلة الوقود التى تُعرف بالسَّذَق[5] والتى تكون بحسب قانون

---

(١) كتاب الديارات ص ١٨ ا ب، والبيرونى فى الآثار ص ٢٩١.

(٢) المقدسى ص ١٨٢.

(٣) نفس المصدر ص ٤٥.

(٤) كتاب العلل مخطوط برلين رقم ٨٣٢٧ ص ٣٢ ا.

(٥) مسكويه ج ٥ ص ٤٧٩ وما بعدها.

مسود لعشرة تمضى من بهمن ماه[١] ، وتكون بحسب ما ذكره ابن الأثير وأبو الفدا فى ليلة عيد الميلاد[٢] .

ويحكى ابن الجوزى فى عام ٤٢٩ هـ — ١٠٢٨ م عن قوم من أهل عكبرا أنهم « اجتمعوا فى ليلة عيد الميلاد لإشعال النار على عادتهم »[٣] ، وجرت العادة فى القرن الرابع الهجرى بالتبخير ليلة الوقود لدفع المضرة ، وصار فى رسوم الملوك فى ليلته إيقاد النيران وتأجيجها ، وإرسال الوحوش فيها ، وتطيير الطيور فى لهبها ، والشرب والتلهى حولها ، ويقول البيرونى بعد حكايته لذلك « انتقم الله من كل متلذذ بإيلام غيره من الحاسين غير المضرين »[٤] . وكانت أشهر ليلة وقود فى القرن الرابع فى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م ، ففى هذا العام أمر القائد مرداويج أمير بلاد الجبل فى غرب إيران قبل ليلة الوقود بمدة طويلة ، أن تجمع الأحطاب من الجبال والنواحى البعيدة ، وأن تنقل فى الوادى المعروف بزرين روذ قرب أصفهان ، وأمر بجمع النفط والنفاطين والزرّاقات ومن يحسن معالجتها واللعب بها ، وتقدم بإعداد الشموع العظام ، ولم يبق جبل مشرف ولا تلّ ظاهر إلا وضعت عليه الأحطاب والشوك ، وصيدت له الغربان والحدأ وعُلّق بمناقرها وأرجلها الجوز المحشو مشاقة ونفطا ، وعمل بمجلسه الخاص تماثيل من الشمع وأساطين عظام لم يُرَ مثلها ليكون الوقود فى ساعة واحدة على الجبال ورءوس الرناعات وفى الصحراء وعلى الطيور التى تُطلق ، ثم عمل له سماط عظيم فى الصحراء التى يبرز إليها من داره ، وجمع فيه من الحيوانات والبقر والغنم آلاف كثيرة ، وزُيّن بما لم تجر العادة بمثله ، فلما فرغ من جميع ذلك وحضر الوقت الذى ينبغى أن يجلس فيه مع الناس للطعام ثم الشراب خرج من

(١) الآثار الباقية للبيرونى ص ٢٢٧ .
(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٢ ، وأبو الفدا تحت عام ٣٢٣ هـ (ج ٢ ص ٨٠)
(٣) المنتظم ص ١٩٢ أ . (٤) الآثار للبيرونى ص ٢٢٦ .

منزله ثم طاف على كل ذلك فاستحقره واستصغر شأنه ، قال وذلك لأجل سعة الصحراء ، ولأن البصر إذا امتد فى فضاء واسع ثم انقلب عنه إلى هذه الأشياء المصنوعة استحقرها وإن كانت عظيمة ، واغتاظ ودخل إلى خيمته ، واضطجع محوّلا وجهه إلى خلاف الباب والتف بكسائه لئلا يكلمه أحد[1] . وفى أيام الدولة الفاطمية بمصر كان يفرّق على أرباب الرسوم ورجال الدولة جامات الحلاوة القاهرية وقربات الجلاّب وطيافير الزلابية وماء الورد والسمك البورى ، وكانت توقد الحوانيت والشوارع بالفوانيس ، ويعطى للأقراء فوانيس يحملونها فى أيديهم ولهم على ذلك درهم[2] . وكان يحتفل بعيد الغطاس بمصر احتفالا كبيراً وهو يسمى عيد الغطاس لأن كثيراً من النصارى كان يغطس فيه فى النيل ، وفى هذا اليوم نفسه لا تزال الكنيسة الرومية فى عصرنا تحتفل بعيد الماء المقدس ، وكان من الرسوم القديمة بمصر أن يركب متولى الشرطة السفلانية ليلة الغطاس فى موكب كبير وتوقد بين يديه الشموع الموكبية والمشاعل ؛ فيطوف الشوارع وينادى فى الناس ألا يختلط المسلمون بالنصارى فى تلك الليلة ، وألا ينكدوا عليهم عيدهم ، وذلك أن النصارى كانوا فى سحر تلك الليلة يخرجون إلى شاطئ النيل ويغطسون فيه ، وكان رسم الملكية خاصة أن يخرجوا من كنيسة ميكائيل التى بقصر الشمع إلى شاطئ النيل فى جمع وفير بالقراءة الملحّنة والصلبان المشهورة ويصلوا ويخطب الأسقف المرأس عليهم باللغة العربية ويدعو للسلطان « وكان لأهل مصر وأهل الملل والمذاهب بها فى هذا العيد من الطيبة والفرح مالا يكون لهم فى غيره من أيام السنة وأعيادها »[3] . ويقول المسعودى فى ليلة الغطاس : « والليلة الغطاس بمصر شأن

---

(١) ابن مسكويه ج ٥ ص ٤٧٩ وما بعدها ، وابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٢ وما بعدها ، وأبو الفدا تحت عام ٣٢٣ هـ ، وهو يقول إنه كان فى ذلك السماط ألف فرس وألف رأس بقر .

(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٦٥ .

(٣) يحيى بن سعيد مخطوط بباريس ص ١٢٩ ب .

عظيم عند أهلها ، لاينام الناس فيها ، وهى ليلة عشر تمضى من كانون الثانى ، ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس فى مصر والأخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفة بالمختارة فى الجزيرة الراكبة للنيل والنيل مطيف بها ، وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع ، وقد حضر النيل فى تلك الليلة مئو الألوف من الناس من المسلمين والنصارى ، منهم فى الزوارق ، ومنهم فى الدور الدانية للنيل ، ومنهم على الشطوط ، لايتناكرون الحضور ويظهرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف ، وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً ، ولا تغلق بها الدروب ويغطس أكثرهم فى النيل ، ويزعمون أنه أمان من المرض ونشرة من الداء »[1] . وكانت العادة أن يُضاء سوق الشماعين بإضاءة كبيرة ، وكانت حوانيته لا تزال مفتّحة إلى نصف الليل يقصده كثير من الناس ، وكان يجلس فيه فى الليل بغايا يقال لهن زعيرات الشماعين لهن سيما يعرفن بها ، وهى لبس الملاآت الطرح وفى أرجلهن سراويل من أديم أحمر ، وكُنّ يعانين الدعارة[2] . وفى عام ٤١٥ هـ — ١٠٢٥ م نزل أمير المؤمنين الظاهر لنظر الغطاس ومعه الحُرَم ، وضرب بدر الدولة متولى الشرطتين خيمة للخليفة وحرمه ، وأمر الخليفة بأن توقد النار والمشاعل فى الليل وكان وقوداً كثيراً[3] . وكان عيد الأحد من الصوم المسيحى عيداً من أعياد اللهو عند المسلمين ، وكان يُعمل فى دير الخوات بعكبرا المشهورة بنبيذها ، ويبلغ اللهو أقصاه فى ليلة الماشوش « وهى ليلة تختلط النساء فيها بالرجال ، فلا يردّ أحد يده عن شىء ، ولا يرد أحد أحداً عن شىء ، وهو معادن الشراب ومنازل القصف

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .

(٢) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٩٦ . (٣) نفس المصدر نقلا عن المسبّحى .

ومواطن اللهو»[١] . وقد تكلم ابن خلدون ، مع أنه من المتأخرين ، عن شيء يسمى الكرج ، وهو تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل ، فيكرون ويفرون ويثاقفون[٢] . وكان في يوم الأحد الرابع من الصوم عيد دير دُرْمالس ، وكان يجتمع إليه نصارى بغداد ولا يبقى أحد ممن يحب اللهو والخلاعة إلا تبعهم ، وكان الناس يقيمون فيه الأيام[٣] .

وكان من الأعياد الكبرى عند النصارى بمصر عيد سرعان ما اتخذه المسلمون وهو عيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة ، وكانت عادة العامة والسوقة أن يطوفوا قبل الخروج للسجن أسواق البلد بالطبول والبوقات ليجمعوا من التجار ما ينفقونه في خروجهم ، ولكن حدث في عام ٤١٥ هـ — ١٠٢٥ م أن اشتد الغلاء فامتنع التجار من الدفع ، فأمر الخليفة الظاهرُ التجار بأن يدفعوا ما جرت به العادة ، وأن يُطلق للمحتفلين ضعف ما أُطلق لهم في السنة الماضية ، فخرجوا إلى السجن بالجيزة ومعهم التماثيل والمضاحك والخيّال والحكايات والسماجات ، وخرج الخليفة إلى الجيزة وأقام يومين حتى رأى الجماعة فضحك منهم واستظرفهم[٤] . وكان للناس عند خليج الخور مجتمع يكثر فيه لهوهم ولعبهم . وفي سنة ٤١٥ هـ كان ثالث الفتح فاجتمع عند كنيسة القس خلق كثير من النصارى والمسلمين في الخيام للأكل والشرب واللهو ، وشوهد من سكر النساء وتهتكهن وحملهنّ في قفاف الحمالين سكارى واجتماعهن مع الرجال ما يقبح ذكره[٥] . ومما كان يعمل بمصر عيد الشهيد في الثامن من مايو ، وكان النصارى يلقون في النيل

---

(١) كتاب الديارات ص ٣٧ ب . (٢) مجلة المشرق ج ٩ (عام ١٩٠٦) ص ٢٠١ .
(٣) كتاب الديارات ص ٢١ . (٤) المقريزي ج ١ ص ٢٠٧ نقلا عن المسبحي .
(٥) نفس المصدر ج ٢ ص ٩٦ .

فى هذا العيد تابوتاً من خشب فيه إصبع من أصابع أسلافهم الموتى ، ويزعمون أن النيل لا يزيد فى كل سنة إلا بهذا . وكان اجتماع الناس لهذا العيد بناحية شبرا ، وكان يرحل إليه عالم عظيم للفجور واللهو والفسق ، وفيه يصرفون أموالا لا تحصى ، وكان يباع فيه من الخمر خاصة بما يزيد على مائة ألف درهم فضة ، وأبطله السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى القرن الثامن[1] .

وكانت أعياد رأس السنة ثلاثة :

١ — عيد رأس السنة الفارسية والشامية وهو أول الربيع .

٢ — « « « القبطية بمصر ، وهو فى آخر أغسطس .

٣ — « « « الهجرية ، وهو منتقل فى أثناء السنة الميلادية .

وكان إلى جانب هـذه الأعياد آثار رأس السنة الفارسية القديمة ، وهو فى وقت الانقلاب الصيفى .

وكانت العادة بالإجمال أن يُحتفل بعيد النيروز — وهو مبدأ السنة الشمسية — بتبادل الهدايا ، فكان الخليفة فى بغداد يفرّق على الناس أشياء منها تماثيل مصنوعة من عنبر ، منها ورد أحمر مثلا[2] . وكان رسم ملوك السامانيين ببخارى أن يخلعوا فيه على قوادهم الخلع الربيعية والصيفية[3] . وكان خلفاء الفاطميين يهدون للناس فيه الكسوات والطعام[4] . وفى هذا اليوم كان أصحاب السماجات يظهرون بين يدى الخليفة فينثر عليهم الدراهم ، وكانوا يقتربون منه للقطها ، حتى يحكى أنه دخل إسحاق على المتوكل فى يوم نوروز وأصحاب السماجات بين يديه وقد قربوا منه حتى جذبوا رداءه ! فغضب إسحاق وخرج فأمر المتوكل بردّه وسأله

(١) نفس المصدر ج ١ ص ٦٨ — ٦٩ .

(٢) كتاب الديارات ص ٢٢ ب . (٣) الآثار الباقية للبيرونى ص ٢١٧ .

(٤) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٦٨ .

فقال له : أتجلس فى مجلس يتبذلك فيه هؤلاء الكلاب حتى يجذبوا ذيلك ، وكل واحد منهم متنكر بصورة منكرة فما يُؤمن أن يكون فيهم عدو فيثب بك ، فمتى كان يُستقال هذا ولو أخليت الأرض منهم ؟ فقال المتوكل : يا أبا الحسين ، والله لا ترانى على مثلها أبداً[١] . وكانت العادة فى رأس السنة الفارسية والقبطية أن يرش الناس بعضهم بعضاً بالماء ، وقد مُنع ذلك فى المشرق عام ٢٨٢ هـ — ٨٩٥ م[٢] . على أن البيرونى يتكلم عن الرش ووجوده عام ٤٠٠ هـ[٣] . ويحكى لنا الرحالة الصينى وانج ين تى (Wang-Yan-te) الذى طاف بالمشرق بين عامى ٩٨١ م ، ٩٨٣ م عن أهل مدينة طرفان (كانتشانج) أنهم يعملون أنابيب من الفضة والنحاس ويملؤونها بالماء ويرش بعضهم بعضاً ، وقد يمزحون أحياناً فيرشون الماء بأيديهم ، وهم يزعمون أنهم بذلك يضعفون حرارة المزاج ويدفعون الأمراض[٤] . وكان العامة بمصر فى النيروز ينتخبون رجلا يسمونه أمير النيروز ، فيطلى وجهه بالدقيق أو الجير ويركب فى الشوارع على حمار وعليه ثوب أحمر أو أصفر ، ويسير معه جمع كبير فيتسلط على الناس فى طلب رسم رتبة وفى يده دفتر مثل دفتر المحتسب ، فمن لم يدفع الرسم يُرشّ بالماء ممزوجاً بالأقذار ، وكان الناس يضرب بعضهم بعضاً بالجلود والأنطاع ؛ الفقراء فى الشوارع والأغنياء فى دورهم ، ورجال الشرطة لا يعترضون على ذلك ، وإن غلط مستور وخرج من بيته لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بحرمته ، فإما أن يفتدى نفسه وإما أن يفضح ، كان يرش الناس الماء فى الحارات ، ويجيء المنكر فى الدور أهل الخسارات . وكان التلاميذ فى مكتبهم يهجمون على معلمهم ، وكثيراً ما يرمونه فى البئر حتى يفتدى نفسه بالمال ، وفى عام ٣٣٥ هـ — ٩٤٥ م منع السلطان من رش الماء ، وفى عام ٣٦٣ هـ

---

(١) كتاب الديارات ص ١٥ ا — ب .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢١٤٤ .

(٣) الآثار الباقية ص ٢١٥ ، ٢١٨

(٤) JA, 1847, I. P 58.

— ٩٧٤م أبطل الخليفة هذا العيد ولكنه عمل فى العام الثانى على أكبر صورة ، وقد استمر يؤدب الناس ثلاثة أيام فلم ينفع التأديب[١] . وظل جاريا فى كل عام حتى أبطله السلطان برقوق فى أواخر القرن الثامن الهجرى[٢] . ونستطيع أن نتبين فى العادة الجارية بمصر أنها تشبه عيد الكرنفال شبهاً واضحاً ، لأن أيام الكبس التى تنتهى بها السنة القديمة عند الجميع يكون الأمر فيها لأمير من الغوغاء ، وهى تسير مع النيروز ، وتتمشى مع القمر متنقلة فى التقويم[٣] . وقد بقى من آثار الاحتفال برأس السنة الفارسية رش الماء حتى عام ٤٠٠ هـ[٤] ، ولا يزال الرش بالماء يعمل إلى اليوم عند النصارى فى عيد الصعود ، و يسمى (خميس الرشاش) إلى اليوم[٥] ، وقد رأيت الرشاش بنفسى فى بغداد . وثمّ عيد يسمى عيد الكوسج وهو يشبه عيد الكرنفال ، و يومه يكون مع الأيام الخمسة التى تكبس بها السنة الفارسية ، وكان الاحتفال به فى وقت من الأوقات يكون فى آخر فبراير ؛ ولكنه وقع فى أول نوفبر بسبب الكبس فى السنة الفارسية . وكان الكوسج يركب على بغل ويطوف الشوارع بالمدن الفارسية والعراقية ويطالب الناس ، فمن تأخر فى دفع ما عليه رشوا عليه ما يفسد ثيابه ، ويزعم البعض أن الله فى هذا اليوم يقدّر حظوظ الناس من سعادة أو شقاء كما كان الناس يعتقدون ذلك فى أول السنة قديماً ، وكانت هذه الأيام أيام اللهو والطرب و إظهار السرور عند الفرس[٦] .

---

(١) الولاة للكندى ص ٢٩٤ ؛ والمقريزى فى الخطط ج ١ ص ٢٦٧ ، «والنيروز بمصر فى أغسطس حيث يوقد الناس النار ويرشون الماء» انظر زيج قرطبة لسنة ٩٦١ م طبعة دوزى ص ٥٨ . (٢) الخطط ج ١ ص ٢٦٩ ، ٤٩٣ . (٣) وكذلك فى أوروبا فى الأيام التى بين ليلة الميلاد وليلة الغطاس ، ففى بعض أجزاء ألمانيا يضرب الأطفال آباءهم وأقاربهم فى عيد الميلاد ، وكذلك فى بلغاريا يضرب الخدم ساداتهم فى رأس السنة .

(٤) الآثار الباقية للبيرونى ص ٢٦٦ . (٥) مجلة المشرق مجلد ٣ ص ٦٦٨ .

(٦) مروج الذهب ج ٣ ص ٤١٣ ، والآثار الباقية ص ٢٢٥ ، والقزوينى على هامش الدميرى ج ١ ص ١٢٧ ، والثعالبي فى مجلة ZDMG, VI, s. 389 .

وكان بعد عيد النيروز بمائة وأربعة وتسعين يوما عيد المهرجان ، وكان يُعتبر أول أيام الشتاء ، وظل إلى جانب النيروز أكبر الأعياد ؛ وكان الناس تهادون كما يتهادون فى النيروز ؛ وكان القواد ورجال دار الخلافة تُخلع عليهم فيه ملابس الشتاء[١]، وكان العامة يغيّرون فيه الفرش والآلات وكثيراً من الملابس[٢]، وكان هذا العيد يمتاز خاصة بأن الرعية يهدون فيه إلى السلطان . وقد جاء المهرجان مرة وأبو إسحاق الصابى فى الحبس بأمر عضد الدولة ، فكتب إليه قصيدة و بعثها إليه مع درهم خسروانى وجزء من كتاب ، فكان مما قاله :

أتتك الهدايا فيه بين موفر ... على قدر المهدى وبين زهيد
فكان احتفالى فى الهدية درهما ... يطير مع الأنفاس يوم ركود
وجزءاً لطيفاً ذرعه ذرع محبسى ... وتقييده بالشكل مثل قيودى[٣]

أما رأس السنة الهجرية فإنه لما كان متنقلا دائما ليس له موعد ثابت لم يصر عيداً من الأعياد الشعبية ، بل ظل عيداً فى قصر الخلافة لا يحيط به ما كان يحيط بغيره من الفخامة ، وكان الناس يتهادون فيه أيضا[٤] .

وكان من العادات بقصور العباسيين نثر الزهور ، وهى عادة أصلها يرجع إلى الأعياد الطبيعية ، ويحكى عن الخليفة المتوكل — وكان محبا للأبهة — أنه أمر أن تُضرب لذلك خمسة آلاف درهم وتُلوّن بالحمرة والصفرة والسواد وغيرها لتنثر على أصحاب الرتب بقصر الخلافة[٥] . وكان يصنع للخليفة بمصر قصر من الورد بقرية من قرى قليوب كان بها جنان وورود كثيرة ، وكان الخليفة يخرج فى يوم

---

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٦٥ ، والآثار البيرونى ص ٢٢٣ ، وديوان كشاجم فى كثير من المواضع . (٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٤٠٤ ، وسكردان على هامش المخلاة ص ١٦٣ .
(٣) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٥٨ . (٤) فيما يتعلق بعمال فارس انظر ابن الأثير ج ٩ ص ٤١ ، وفيما يختص بمصر راجع المقريزى ج ١ ص ٤٩٠ ، ٤٩٢ .
(٥) كتاب الديارات ص ٦٨ ب .

يسمى يوم قصر الورد إلى تلك القرية متنزهاً ، ويخدم هناك بضيافة عظيمة[١] .

أما العيدان الدينيان عند المسلمين فهما عيد الأضحى وعيد الفطر ، وكانا إلى جانب النيروز الفارسى أكبر الأعياد عند أهل بغداد[٢] ، وكان أهل البصرة يسمّنون الأضاحى سنة وأكثر ، ثم تباع لعيد النحر الواحدة منها بعشرة دنانير[٣] . ويحكى أنه فى آخر يوم من رمضان سنة ٣٨٠هـ حمل يأنس الصقلبى صاحب الشرطة السفلى السماط وقصور السكر والتماثيل وأطباقاً فيها تماثيل من الحلوى ، وحمل أيضاً على بن سعد المحتسب القصور وتماثيل السكر وطافا بها فى شوارع القاهرة . وكانت تعمل أسمطة أخرى فى القصر يحضرها الخليفة بنفسه فى يوم عيد الفطر وعيد النحر ، ففى عيد الفطر كان يعمل سماط طوله ثلاثمائة ذراع فى سبعة أذرع من الخشكنان والفانيد والبسند ؛ فإذا صلى الخليفة الفجر جلس ومكّن الناس من ذلك السماط (مائدة طويلة) الممدود فيهجمون عليه وينهبونه ويحملونه[٤] . وكان هـذان العيدان هما العيدان الوحيدان الكبيران اللذان كانا يحتفل بهما بالأبهة الإسلامية احتفالا رسميا ، وكان لذلك يبلغان منتهى الروعة والأبهة فى البلاد التى يكون الشعور الإسلامى فيها على أقواه مثل طرطوس[٥] ؛ حيث كان يأتى غزاة المسلمين من كل أنحاء المملكة الإسلامية حتى كان عيداها يعتبران من محاسن الإسلام . ولما ضاعت من المسلمين طرطوس بقيت صقلية مشهورة بحسن عيديها[٦] ، وكان يُذبح فى عيد النحر حيوانات كثيرة[٦] .

---

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤٨٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١١٧٠ (؟) . (٣) الأغانى ج ٣ ص ٦٢ .

(٤) المقريزى ج١ ص ٣٨٧ ، وأبو المحاسن ج٢ ص٤٧٣ وما بعدها ، ورحلة ناصر خسرو ص ١٥٨ من ترجمة شيفر ، وما حكى عن المسبّحى فى كتاب بكّر [Be]cker, Beitr[äge] [z]ur Geschichte Aegyptens I. s. 71 ff.

(٥) تاريخ بغداد مخطوط باريس ص ١٤ ب ، وأبو المحاسن ج ٢ ص ٦٧ .

(٦) المقدسى ص ١٨٣ .

وكان شهر رمضان هو الشهر الذى يتجلى فيه منتهى الكرم عند المسلمين ، ويحكى عن الوزير ابن عبّاد أن داره كانت لا تخلو فى كل ليلة من ليالى رمضان من ألف نفس تفطر فيها ، وأن صدقاته وقرباته فى هذا الشهر كانت تبلغ مبلغ ما يطلق منها فى جميع شهور السنة[1] . وكان ازدياد التكريم للنبى عليه السلام بين أهل الصلاح والورع سبباً فى أن صار يحتفل بمولده حوالى عام ٣٠٠ هـ ، وكان ذلك بدعة فى نظر المتمسكين بالعادات الإسلامية الأولى ، ويحكى عن الكرجى المتوفى عام ٣٤٣ هـ — ٩٥٤ م ، وكان من الزهاد المتعبدين أنه كان لا يفطر إلا فى العيدين وفى يوم مولد النبى عليه السلام[2] . وفى القرن السادس الهجرى أبطل الأفضل بن أمير الجيوش أمر الموالد الأربعة ، النبوى والعلوى والفاطمى ومولد الإمام الحاضر[3]. على أن أول من احتفل بمولد النبى عليه السلام احتفالا عظيما هو — كما يقال — الأمير أبو سعيد مظفر الدين الأربلى المتوفى عام ٦٣٠ هـ — ١٢٣٣ م ، وفى ذلك العيد كانت العادة جارية بقراءة السيرة النبوية مع إيثار الكلام فى قصة المعراج ؛ فكان ذلك عوناً كبيراً على تكوين السيرة النبوية[4] .

وكان أهم الأعياد العائلية عيد الختان ، ولم يكن قد صار بعد عيداً « خاصًّا »

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣٦ .
(٢) A O O W. 37 Nr. 129 . (٣) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤٣٢ .
(٤) الزرقاوى ج ١ ص ١٦٤ ، وكان يفد إلى هذا العيد الذى يقيمه الأمير طوائف الناس من بغداد والموصل والجزيرة وسنجار ونصيبين بل من فارس ، منهم العلماء والمتصوفون والوعاظ ، والقراء والشعراء ، وهناك يقضون فى أربلا من المحرم إلى أوائل ربيع الأول ، وكان الأمير يقيم فى الشارع الأعظم مناضد عظيمة من الخشب ، ذات طبقات كثيرة بعضها فوق بعض ، تبلغ الأربع والخمس ، ويزينها ويجلس عليها المغنون والموسيقيون ولاعبو الخيال حتى أعلاها ، ولم يكن للناس شغل إلا التمعى أمام تلك المناضد والتمتع بما يقدم لهم : وكان الأمير فى ليلة المولد نفسها يركب فى الشارع وبين يديه الشموع العظيمة كل منها مربوط فى بغل : وكان العيد ينتهى بموكب ووليمة (ابن خلكان طبعة فستنفلد ، ١ ؟

لأنه كان لا يزال محتفظا بالكثير من خصائص أعياد بلوغ الشباب عند القدماء ، وكان الرجل يكره أن يختن لابنه منفرداً ؛ ولذلك يحكى عن الخليفة المقتدر أنه فى سنة ٣٣٢ هـ ختن خمسة من أولاده وختن قبل ذلك جماعة من الأيتام ، ونثر فى هذا الختان خمسة آلاف دينار عيناً ومائة ألف درهم ورقا ، وفرقت فيه دراهم وكسوة ، ويقال إنه بلغت النفقة فيه ستمائة ألف دينار[١]. وحكى أبو جعفر الجزار عن عام ٣٤٠ هـ — ٩٥١ م أنه فى هذه السنة « أمر إسماعيل بن القاسم (الفاطمى) أن يكتب له أولاد القواد ووجوه رجاله من كتامة ، والعبيد والجند وضعفاء الناس من أهل القيروان وغيرها ، ليختتنوا ويحسن إليهم بالكسى والصلات ، فبلغوا أكثر من عشرة آلاف ، فابتدأ فى ختانهم ، وعمل ولائم وأطعم خاصة الناس وعامتهم ، وأعطى الصبيان على قدر مراتبهم من مائة دينار لكل واحد إلى مائة درهم وأقل من ذلك ، فكان يختن فى كل يوم من خمسمائة إلى ألف وثلاثمائة ، فأقام على هذا سبعة عشر يوما ، قال أبو جعفر الجزار : فسمعت من يقول من أهل الخدمة إنه أحصى ما أنفق فى هذا الختان فكان مائتى ألف دينار ، وحدث فى البلد عند ذلك من الإنفاق واللهو ما لم يُرَ مثله »[٢] ، وكان أكبر عيد بقصر الخلافة فى القرن الثالث الهجرى عيد ختان عبد الله المعتز بن المتوكل ، ويقال إن المتوكل أنفق فى ذلك ستة وثمانين ألف ألف درهم[٣] ، وهو مقدار يشبه ما يقال فى القصص الخيالية ؛ ولكن مصرّف الأقدار شاء أن يقتل هذا الولد الذى بلغ من محبة أبيه له وسروره به هذا المبلغ بعد حكم قصير وأن يقضى ابنه آخر أيام حياته فى فقر وآلام ، وأن يكون أميراً مغضوبا عليه .

وكانت حفلات الزواج أشهر أعياد قصور الخلافة من قبل إلى جانب حفلات

---

(١) المنتظم لابن الجوزى ص ١٠ ب . (٢) كتاب العيون والحدائق مخطوط برلين ص ٢٥٢ ب — ٢٥٣ ا . (٣) كتاب الديارات ص ٦٦ ا وما بعدها .

الختان ، فيقال إن نفقات زفاف هارون الرشيد بلغت خمسين ألف ألف درهم ، وإن نفقات زفاف المأمون بلغت سبعين ألف ألف درهم[١] . وفى سنة ٣١٠ هـ — ٩٢٢م قبض المقتدر على أم موسى القهرمانة ؛ لأنها زوجت ابنة أختها من أمير كان مرشحاً للخلافة وأكثرت من النثار والدعوات حتى خسرت الأموال الجليلة[٢]. وكان العامة يحاولون فى هذه المناسبات أن يظهروا من الغنى أكثر مما عندهم ، وكان يمكن لهم أن يستأجروا الزينة والآلات والفرش[٣] .

وأخيراً كان من الأعياد يوم الاحتجام ، وفيه يهدى أصحاب المحتجم له الهدايا ويُعمل له أجود الطعام[٤] ، وكان الذى يقوم بهذه العملية المزيّن ، وكان يعطى على ذلك حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م ديناراً[٥] .

---

(١) نفس المصدر ص ٦٦ ب .

(٢) زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ص ١٩٢ ا من مخطوط باريس .

(٣) كتاب الأغانى ج ٥ ص ١١٩ ، وانظر الفصل الخاص بالتجارة . وكان أول ما يؤكل فى حفلات الزواج بحسب عادة أهل بغداد طعام الهريسة (ديوان ابن الحجاج ١٠ ص ٧٩) ، وكان النثار أيضاً من العادات التى تعمل فى الزواج (يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٠) .

(٤) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ١٤١ .

(٥) نفس المصدر ج ١ ص ٢٧٠ وكان بعض الكبراء يتخذ لنفسه مزيناً (مسكويه ج ٦ ص ٢٤٧) .

الفصل الرابع والعشرون

الحاصلات

كان أهل المملكة الإسلامية كلهم تقريباً يتغذون بالخبز ، خلافاً للهنود ولسكان بلاد آسيا الشرقية ممن غذاؤهم الأرز ، وكانوا يتميزون عن هؤلاء الأخيرين بنوع خاص بأنهم جميعاً يشربون اللبن ، وكان هذان الغذاءان هما الأساسيان فى أوروبا ؛ إلا أن الخبز فى الشرق كان يُعمل أرغفة رقيقة مستديرة ، وهى الصورة التى كان يُعمل عليها فى أوروبا فى بعض القرى ، هذا إلى أن أنواع القمح فى أوروبا هى من جنس أنواعه فى البلاد الإسلامية سواء بسواء .

وكان أهم حادث فى الاقتصاد الزراعى الأوروبى فى العصور الوسطى هو إحلال الحنطة محل الذرة والشعير ؛ أما فى الشرق فكانت الحنطة قد استوطنت واستقرت منذ زمان طويل ، وكانت تزرع فى كافة البلاد التى يكون الماء فيها موفوراً ؛ أما الذرة فإنها بقيت مقصورة على الأجزاء الجافة فى جنوب المملكة الإسلامية ، مثل جنوب جزيرة العرب وبلاد النوبة وكرمان ، وذلك لأن الذرة تنتج بالماء القليل كالسمسم والمرطمان[1] ، « وكانت تؤكل كما يؤكل الأرز »[2] . وكانت العراق بلاداً أكثر ما يزرع فيها الحنطة ، وكان ارتفاع أسعارها يُذكر دليلا من دلائل غلاء المعيشة ، وكان الأرز يأتى فى المرتبة بعد الشعير ، وقد

(١) مجلة المشرق عام ١٩٠٨ (مجلد ١١) ص ٦١٤ .
(٢) كتاب الخراج ليحي بن آدم ص ٨٧ .

استلفت ذلك نظر الصينيين ؛ فيحدثنا الرحالة لنجوايتاتا Ling wai-tai-ta عن بغداد قائلا إن الناس جميعاً فيها يأكلون الخبز واللحم والسولو su-lo ؟ ولكنهم قلّ أن يأكلوا السمك والبقول والأرز ؛ وكتب صينى آخر عن مصر حوالى عام ١٣٠٠م : أن الناس يعيشون على اللحم والخبز ، ولا يأكلون أرزاً قط[١] .
وكذلك كانت الحنطة فى المكان الأول ببلاد خوزستان ، ولكنهم كانوا يعملون من الأرز خبزاً ، وكان الأرز قوتاً للشعب[٢] . ولم يكن خبز الأرز غالباً إلا فى طعام أهل مازندران بإقليم طبرستان ، ومازندران بلد تحيط به المستنقعات[٣] .

وكان يزرع بفلسطين ومصر نبات يشبه البطاطس عندنا ويسمى القلقاس[٤] ، وهو بقل نجد الدلائل على زراعته قديماً فى جزر اليونان وآسيا الصغرى ومصر ، وهو عبارة عن جذر مدوّر كبير الحجم عليه قشر ، وكان النبات الأساسى الذى يتغذى به أهل بولينيزيا قبل مجىء الأوروبيين ، ويصفه المقدسى[٥] بأنه «شىء على قدر الفجل المدوّر ، عليه قشر ، وفيه حدة ، يقلى بالزيت ، ويطرح فى الكسباج» ، وهو يقشر ويطبخ ويرمى الماء الذى يطبخ فيه ، وبعد ذلك يقلى بالزيت[٦] ، وهو

(١) انظر كتاب Chau-Ju-Kua ترجمة هيرث Hirth ص ١٣٧ ، ١٤٤ ، وكذلك يذكر سترابو Strabo XV I زراعة الأرز فى العراق ، ولكن لا بد أنها كانت قليلة ، فلا نجد لها أثراً فى التلمود ، ولا نجد له ذكراً بالكلية فى كتاب كراوس Krauss talmndische Archaologie ، وكانت الحنطة التى تزرع فى الشام قبل الحنطة العراقية تسمى القمح ، وهى تذكر فى العهد القديم إلى جانب الحنطة العراقية ، وهى التى نقلت لمصر بهذا الاسم (انظر : Kremer S w A 1880 . وفى العصر العربى كانت الحنطة لغة كوفية والقمح لغة شامية ، وفى الجزيرة العربية يسمى البر (البيان والتبيين ج ١ ص ٩) ، وربما كان الأخير من جنس الذرة (وكلمة dxata باليونانية معناها الخبز ، والدرفا durva نوع من الذرة) وكلمة القمح لا تزال حتى اليوم هى الكلمة التى نسمعها فى الشام كله ولا نسمع غيرها حتى إذا وصلنا تدمر سمعنا فجأة الكلمة العراقية حنطة :

(٢) ابن حوقل ص ١٧٣ . (٣) نفس المصدر ص ٢٧٢ .

(٤) المقدسى ص ٢٠٣ ، وقد رآه عبد اللطيف فى دمشق حيث كان قليلا (رحلة عبد اللطيف البغدادى ترجمة دى ساسى ص ٢٣) ، (٥) المقدسى ص ٢٠٤ .

(٦) رحلة عبد اللطيف ص ٢٣ .

على نوعين : رؤوس وأصابع ، والأصابع أحسنه وأطيبه وأغلى من الرؤوس[1] «وهو من مأكولات فصل الشتاء ، وهو ألذ ما يؤكل فى هذا الفصل إذا أكل باللحم الضأن »[2] . وكان الكرم أكثر مايزرع من الفواكه ؛ وقد ذكر الماوردى[3] أن الكرم (شجر العنب ، وإن كانت كلمة الكرم كانت تطلق فى العراق قديماً على الحقل المزروع بالجملة) حتى فى العراق كان له المقام الأول بين الفواكه ، وكان كثير الأصناف والضروب حتى يقول ابن الفقيه : « ولو أن رجلا خرج من بيته مسافراً فى عنوان شبيبته وحداثة سنه ، واستقرى البلدان صقعاً فصقعاً يتتبع الكروم مصراً فمصراً ، حتى يهرم ، وصغيراً حتى يبدن ، لتعرف أجناسه وإحاطة العلم بأنواعه ، بل إقليما واحداً من الأقاليم وناحية من أقطار الأرض ، لأعوزه وغلبه ، وعزّه وبهره ، إذ كانت كثرة فنونه واختلاف أنواعه لا تدرك »[4] ، وكانت عناقيد العنب أكبر ما تكون فى اليمن ، ويُحكى أن بعض عمال الرشيد حمل إليه وهو يؤدى فريضة الحج مرة عنقودين من العنب فى محملين على بعير ، وربما كان يحمل من جبال أرمينية وأذربيجان أخونة عظيمة جدا يكون دور بعضها عشرين شبراً من خشب الكرمة[5] ، وكانت الأسماء الكثيرة التى تسمى بها أصناف العنب أسماء شعبية إلى حد ما ، مثل عين البقرة ، والسكر ، وأنملة القزم ، والقوارير ونحوها ؛ ولكنه كان ينسب فى الغالب إلى البقعة التى يجلب منها كالصقلى والجُرَشى والمُلَّشى ، وقد انتشر العنب — الذى قال سترابو (فى XV) إن المقدونيين كانوا أول من نقله إلى العراق[6] وفارس — فى جميع المملكة الإسلامية ، ثم جاء

---

(١) المدخل لابن الحاج ج ٣ ص ١٤٣ .
(٢) هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف للشربينى طبعة إسكندرية ١٢٨٩هـ ص ٢١٢ .
(٣) الأحكام السلطانية طبعة انجر ص ٣٠٤ . (٤) ابن الفقيه ص ١٢٥ .
(٥) نفس المصدر . (٦) رسائل الخوارزمى ص ٤٩ .

الفتح العربي لجلب إلى المشرق أنواعاً أخرى ؛ فمثلا نقل العنب الطائفي الذى ينسب إلى مدينة الطائف المجاورة لمكة إلى العراق ، كما نقل إلى قرب هراة ببلاد أفغانستان وصار يزرع فيها[1] ، وذكر ابن حوقل عن أهل مدينة زُغر وهي مدينة قريبة من البحر الميت أنهم يلقحون كرومهم وكروم فلسطين كما يلقح النخيل بالطلع الذكر ، وكما يلقح أهل المغرب تينهم[2] ، وقد أضاف القرن الثالث الهجرى إلى الفواكه التى كانت موجودة فى المملكة الإسلامية فاكهتين : وهما الأترج والنارنج ، وكلاهما كان يقدم إلى الناس فى الاحتفال بختان المعتز بن المتوكل حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى ، وذلك إلى جانب ما عزّ من الفواكه الغالية . وقد نوه حاكى هذا الخبر فى القرن الرابع بأن هاتين الفاكهتين كانتا قليلتين فى ذلك الوقت[3] ، وذكرهما ابن المعتز فى شعره حيث يقول[4] :

كأنما النارنج لما بدت　　صفرته فى حمرة كاللهيب
وجنة معشوق رأى عاشقاً　　فاصفر ثم احمر خوف الرقيب

ويقول أيضاً :

يا حبـــذا ليمونة　　تحدث للنفس الطرب
كأنها كافورة　　لها غشاء من ذهب

ولكن يظهر أنهما بقيتا مقصورتين على طائفة قليلة من الناس .

ويقول المسعودى حوالى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٤ م « وكذلك شجر النارنج والأترج المدوّر جلب من أرض الهند بعد الثلاثمائة فزرع بعمان ثم نقل إلى البصرة والعراق والشام حتى كثر فى دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغر الشامى

(١) الأصطخرى ص ٢٦٦ .　　(٢) ابن حوقل ص ١٢٤ .
(٣) كتاب الديارات الشابشتى ص ٦٥ أ — ب .
(٤) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ١٠٦ .

وأنطاكية وساحل الشام وفلسطين ومصر ، وما كان يعهد ولا يعرف فعدمت منه الروائح الطيبة واللون الحسن الذى يوجد فيه بأرض الهند لعدم ذلك الهواء والتربة والماء وخاصية البلد »[١] . وكان للخليفة القاهر فى بعض الصحون بقصره بستان نحو من جريب قد غرس فيه النارنج وحمل إليه من البصرة وعمان مما حمل من أرض الهند ، قد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره ، وكان القاهر كثير الشرب عليه والجلوس فيه[٢] . وفى عصر المقدسى كان الأترج والنارنج يزرعان بفلسطين ؛ وهو يقول إنهما فى فلسطين أحسن منهما فى غيرها[٣] . وفى القرن الرابع الهجرى وصفه ابن حوقل الأترجة لقرائه فهو يقول : « وهى (المنصورة بالسند) مدينة حارة بها نخيل ، وليس لهم عنب ولا تفاح ولا جوز ولا كمثرى ، ولهم قصب سكر ، وبأرضهم ثمرة على قدر التفاح تسمى الليمونة ، حامضة شديدة الحموضة »[٤] ، وكذلك يقول المقدسى عند الكلام على السند : « وخصائصهم ليمونة وهى ثمرة مثل المشمش حامضة جدا ، وأخرى مثل الخوخ يسمونها الأنبج »[٥] . وظل الأترج طول القرن الرابع من الفواكه المستوردة[٦] ، حتى حملت فيما بعد إلى البصرة وعمان ثم جلبت إلى العراق[٧] . « وكان من جملة أصناف الليمون بمصر فى العصور المتأخرة ليمون يقال له التفاحي ، يؤكل بغير سكر لقلة حموضته ولذة طعمه »[٨] ؛ وكذلك ما يسمى بالليمون الشتوى والليمون المائل[٩] . ولم يكن

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٣٨ — ٤٣٩ ، والخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٨ .
(٢) مروج الذهب ج ٨ ص ٣٣٦ — ٣٣٧ . وكان القاهر يقول : إن هذا البستان لذته من الدنيا .
(٣) المقدسى ص ١٨١ .
(٤) ابن حوقل ص ٢٢٨ .
(٥) المقدسى ص ٣٢٨ .
(٦) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٨٢ .
(٧) القزوينى على هامش الدميرى ج ٢ ص ٣٠ وما بعدها ، ولا نجد فى إحصاء الفاكهة بالأندلس ، وهو الذى جاء فى فتح قرطبة لسنة ٩٦١ م ذكراً للنارنج ولا للأترج .
(٨) المقريزى ج ١ ص ٢٧٣ .
(٩) ثمرات الأوراق ج ٢ ص ٢٤٤ .

الناس يستعملون هذا الثمر فى تحضير شراب الليمون ، بل كانت عادة الكبراء ببغداد فى القرن الرابع شرب الماء المثلج ، يقول الصابى[١] :

لهف نفسى على المقام ببغدا ... د وشربى من كوز ماء بثلج
نحن بالبصرة الذميمة نسقى ... شر سقيا من مائها الأترجى
أصفر منكر ثقيل غليظ ... خاثر مثل حقنة القولنج
كيف نرضى بشربه وبخير ... منه فى كنف أرضنا نستنجى

وكان أكثر ما يباع من الثمار فى الأسواق البطيخ ، ولذلك كان سوق بيع الفاكهة يسمى دار البطيخ[٢] وكان شمال فارس بنوع خاص مشهوراً بصحة الفاكهة وجودة البطيخ ، وكان يبلغ من صحة البطيخ أنه كان يقدّد ويحمل إلى العراق ، ولم يعلم أن هذا ممكن فى غير تلك البلاد[٣] . ويؤيد الرحالة ماركو بولو ذلك بقوله : « إن بطيخ مدينة شبرقان (بين مرو وبلخ) كان يقطع حلقات رقيقة كما يفعل الأوروبيون بقاوون الشهد ، وبعد أن تقدد وتجفف فى الشمس ترسل كميات كبيرة لتباع فى البلاد المجاورة »[٤] . وكان بطيخ مرو يرسل إلى الخلفاء ببغداد طازجاً ، فكان يحمل إلى المأمون أولا ثم إلى الواثق فى قوالب الرصاص معبأة بالثلج ، وكانت تقوم الواحدة منه إذا سلمت ووصلت بسبعمائة درهم[٥] ، وفى ذلك الزمان كان للرمان من الشأن فى المطابخ ما للطماطم الأمريكية

---

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٤٧ .

(٢) المضاف والمنسوب للثعالبى فى مجلة Z D M G, VIII, 524 . ويحكى أن ابن الرومى مدح الوزير إسماعيل بن بلبل بقصيدة أكثر فيها من ذكر الفواكه ، فسماها عامة بغداد دار البطيخ تشبيها لها بالموضع الذى تباع فيه الفواكه على اختلافها ، وهو يسمى دار البطيخ (الفخرى طبعة آلفارت ص ٢٩٩) ؛ ويتيمة الدهر (ج ٢ ص ١٣٢) حيث يقول ابن لنكك : « كدار بطيخ تحوى كل فاكهة » . (٣) الأصطخرى ص ٢٦٢ . (٤) Marco Polo I, 24

(٥) لطائف المعارف للثعالبى ص ١٢٩ ، ومعظم إقليم مرو فى عصرنا صحراوى ، ولكن بخارى وهى شبيهة بمرو فى موقعها مشهورة ببطيخها . ويذكر أن متولى أمور الزراعة فى

فى مطابخ أوروبا الجنوبية فى أيامنا هذه ، وقد ذكرنا أن سفناً كثيرة كانت تسير فى الفرات قاصدة بغداد محملة بقراقير الرمان إلى جانب أطواف الزيت والخشب[١] .

وكان أحسن التفاح فى ذلك العصر تفاح الشام ، حتى كان مضرب المثل فى الحسن[٢] . وقد جُلب إلى مصر[٣] وكان يُحمل إلى الخلفاء فى كل سنة منه ثلاثون ألف تفاحة[٤] . وهو لا يعيش فى المشرق « لأنه لا يقوى على احتمال هواء الصحراء الحار اليابس »[٥] .

وكانت تجارة التمر سببا فى تصدير مقادير كبيرة منه ، وكانت العراق[٦] وكرمان وشمال إفريقية أكبر مراكز إنتاج التمر ، وكان التمر العراقى أجود الأنواع ، وقد ذكرت منه أنواع كثيرة ، وكانت قسطلية وقابس كثيرة التمور حتى كان فى بعض السنين يباع وقر الجمل بدرهمين[٧] وكانت كرمان كثيرة التمور حتى كان أهلها لا يرضون ما وقع من النخل ، وربما بيع فى بعض بلادها مائة منّ بدرهم . وكان رسم الحمالين أنهم يحملون التمر إلى خراسان مناصفة ، ويقصدها فى كل سنة مائة ألف جمل يدخلونها على غفلة ؛ ويكثر الزنا والفساد فى هذه القوافل[٨] . وكذلك

= واشنجتن استوردوا من البطيخ البخارى للى الولايات المتحدة أنواعاً وزرعوها فكانت أحسن بطيخ فى الولايات المتحدة، انظر Busse Bewösserwgs Wirtschaft in Turan, s. 241 .

(١) كتاب الوزراء ص ٢٥٧ . (٢) مروج الذهب للمسعودى ج ٧ ص ٢٧٠ ولطائف المعارف للثعالبى ص ٩٥ .

(٣) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٢٢٩ . (٤) لطائف المعارف للثعالبى ص ٩٥

(٥) W. Busse, Bewösserungs Wirtschaft in Turan, s. 316 .

(٦) وعلى أننا نجد اليوم أن حدود الإقليم الذى يزرع فيه شجر النخل تنتهى بمدينة عانة على الفرات وتكريت على دجلة ، فقد كانت سنجار فى ذلك العصر مدينة من مدن التمر . (ابن حوقل ص ١٤٩ ، والمقدسى ص ١٤٢) .

(٧) المقدسى ص ٢٣٠ ، وفى وادى دراعة يكون التمر رخيصاً جدا ، حتى ربما يبيعه فى بعض السنين الجيدة حمل الجمل بنصف دينار . انظر : ...ls Mein erster Aufenthalt in Maroco. s. 44 .

(٨) المقدسى ص ٤٦٩ .

كانت القوافل التي تسير من شمال إفريقية إلى بلاد السودان مجتازة الصحراء تحمل التمر في الغالب ، وكانوا يعودون بسبي العبيد والذهب ، وكان أكبر مركز لتجارة التمر هذه مدينة سجلماسة في جنوب مراكش[١] .

أما شجر الزيتون فهو من نباتات إقليم البحر الأبيض المتوسط ، وكانت الشام وإفريقية الشمالية تمدّان المملكة الإسلامية كلها بالزيت ، وكان أحسنه ما يأتي من الشام[٢] حيث كانت مدينة نابلس خاصة كثيرة الزيتون[٣] . وكان الزيت يُحرز في جباب كبيرة بمدينة حلب ، ولما بلغ الروم إلى هذه المدينة عام ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م عمدوا إلى هذه الجباب فصبوا فيها الماء حتى فاض الزيت على وجه الأرض[٤] . وكانت تونس من قبل تغذى روما بالزيت ، وكان بمدينة سفاقس في القرن الرابع من الزيت الكثير والزيتون ماليس بغيرها ، حتى ربما كان يباع ستون وسبعون قفيزا بدينار[٥] . ولا تزال شجرة الزيتون تلقى من العناية في هذا الإقليم مالا تلقاه في أي بلد من بلدان البحر الأبيض المتوسط[٦] . وكان الناس في مصر يستخرجون زيت المصابيح من بذور البنجر والقت ، ويسمونه الزيت الحار[٧] . أما في العراق وأفغانستان فكان عندهم زيت السمسم[٨] . وقد غرست

(١) جغرافية الإدريسي طبعة دوزى ص ٤ ، ٦ ، ٢١ .

(٢) يقول الزمخشرى في تفسير قوله تعالى : « لا شرقية ولا غربية » أي منبتها الشام ، وأجود الزيتون زيتون الشام . (سورة النور آية ٣٥) .

(٣) المقدسي ص ١٧٤ . (٤) مسكويه ج ٦ ص ٢٥٥ .

(٥) ابن حوقل ص ٤٧ .

(٦) The, Fischer, Mittelmeerbilder Bd. I, s 432 .

(٧) رحلة ناصر خسرو ص ٧٦ من النص الفارسي ، وكان شجر الزيتون يزرع في نواحي الإسكندرية (المقدسي ص ١٩٧) . ويقول القلقشندي (Wüstenfeld, s. 34 ترجمة صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١٢) إن الزيتون قليل بمصر ولا يستخرج منه الزيت بل كان يؤكل مملحاً .

(٨) Krausa, Talmudische Archäologie, s. 226 ، وانظر كتاب Marco Polo . وقد جاء في التلمود أنه كان في العراق بعض شجر الزيتون Krausa, s. 275 .

فى فارس أشجار الزيتون من جديد .

ونظرا لأن السكر كان غالى الثمن فقد كان قصب السكر يزرع فى جميع البلاد التى تمكن زراعته بها ؛ حتى لقد زرع فى كابل وصور[١] . ولم يتكلم أحد من الجغرافيين فى القرن الرابع عن زراعته فى مصر ، وإن كان يدل على زراعته بها أوراق البردى التى يرجع تاريخها إلى القرن الثانى الهجرى[٢] ، ولكن يظهر أنه أصبح ذا شأن فى القرن الخامس الهجرى — وربما كان ذلك لانفصال مصر عن المغرب سياسيا ، ويقول ناصر خسرو حوالى عام ٤٤٠ هـ — ١٠٤٨ م : « وتنتج مصر عسلا كثيرا وسكرا »[٣] . وكان أكبر مركز لصناعة السكر إقليم خوزستان وخصوصا مدينة جنديسابور ، حتى كان يقال إن عامة سكر خراسان والجبل منها[٤] . وكان الإقليم المحيط بالبصرة أشهر مكان بصناعة السكر فى العراق[٥] . وكذلك عنى المسلمون فى الأندلس بالسكر وجعلوه من الغلات المستوطنة فى بلادهم[٦] . وكان لأهل اليمن تفنن فى صناعة معقّدات الفاكهة من أترج وجزر وقرع وخوخ ونحوها مما إذا شرع فيه الجاهل قضم على طيبه بعض أنامله ، ولهم الشهد الجامد الذى يقطع بالسكاكين ويُهدى إلى العراق ومكة وسائر البلدان ، وهو يعمل بطريقة خاصة ؛ وذلك أنه يُحرّ فى الشمس ويوضع فى قصب اليراع ، ثم يوضع القصب أياما فى مكان بارد حتى يعود إلى جموده ، ثم تُختم أفواه القصب بالقصة

---

(١) المقدسى ص ١٦٢ ، ١٨٠ ، وكان لأهل مدينة البرقية أيام الحروب الصليبية مزرعة قصب فى مدينة صور Tafel und Thomas Urkunden, s. 368 .

(٢) دليل أوراق البردى (مجموعة رينر) Führer durch die Ausstellung der Papyrus Rainer s. 163 .

(٣) رحلة ناصر خسرو ص ٧٤ من النص الفارسى . (٤) المقدسى ص ٤٠٨

(٥) المحاسن والمساوى للبيهقى ص ٦٢٢ .

(٦) فيما يتعلق بالقرن الرابع انظر تقويم قرطبة طبعة دوزى ص ٢٥ ، ٤١ وانظر Rasis Moro Crón. J. Gay Mem. Acad. Madrid VIII, 37, 39, 50

وتصدّر ، فإذا أُريد وضعه على الموائد ضُربت القصبة بالأرض فانفلقت عن قصبة عسل تقطع بالسكاكين على طيفورية أو رغيف[١] .

وكان يخرج من بحيرة وان سمك صغير يعرف بالطّريخ (تقابله الكلمة اليونانية thrissa يقوم مقام سمك البقلة المجفف عندنا ، فكان يملّح ويحمل إلى الجزيرة والموصل وحلب وسائر الثغور[٢] ، أما فى المغرب فكان يقوم مقامه السمك المسمى بالتنّ (وباليونانية thynnos) ، ومنها كان يجفف ويباع ، وكان يصاد برماح فى أسنتها أجنحة بازرة تنشب فيه ولا تخرج[٣] . وكان العامة يزعمون أنه يهاجر فى كل سنة إلى البحر الأبيض المتوسط ليحجّ إلى صخرة معروفة فيه[٤] .

وكان من الأطعمة المحبوبة الطين الذى يؤكل فى آخر الطعام ، وأحسنه ما كان يجلب من ناحية كران ، وهو أخضر كالسلق وأشرق منه ، ولا نظير له[٥] . وكذلك ورد ذكر الطين الأبيض العادى فى كلام الشعراء[٦] . وكان الأخضر يجلب بكثرة من بلاد قوهستان[٧] . وكان يجلب من نيسابور طين يسمى بالنقل ، يحمل إلى أدانى البلاد وأقاصيها ، ويتحف به الملوك والسادة ، وكان الرطل منه ربما يباع فى مصر وبلاد المغرب بدينار[٨] . وكذلك كان الطين يصدّر من المغرب

(١) وصف جزيرة العرب للهمدانى طبعة مولر ص ١٩٨ — ١٩٩ .

(٢) ابن حوقل ص ٣٤٨ ، ومعجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٤٥٧ ، وجغرافية أبى الفدا طبعة رينو ص ٥٣ ، وبحيرة وان بحيرة ملحة Le Strange, Mustawfi, P. 51 .

(٣) الإدريسى طبعة دوزى ص ١٦٨ .

(٤) جغرافية أبى الفدا طبعة رينو ج ٢ ص ٢١٥ .

(٥) ابن حوقل ص ٢١٣ ، لا « الذى يشبه طعمه طعم العنبر » Le Strange, the Lands of the eastern Califplate, 2 ، وكثيراً ما نشبه الأشياء الخضراء بالسلق .

(٦) يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٠٧ :

ذاك الذى يحسب فى شكله · قطاع كافور عليها عبير

(٧) اصطخرى ص ٢٧٤ .   (٨) لطائف المعارف

إلى المشرق من طليطلة فيحمل إلى مصر والشام والعراق وبلاد الترك[١] . على أن كثيراً من الفقهاء حرموا أكل هذا الطين[٢] .

« وكان يرتفع من مفازة سجستان فيما بينها وبين مكران غلة عظيمة من الحلتيت؛ حتى إنه قد غلب على طعامهم ويجعلونه فى عامة أطعمتهم »[٣]، ولا يزال هذا الطعام الكريه الرائحة من أكبر صادرات البنجاب فى أيامنا ، ومنها يحمل إلى كوتا ثم إلى أفغانستان[٤]، وكان فى العصور الوسطى يُحمل من هناك إلى الصين[٥] .

وكان التجار البحريون المسلمون يحملون الكافور من جزيرتى بورنيو وسومطرة إلى الغرب وإلى الصين[٦]، وكان العنبر من أحسن البهارات المرغوبة ، أما البخور الذى كان أكبر صادرات اليمن فى العصور الأولى فقد بطل استعماله فى المملكة الإسلامية ، وأصبح من العادات القديمة ، وهو لا يزال يذكر فى بعض الأحيان[٧] ، ولكن حل محله العنبر ، وكان أحسن أنواعه ما يُجلب من جنوب جزيرة العرب[٨] .

وكانت كثرة تنوع الملابس فى مملكة الإسلام ناشئة من أن كل إقليم كان يستعمل من اللباس ما جرى عليه منذ البداية ، فكان البدوى يلبس ملابس تتخذ من صوف الضأن الأبيض وصوف الماعز الأسود ، وكان أهل برقة يلبسون ملابس محمّرة ، حتى كانوا فى القرن الرابع بالفسطاط يعرفون من بين جميع أهل المغرب بحمرة ثيابهم[٩] ؛ وإنما كانوا يتخذون الملابس الحمراء لأن مدينتهم فى

---

(١) الإدريسى ص ١٨٨ . (٢) كنز العمال على هامش المسند لابن حنبل ج ٢ ص ١٩١ ، وكتاب الطل ص ٢٠٧ ا . (٣) الأصطخرى ص ٢٤٤ .

(٤) Revue du monde Musulman v, P. 137 .

(٥) Chau Ju Kua, trans Hirth 224 .

(٦) نفس المصدر ص ١٩٣ ، وانظر سلسلة التواريخ طبعة رينو ص ٢٦ .

(٧) الأصطخرى ص ٢٥ والمقدسى ص ٢٠٠ . (٨) جغرافية اليعقوبى ص ٦٦

(٩) ابن حوقل ص ٤٣ .

صحراء حمراء التربة والمبانى ؛ فكانت تحمّر لذلك ثياب ساكنيها والمتصرفين فيها[1]. ولكن التجارة كان لها بالإجمال أثر فى توحيد لون الملابس ، وسرعان ما انتشرت فى جميع أنحاء مملكة الإسلام المادتان الأساسيتان فى الصباغة وهما : النيل للتلوين باللون الأزرق ، والقرمس للتلوين باللون الأحمر (ومن كلمة قرمس أخذت الكلمة الأوروبية crimson أو Karmoisin ، وكان يباع فى مدينة كابل وما حولها فى كل سنة من النيل بما يبلغ ألفى ألف دينار[2] ، ولذلك فإن شجر النيل كان بسبب غلاء ثمنه يزرع فى كل البلاد التى تصلح لزراعته ، كما كان شأن السكر ، فكان يزرع فى مصر بالصعيد — وكان أهم ما يزرع فى الواحات[3] — وببلدتى زُغَر وبيسان بفلسطين[4] وفى كرمان وبالقرب من البحر الميت ، حيث كان للنيل تجارة كبيرة ، وكان يقرب من نيل كابل فى الجودة[5] . وكان شجر النيل بمصر يُحصد فى كل مائة يوم وهو يبقى فى الأرض الجيدة ثلاث سنين ، وفى السنة الأولى يسقى فى كل عشرة أيام دفعتين ، وفى السنة الثانية ثلاث دفعات ، وفى الثالثة أربع دفعات[6] ، فنلاحظ أن زراعة النيل كان منشؤها البلاد التى تتبع نظام الرى على قاعدة العشرة الأيام .

أما القرمز فكان أكبر مصدر له بلاد أرمينية وخصوصاً إقليم أرارات[7] ومنها كان يُحمل إلى الهند وسائر المواضع[8] .

(١) كتاب البدء والتاريخ للمطهر المقدسى ج ٤ ص ٧٢ ، وجغرافية البكرى طبعة Slane ص ٥ . (٢) ابن حوقل ص ٣٢٨ ، ومنذ القرن السادس أو أوائل السابع كان النيل معروفاً عند أهل الصين بأنه من حاصلات بلاد فارس (انظر كتاب Chau Ju Kua ترجمة Hirth ص ٢١٧) . (٣) جغرافية الإدريسى طبعة دوزى ص ٤٤ ، وكان النيل المصرى يعتبر أقل جودة من الهندى (رحلة عبد اللطيف ص ٣٦) .

(٤) المقدسى ص ١٨٠ . (٥) ابن حوقل ص ١٢٤ ، والمقدسى ص ١٧٤ ، والإدريسى طبعة برانديل ص ٥ . (٦) المقريزى فى الخطط ج ١ ص ٢٧٢ وقد تكلم بولو (ج ٢ ص ٢٥) عن صناعة النيل بالهند .

(٧) الأصطخرى ص ١٨٨ . (٨) نفس المصدر ص ١٩٠ .

وكان يستعمل للتلوين باللون الأصفر الزعفران النقى والعصفر والزعفران العربى المسمى الورس وهو نبت يشبه السمسم ويكون فى اليمن[١] ، وكانت جمال اليمن التى تحمل الزعفران إلى الشمال تصفر ألوانها بتأثير لون أحمالها الغالية ، وكان يندر أن يكون للورس شأن واعتبار إلى جانب صاحبيه . على أن الإيطاليين سموا خشب البرازيل بلفظ verzino أخذاً من كلمة ورس العربية . وكان للزعفران نصيب عظيم من التقدير ، ويحكى أن الخليفة المتوكل لما أرسل رسوله إلى ملك الروم فى أمر الفداء عام ٢٤٦ هـ — ٨٦٠ م بعث فى جملة هداياه القيمة مقداراً كبيراً من الزعفران[٢] . وكان الزعفران لعظم قيمته يزرع فى كثير من البلاد كالشام وجنوب فارس ، ولكن ميديا القديمة كانت أكبر موطن له[٣] . أما فى المغرب فكانت تحمل منه مقادير كبيرة من طليطلة[٤] .

أما البورق فلم يكن يوجد إلا فى بحيرة وان بشمال فارس ، وكان يصدّر للخبازين فى بلاد العراق وما بين النهرين ، وكان يسمى بورق الخبز ، وكان يستعمل فى تلميع الخبز[٥] ، وكان يوجد إلى جانبه بورق الصاغة ، وكان يُحمل من بحيرة أرمية إلى العراق والشام ومصر فيُربح فيه الربح العظيم[٦] .

وكان الشب أهم ما يستخرج حول بحيرة شاد بالسودان ، وكان رأس مال أهل هذه البلاد ، فكانوا يتجوّلون به فى جهة المشرق حتى ينتهوا إلى مصر ، وينصرفون فى جهة المغرب حتى يصلوا بلاد المغرب الأقصى[٧] . وكان الملح الذى

---

(١) الجوهرى تحت كلمة ورس ، وفقه اللغة للثعالبي طبعة القاهرة ص ١١٢ ، والهمدانى ص ٢٠٠ ؛ وعجائب المخلوقات للقزوينى ج ٢ ص ٧٦ . (٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٤٤٩ — ١٤٥٠ . (٣) Karabacek, die persische Nadelmalerei s. 52 ff.

(٤) المقرى ج ١ ص ٤٨ . وانظر Mono Hasis, p. 50 .

(٥) عن رسالة فى الكيمياء العربية فى كتاب Berthelot, La chimie au moyen âge, II, p. 68, 145, note 4. (٦) ابن حوقل ص ٢٤٨ .

(٧) الإدريسى طبعة دوزى ص ٣٩ — ٤٠ .

يستخرج من مناجم الصحراء يشتغل بحمله آلاف من الجمال والحمالين ، كما كان الملح الذى يستخلص من المحيط الأطلسى يُحمل إلى أعماق السودان[١] . وكان ملح النوشادر ، وهو من أهم الأملاح الكيماوية فى ذلك العهد ، يوجد فى نقطتين متقابلتين بأقصى المملكة الإسلامية ، وهما صقلية وبلاد ما وراء النهر[٢]، وكانت الثانية أهم من الأولى بكثير ، ولذلك سمى ملح النوشادر فى أوروبا — منذ العصور القديمة — بالملح التترى Tatarisches Salz نسبة لموقع بلاده[٣] . ويقول الجغرافيون إنه كان بجبال البتّم معدن النوشادر ، وهو جبل فيه مثل الغار بنى عليه بيت قد استوثق من أبوابه وكواه ، فيرتفع من الغار بخار يشبه بالنهار الدخان ، وبالليل النار ، فإذا تلبّد هذا البخار أُخذ وهو النوشادر ، وداخل هذا البيت يكون شديد الحر لا يتهيأ لأحد أن يدخله إلا احترق ؛ إلا أن يلبس لبوداً رطبها بالماء ، ويدخل كالمختلس فيأخذ ما يقدر عليه من النوشادر ، وهذا البخار ينتقل من مكان إلى مكان ، فيُحفر عليه حتى يظهر ، فإن خفى فى مكان حُفر عليه فى آخر ، وإذا لم يكن على هذا البخار بناء يمنعه من التفرق لم يضرّ من قاربه ، فإذا كان عليه بيت يجتمع أحرق من يدخله من شدة الحر[٤] ، وقد وصف المسعودى حوالى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٤ م جبال النوشادر التى بالصين وصفاً جديراً بالذكر فقال : « وللصين أنهار كبار مثل الدجلة والفرات تجرى من بلاد الترك والتبت والصغد بين بخارى وسمرقند ، وهنالك جبال النوشادر ، فإذا كان فى الصيف رأيت فى الليل نيراناً ترتفع من تلك الجبال من نحو مائة فرسخ ، وبالنهار يظهر منها الدخان

(١) J. Marquart, Die Benlusammlung, Inhaltverzeichnis (unter Salz) .

(٢) ابن حوقل ص ٣٢٧ ؛ ويقول ناصر خسرو (ص ٥ من النص الفارسى) إن بقمة جبل دماوند بئراً يخرج منها النوشادر والكبريت ، ويصعد على الجبل رجال يحملون جلود البقر فيملؤونها بالنوشادر ثم يدحرجونها من قمة الجبل .

(٣) V. Richthofen, China, I, s. 560.

(٤) الأصطخرى ، ابن حوقل ص ٣٨٢ — ٣٨٣ .

لغلبة شعاع الشمس وضوئها وضوء النهار ، ومن هنالك يُحمل النوشادر ، فإذا كان فى الصيف فمن أراد من بلاد خراسان أن يسلك إلى بلاد الصين صار إلى هنالك ، وهنالك واد بين تلك الجبال طوله أربعون ميلا أو خمسون ، فيأتى إلى أناس هنالك على فم الوادى فيرغبهم فى الأجرة النفيسة ، فيحملون ما معه على أكتافهم وبأيديهم العصى يضربون جنبيه خوفاً أن يبلَّج ويقف فيموت من كرب الوادى ، وهو يحضر أمامهم حتى يخوضوا إلى ذلك الرأس من الوادى . وهنالك غابات ومستنقعات ، فيطرحون أنفسهم فى ذلك الماء لما نالهم من شدة الكرب وحرّ النوشادر ، ولا يسلك ذلك الطريق شىء من البهائم ؛ لأن النوشادر يلهب ناراً فى الصيف فلا يسلك ذلك الوادى داعٍ ولا مجيب ، فإذا كان الشتاء وكثرت الثلوج والأنداء وقع على ذلك الموضع فأطفأ حرّ النوشادر ولهيبه ، فيسلك الناس حينئذ ذلك الوادى ، والبهائم لا صبر لها على ما ذكرنا من حرّه ، وكذلك من ورد من بلاد الصين فُعل به من الضرب ما فعل بالآخر »[1] . وفى عام ٩٨٢ م زار الرحالة الصينى وانج ين تى (Wang-yen-te) جبال النوشادر وهو يقول : « يستخرج النوشادر من جبل يقع شمال بيتنج ، ومنه تتصاعد أعمدة النار من غير انقطاع ، وفى أثناء الليل تُرى لهب كالتى تتصاعد من المشاعل حتى يستطيع الإنسان أن يرى الطيور والفيران ملونة كلها باللون الأحمر ، ويلبس المشتغلون بجمع النوشادر أحذية نعلها من الخشب لأن الجلد يحترق[2] ، ويقول الصينيون إن المكان الذى يؤخذ منه النوشادر يقع فى شرق جبال تيان شان على مسافة مائتى « لى » شمال كوت » . وقد جاء فى أحد المراجع الصينية الذى يرجع إلى عام ١٧٧٢ م : « يجلب النوشادر من جبل النوشادر فى شمال مدينة كوشا ، وهو

ـج الذهب ج ١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .

. JA, 1947, I

جبل كثير الشقوق والأغوار ، وهـذه الشقوق تمتلئ بالنار فى الربيع والصيف والخريف ، حتى يظهر الجبل بالليل كأنه مضاء بآلاف المصابيح ، وفى ذلك الوقت لا يستطيع أحد أن يقترب منه ، وفى الشتاء فقط يشتغل أهل ذلك المكان بجمع النوشادر ، وذلك عندما تسقط الثلوج والأنداء فتطفئ حر النوشادر ولهيبه»[1] . وكذلك يحدثنا الهجويرى الأفغانى فى القرن الحادى عشر الميلادى فى كتابه كشف المحجوب ، وهو كتاب فى التصوف والمتصوفين ، أنه رأى على حدود بلاد الإسلام فى بلد من بلاد الترك جبلا ملتهباً يخرج منه بخار النوشادر ، وأنه كان فى ذلك اللهيب فأر أراد أن يهرب من الحرفات[2] . وكان لهذا النوشادر قيمة كبيرة بالصين نفسها حتى كان أهل جبال النوشادر يدفعون الخراج الذى عليهم للإمبراطور منه[3] . وقد ذهبت بعثة لارتياد هذا الجبل منذ ثلاثين عاماً ، وفى هذا الشأن تقول مجلة التركستان الرسمية : « إن جبل بيشان ليس بركاناً ، كما قررت ذلك بعثة روسية أرسلت بقصد البحث عن ذلك ، فإن الدخان الذى يتصاعد منه ناشئ من احتراق طبقات من الفحم ، وسفوح جبل بيشان مغطاة بشقوق يخرج منها الدخان وغاز الكبريت بصوت مروع » .
وهذا ما نجده فى فريد ريشن Friedrichen ، فهو يزيد على ما تقدم قائلا :
« وهذا يتفق مع ما حكاه ريجل Regel[4] عن بستانى يسمى فيتيسوف Fetisow أرسل لعمل أبحاث نباتية فى تلك المنطقة ، فهو يقول إن جبل بيشان جبل مخروطى الشكل ، وليس له فوهة فى أعلاه ، بل له فتحات جانبية » ؛ فكأنه فريدريشن يعتبر الجبل كتلة من الفحم تحترق[5] .

---

(١) v. Richthofen, China, I, 560.

(٢) كشف المحجوب ص ٤٠٧ من ترجمة نيكلسون .

(٣) انظر مقال فردريش Friedrichen, Zeitsch. Gesell. Erdkunde, Berlin, 1899, s. 246 نقلا من كتاب Klaproth, tableaux histor., p. 110.

(٤) Gartenflora, 28 Jahrg. 1879. s. 40.

(٥) نفس المصدر ص ٢٤٧ .

أما المعدنان النفيسان فقد كانت أجزاء المملكة الإسلامية يكمل بعضها بعضاً منهما على نحو جميل ، فكان المشرق يجيء الفضة والمغرب يأتي بالذهب ، أما معادن التبر في ذلك العهد فكانت تقع في الصحراء الحارة التي تقع إلى شرق النيل في الصعيد بين أسوان وعيذاب ؛ وكانت أكبر مدينة لمنجمي الذهب هي العلاقي التي تقع على مسيرة خمس عشرة مرحلة من أسوان[1] . فكانوا يتجولون في الليالي التي يضعف فيها ضوء القمر ، ويطلّون على المواضع التي يرون فيها شيئاً مضيئاً[2] علامة يعرفونها ويبيتون هناك ، فإذا أصبحوا حملوا أكوام الرمل التي علّموا عليها ومضوا بها إلى آبار هناك فغسلوها بالماء واستخرجوا التبر ثم يؤلّفونه بالزئبق ويسبكونه[3] . وقد توافد طلاب الغنى إلى ذلك الموضع منذ منتصف القرن الثالث الهجري ، وذلك بعد أن أرسلت عام ٢٤١ هـ — ٨٥٥ م حملة قوية صغيرة العدد ممتازة الجند لتأديب البجة الذين كانت لا تهدأ ثورتهم على الدولة حتى ردتهم إلى الصواب ، ومن ذلك التاريخ اندمج البجة في القبائل العربية[4] . وفي سنة ٣٣٢ هـ — ٩٤٤ م كان سيد قبيلة ربيعة ملك بلاد الذهب[5] ، ويحكى أن الخليفة المستنصر صاحب مصر بذل لأبي العلاء المعري (المتوفى عام ٤٤٩ هـ — ١٠٥٧ م) ما ببيت المال بالمعرة فلم يقبل منه شيئاً وقال:

كأنما غاية لي من غنى فدٌّ عن معدن أسوان

---

(١) تجد هنا منفصلا أوسع تفصيل في جغرافية [illegible] ٣٢٤ وما بعدها .

(٢) كانوا يعلمون على المواضع بالرماد أو الطباشير ، انظر بتاحيا (Petachja) في JA, VIII, p. 384 ، ويظهر أن هذه الطريقة في البحث عن الذهب كانت مألوفة في جميع بلاد الشرق الأدنى فيحدثنا تشانج تي (Chang-te) الرحالة الصيني الذي رحل إلى الغرب عام ١٢٥٩ م أن الذهب يوجد بأرض مصر ، وبالليل ترى أشياء مضيئة في بعض المواضع فيعلم الناس عليها بالريش والفحم ، فإذا حضروها بالنهار عثروا على قطع كبيرة من الذهب . Bretschneider, mediaeval Researches, I. P. 142

(٣) الإدريسي طبعة دوزي ص ٢٦ .   (٤) الأصطخري ص ٢٨٨ (؟) .

(٥) الخطط المقريزي ج ١ ص ١٩٦ — ١٩٧ .

سرت برغمي عن زمان الصبى   يعجلنى وقتى وأكوانى

صدُّ أبى الطيب لما غدا   منصرفاً عن شعب بوّان[١]

وكان المدن الثانى للذهب فى السودان ، ويقول الإدريسى إن السودان بلاد التبر ، وإنه أكبر غلة عند السودان ، وإنهم عليها يعوّلون صغيرهم وكبيرهم[٢]. وكانت كل القوافل التى تسير فى الصحراء الكبرى آتيـة من الجنوب تحمل الذهب والعبيد ، وكان الحمّالون يحملون الملح ويعودون بالذهب ، وكانوا يحملونه على رءوسهم حتى أصبحت صلعاء لا أثر فيها للشعر[٣].

وقد كشف فى عام ٣٩٠ هـ — ١٠٠٠ م معدن للذهب فى نواحٍ يُقال لها خشباجى[٤] من بلاد سجستان ، وقد ذُكر هذا ، ولكنا لم نسمع عن هـذا المعدن شيئاً بعد ذلك .

وكان أكبر معدن للفضـة فى المملكة الإسلامية يقع فى مشرقها فى بلاد هندكوش فى مدينة بنجهير ، وحكى بعض الجغرافيين أن هذه المدينة كانت تشتمل على عشرة آلاف رجل ، « ويغلب على أهلها العبث والفساد »[٥] ويقول ياقوت : « بنجهير مدينـة بنواحى بلخ فيها جبل الفضة ... والدراهم بها واسعة كثيرة لا يكاد أحدهم يشترى شيئاً ولو جزرة بقل بأقل من درهم صحيح ، والفضة فى أعلى جبل مشرف على البلدة ، والسوق والجبل كالغربال من كثرة الحفر ، وإنما يتبعون عروقاً يجدونها تدلهم على الجوهر ، وهم إذا وجدوا عرقاً حفروا أبداً إلى أن يصيروا إلى الفضة فيتفق أن للرجل منهم فى الحفر ثلاثمائة ألف درهم زائداً

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٧٨ .   (٢) الإدريسى طبعة دوزى ص ٨ .

(٣) J. Marquart Die Beninsammlung, s. CII. نقلا عن أحد المراجع البرتغالية ، ويجد القارئ عند ماركفارت فى قائمة محتويات الكتاب تحت كلمة (Gold) كل ما له قيمة من المعلومات عن استخراج الذهب وتجارته فى الجنوب .   (٤) البدء والتاريخ ج ٤ ٧٨ ، وابن الجوزى فى المنتظم ص ١٤٤ ا ، وابن الأثير ج ٩ ص ١١٦ .

(٥) ابن حوقل ص ٣٢٧ .

أو ناقصاً ، فربما صادف ما يستغنى به هو وعقبه ، وربما حصل له مقدار نفقته ، وربما أكدى وافتقر لغلبة الماء وغير ذلك ، وربما يتبع الرجل عرقاً ويتبع آخر شعبة أخرى منه بعينه فيأخذان جميعاً فى الحفر ، والعادة عندهم أن من سبق فاعترض على صاحبه فقد استحق ذلك العرق وما يفضى إليه ، فهم يعملون عند هذه المسابقة عملا لا تعمله الشياطين ، فإذا سبق أحد الرجلين ذهبت نفقة الآخر دهراً وإن استويا اشتركا ، وهم يحفرون ما حييت السرُج واتقدت المصابيح ، فإذا صاروا فى الحفر إلى موضع لا يحيى السراج فيه لم يتقدموا ، ومن تقدم مات فى أسرع وقت ، والرجل منهم يصبح غنيا ويمسى فقيراً أو يصبح فقيراً ويمسى غنيا »[1] . أما معادن الفضة التى كانت بأصفهان فكانت فى القرن الثالث الهجرى قد هُجرت منذ زمان طويل[2] . وكذلك تعطل العمل فى معادن الفضة التى كانت بمنطقة باذغيس من بلاد أفغانستان وذلك بسبب فناء الحطب[3] . وكان بأصفهان معدن النحاس الأصفر عليه للسلطان خراج قدره عشرة آلاف درهم[4] . وكان يُجلب من بخارى النحاس الأصفر الذى يستعمل فى طلاء أعلى المنائر . وكانت فارس أكبر إقليم لاستخراج الحديد ولصناعته[6] . وكان بالقرب من بيروت[7] وبكرمان[8] وكابل[9] مناجم حديد أيضاً . وكان بفرغانة مناجم حديد ، وقد برع أهلها فى صناعته ، وتفتقت لهم الخواطر بغرائب اتخذوها منه ، وكان بمدينة مرسمندة بخراسان مجمع وسوق فى رأس كل [illegible] ينتابه الناس من

(١) معجم البلدان ج ١ ص ٧٤٣ وما بعدها . (٢) ابن رسته ص ١٥٦ .
(٣) الأصطخرى ص ٢٦٨ — ٢٦٩ . (٤) ابن رسته ص ٥٦ .
(٥) المقدسى ص ٣٢٤ . (٦) ابن حوقل ص ٢١٤ ، وابن الفقيه ص ٢٥٤ .
(٧) المقدسى ص ١٨٤ ، والإدريسى طبعة براندل ص ٢٢ ، وقد كتب زيتزن (seetzen) فى عام ١٨٠٥ ما هو أوفى من ذلك فيما يتعلق باستخراج الحديد فى لبنان . U. J. Seetzens Reisen I, 189 . (٨) المقدسى ص ٤٧١ .
(٩) ابن حوقل ص ٣٢٨ .

الأماكن البعيدة[١] . وكان الحديد يوجد فى المغرب بصقلية[٢] . وكان لا يزال يحمل من إفريقية وهى الموطن الأول للحديد ، وكان يؤخذ إلى الهند فتصنع منه أغلى آلات الحديد[٣] . أما فى آسيا الغربية فكان الحديد على الدوام نادراً ، ويحكى أنه فى عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٤ م استهدى القرامطة فى هجر (بجزيرة العرب) من سيف الدولة حديداً فأمر بقلع أبواب الرقة ، وكان من حديد ، وسدّ مكانها ، وأخذ حديداً بديار مضر ، حتى أخذ سبخات الباعة والبقالين ، ثم حُمل هذا الحديد فى الفرات إلى هيت ومن هيت إلى القرامطة فى البرّية[٤] . أما الزئبق فكان أكبر وأعظم معدن له فى المملكة الإسلامية بالأندلس ، على مقربة من قرطبة . يقول الإدريسى : « وبشمال قرطبة الحصن الذى به معدن الزئبق ، ومنه يتجهز بالزئبق والزنجفر إلى جميع أقطار الأرض ، وذلك أن هذا المعدن يخدمه أزيد من ألف رجل ، فقوم للنزول فيه وقطع الحجر وقوم لنقل الحطب لحرق المعدن ، وقوم لعمل أوانى سبك الزئبق وتصعيده ، وقوم لشأن الأفران والحرق ، قال المؤلف وقد رأيت هذا المعدن فأخبرت أن من وجه الأرض إلى أسفله أكثر من مائتى قامة وخمسين قامة »[٥] . وكان يوجد الفحم الحجرى بفرغانة وبخارى ، وقد وصفه الجغرافيون الرحالون بأنه « حجارة تحترق كالفحم »[٦] ، ولكنهم اعتبروه من غرائب الطبيعة ، وكان بمدينة دخشان بخراسان حجر الفتيلة ، وقد سمى بهذا الاسم لأنه كان يستعمل فى ذلك العهد كما فى أيامنا فتيلة للمصابيح ،

---

(١) نفس المصدر ص ٣٨٤ . (٢) المقدسى ص ٢٣٩ .

(٣) الإدريسى ترجمة جوبير Jaubert ج ١ ص ٦٥ .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٢٦٣ — ٢٦٤ ، والمنتظم لابن الجوزى ص ٩٤ ب .

(٥) الإدريسى طبعة دوزى ص ٢١٢ — ٢١٣ ، ومحاسن التجارة للدمشقى طبعة القاهرة ١٣١٨ هـ ص ٢٩ ، ويقول الدمشقى إن أحسن الزئبق ما جلب من المعدن الذى قرب طليطلة . (٦) ابن حوقل ص ٣٦٢ ، ٣٩٧ .

وكان ينسج منه غطاء الموائد ، فإذا اتسخ وأرادوا غسله طرحوه فى التنور فيعود نظيفاً[١] .

أما الأحجار النفيسة فكان تقدير نفاستها فى ذلك العصر يختلف عنه فى أيامنا ، وقد بيّن أحد كتاب القرن الرابع نفائس الجواهر فهى عنده : فيروزج نيسابور ، وياقوت سرنديب ، ولؤلؤ عمان ، وزبرجد مصر ، وعقيق اليمن ، وبجادى بلخ[٢] . وكذلك أحصى البيرونى حوالى عام ٤٠٠ هـ — ١٠٠٩ م الجواهر ، وهى عنده : الياقوت والزمرد واللؤلؤ[٣] . وإذن لم يكن للألماس فى ذلك العصر هذا المركز العظيم الذى يفوق به جميع الأحجار الكريمة ، بل كان الناس يقدمون عليه الأحجار الملونة ذات البريق اليسير ، ولم يكن يستعمل إلا فى القطع أو فى السمّ بخراسان والعراق[٤] ، وكان الملوك والكبراء يستعملون الفصوص الكبار منه فى قتل أنفسهم ، فإذا وقعوا فى قبضة عدو وأيقنوا أنه يعذبهم ويهينهم قبل القتل ابتلع أحدهم الفص فمات[٥] . وكان الفيروزج الأزرق لا يوجد إلا فى نيسابور[٦] . وفى عام ١٨٢١ م زار فريزر Fraser التل الذى يقع على مسافة ستين كيلو متراً إلى شمال غربى هذه المدينة ، وكان الفيروزج يستخرج

---

(١) المقدسى ص ٣٠٢ ؛ وانظر Marco Polo, 1, 40 .

(٢) لطائف المعارف للثعالبى ص ١٠٦ .

(٣) كتاب الجماهر للبيرونى ترجمة فيدمان Wiedemann, Der Islam, II, 347

(٤) نفس المصدر ص ٣٥٢ . (٥) محاسن التجارة للدمشقى ص ١٦ وانظر Benvenuto Cellini, II, 13 ، فكانوا يخلطون الألماس المجروش بالطعام ، وهو ليس سماً بذاته ، ولكنه بسبب صلابته الشديدة وزواياه الحادة لا يستدير كغيره من الأحجار إذا ابتلعها الإنسان ، بل إذا دخل مع الطعام فى الجسم فإنه يلتصق أثناء الهضم بجدران المعدة والأمعاء ، فإذا ضغطه الطعام خرق الموضع الذى التصق به ومات الإنسان من فوره ؛ وليس من بين الأحجار الأخرى حتى الزجاج ما يلتصق التصاق الماس ، بل هى تمر مع الطعام .

(٦) لطائف المعارف ص ١١٥ ؛ ويذكر ماركو بولو Marco Polo, Lemke p. 93 أن الفيروزج يوجد بكرمان أيضاً .

بطريقة لا أثر فيها للرقى الفنى وذلك باستعمال الفؤوس فى حفر صغيرة ، ولكن يستطيع الناظر أن يلاحظ أن العمل فى هذا الشأن كان واسع النطاق فى الزمن الماضى [١] ولكن بعد القرن الرابع بقرنين تغير ذوق الناس وصار الملوك لا يكادون يرغبون فى لبس الفيروزج ، لأن العامة أكثروا من التختم به . ولبس الفصوص المشبهة بالجيد منه [٢] . وكذلك نزلت فى القرن الرابع الهجرى قيمة العقيق ، وذلك أنه هان عند الملوك لاقتدار العامة عليه ، وصاروا لا يتخذون منه إلا ما كان حجراً كبيراً قد عملت منه آلة مليحة كالمدهن أو القدح أو ما جرى هذا المجرى [٣] . وكان أحسنه ما يستخرج بصنعاء ، فكان من أراد العقيق اشترى قطعة أرض بصنعاء ثم حفر ، « فربما خرج له شبه صخرة وأقل ؛ وربما لم يخرج شىء » [٤] . وكذلك كان العقيق الجيد يستخرج من جبال أفغانستان ، وكان هذا العقيق يحفر عليه فى مناجم كمناجم الذهب والفضة [٥] وكان الجبل الوحيد الذى به معدن الزمرد فى المملكة الإسلامية يوجد بمصر فى برّية منقطعة عن العمارة على مسيرة سبعة أيام من صعيد مصر ، وهم يحفرون عليه فى الجبل ويقتلعونه من عمق بعيد [٦] ، وقد ذكر سترابو هذا الجبل من قبل ، وكان صاحب المعدن فى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م أبا مروان بشر بن إسحاق ، وهو من ربيعة ، وكان أيضاً صاحب معادن الذهب [٧] .

---

(١) Froser, Journey into khorasan, London 1852 p. 407 ff . وقد وصف بريكتو Bricteux (فى كتابه المسمى Au payr du lion et du soleil P. 251 - 55 نقلا عن جروتة Grothe Persien 19 العمليات التى تجرى اليوم لاستخراج الفيروزج بنيسابور .

(٢) محاسن التجارة ص ١٦ . ولعل هذا نقل عن أحوال القرن السادس الهجرى .

(٣) نفس المصدر ص ١٧ . (٤) المقدسى ص ١٠١ .

(٥) ابن حوقل فى كلامه عن بذخشان ؛ وانظر Marco polo, I, Cp., 27 .

(٦) المقريزى ج١ ص١٩٣ نقلا عن الجاحظ ، ومروج الذهب ج٣ ص ٤٣ وما بعدها . وكان يوجد بالهند مثل هذا الزمرد . (٧) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٣ .

وكان الجزع الملوّن المخطط محبوباً بنوع خاص فى صنع بعض الآلات ، وكان يجلب من اليمن ، ويعمل ألواحا وصفائح وقوائم سيوف ونصب سكاكين ومداهن ونحو ذلك[١] ، وكان لتنوّع لونه وجمال وَشْيه ولمعانه تصنع منه أدوات المائدة للسادة والكبراء .

أما المرجان فكان يصاد فى ذلك العصر — كما يصاد اليوم — من شمال إفريقية ، من سبتة ومرسى الخرز وما إليهما[٢] . وكان يعمل فى مرسى الخرز فى أكثر الأوقات خمسون قاربا وأكثر من ذلك ، وفى كل قارب نحو من عشرين رجلا[٣] . وكان يخرجُ الصيادون إلى جمعه فى قوارب ومعهم صلبان من خشب قد لُفَّ عليها من الكتان المحلول ورُبط فى كل صليب حبلان يمسكهما رجلان ؛ ثم يرميان بالصليب ويدير النواتى القارب فتلتفّ خيوط الكتان على ما قاربها من نبات المرجان ، ثم تُجذب الصلبان فيخرج معها ما يساوى العشرة دراهم إلى العشرة آلاف درهم[٤] . وكان أكثر ما يحمل إلى بلاد غانة وبلاد السودان[٥] . وكان نساء الهند يحبونه بنوع خاص[٦] . وفى عصر ماركو بولو كان يصدّر إلى أوروبا من كشمير[٧] . وفى عصرنا هذا يصدر المرجان الإيطالى إلى روسيا ؛ ولكن نظراً للضرائب الثقيلة على حدود روسيا فى الغرب فإنه يحمل إلى مسافة كبيرة مارا بالهند والتركستان الشرقية حتى يصل إلى روسيا[٨] .

وكان اللؤلؤ الذى يستخرج من الخليج الفارسى فى شرق جزيرة العرب

---

(١) المعانى ص ٢٠٣ .

(٢) المروج ، ج ٤ ص ٩٧ ، والمقدسى ص ٢٢٦ ، وكتاب الجماهير (مجلة Der Islam, II) ويقول الرحالة الصينى تشاوكوا Cheu - Ju - Kua عام ١٢٠٠ م أن المرجان يوجد فى غربية البحر الأبيض المتوسط (انظر ترجمة Hirth ص ١٥٤ ، ٢٢٦) .

(٣) [illegible] ص ٥٦ . (٤) المقدسى والإدريسى طبعة دوزى ص ١١٦ .

(٥) الإدريسى طبعة دوزى ص ١٦٨ . (٦) البيرونى كتاب الجماهر .

(٧) Marco Polo I 29 (٨) M. Hartmann Chinesisch Turkestan, s. 63

يعتبر أفضل أنواع اللؤلؤ عند أهل الصين[١] وكان الغواصون يغوصون عليه فى بحر فارس من أول نيسان إلى آخر أيلول ، وما عدا ذلك من شهور السنة فلا غوص فيها[٢] . وكان استخراج اللؤلؤ يعمل على قاعدة النظام الرأسمالى ، فكان أحد المقاولين يؤجر الغواصين شهرين ويدفع لهم أجرهم بانتظام ، وكان يحصل من وراء غوصهم فى بعض الأحيان على ربح جسيم لا يصيبهم منه شىء[٣] . وفى عصر بنيامين التوديلى (حوالى عام ١١٧٠م) كان هذا العمل يقوم به أحد اليهود[٤] ؛ أما فى أيامنا فإن الربح يعود على القبيلة أو القبائل التى تملك القوارب المستعملة فى مساعدة الغواصين ، والقسمة بين القوارب على السوية ، أما ربح ذلك فهو يؤول إلى تجار الهند الذين يشترون أصنافه بأبخس الأثمان[٥] . وكانت مهنة الغوص شاقة جدا ؛ وقد وصف الأعشى الشاعر الجاهلى هذا الغواص وصفاً بين فيه ضعف حاله والخطرَ الذى يتجشمه ، وأنه ينزل فى البحر الذى ربما قد مات فيه أبوه من قبل ، وهو مع ذلك لا يجد من المبتاعين رفقاً[٦] .

وفى أوائل القرن الرابع الهجرى يحدثنا المسعودى أن الغاصة لا يكادون يتناولون شيئا من اللحم إلا السمك ، ويأكلون التمر ونحوه من الأقوات ، وتُشَق

---

(١) Chau-Ju-Kua, s. 229 . (٢) مروج الذهب ج ١ ص ٣٢٨ ، والإدريسى طبعة جوبير Jaubert ج ١ ص ٣٧٣ وما بعدها ؛ وانظر ما ذكره بالجراف Palgrave فى كتاب Zehme Arabien, s. 208 وقد غلط بنيامين Benjamin, 59 حين حدد ا. ا. الغوص بأنه فى أكتوبر .

(٣) عجائب الهند ص ١٣٠ ، والإدريسى طبعة جوبير ج ١ ص ٣٧٣ .

(٤) رحلة بنيامين طبعة أشر Ascher ص ٩٠ .

(٥) انظر كتاب Zehme, Arabien s. 208 ، وبعد كر ... Grothe, Persien s. 19 بحثاً صغيراً للفرنسى بيريز Perez عنوانه Six Semaines de dragages sur les bancs ...liers du Golfe Persique (Orléans, 1900)

(٦) خزانة الأدب ج ١ ص ٥٤٤ ، ... 1902 ... 146 f.

أصول آذانهم ليخرج منها النفس بدلا من المنخرين ، لأنهم يجعلون على المنخرين شيئا من ظهور السلاحف البحرية التي تتخذ منها الأمشاط أو من القرن يضمها كالمشقاص لا من الخشب ، ويجعل في آذانهم القطن ، وفيه شيء من الدهن فيعصر من ذلك الدهن اليسير في قعر الماء فيضيء لهم بذلك ضياء نيّرا ، وتُطلى أقدامهم وسيقانهم بالسواد خوفا من أن تبلعهم دواب البحر لأنها تنفر من السواد . وهم في قعر البحر يصيحون كالكلاب حتى يسمع بعضهم صياح بعض[1] . وفي القرن الرابع قل شأن الغوص على اللؤلؤ بجزيرة سرنديب حتى كاد الإنسان لا يرى أصدافه هنالك ، وحتى حسب البعض أن اللؤلؤ ترك جزيرة سرنديب وذهب إلى إفريقية[2] ، ولهذا السبب لم يتكلم الرحالون والجغرافيون في ذلك العهد عن الغوص على المرجان هنالك ، ولكن الأصداف عادت إلى الظهور فيما بعد ؛ حتى حدثنا كتاب القرن السادس الهجري عن اللؤلؤ والغوص عليه أحاديث مفصلة ، وذلك أنه كان يخرج من المدينة أكثر من مائتي سفينة معاً تحمل كل منها خمسة تجار إلى ستة لكل منهم في مكان خاص به ومعه غوّاصه ومساعدوه ، ويقود هذا الأسطول قائد في مركب يسير به أمام الجميع ، فيقف في مكان ما ويغوص ، فإذا وجد شيئا ألقى مراسي سفينته وألقى الآخرون مراسي سفنهم حوله ، ثم يسدّ الغواصون أنوفهم بالشمع المذاب في زيت السمسم ويأخذ كل منهم سكينا ومخلاة ، ويقعد على حجر مربوط في حبل يمسكه المساعد به وينزله إلى قرار البحر ، ويستمر هذا الغوص ساعتين من النهار ، ثم يُقاس هذا اللؤلؤ ويباع في يوم يحدَّد له بإشراف الحكومة ، ويُفرز اللؤلؤ بثلاثة غرابيل متفاوتة اتساع الخروق بعضها فوق بعض[3] .

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ١ ص ٣٢٩ وما بعدها .

(٢) كتاب الهند للبيروني ترجمة سخاو ج ١ ص ٢١١ .

(٣) الإدريسي طبعة جوبير ج ١ ص ٣٧٣ وما بعدها .

ويقول بنيامين (ص ٨٩) إن الغواص يستطيع أن يبقى تحت الماء من دقيقة إلى دقيقة ونصف .

وحكى كاتب صينى من أهل ذلك العصر فقال : يُستعمل فى استخراج اللؤلؤ ثلاثون أو أربعون قاربا ، على كل منها نحو من اثنى عشر بحارا ، ثم يأتى الغواصون وقد شُدت الحبال على أجسامهم وسُدّت أنوفهم وآذانهم بالشمع الأصفر ، ويُنزَلون البحر على عمق مائتين أو ثلاثمائة قدم أو أزيد من ذلك ، وتكون الحبال مثبتة إلى القارب ، فإذا أشار أحد الغواصين بتحريك حبله جذبوه إلى السطح ، ويكون قد سُخن له غطاء لين فى الماء المغلى فيلقى عليه بمجرد خروجه من الماء لئلا تصيبه النوبات فيموت . والغواصون عرضة لأن تهجم عليهم الأسماك الكبيرة ووحوش البحر فتمزق أجسامهم أو تكسر أعضاءهم ، وفى كثير من الأحيان يحرك الغواص حبله فيجذبه الرجل الذى على ظهر المركب فلا يستطيع ، وعند ذلك يأتى البحارة جميعاً ويجذبونه بكل قوتهم فيخرجونه وقد عض ساقه وحش من وحوش البحر . وتعتبر اللؤلؤة بالإجمال ذات قيمة إذا كانت مستديرة تمام الاستدارة ، ودليل ذلك أن تظل متدحرجة نهارا كاملا على سطح مستو توضع عليه . ومن عادة التجار الأجانب الذين يقصدون الصين أن يخبئوا اللؤلؤ فى بطائن ملابسهم أو مقابض مظلاتهم هربا من دفع المكوس[1] . ويحكى لنا الرحالة الصينى جانج نى الذى سافر فى ١٢٥٩ م من الصين نحو الغرب ، وهو رحّال قد جمع معلومات جيّدة عن استخراج اللؤلؤ ما يأتى : يدخل الغاصة على اللؤلؤ فى أكياس من الجلد بحيث لا تظهر إلا أيديهم ، وتربط الحبال حول أوساطهم ، ثم ينزلونهم وهم على هذه

(١) Chau Ju-Kua trans. Hirth p. 229 نقلا عن الرحالة لنج واى تاى تا Ling-wai-tai-ta الذى كتب حوالى عام ١١٧٤ م .

الحال إلى قعر البحر فيجمعون اللؤلؤ وما يحيط به من رمل ويضعونه فى المخلاة ، وكثيراً ما تهجم عليهم وحوش البحر تحت الماء فيقذفون عليها الخلّ ليخيفوها ، فإذا ملؤوا مخاليهم بأصداف اللؤلؤ أشاروا لمن على ظهر المراكب بتحريك الحبال فعند ذلك يجذبونهم إلى السطح ، وكثيرا ما يحدث أن يهلك هؤلاء الغاصة وهم فى أعماق البحر[١] .

وكان تجار العرب يشترون العاج من بلاد الزنج (إفريقية الشرقية) ويحملونه إلى الصين[٢] . وكان يُدفع لأجله أكثر من العاج الذى يجلب من بلاد أنام أو من تنج كنج ، وكان يؤخذ من أنياب صغيرة محمّرة اللون[٣] ، ويؤكد المسعودى أنه لولا تصدير العاج إلى عمان والهند والصين لكان كثيراً فى بلاد الإسلام[٤] .

وكان يجاب من بلاد الزنج أيضاً الذبل وهو ظهور السلاحف ، ومنه كانت تصنع أحسن الأمشاط ، فأما العادية منها فكانت تصنع من القرون . والزنج فوق ذلك هم أصحاب جلود النمور الحمر ، وهى أكبر ما يكون من جلود النمور ، ومن أحسنها يتخذ غطاء السروج[٥] . وكان الزنوج بالجملة هم الذين يمدون غرب آسيا كله بالجلود ، ويظهر أن أهل مصر واليمن تعلموا من الزنوج ما نبغوا فيه من حسن صناعة الأديم[٦] . وقد كان المقدسى باليمن فى عدن ، وكان قد تعلم تجليد الكتب على طريقة أهل الشام ، وكان أهل اليمن يعجبهم التجليد الحسن ويبذلون فيه الأجرة الوافرة ؛ فكانوا يعطون الكتب للمقدسى ليجلدها ، وهو

---

(١) Bretschneider, mediaeval Researches I, 145 .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ج ٣ ص ٨ .

(٣) Chau-Ju-Kua p. 232 . (٤) مروج الذهب ج ٣ ص ٨

(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٢ . (٦) المقدسى ص ١٨٠ ، ٢٠٣ ؛ وانظر : Benjemin ed. Ascher p. 30 ، والأصطخرى ص ٢٤ ، ٢٥ .

يفتخر بأنه ربما كان يعطى على تجليد المصحف دينارين[١] . ومن الطريف أن نلاحظ أن الطريقة التى تُجَلَّد بها كتبنا اليوم والتى حلت محل الأدراج المطوية القديمة إنما كان منشؤها فى القارة السوداء ، وفى القرن الثالث الهجرى كان عند أهل الإسلام أشياء مثل هذا أُخذت عن السود ، فقد ذكر الجاحظ فى رسالة فخر السودان على البيض قولهم : « وثلاثة أشياء جاءتكم من قبلنا منها الغالية ، وهى أطيب الطيب وأفخره وأكرمه ، ومنها النعش وهو أستر للنساء ، وأصون للحرم ، ومنها المصحف وهو أوقى لما فيه وأحصن له وأبهى »[٢] .

أما غابات الخشب فكانت قد خفّت فى غرب المملكة الإسلامية منذ القدم ، ولم يكن بالمشرق غابات إلا فى الأجزاء المتطرفة البعيدة المنال ، وقد ذكرنا فيما تقدم عند الكلام عن الفضة أن العمل فى معدنها بجهة باذغيش (الأفغان) ، قد تعطل لفناء الحطب . ويحكى الأصطخرى أن « أراضى بخارى كلها قريبة إلى الماء لأنها مغيض ماء السغد ، ولذلك لا تنبت الأشجار العالية فيها مثل الجوز والدُلب والحوّر وما أشبهه ، فإذا كان من شجر فهو قصير غير تام »[٣] . أما حشيش هذه البلاد فهو عجيب فى طوله بحيث تغيب فيه الدواب[٤] ، وقد عوّض ذلك على أهل هذه البلاد تجارة عظيمة فى الخشب ، وكان خشب بوشنج ، وخصوصاً خشب العرعر لا يوجد مثله فى بلد من البلدان بخراسان ، وكان يحمل منها إلى سائر النواحى[٥] . أما خشب بناء السفن فكان يجلب من مدينة البندقية ومن صعيد مصر[٦] . وكان خشب الساج الهندى يعتبر أحسن ما يستعمل فى بناء البيوت ببغداد وبالمشرق كله ، وكانت تصنع منه الأدوات

(١) المقدسى ص ١٠٠ . (٢) رسائل الجاحظ ص ٧١ طبعة فان فلوتن .
(٣) الأصطخرى ص ١٣٢ . (٤) المقدسى ص ٢٨٣ .
(٥) الأصطخرى ص ٢٦٨ . (٦) انظر الفصل الخاص بالملاحة البحرية .

لبيوت السادة والكبراء ، وكان خشب الصنوبر يقوم هذا المقام فى أقاليم حوض البحر الأبيض المتوسط . وكان حصن التينات على مقربة من الإسكندرية مجمع خشب الصنوبر الذى كان ينقل إلى الشامات وإلى مصر وصقلية والثغور[١] . وكانت غابة الصنوبر التى بجبال سرقسطة أشهر غاباته بالأندلس ، وهو خشب «أحمر صادق البشرة زهمه لا يتغير سريعاً ولا يفعل فيه السوس ، وكان خشب المسجد الجامع بقرطبة من عيدان الصنوبر الطرطوشى»[٢] . وكانت غابات إقليم مازندران التى لا يزال بعضها باقياً إلى اليوم تؤتى خشب الخلنج ، وكانت العادة أن يُصنع منه أثاث المنازل فى القرن الرابع الهجرى ، وهو خشب أبيض مائل إلى الحمرة[٣] . وكان سكان الجبال بطبرستان يصنعون آنية وأطباقاً من خشب شديد الصلابة عندهم[٤] ، وكانت تصدَّر من مدينة قم الكراسى الجيدة ، وكان أهل السيرجان قصبة كرمان يقلدون هذه الكراسى فلا يأتون بحسنها[٥] ، وكان أهل الرىّ يصنعون الأطباق المدهّنة[٦] .

أما بلاد الإسلام التى كانت مسائل الرى فيها ذات مشاكل عسيرة تحتاج إلى الحل فقد كانت مصر واليمن والعراق وشمال شرقى فارس وأفغانستان وما وراء النهر؛ وكان التشريع الخاص بتنظيم الرىّ متشعّبا يشتمل على مجموعة قوانين دقيقة معقدة ، ولكنها جميعاً تتفق فى قاعدة شرعية واحدة وهى أن الماء لا يجوز أن يشترى أو يباع ، وعلى هذا لم يكن يجوز للدولة ولا للأفراد أن يجعلوا مسألة الرى وحدها سبيلا للكسب أو التجارة[٧] . وأن الجزء الأكبر من التشريع الأوروبى

---

(١) الأصطخرى ص ٦٣ . (٢) الإدريسى طبعة دوزى ص ١٩٠ ، ٢٠٩ .
(٣) ابن حوقل ص ٢٧٢ . (٤) الأصطخرى ص ٢١٢ .
(٥) المقدسى ص ٤٧٠ . (٦) ابن الفقيه ص ٢٥٣ .
(٧) فيما يتعلق بالتركستان انظر كتاب Busse ص ٥٥ .

الخاص بالماء مقتبس من التشريع الشرقى ولقد كانت طرق الرى ووسائله متنوعة بتنوع البلاد ، ولكننا للأسف لا نعرف إلا القليل من المعلومات الصحيحة فيما يتعلق بذلك ، فلا نستطيع أن نبين علاقاتها بعضها ببعض ؛ كما لا نستطيع أن نقرر ما إذا كانت كلها متفرعة من أصل واحد أخذت منه .

أما فى العراق فكان من واجبات الدولة أن تسهر على صيانة السدود والمسنّيات والبثوق [١] . وكان ثمّ لهذا الغرض طائفة قائمة بذاتها من العمال يسمون المهندسين . وكانت المحافظة على السدود أمراً شاقا لأنها كانت تبنى من قصب وتراب وتقام فى وجوه المياه الجارية ، وربما كان سبب انبثاق الماء منها ثقب فارة ثم يوسّعه الماء حتى ينتهى إلى حيث لا حيلة فى سده ، وكان «يكفى أن تقع ثلمة يسيرة فى إحدى نواحى السدّ حتى يتولى الماء الهدم والتخريب ، فربما أفسد فى ساعة تعب سنة أو نحوها » [٢] وكان السلطان معز الدولة بن بويه حاكما قديراً فاعتنى بأمر السدود عناية كبيرة ؛ حتى إنه لما انبثق أحد السدود خرج للعمل فيه بنفسه وضرب لعسكره المثل بنفسه ، وذلك بأن حمل التراب فى طرف ثوبه وحذا حذوه الجميع وانسدّ البثق [٣] .

وكانت القوانين المتعلقة بتنظيم الماء فى شرق فارس متشعّبة كل التشعُّب ، فكان فى مرو ديوان يسمى ديوان الماء [٤] ، وكان صاحبه يرأس عشرة آلاف عامل ، وكان منصبه أرقى من منصب صاحب المعونة فى تلك المدينة [٥] . وكان الماء يقاس بقياس مصطلح عليه يسمى البَسْت ؛ وهو مخرج للماء من ثقب طوله

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٦٣ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٣٧٦ . (٣) نفس المصدر ج ٢ ١٩٢ .

(٤) مفاتيح العلوم للخوارزمى طبعة فان فلوتن ص ٦٨ .

(٥) الأصطخرى ص ٢٦١ وما بعدها ؛ والمقدسى ص ٣٣٠ .

شعيرة وعرضه شعيرة ، وكان شرب اليوم والليلة ينقسم إلى ستين جزءاً ، الواحد منها يسمي السرَقَة[١] . وكان مقياس ارتفاع النهر يقع على مسافة فرسخ من المدينة ، وكان عبارة عن لوح مقام على النهر مشقوق شقا طوليا تتحرك عليه شعيرة ، فربما علا الماء حتى بلغ ارتفاعه ستين شعيرة ، فتكون السنة سنة خصبة ، ويستبشر الناس بذلك ويزاد مقدار ما يفرق عليهم ، وإذا بلغ الارتفاع ست شعيرات فقط كانت سنة قحط . والمتولى السدّ يلاحظ ارتفاع الماء وينفذ سعاته بذلك إلى ديوان النهر ، فينفذ صاحبه الرسل إلى جميع من يتولون شعب الأنهار فيقسمون الماء بحسب ارتفاعه ، « وكان على السد الذى أُقيم جنوب مرو أربعمائة غواص يراعونه فى ليلهم ونهارهم ، وربما احتاجوا دخول الماء فى البرد الشديد فيطلون أنفسهم بالشمع ؛ وعلى كل رجل منهم قطع الخشب وجمع الشوك بشىء معلوم في كل يوم يستعدونه لوقت الحاجة »[٢] . وكانت الأقاليم الواقعة شرق فارس البعيدة عن مجاري المياه الكبرى تروى بطريقة متقنة الصنع : لم يكن فى هذه الأقاليم إلا نهيرات وجداول صغيرة تنحدر من المرتفعات بعد سقوط الأمطار ، فلم يكن بد من جمع هذا الماء والماء المستخرج من الأرض إلى آخر نقطة ، ثم يستعمل النظام المعروف اليوم بنظام كارس Kariss ، وذلك بأن تعمل فى جوف الأرض قنوات معقودة عليها قناطر ، وقد يبلغ طول إحدى هذه القنوات اليوم خمسين كيلو متراً ، وكان بمدينة قم قنطرة من ها[illegible] ع ، وكانت نيسابور خاصة مشهورة بقنواتها التى تجرى تحت الأرض ، حتى ينزل الإنسان إليها على مراق ربما يبلغ عددها السبعين ، وهى تسقى ضياع البلد ، وتدور فى محلاتها وتمدّ أهلها بماء للشرب نظيف بارد فى فصل الصيف[٣] .

(١) مفاتيح العلوم ص ٦٨ وما بعدها .   (٢) المقدسى ص ٣٢١ .

(٣) جغرافية اليعقوبى ص ٢٧٤ ، والمقدسى ص ٣٢٩ ؛ وما ذكره شيفر فى رحلة =

وكان هـذا التنظيم يحتاج إلى مهارة كبيرة ، فكان لا بد للقائمين به من أن يعالجوا الطبقات الأرضية التى يجرى عليها الماء فى الموضع التى يجدون فيها أرضاً لا يخترقها الماء ، كما كان لا بدّ لهم من أن يجعلوا لهذه الطبقات ميلا يساعد الماء على سرعة الجريان عند ازدياده[١] . وكان يستعمل من الآلات المائية الدولاب والدالية والغرّافة والزرنوق والناعورة والمنجنون[٢] . وكان الزرنوق عبارة عن آلة بسيطة مركبة على بئر ؛ وفى المدينة مثلا كانت تجرها النواضح[٣] . أما الدالية فكانت آلة ترفع الماء وتديرها البقر ؛ والناعورة كانت تُركب على الأنهار ويديرها الماء[٤] . وأما الدولاب فهو الاسم الفارسى للآلة المسماة عند اليونان منجنون ، ويظهر أن الناعورة لم تكن مستعملة فى غرب العراق .

وكانت جميع السدود التى تقام على الأنهار تنقصها الصلابة ، لأنها كانت تصنع من الخشب حتى سدّ بخارى المشهور . أما البلاد الواقعة إلى الجنوب من منطقة التحضر الإيرانى أعنى خوزستان وفارس فقد كانت تمتاز ببناء السدود الحجرية . وكان يقع إلى جنوب تُسْتَر الشاذوران المشهور الذى يبلغ عرضه بحسب تقدير العرب ألف ذراع ؛ وبحسب تقدير الأوروبيين ستمائة خطوة ، والذى جاء فى الروايات أن سابور الأول ملك الفرس أمر أسيره الإمبراطور الرومانى فالريانوس Valerianus ببنائه[٦] ؛ وكانت مهمة هـذا الشاذوران أن يفصل بين نهر دجيل وبين نهر مَشْرُقان . وفى القرن الرابع الهجرى بنى عضد الدولة سكراً عظيما يعتبر

= ناصر خسرو ص ٢٧٨ ؛ وانظر الفصل الخاص بالمدن . (١) فيما يتعلق بنظام الكاريز انظر: W. Busse, Bewässerung in Turan, s. 321 ff. Suen Hedin. Zu Land nach Indien, I, 184, Grothe, Wanderungen in Persien 1910, s. 105.

(١) مفاتيح العلوم ص ٧١ . (٣) جغرافية اليعقوبى ص ٣١٣ .

(٤) الجوهرى تحت كلمة دلو . (٥) المقدسى ص ٤١١ ، ٤٤٤ .

(٦) تاريخ الطبرى ج ١ ص ٨٢٧ ، وانظر ترجمة الجزء الخاص بفارس من تاريخ الطبرى لنولدكه ص ٣٢ .

من عجائب بلاد الفرس ، وذلك على نهر السكرّ بين شيراز واصطخر ، وكان السكر عبارة عن حائط عظيم أساسه من الرصاص ، بناه فى عرض النهر فتبحَّر الماء خلفه وارتفع ، فجعل عليه من الجانبين عشرة دواليب وتحت كل دولاب رحى ، وأجرى عضد الدولة الماء فى قنوات فسقى ثلاثمائة قرية[١] ؛ « وكان لهذا الشاذوران أبواب تفتح إذا كثر الماء ولولا ذلك لغرقت الأهواز ، ويسمع للماء المنحدر صوت يمنع من النوم أكثر السنة ، وزيادته تكون فى الشتاء لأنه من الأمطار لا من الثلوج »[٢] .

أما فى اليمن حيث كان لابد من جمع الماء الجارى للاستعمال فكانوا يبنون المصانع ؛ وهى عبارة عن غُدُر مرصوفة من جوانبها بالصفا[٣] ، ويبنون سدوداً لها فتحات فى أسفلها ، يجرى منها الماء ويوزَّع فى قنوات صغيرة ، وذلك فى المناطق الجبلية مثل صنعاء . وكانت هذه الطريقة مما اختصت به اليمن ؛ حتى إن ابن رسته أراد أن يزيد فى البيان لقارئه فوصفها وصفاً كافياً[٤] .

وأما بلاد ما وراء النهر فكان بها أفضل مادة لعمل القنوات ، وهى نوع من الطين إذا نُدِّى بالماء صار ليناً كالطين الذى تصنع منه أوانى الفخار ؛ وإذا جفف فى الشمس عاد صلباً كالحجر ، وهو الطين الأصفر الذى كان يستعمله مهرة الأكرة الصينيين . وقد أفصح الكتاب عن عجبهم من جودة القنوات التى استطاع الأكرة أن يعملوها بمجرد استعمال فؤوسهم ومن غير [illegible] انة بآلة يقيسون بها استواء الأرض ، « ولإخصائييهم المسمَّين بالأستاذين دربة عجيبة تمكنهم من التفطن للتمييز بين أقل درجات الميل مما لا يفطن له الناظر العادى قط »[٥] . ومما هو

---

(١) المقدسى ص ٤٤٤ . (٢) نفس المصدر ص ٤١١ ومعجم البلدان لياقوت [illegible] ... (١ ، ثلاثة أو دلفه . (٣) الهمدانى ص ١٣٨ .
(٤) [illegible] (٥) W. Büsse, Bewasserung S. III.

جدير بالملاحظة فى إنشاء هذه القنوات أن الأرض هنا ليست سهلة كأرض مصر والعراق بل هى أرض جبلية ، وهذا يجعل العمل شاقا جدا ، وتقع هذه القنوات على ارتفاعات متفاوتة كبيرة ، ويقطع بعضها بعضا فى كثير من الأحيان ، وفى هذه الحالة ينحدر الأعلى منها للأسفل فى قنوات خشبية محولة ، ولم يكن نظام الأهوسة معروفا[1] . وكان للماء فى هذه البلاد تشريع قديم لم يتعرض له المسلمون بل تركوه جاريا ، وأراد الروس أن يزلزلوه فكان الغرم عليهم . وكان الموضع القديم لهذا النظام هو وادى فرغانة ، وهو يقع على خطوط العرض التى تقع عليها إيطاليا الجنوبية ، ولكنه فى وسط القارة فكانت حرارته تقارب حرارة الأقاليم الاستوائية . وعرض هذا الوادى يقرب من مائة كيلو مترا فى أعرض أجزائه ، وهو بين جبال يتراوح ارتفاعها بين أربعة آلاف وسبعة آلاف متر ، وتنحدر من ثلوجها فى الصيف جداول تروى البلاد ، والمراعى هناك تسمّد وتكون الحقول مغطاة بالماء والوحل . وكثيراً ما تظهر المعادن منثورة عليها ، وكان عمال ديوان الماء ينتخبهم الأكرة أنفسهم ، وكان لهم نصيب من الريع ، وكانت طريقة الرى هى تحويل ماء النهيرات بإنشاء سدود حتى لا تصل مياه النهيرات إلى الوادى ، بل تفيض على ما حولها ، ويُعمد فى هذه السدود — كما هو الحال فى سدود أفغانستان — بألا تكون قوية راسخة حتى يكتسحها الماء إن زاد فتنجو البلاد من الغرق ، ويُراعى فى هذه القنوات أن يكون انحدارها يسيراً فى أعاليها ، ويجعل انحدارها كبيراً عند اقترابها من الوادى لكى تستعمل قوة جريان مائها فى إدارة الطواحين[2] ، وفى القرن الرابع الهجرى كان ببلاد ما وراء النهر كروم وضياع قد أزيل عنها الخراج وجُعل على أهلها مكانه إصلاحُ سكور الأنهار[3] .

---

(١) v. Schwarz, Turkestan, s. 341 ff, Busse, s. 32.

(٢) v. Middendorf, Mem. Acad. St. Petersbourg, VIII, Bd. 29

(٣) ابن حوقل ص ٢٧٦ .

با الجزء المنزرع فى أفغانستان لا يتعدى دلتا نهر هندوند ، وهذا النهر — كنهر الأردن — وهو كجميع أنهار فارس — ماعدا واحدا — لاينتهى إلى بحر يصب فيه ، بل يتلاشى فى مستنقعات واسعة . وهذا النهر كغيره من الأنهار التى تسير فى أراض رملية فى الصحراء قد غيَّر مجراه مرات كثيرة ، فنشأت عن ذلك مشا كل خاصة يواجهها القائمون بأمور الرى ، وقد ذكر الميجر سيكز أنه وجد هذا النهر فى أوائل أبريل يبلغ عرضه عرض نهر التاميز عند لندن[١] . ويتفرع من نهر هندوند نهيرات كثيرة ، وقد بنى فى آخره سكر ليمنع الماء من أن يجرى إلى بحيرة زَرَه ، فإذا ذابت الثلوج وجاء المدّ اخترق السكر ووقع فضل ماء هذا النهر إلى البحيرة[٢] ؛ فلم يكن هذا السد متيناً ، ولعله كان قد بنى كما بنى اليوم السد الكبير فى بِنديسَيْستَن فقد قام ببنائه نحو من ألف عامل ، وجيء بأعمدة من شجر اللبخ فرُصت بعضها إلى جانب بعض ؛ ونسجت فيما بينها غصون نبات متشابك ، ثم غُطى ذلك بالحصر الخشنة وطليت الفتحات بالجص[٣] .

وكان على نهر النيل فى جزئه الأدنى سدّان فى القرن الرابع ، أحدهما بعين شمس وكان سدا مبنيا بالحلفاء والتراب ، وكان يقام قبل زيادة النيل ؛ فإذا أقبل الماء ردّه السد وعلا الماء فسقى ما وراء السدّ من الضياع ؛ وكان هذا السد يسمى سد خليج أمير المؤمنين « فإذا كان يوم عيد الصليب وقت انتهاء حلاوة القصب وخرج السلطان إلى عين شمس فأمر بفتح هذه الترعة وقد سدّ الناس أفواه أنهارهم حتى لا يخرج الماء منها . وجعلوا عليها الحراس فينحدر الماء بعد فتح السد إلى بقية أرض الدلتا » . أما السد الآخر فكان أعظم بناء وهو يقع

---

(١) Sykes, A travers la Perse orientale, Paris, Hachette, 1907, p. 193

(٢) الإصطخري ص ٢٤٤ .

(٣) Sykes, a. a. O. S. Hedin, Zu land [illegible]

بسردوس أسفل عين شمس ويبين بفتحه النقصان فى النيل . وكان مقياس ارتفاع ماء النيل منذ أقدم العصور عوداً طويلا عليه علامات الأذرع والأصابع ، وهو يقوم وسط بركة يجرى فيها الماء ، وكان أهم مقاييس مصر المقياس الذى فى جزيرة الروضة بمصر القديمة ، وكان عليه عامل يرفع للسلطان فى كل يوم مقدار الزيادة . فإذا بلغت الزيادة اثنى عشر ذراعاً نادى المنادى : « زاد الله اليوم فى النيل المبارك كذا وكذا ، وكانت زيادته عام أول فى هذا اليوم كذا وكذا ، وعلى الله التمام » أما قبل بلوغ الزيادة اثنى عشر ذراعاً فلا ينادى المنادى ويُكتفى بما يرفع للسلطان[1] . ولما أمر المتوكل عام ٢٤٧ هـ — ٨٦١ م بابتناء المقياس الهاشمى وبعزل النصارى عن مقياسه كانت علامة وفاء النيل ستة عشر ذراعاً أن يُسْبل الستر الخليفى الأسود على شبابيك المقياس ، فإذا شاهده الناس استبشروا بسنة خصب وإقبال[2] . وفى أيام زيادة النيل تتبحر مصر حتى لا يمكن الذهاب من ضيعة إلى أخرى فى بعض المواضع إلا فى الزواريق[3] . وكان الناس يجهزون حاجاتهم الضرورية مدة الشهور الأربعة التى تكون البلاد فيها مغمورة بالماء ، وكانوا يخبزون من الخبز ما يكفيهم مدة الفيضان ويجففونه حتى لا يتعفن .

وكان يستعمل فى قسمة الماء بجميع البلاد الجهاز المائى الذى يسمى بالفارسية الطرجهارة ، وكان بمدينة بيار (بشمال إيران) طرجهارة نحاسية « كذلك بأرّجان بفارس[5] وبشمال إفريقية ، وكان « شِرْب مدينة توزر (بإحدى واحات الصحراء الكبرى الإفريقية) من ثلاثة أنهار تنقسم بعد اجتماع مياه تلك الرمال بموضع يسمى وادى الجمال ... ثم ينقسم كل نهر منها إلى ستة جداول ، وتتشعب

---

(١) المقدسى ٢٠٦ .

(٢) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ١٨٥ .

(٣) المقدسى ص ٢٠٦ و ص ١١٨ من ترجمة شيفر .

(٤) رحلة ناصر خسرو ص ٥٦ من النص الفارسى

(٥) المقدسى ص ٣٥٧ .

من تلك الجداول سواق لا تحصى كثرة ، تجرى فى قنوات مبنية بالحجر على قسمة عدل لا يزيد بعضها عن بعض شيئاً ؛ كل ساقية سعة شبرين فى ارتفاع متر يلزم من سقى منها أربعة أقداس[1] مثقال فى العام وبحساب ذلك فى الأكثر والأقل ؛ وهو أن يعمد الذى تكون له دولة السقى إلى قدس فى أسفله ثقبة بمقدار ما يسدها وترقوس النداف فيملؤه بالماء ويعلقه ، ويسقى حائطه أو بستانه من تلك الجداول حتى ينفذ ماء القدس ، ثم يملؤه ثانياً ، وهم قد علموا أن سقى اليوم الكامل هو مائة واثنان وتسعون قدساً »[2] .

ولم تكن محاربة طغيان الرمال إلا فى أفغانستان ، وكان لأهل هذه البلاد علم خاص بكيفية مقاومة فيضان الرمال ، فقد كانت أرض تلك البلاد سبخة ورمالا ، ورياحهم تشتد وتدوم ، حتى إنهم نصبوا عليها أرحاء يسيرونها بها ، ورمال بلادهم تنتقل من مكان إلى مكان ، فلولا أنهم يحتالون عليها لطمت القرى والمدن بها . وكانوا إذا أحبوا نقل الرمل من مكان إلى مكان جعلوا مثل الحائط من خشب وشوك وغيرهما حتى يعلو على ذلك الرمل ، وفتحوا فى أسفله باباً ، فيدخله الريح ويطير الرمل على أعلاه مثل الزوبعة على مد البصر حتى لا يضرهم . وفى سنة ٣٥٩ هـ — ٩٧٠ م تواترت الرياح عليهم بما لم يعهدوا مثله ، وأكبت الرياح على الجامع فملأته بالرمل ، وتزايد البلاء على البلد ، وكان بها قوم موسومون بعلم بهذه الصنعة قد أعجزهم هذا الرمل حتى ابتدر حدث وطلب عشرين ألف درهم لدفعه ، فأعطوها له بعد تردد وبعد أن خشوا من الهلاك ، وأعمل هذا الحدث الحيل

---

(١) ويقابل هذه الكلمة كلة Cadus اللاتينية . (٢) البكرى (المغرب) طبعة سلين ص ٤٨ ، واليوم يحسب الوقت الذى تروى فيه كل عائلة من العائلات بمدينة سوس بأن يوضع إناء مخروق فى حوض كبير به ماء ، فاذا امتلأ الإناء ماء ووصل الى قرار الحوض انتهى وقت السقى (انظر M. Zeys, Une Francaise au maroc, p. 79) .

حتى حوّل مجرى الريح بسدود أقامها فنسف الريح الرمل بأجمعه [١] .

وقد كانت الزراعة فى المملكة الإسلامية متنوعة الصور ، حتى كاد كل واد أو قرية يكون منفرداً بشىء ابتدعه ، فنى إقليم أردبيل (بين تبريز وبحر الخزر) — مثلا — كانوا يحرثون الأرض على ثمانٍ من البقر لكل اثنتين منها سائق ، ولم يكن ذلك لصلابة فى الأرض بل لأنها كانت متجمدة . أما بمدينة أبرقوة بفارس فكان أهلها لا يزرعون على البقر مع كثرتها فى بلادهم [٢] . وكان يُعتنى بتسميد الأرض عناية كبيرة فى جميع البلاد وكانوا يستعملون فى ذلك ما يخرج من روث البقر والغنم وما يخرج من فضلات الإنسان أيضاً ، وكان الأول يباع فى العراق بالسابل . وكان للفضلات الإنسانية قيمة فى البصرة كما تقدم القول [٣] . وكان الناس فى ناحية سيراف أعنى فى مدينتى كُران وأراهستان يزرعون النخل فى حفر عميقة حتى لا يظهر من النخلة على وجه الأرض إلا أعلاها ، وكان ماء الشتاء يتجمع فى هذه الحفر ويروى النخل ؛ وكذلك كان إذا سئل أحد : أين ينبت النخل فى الآبار ؟ أجاب : بأراهستان [٤] .

ولم تكن تعرف بالمملكة الإسلامية كلها الأشباح التى يطرد بها الطير عن المزارع ، وهى ليست معروفة اليوم أيضاً . فكان الأطفال بالعراق أيام القرامطة هم الذين يطردون الطير من الحقول ، وكانوا يُعطون على ذلك أجراً ، فكانوا يدفعونه لجماعتهم [٥] . أما فى التركستان لهذا العصر « فإن أهل البلاد يعملون على حماية مزارعهم وبساتينهم من الطيور بأن يقيموا ربوة من الطين ارتفاعها نحو من

---

(١) ابن حوقل ص ٢٩٩ . (٢) معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٨٦ ، ورحلة عبد اللطيف البغدادى ص ٣ (٣) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٠٦ ، وانظر الفصل الخامس بالمدن (٤) ابن البلخى فى مجلة JRAS. 1902, p. 329. (كتب [illegible] البلخى حوالى عام ٥٠٠ هـ — ١١٠٧ م) (٥) De Goeje, Mémoire sur les Carmathes p 29 .

مترين في وسط كل حقل ، وعلى هذه الربوة صبيان عُراة أو أنصاف عراة عملهم طول النهار وفي الشمس المحرقة طرد الطيور بأن يصيحوا عليها أو يقذفوها بأكر من الطين ، أو بأن يضربوا طبلا أو لوح درع قديم ؛ وفي الصيف عندما ينتشر هؤلاء الصبيان اثنان أو ثلاثة في كل حقل ، وكل منهم يحاول أن يتفوق على الآخر ، عند ذلك تسود المزارع من الصباح إلى المساء ضوضاء مزعجة يكاد الإنسان منها يُجَن »(١) ، وفيما يتعلق بمراكش يستطيع القارئ أن يراجع وصف بوكسر لذلك(٢) .

وكانت العراق في القرن الرابع الهجري لا تزال بلاداً تربي البقر ، وكان الأنباط المقيمون هناك يُعرَفون بأنهم فرسان البقر ، ولم يتغلب الجاموس في هذه البلاد إلا لما زادت البطائح والمستنقعات ، وقد جلب العرب الجاموس من الهند وهي موطنه الأصلي ، ثم نقل في عهد بني أمية إلى بطائح العراق ؛ بل يذكر أن الحكومة وضعت أربعة آلاف من الجاموس على حدود الشام من الشمال لأن الناس شكوا من كثرة هجوم السباع عليهم ، وكان الجاموس يعتبر أكبر عدو للأسود . على أن المسعودي يحدثنا في أوائل القرن الرابع الهجري أن طريقة استخدام الجاموس للعمل بأنطاكية هي طريقة أهل الهند(٣) ، ثم إن عرب الشام نقلوا هذا الحيوان الذي يحب المستنقعات إلى إيطاليا والأندلس . وكان الناس في القرن الثاني الهجري يأكلون لحم البقر ثم تركوا ذلك(٤) ، وكانوا يربون البقر لأجل

---

(١) V. Schwarz, Turkestan, s, 65

(٢) F. Buchser, Marokkanische Bildern, Berlin 1861, s. 66.

(٣) De Goeje. Mémoires ... p. 22f ، وفي حوادث عام ٢٧٠ هـ — ٨٨٣ م أن أحمد بن طولون صاحب مصر والشام أكثر من لبن جاموس قدم له فأصابته تخمة ومات (تاريخ أبي الفداء ج ٢ ص ٦٠) ، وكذلك كان من الأشياء التي أحصاها المقدسي ... لبن الجاموس (المقدسي ص ١٨١)

(٤) المقدسي ص ١١٦ ، ويشكو ابن ... (ص ١٥) أن الحجاج منع من ذبح البقر لتكثر الحراثة والزراعة .

لبنها[١]، أما لحمها فكان يعتبر ضارًّا[٢]، بل كان الأطباء يعتبرونه سامًّا . وكان أبو بكر محمد بن زكريا الرازى الطبيب لا يوصى إلا بلبن الغنم ولحم الضأن[٣]. وقد حكى ابن رسته مظهرا لدهشته من أن أهل اليمن يفضلون لحم البقر على لحم الضأن السمين[٤]. وأهل اليمن إلى اليوم يعتبرون أن من التحقير تقديم لحم البقر حتى للخدم[٥].

ولم يذكر استيراد الحيوانات للذبح إلا بمصر ، فكانت تجتلب السائمة من برقة ، وكانت برقة هذه ذات مزارع تصلح عليها السائمة ، وكان أكثر ذبائح مصر منها[٦].

وكانت جزيرة العرب خير منبت للجمال ذات السنام الواحد ، ويدل ما ذكره علماء اللغة فى معاجمهم عن الجمل على مقدار مبالغة العرب وشدة دهائهم فى الاستفادة من أصغر غريزة أو حركة لهذا الحيوان أو تغييرها أو اقتلاعها ، وذلك لمصلحة الإنسان . وقد كان الجمل موضوعا نمت عليه دقة العقل العربى نموا كبيراً . وكانت بلخ مشهورة بالجمال ذات السنامين ، وهى المسماة بالجمال البخت ، وهى أفضل من كل ما عداها[٧] . وكان يجلب من السند الفالج الذى يولّد البخاتى وله سنامان ؛ وهو أعظم من البخت لا يستعمل ولا يملكه إلا الملوك[٨]. والبخاتى

---

(١) ابن حوقل ص ٢٠٨ . (٢) حكاية أبى القاسم طبعة متز ، وكذلك كانت قبائل القرغيز متأثرة بالعرب فهم لا يأكلون لحم البقر ، ولا يأكله الفقراء إلا مكرهين ، وهم يزعمون أنه عسير الهضم ، فهو أضر شىء بالصحة ، وأنه يحدث آلام المعدة والرأس . (Radloff, Sibirien, II, s. 439) (٣) كتاب طب الفقراء للرازى مخطوط ميونخ رقم ٨٠٧ ص ٦٨ أ — ب ، على أن الرازى يذكر لبن الحليب ولحم الفراريج ويدخل حليب البقر فى الأغذية (المترجم) (٤) ابن رسته ص ١١٢ .

(٥) نقلا عن Glaser فى كتاب : Jacob, Altarab. Beduinenleben s. 94

(٦) المغرب للبكرى طبعة سلين ص ٥ . (٧) الأصطخرى ص ٢٨٠ .

(٨) المقدسى ص ٤٨٢ . وانظر كلمة فالج عند الجوهرى .

والجمّازات السريعة الجرى تولّد من المزاوجة بين هـذه الفوالج البلخية و بين النوق العربية ، ولـكن هذه البخاتى والجمازات لا تتزاوج بل تظل عقيمة[١] .

وكانت الخيل تربى فى بلاد كثيرة ، وكان لـكل من العرب والفرس فى أمر الخيل تقاليد خاصة ، وضرب خاص حفظ أنساب الخيل ، وكانت الخيل الأصيلة الـكريمة تجلب إلى بغداد من جزيرة العرب . أما الخيل العادية فكانت تأتى من الموصل[٢] وتجارة الخيل التى لها شأن عظيم فى أيامنا بين الهند وجزيرة العرب أول من ذكرها فيما أعلم الرحالة ماركو بولو ، وكانت بحق أهم علاقة تجارية بين البلدين . وهو يذكر أن الحصان كان يشترى بمائة مارك فضة ، وكان يُجلب إلى الهند من الخيل فى كل عام ثلاثة آلاف لا يبقى منها بعد الحول إلا ثلاثمائة أحياء ، وهو يعلل ذلك بأن هواء بلاد الهند لا يلائم الخيل ؛ ولذلك فإنها لا تربى هناك وتصعب المحافظة عليها من الهلاك ، وهم يطعمونها الأرز مع اللحم المطبوخ ، وإذا وقع حصان جميل على فرس كبير ببلاد الهند لم يلد إلا مهراً قبيح الصورة معوج الأرجل لا يصلح للركوب[٣] .

وفى بعض جهات شمال إفريقية ، وهى سجلماسة وقفصة وقسطيلية كان الناس لا يزالون يحتفظون بعادة قديمة جدا وهى أنهم يسمنون الـكلاب ويأكلونها[٤] .

وكانت مصر من قديم مشهورة بتربية الدجاج تربيـة صناعية ، وخصوصاً بطريقة الترقيد الصناعى التى برعوا فيها ، ويظهر أن هذه الطريقة لم تنتقل إلى

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٥٠٤ وفيما يتعلق بما كانت تقطعه الجمازات وتقوم به . انظر الفصل الخاص بالمواصلات .

(٢) المقدسى ص ١٤٥ .

(٣) Marco Polo, p. 91 و 454 .

(٤) البكرى (المُغرب) ص ١٤٨ ، وانظر Marquart, Die Beninsammlung s. CLXVII وهو يقول إن اسم جزر قناريا مشتق من ذلك .

مصر من البلاد ، حتى نجد عبد اللطيف البغدادى يصفها عام ١٢٠٠ م بأنها من الأشياء التى اختصت بها مصر[١] .

وكان الحمام يحفظ فى أبراج تُبنى له وقاية من الأفاعى وغيرها من الحيوانات الضارة[٢]، وكان لا يؤكل ، وذلك لأن ذبله كان له قيمة كبيرة فى التسميد . أما فيما يتعلق بتربية الأسماك فليس عندى إلا ملاحظة واحدة ؛ وهى أنه كان ببحيرة طبرية أنواع من السمك منه البنّى الذى حمل إليها من واسط[٣] .

---

(١) رحلة عبد اللطيف البغدادى ترجمة دى ساسى ص ١٣٥ وما بعدها ، وفى هامش رقم ٣ جمع دى ساسى النصوص القديمة .

(٢) Geoponica, 13, 6. . (٣) المقدسى ص ١٦٢ .

الفصل الخامس والعشرون

الصناعات

كان اللباس عند أهل الشرق الأدنى أهم المطالب الثلاثة الأساسية التى يحتاج إليها جسم الإنسان ، وهى : الطعام واللباس والمسكن ، وكانت صناعة الملابس أرقى الصناعات ، وكانت زينة البيوت من الداخل عبارة عن ستائر ملونة تعلق على حيطانها . وكان أهم ما يعتبر ترفا هو أن يكون الإنسان حسن اللباس عندهم ، وكان جمال المسكن يتلخص فى أن تكون حيطانه معلقاً عليها الستائر الجميلة ، وأن تكون أرضه مفروشة بالبُسُط ، ويحكى عن الطوسى الزاهد (المتوفى عام ٣٤٤ هـ — ٩٥٥ م) . أنه لم يكن له فراش[١] ، وإنما ذكر ذلك ليكون دليلا خاصا على زهده . ولهذا كانت صناعة البسط والسجاجيد منتشرة فى جميع البلاد ، وكانت النماذج الصناعية لكل بلد أشبه بجزء من اللباس القومى الذى تختص به . وكان السائر فى أنحاء المملكة الإسلامية يستطيع أن يعرف فى أى بلد هو ، وذلك بالنظر إلى ما على حيطان الغرف من أنواع الستائر ، وكانت السجاجيد فى ذلك العصر ثلاثة أقسام : أولها الستائر المعلقة على الحيطان . وثانيها البسط والأنخاخ التى تفرش بها أرض الغرف والصحون والممرات . وثالثها الأنماط وهى تفرش على الأرض للنظر دون الدوس[٢] . ويضاف إلى ذلك أنواع أخرى صغيرة ، منها سجاجيد الصلاة والأغطية والمخادّ والنمارق والمقاعد ونحوها من أنواع الوسائد[٣] .

---

(١) تاريخ الشافعية : Wüstenfeld, AGGW 37, Nr. 129

(٢) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٥٢ . (٣) حكاية أبى القاسم صفحة ٣٦ .

وبالرغم من أن القطن كان يزرع بمصر العليا منذ زمان طويل [١] ، فإنه لم يذكر بين حاصلات مصر في القرن الرابع الهجري ، ويظهر أنه لم يكن له شأن في هذه البلاد التي تنبت اليوم أحسن أنواع القطن [٢] .

وكان الكتان هو القماش الذي اختصت به مصر ، وكانت الفيوم أكبر مكان لزراعته ، وكان يصدر إلى النواحي حتى ربما بلغ فارس [٣] . وكانت الأجساد المحنّطة تلفّ دائماً بقماش الكتان ، وكانت صناعة النسيج من الرقي بحيث أمكن أيضاً صنع بعض الأقمشة الصوفية أيضاً [٤] ، فكانت تصنع بمدينة طحا إحدى قرى الصعيد ثياب الصوف الرفيعة [٥] . وكان المركزان الكبيران لصناعة نسيج الكتان هما الفيوم ، وبحيرة تنيس بنواحيها وهي : مدينة تنيس ودمياط وشطا ودبيق ، وكانت هذه المدينة الأخيرة في أول الأمر أكبر المدن التي تصنع النسيج ، لأنه كان ينسب إليها أجود أنواع الأقمشة وهو المسمى بالدبيقي . أما في القرن الرابع فقد أصبحت تنيس ودمياط أكبر مركزين لصناعة النسيج . وكان القماش الذي يصنع بمصر هو قماش الكتان الأبيض الذي لا تلوين فيه ، وهو القماش الذي يعتبر قماشاً مصرياً حقيقة ؛ حتى كان يقال في العصر الأموي إن الأقمشة المصرية كالنشاء على البيض ، أما اليمنية فهي كأزهار الربيع [٦] . وكان من ثياب الإسكندرية ما يباع الكتان منه — إذا عمل ثياباً يقال لها الشرب — كل زنة درهم بدرهم فضة [٧] . وكان القماش المسمى بالدبيقي الثقيل جيّد النسيج إذا انشق كان

---

(١) Plinius, Hist. nat, 19, 14. (٢) وحتى أواخر القرن الثامن عشر كانت مصر تصدر الكتان إلى الشام وتستورد منها القطن (Brown, Travels in Africa, London, 1799 P. 354) (٣) المقدسي ص ٢٠٣ ، وفي عام ٢٧٣ هـ ارتفع سعر القمح بمصر حتى مات الناس من الجوع والجهد وكانوا يأكلون بذور الكتان (يحيي بن سعيد ص ٧٨ أ) (٤) المقدسي ص ٤٤٢ . (٥) نفس المصدر ص ٢٠٢ .
(٦) البيان ... ج ١ ص ٤٦ (؟) . (٧) الخطط ج ١ ص ١٦٣ .

له صوت عال شبه بعض المجان به الضراط العالى[١]، وكان هذا القماش يستعمل فى رسم الخرائط عليه بالأصباغ المشمعة[٢]. وربما بلغ ثمن الثوب من هذا الدبيقى مائة دينار فإذا كان به ذهب بلغ المائتين[٣]. وكان الثوب الفخم الذى نبغ فى صناعته أهل تنيس يسمى البدنة، وكان يصنع للخليفة ولا يدخل فيه من الغزل — سدى ولحمة — غير أوقيتين؛ وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ولا خياطة، وتبلغ قيمته ألف دينار[٤]. وكان يصنع بالفيوم الستور الثمينة، يبلغ طول الستر ثلاثين ذراعاً أو أكثر أو أقل، وقيمة الزوج منها ثلاثمائة دينار[٥].

ولم يكن يستحسن للظرفاء من الرجال فى القرن الرابع الهجرى لبس الثياب الشنعة الألوان المصبوغة بالطيب والزعفران، وكان أول ما يحسن لهم اتخاذه من اللباس الكتان الناعم النقى اللون مثل الدبيقى[٦]، وحتى عام ٣٦٠ هـ — ٩٧١م كانت تنيس تصدر للعراق وحدها من الأقمشة ما تبلغ قيمته من عشرين ألف دينار إلى ثلاثين[٧]، ولكن لما انتقلت مصر إلى أيدى الفاطميين منعوا الإصدار[٨]، ولذلك شاعت بمصر العمائم الدبيقية الطويلة التى يبلغ طول الواحدة منها مائة ذراع، وظلت منذ عام ٣٦٥ إلى ٣٨٥ هـ (٩٧٦ — ٩٩٥م)[٩]. وكان يوجد إلى جانب هذه الثياب الجيدة ثياب رقيقة «مهلهلة النسج كأنها المنخل[١٠]، وهى

---

(١) حكاية أبى القاسم ص ٩٣، ١٠٩. (٢) الفهرست ص ٢٨٥.
(٣) ابن حوقل ص ١٠١. (٤) الخطط للمقريزى ج ١ ص ١٧٢، وابن دقماق ج ٢ ص ٧٩. (٥) ابن حوقل ص ١٠٥. الموشى للوشاء طبعة برونو ص ١٢٤، وكتاب المرواة الثعالبى مخطوط برلين رقم Pet 59 ص ١٢٩ب، وحكاية أبى القاسم ص ٣٥. (٧) الخطط ج ١ ص ١٣٧. (٨) ابن دقماق ج ٢ ص ٧٩.
(٩) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٢٩ (؟) وذكر ياقوت (معجم البلدان) فى العصر المتأخر بلداً بالعراق تسمى دبقية لم أر لها قط ذكراً فى القرن الرابع، وهذا لا يدل على انتقال صناعة الكتان المصرية إلى هناك، فربما يكون هذا الموضع سمى بذلك نسبة للقماش الدبيقى المشهور، كما سمى موضع قرب بغداد باسم سوسنجرد (انظر Carabacek Die persische Nadelmalerei, s, 117
(١٠) معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٨٩٠.

المسماة بالقصب ، وكان هذا القصب يلوّن ، وكان الملوّن منه يُنسج بتنيس ، ولم يُنسج في أي مكان آخر قصب ملوّن مثله ، وكان يُعمل منه عمائم الرجال ، ووقايات وملايين للنساء ، أما الأبيض فكان يُنسج بدمياط [1] . وفي القرن الخامس الهجري ظهر نوع جديد من القماش وهو المسمى أبا قلمون ، وهو قماش يظهر للرائي في ألوان مختلفة . وكان يصنع في مدينة تنيس وحدها [2] .

وكانت صناعة النسيج في الدلتا المصرية صناعة منزلية ؛ فكان النساء يغزلن الكتان والرجال ينسجونه ، وكان تجار القماش يدفعون لهم أجرهم كل يوم ، ولم يكونوا يستطيعون أن يبيعوا إلا للسماسرة الذين تعينهم الحكومة ، وكانت أجرة النساج في أوائل القرن الثالث الهجري نصف درهم كل يوم « وذلك لا يفي بثمن الخبز الذي يأكله » ، ويشبه هذا ما قاله أهل تنيس للبطريرك ديونيسيوس التلمحدي [3] لما مر ببلدهم في ذلك العصر ، وكان ثمن قطعة القماش يرتفع ارتفاعاً باهظاً بسبب المكوس والضرائب المتنوعة [4] .

وكان للمشرق أيضاً مراكزه الخاصة لنسيج الكتان ، وذلك بفارس ، وكانت أكبر مدينة بفارس لصنع ثياب الكتان مدينة كازرون ؛ حتى كانت تسمى « دمياط الأعاجم » [5] ، وكانت أنواع الأقمشة بفارس هي الأنواع

---

(١) رحلة ناصر خسرو ص ٥١ من النص الفارسي ، وحكاية أبي القاسم ص ٥٣ — ٥٤ مثلا . (٢) رحلة ناصر خسرو ص ٣٧ من ترجمة شيفر ، وحكاية أبي القاسم ص ١٣٦ ، على أن مؤلفي القرن الرابع لم يصفوا أبا قلمون هنا ، فهو عند المقدسي (ص ٢٤٠ — ٢٤١) من عجائب المغرب ، ويصفه بأنه دابة تحتك بحجارة على شط البحر ، وهو في لين الخز لونه لون الذهب ، وهو عزيز الوجود يُجمع وتنسج منه ثياب تتلون في اليوم ألواناً ، وربما بلغ الثوب منه عشرة آلاف دينار ، وفي القرن الخامس الهجري وجدت مرتبة قلموني في خزائن الفرش والأمتعة التي للفاطميين (الخطط جزء ١ ص ٤١٦)

(٣) Michal Syrus ed. Chabat, 516 (٤) انظر الفصل الخاص بالمسائل المالية (٥) المقدسي ص ٤٣٣ — ٤٣٤

المصرية من الدبيقى والشرب والقصب ؛ مما يدل على صلة بين الصناعتين بمصر وفارس ، ويقول المقدسى (ص ٤٤٢) إنه تصنع بمدينة سينيز (إحدى المدن الساحلية بفارس) ثياب تشاكل القصب ، وإنه ربما حمل إليهم الكتان من مصر ، أما فى عصر المقدسى فهو يقول إن أكثر ما يعمل بسينيز من الذى يزرع عندهم ، وفى كلام المقدسى هذا دليل على أن صناعة نسج الكتان نقلت إلى فارس من مصر ، وكان الكتان ينقل بطريق البحر ، وكان فى أول الأمر يصنع بالمدن الساحلية مثل سينيز وجنّابة وتوّز ، ولم تنتقل صناعته إلى داخل بلاد فارس إلا فيما بعد عند ما استقلت فارس بكتانها عن مصر ، ويسمى أحسن الكتان الفارسى بالتوّزى نسبة إلى توز وإن كان أكثره يعمل بكازرون[1] .

وهاك ما ذكره ابن البلخى فى وصفه لمملكة فارس حوالى عام ٥٠٠ هـ — ١١٠٦ م عن كيفية صناعة الثياب التوزية بمدينة كازرون : يُبَل الكتان فى البرك ثم يفصل بعضه عن بعض ويغزل ؛ ثم تغسل خيوطه فى ماء نهر الرهبان ، وماء هذا النهر وإن كان قليلا شحيحاً فإن له خاصية تبييض خيوط الكتان مع أنها لا تبيض فى غيره من الماء ، وهذا النهر ملك لخزانة السلطان ، ودخله يرد إلى بيت الأمير ، ولذلك لا يُصرح بالغسل فيه إلا للنساجين المكلفين بذلك ، ويتولى الإشراف عليه ناظره ، وثم سماسرة يعينون الثمن العادل للأقمشة ويختمون اللفائف المخزونة قبل تسليمها للتجار الأجانب ، وكان هؤلاء يثقون بالسماسرة ويشترون اللفائف من غير أن يفكوا حبالها ؛ بل يأخذونها [illegible] ، وكانت إذا وصلت اللفائف إلى أى بلد اشتراها التجار من غير أن يفتحوها ، واكتفوا بمجرد السؤال عن شهادة السمسار بكازرون ، فكثيراً ما كان يحدث أن ينتقل الحل من لفائف كازرون حتى تتداوله عشر أيد من غير أن يُفك وثاقه ، ولكن فى هذه الأيام

---

[1] [illegible]سو ص ٤٣٥ .

الأخيرة ظهر الغش ، وصار الناس خونة ، وانعدمت الثقة كلها ، وكثيراً ما وجدت البضائع المختومة بختم السلطان من نوع ردىء ، ولذلك انصرف التجار عن بضائع كازرون[١] .

وإذا صرفنا النظر عما تقدم وجدنا أن مركز القطن فى المشرق من مملكة الإسلام كمركز الكتان فى مغربها[٢] ، بل كان القصب الذى يصنع بمدينة كازرون يعمل من القطن فى كثير من الأحيان ، وقد حمل القطن من الهند إلى الشمال مباشرة قبل أن ينقل غرباً أو شرقاً بزمن طويل ، ولم يكن القطن معروفاً فى الصين فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وقد ذكره الرحالة الصينى تشانشنج Chanchung حوالى عام ١٢٢١ م فى وصفه لوادى إيلى وهو يقول : « وهناك نوع من القماش يسمى لولوما يقول إنه يصنع من صوف نبات ، وهذا الصوف يشبه زهر الكاتكن الذى نراه فى مراعينا ، وهو نقى ناعم لين ، ومنه يصنعون الخيوط والحبال والقماش والأغطية[٣] ، وفى القرن الرابع الهجرى كان يصدر من مدينة كابل ثياب من قطن مشهورة بحسنها يُعمل منها ما يسمى السبنيّات التى كانت تحمل إلى الصين وخراسان[٤] . ولم يكن القطن يزرع بالعراق وإنما نقل إليها من شمال فارس ومما بين النهرين[٥] ، — ولا تزال بلاد ما وراء النهر تنتج من القطن ما تبلغ قيمته أربعمائة مليون مارك — وقد نشره فيما بين النهرين أمراء الحمدانيين ، على الرغم مما عرف عنهم من الجور على الزراع وعدم الاكتراث بالأشجار[٦] . وكذلك انتشر القطن فى القرن الرابع بشمال إفريقية[٧] ،

(١) J R A S 1902, s. 337 .

(٢) يقول الثعالبى : وقد علم الناس أن القطن لخراسان ، وأن الكتان لمصر (لطائف المعارف ص ٩٧) . (٣) Bretschneider, Mediaevol researches I, s. 70, 31

(٤) ابن حوقل ص ٣٢٨ .

(٥) W. Busse. Bewässerungowirt. in Turan, s. 72 .

(٦) انظر الفصل الخاص بالمالية . (٧) البكرى طبعة سلين ص ٥٩ ، ٦٩ .

والأندلس[١] . أما المراكز الكبرى لصناعة القطن فكانت تقع فى شرق فارس وهى مرو ونيسابور وبمّ (بشرق كرمان) . وقد اشتهرت هذه المدينة الأخيرة بثياب القطن الفاخرة ، وكان من طرائف ما يعمل فيها الطيالسة المقوَّرة التى تنسج برفارف ، يبلغ الطيلسان منها والشرب الرفيع ثلاثين ديناراً ، وكانت تحمل إلى أقطار الأرض ، وتباع بخراسان والعراق ومصر[٢] . وكان يصنع فى مرو القطن الذى يبلغ الغاية فى اللين[٣] ، وهو لا يمكن أن يلبس لثقله وغلظه ، ولذلك يسميه المتنبى لباس القرود[٤] . ويقول أبو القاسم لقوم يستقبحهم « على أبدانكم ثياب بفت خشن مروىّ غليظ من غزل البيت طاقة وضرطة ونزول مطابقة منها قصانكم ومنها عمائمكم »[٥] . ولكنه كانت تتخذ منه العمائم[٦] . وكان يحمل من الإقليم الذى يزرع فيه القطن بالتركستان الثياب القطنية[٧] ، على حين أن الكتان كان من أندر الأشياء ببلاد ما وراء النهر ، ويحكى عن إسماعيل السامانى أنه أهدى لكل قائد فى جيشه ثوباً من الكتان كهدية قيمة[٨] .

أما صناعة الحرير فقد صارت على عكس صناعة القطن ، منتشرةً من بوزنطة شرقاً ، ويقول المسعودى إنه منذ أن غزا سابور ملك فارس بلاد الجزيرة وآمد وغيرها من بلاد الروم ، ونقل من أهلها خلقاً كثيراً أسكنهم مدناً من فارس ؛ صار الديباج يعمل بتستر والخز بالسوس حتى عصر المسعودى[٩] . وكان استيراد الديباج والبزيون والثياب والأكسية الرومية لا يزال مستمرا فى القرن الرابع ، وكان ذلك أهم ما يمر بمدينة أطرابزنده[١٠] ، وكانت [illegible]ابيج الروم مشهورة معروفة

(١) Moro Rasis, s. 56 . (٢) ابن حوقل ص ٢٢٣ .
(٣) المقدسى ص ٣٢٣ ، ابن حوقل ص ٣١٦ ، وابن الفقيه ص ٣٢٠ ، ولطائف المعارف ص ١١٩ . (٤) ديوان المتنبى طبعة بيروت ص ١٧ .
(٥) حكاية أبى القاسم ص ٣٧ . (٦) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٦٢ .
(٧) ابن حوقل ص ٣٦٢ . (٨) Vàmbèry, Geschichte Bacharas, s. 63
(٩) مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٥ — ١٨٦ . (١٠) ابن حوقل ص ٢٤٦ .

بجودتهـا فى القرن الرابع[١] . وكانت أكبر مصانع نسج الحرير فى ذلك العصر توجد بإقليم خوزستان ، حيث نقل الساسانيون هـذه الصناعة من بلاد الروم ، وكانت أنواع الحرير من ديباج وخز وستور تصـنع هناك . أما صناعة الأبريسم فكانت متركزة فى الشمال على طريق الصين القديم ، فكانت تصنع بمدينة مرو بإقليم طبرستان (الأراضى الجبلية الواقعة جنوب بحر الخزر) ثياب الأبريسم التى كانت تصدر إلى جميع الآفاق[٢] ، وكان أهل أرمينية يصنعون من هذا الأبريسم التكك الأرمينية المشهورة التى كانت تباع الواحدة منهـا بدينار إلى عشرة دنانير[٣] ، والثياب الحرير الثقيلة التى كانت تصدرها طبرسـتان تدل على صلة قريبـة بين صناعة الحرير بطبرستان وصناعته بالصين ، لأنهـا ثقيلة ؛ أما الصناع الفرس فكانوا يؤثرون الأقمشة الرفيعة الرقيقة .

أما الفُرُش الصوفية فكان الناس يميزون فيهـا بنوع خاص بين الفارسية والأرمينية والبخارية ، وكانت البسط الفارسية الحقيقية (المسماة بالبسط السنِّيَّة) تعمل بفارس ، وكان أحسنها ما يصنع على طريقـة أهل سوسنجرد[٤] ، وكان الناس فى القرن الرابع يقـدمون البسط الأرمينية على ما عداها من البسط[٥] ، وعن هـذه البسط أخذت صناعة البسـط الأزميرية المشهورة عندنا ، وقد وُصف أحد الخلفاء حتى فى العصر الأموى وهو الوليد بن يزيد بأنه كان جالساً فى بيت منجد بالأرمنىّ أرضه وحيطانه[٦] ، وكانت الخيزران أم الهادى والرشيد تجلس

---

(١) لطائف المعارف للثعالبي ص ١٣١ ، بل كان الديباج يجلب إلى بلاد المسلمين من فرنسا (ابن الفقيه ص ٢٧٠) .

(٢) الأصطخرى ص ٢١٢ ، وابن حوقل ص ٢٧٢ .

(٣) ابن حوقل ص ٢٤٦ ، وهذه الصناعة هى أغلى الصناعات ببغداد اليوم ، وكان المعروف أن أصل القز بجرجان وطبرستان جاء من مرو (ابن حوقل ص ٣١٦) ، وفى القرن الرابع كان بزر الأبرسيم يؤخذ كل سنة من جرجان إلى طبرستان . (ابن حوقل ص ٢٧٣) .

(٤) Karabaçek, Die persische Nadelmalerei Sûsangird, Leipzig 1881 .

(٥) لطائف المعارف الثعالبي ص ١١١ ، ٢٣٢ ، وحكاية أبى القاسم ص ٣٦ .

(٦) الأغانى ج ٥ ص ١٧٣ .

فى دارها على بساط أرمنى وعندها أمهات أولاد الخلفاء وغيرهن من بنات هاشم على نمارق أرمنية[١] . ولما مات الحسين بن أحمد المعروف بابن الجصاص وكان صاحب مال وجوهر وأثاث وكان أوسع أهل بغداد ثروة حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢م كان من أهم ما ذكر فى جملة ما احتوت عليه داره الفرش الأرمنية[٢] . وذكرت الفرش الأرمنية أيضاً من جملة ما كان فى خزائن أم المقتدر[٣] ، ويحكى أن بعض عمال الخليفة أهدى إليه سبعة بسط أرمنية فى جملة ما أهداه إليه[٤] ، وكان يفضل من البسط الفارسية ما هو أشبه بالأرمينى فى صناعته[٥] ، وكانت توصف البسط الفارسية التى تعمل بأصفهان والتى كان حسنها مشهوراً فى الآفاق بأنها إن استعملت مع الأرمينى الفاخر من الفرش حسنت معه وإن بُسطت وحدها اجتزئ بها[٦] ، وقد قال ماركو بولو (حـ ١ ص ٣) إن الفرش الأرمينية أجمل الفرش وأحسنها صناعة ، وربما كان سبب ذلك التقدير للبسط الأرمينية جودة الصوف الأرمينى الذى يعتبره الثعالبى أجود الصوف بعد صوف مصر[٧] وكان أحسنه الصوف الأرمينى الأحمر ، ويقول المسعودى حوالى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م إن الأحمر استعماله فى حالة الزينة والطرب وأوقات السرور واستعمال النساء والصبيان ، وإن حس البصر مشاكل للون الحمرة ، إذ كان من شأنه أنه إذا أدركها انبسط نور البصر فى إدراكها ؛ ولكنه إذا وقع على اللون الأسود اجتمع نوره ولم ينبسط فى إدراكه انبساطه فى إدراك الحمرة ، وذلك للنسبة الواقعة بين

---

(١) مروج الذهب ج ٦ ص ٢٣٤ .

(٢) عريب ص ٤٨ . (٣) مسكويه ج ٥ ص ٣٨٩ .

(٤) Elias Nisib. s. 202 . (٥) الأصطخري ص ١٥٢ .

(٦) ابن رسته ص ١٥٣ .

(٧) لطائف المعارف ص ١٢٨ ، وبعد ذلك صوف تكريت ثم صوف فارس ، ويرجع أصل هذا النص الذى ذكره الثعالبي إلى كتاب التجارة للجاحظ (انظر مجلة Z D M G, VIII 529

نور البصر وبين لون الحمرة[١]، وكان من أهم ما ذكر ضمن خزائن الفرش والأمتعة بالقاهرة فى بعض العصور الحمراء المذهبة[٢]، وقيل فى الفرش القرمزية التى كانت تعمل بمدينة أسيوط بصعيد مصر أنها تشبه الأرمنى[٣]. أما الفرش المسماة بالطنافس فهى تدل من اسمها على أثر الفن الرومى كلمة tapetes الرومية تقابل كلمة طنافس العربية)، ولا بد أنهـا كانت فى أول الأمر تصنع بالعراق فى مدينـة الحيرة، وهى مدينة نصرانية قريبة من حدود الروم، وذلك لأن الطنافس التى كانت تصنع فيما بعد فى مدينة النعمانية كانت تسمى الطنافس الحيرية[٤]، وهذه النسبة لا تخلو من دلالة، وكانت الصور التى ترسم عليها هى هى دائماً : الزخارف والفيلة والخيل والجمال والسباع والطيور[٥].

وكانت الحصر تصنع فى جميع أنحاء المملـكة الإسلامية من الخلفاء، وكان أشهرها ما يصنع بعَبّادان، وهى مدينـة فى جزيرة بين دجلة والعراق ونهر خوزستان ليس وراءها إلا البحر[٦]. وكانت حصرها تُقلّد فى مصر وفارس[٧]. وكانت البلاد المشهورة تنقش على مايصنع فيها عبارة : عمل مدينة كذا أو كذا، ليـكون ذلك دليلا على أصلها، وهـذا لم يمنع الغش بالطبع، فمثلا كانت بعض المدن التى لا شهرة لها تعمل ستوراً تشبه الستور التى كانت تصنع بمدينة بِهِنَى وتكتب عليهـا اسم بِهِنَى لتدلسها فى الستور الجيدة، كما كانت بعض الثياب تعمل فى بعض البلاد ويكتب عليها اسم بغداد على سبيل التدليس[٨].

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ١٠٢.
(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤١٦ — ٤١٧.
(٣) جغرافية اليعقوبى ص ٣٣١. (٤) ابن رسته ص ١٨٦.
(٥) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٥٢، والمقريزى ج ١ ص ٤١٧، وانظر Kremer Kulturgeschichte, II 289. (٦) المقدسى ص ١١٨.
(٧) نفس المصدر ص ٢٠٣، ٤٤٢. (٨) الأصطخرى ص ٩٣.

وقد ازدهرت بإقليم سابور من أعمال فارس صناعة خاصة تشبه الصناعة التي اختصت بها الرفييرا الفرنسية وهي صناعة الروائح العطرية ، وكانت الزيوت العطرية في ذلك العصر تتخذ من البنفسج والنيلوفر والنرجس والكارده والسوسن والزنبق والمرسين والمرزنجوش والبادرنك والنارنج [١] ، وقد حاول البعض أن يقوم بهذه الصناعة الغالية في العراق ، فاستحدثت الكوفة دهان الخيري ، وكانت في الخيري والبنفسج تفوق سابور [٢] ، وكانت بمدينة جور (تقع جنوب فارس) صناعة تشبه الصناعة المتقدمة ، ولكنها تنفصل عنها تمام الانفصال ، فكان بمدينة جور يحضّر ماء الورد ، وذلك من زهور غير الزهور الأولى ؛ مثل الورد والطلع والقيسوم والزعفران والخِلاف ، وكان ينقل ماء الورد من جور إلى سائر البلدان ، فيُحمل إلى المغرب والأندلس ومصر واليمن وبلاد الهند والصين [٣] . وهاتان الصناعتان اللتان لم يحدثنا الأقدمون بشيء عن أصلهما لا بد أنهما نشأتا في العصر الإسلامي .

وقد أصبحنا في القرن الرابع الهجري لا نسمع شيئاً عن الطاحون التي تدار باليد وتحدث جعجعة ، لا عند أهل المدن ولا عند أهل القرى ، بل كان على الأنهار أرحاء في سفن [٤] . وكان على النهيرات الصغيرة أرحاء مائية تدور [٥] ، وكان على نهر الشيطان وحده — وهو بجيروفت — خمسون رحى [٦] ، وقد عالج أهل البصرة مشكلة من أحدث مشاكل استعمال حركة الماء ، وذلك أنه كان عندهم الجزر والمد ، وكان الماء يزورهم في كل يوم وليلة مرتين ، ففي أثناء المد يدخل الماء الأنهار ، وفي أثناء الجزر ينحسر راجعاً ، عمدوا إلى أرحية أقاموها

(١) المقدسي ص ٤٤٣ . (٢) الأصطخري ص ١٥٣ ، وابن حوقل ص ٢١٢ .
(٣) ابن حوقل ص ٢١٣ . (٤) المقدسي ص ٤ : ٨ مثلا ، ومفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٧١ . (٥) المقدسي ص ٤٠١ ، ٤٦٦ .
(٦) ابن حوقل ٢٢٢ .

على أفواه الأنهار ليديرها الماء فى أثناء حركته خارجاً وداخلا[١]، ولم يكن الناس يستعملون الدواب فى إدارة الطواحين إلا فى الجهات التى ليس بها أنهار[٢] ، وكان أهل مدينة ايجلى بمراكش يتهيبون من تسخير الماء تورُّعاً « فكان بغربى مدينتهم نهر كبير عليه بساتين كثيرة ، ولم يتخذوا قط عليه رحى ، فإذا سئلوا عن المانع لهم من ذلك قالوا : كيف يسخَّر مثل هذا العذب فى إدارة الأرحاء ! »[٣]، وكانت أكبر الأرحاء العائمة تقوم على نهر دجلة ، لا على الفرات ، وذلك فى تكريت والحديثة وعكبرا والبردان وبغداد ، وكان بعض الأرحاء المشهورة بالموصل وبمدينة بلد أيضاً ، وكانت طواحين مدينة بلد هذه (تقع فوق الموصل على نهر دجلة) لها فصل تدور فيه وهو المدة التى تحمل فيها الحنطة فى السفن إلى العراق ، وقد انتهى إلينا وصف مطاحن الموصل ، فكانت تسمى الواحدة منها عربة ، وهى مصنوعة من الخشب والحديد الذى لا يمازجه شىء من الحجر والجص ، وهى تقوم فى وسط الماء بسلاسل حديد ، كل عربة فيها حجران ، يطحن كل حجر منها خمسين وقراً فى كل يوم[٤] ، وكان أكبر رحى ببغداد رحى يقال لها رحى البطريق ، فقد كانت مائة حجر تغل فى كل سنة مائة ألف ألف درهم[٥]. ولم يحدثنا أحد من المؤلفين عن أرحاء نشر الخشب .

ويحكى عن أبى لؤلؤة بن فيروز ، قاتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ،

---

(١) المقدسى ص ١٢٥ .

(٢) الأصطخرى ص ٢٧٣ بخراسان ، ويظهر أن إدارة الطواحين على الدواب لم تكن عادة أهل فارس لكثرة أنهارها ، ويذكر عن أهل مدينة خلار ، التى كانت تمد فارس كلها بحجارة الطواحين ، أنهم كانوا يطحنون غلالهم فى القرية المجاورة لهم ، لأنه لم يكن فى بلدهم رحى مائية (ابن البلخى فى JRAS, 1902, s. 335) .

(٣) البكرى طبعة سلين ص ١٦٢ .　　(٤) ابن حوقل ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٥) جغرافية اليعقوبى ص ٢٤٣ .

وكان فارسيا من نهاوند ، أنه قال لو شئت أن أصنع رحى تطحن بالريح لفعلت[1] . وكانت الرياح تشتد بإقليم سجستان وكرمان ويدوم هبوبها دواماً غير مألوف ، (وكانت تسمى باد ساد أو بيست روز لأنها تهب مائة وعشرين يوماً) ، وكان أهل هذه البلاد ينتفعون بهذه الرياح ، فنصبوا عليها أرحاء يسيرونها بها[2] .

ولا تزال هذه الطواحين إلى اليوم ، فيقول الرحالة سفين هيدن : « يبدأ هبوب الرياح الشمالية حوالى منتصف يونية ويستمر شهرين ، وتنصب الطواحين لأجلها خاصة ، وللرحى ثمانيـة أجنحة ، وتكون بين أسطوانتين بينهما الهواء كالسهم ، والأجنحة تدور عمودية على قدم عمودية أيضاً ، طرفها الأسفل يحرك حجراً فيدور هذا الحجر على حجر آخر »[3] ، فهذه الرحى طاحونة هوائية على الحقيقة . وقد حكى الغزولى فى أمر هذه الطواحين ما يبين أن من الممكن تنظيم سرعتها بواسطة منافس تُغلق وتفتح فيها كما نفعل نحن اليوم بالعجلات المائية ، وهو يقول : « حدثنى من دخل سجستان وكرمان أن جميع أرحائهم ودواليبهم تدور بريح الشمال ، قد جُعلت منصوبة تلقاءها ، وأن هـذه الريح تجرى عندهم على الدوام صيفاً وشتاء ، وهى فى الصيف أكثر وأدوم ، وربما سكنت فى اليوم والليلة مرة أو مرات ، فيسكن كل رحى دولاب بذلك الإقليم ، ثم يتحرك فيتحرك ، وذكر أن هذه الدواليب المنصوبة بها اثنا عشر ألفاً وتنقطع بانقطاعها ، قال والخصب والقحط فى بلادهم معتبر بكثرة جريان ريح الشمال ، ولكنه قال : ولهم فى الأرحاء منافس تغلق وتفتح لتقل شـدة دورانها وتكثر ، وذلك أنها إذا كانت قوية أحرق الدقيق فخرج أسود ، وربما حمى الرحاء فانفلق ، فهم يحتاطون لذلك بما ذكرناه »[4] .

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٤ ص ٢٢٧ .

(٢) ابن حوقل ص ٢٩٩ ، والمقدسى ص ٣٣٣ .

(٣) Sven Hedin, Zu Land nach Indien, Bd., II, s., 147 .

(٤) مطالع البدور للغزولى طبعة مصر ١٣٠٠ هـ ج ١ ص ٥٠ أما الطواحين الفارسية =

وكذلك أحدث القرنان الثالث والرابع انقلابا عظيما فى صناعة الورق ، فحررا مادة الكتابة من احتكار بلد من البلاد له واستئثارها به ، وصيراه رخيصاً جدا ، وكان الناس — طول استعمالهم للبردى — يعتمدون على مصر[١] . أما فى القرن الرابع فيحدثنا الثعالبى أن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر والجلود التى كان الأوائل يكتبون عليها ، لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق ، ولا تكون إلا بسمرقند وبالصين[٢] . ولم يتكلم اليعقوبى فى أواخر القرن الثالث الهجرى إلا عن مدينتين اثنتين فقط تصنع بهما القراطيس فى مصر السفلى[٣] . ويحدثنا ابن حوقل أن بصقلية بقاعا قد غلب عليها البردى ، ولكن لا يُعمل منه الورق إلا للسلطان على قدر كفايته[٤] ، وأكثره يفتل حبالا للمراكب[٥] ، كما كان الحال فى العصر الهومرى من قبل[٦] . ويقول كرابجك : « يمكننا أن نقول مع كثير من الترجيح إن صناعة تجهيز ورق البردى بمصر للكتابة قد أصبحت منتهية بالإجمال حوالى منتصف القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ، فنجد أن الورق البردى المؤرخ ينتهى فى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م انتهاء تاما ، على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م »[٧] . وكان أجود الورق فى ذلك العصر

= التى ذكرها البكرى (طبعة سلين ص ٣٦) بعمال إفريقية ، وذكرها أبو صالح الأرمنى فى تاريخه (ص ٦٣ ا) ، فلا نجد لها ذكراً فى المعاجم ، ولكنها كانت تستعمل فى تقطيع قصب السكر Lippmann, Gesch. des Zuckers, s. 110 .

(١) وكان يصنع من البردى القراطيس أو الطوامير ، ويكون طول الواحد ثلاثين ذراعاً وأكثر فى عرض شبر (حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١٩٤) ، ولا أدرى معنى قول عمر بن أبى ربيعة « وقرطاسة قُوهِيَّة » (ديوان عمر طبعة شفارتز قصيدة رقم ٣٢ بيت ٣ ص ٣٠) ، وربما يكون الصواب قَهْوِيَّة (يعنى كلون الخمر) .

(٢) لطائف المعارف ص ١٢٦ .

(٣) جغرافية اليعقوبى ص ٣٣٨ .

(٤) ابن حوقل ص ٨٦ .

(٥) Hehn, Kulturpflanzen, 8 Auf., s. 312 .

(٦) Karabacek, Mitteilungen aus ben Papyrus Rainer, IV III s. 98 .

(٧) نفس المصدر ص ١١٤ وما يليها .

بمملكة الإسلام هو الكاغد الذى نقلت صناعته من الصين وناله على أيدى المسلمين التغيير الهام الذى يعتبر حادثا فى تاريخ العالم ، فإن المسلمين نقوه مما كان يستعمل فى صناعته من ورق التوت ومن القاب المندى ، وكان فى القرن الثالث يصنع ببلاد ما وراء النهر فقط[1] . أما فى القرن الرابع فكانت توجد مصانع الورق بدمشق وطبرية بفلسطين[2] وبطرابلس الشام[3] . ولكن سمرقند ظلت أكبر مركز لصناعته دائما ، وقد داعب الخوارزمى أحد أصحابه لأنه لم يكتب إليه فتساءل

---

(١) الأصطخرى ص ٢٨٨ . (٢) المقدسى ص ١٨٠ .

(٣) رحلة ناصر خسرو ص ١٢ ، ويذكر الإدريسى فى القرن السادس أنه يعمل بمدينة شاطبة بالأندلس من الكاغد مالا يوجد له نظير بمعمور الأرض ، وأنه يعم المشارق والمغارب (الإدريسى طبعة دوزى ص ١٩٢) . ويقول كراباتشك Karabaček, s. 121 إنه أنشئ مصنع لعمل الورق السمرقندى ببغداد منذ القرن الثانى الهجرى ، وهذا يعارض ما صرح به الأصطخرى والثعالبي ، ويظهر أن الثعالبي نقل عن مصدر قديم لعله كتاب التجارة للجاحظ . هذا إلى عدم ذكر خبر هذا المصنع بالمرة فى كتب المؤلفين القدماء ، مع أن منهم من كتب عن بغداد ووصفها وصفاً دقيقاً . والمصدر الوحيد الذى اعتمد عليه كراباتشك هو ابن خلدون ولكنه متأخر جدا ، ولم يذكر صاحب الخطط وصاحب ديوان الإنشاء — وهما مؤرخان متأخران ومن مؤرخى غرب المملكة المصرية — أكثر من استعمال الورق فى ديوان هارون الرشيد . ويذكر ياقوت (معجم البلدان ج ٢ ص ٥٢٢) أنه فى عصره كان الكاغد يعمل بدار القز ببغداد . وقد أراد كراباتشك متابعا لكريمر أن يتخذ مما قاله صاحب الفهرست (ص ١٠) أنه عثر على وثائق مكتوبة على ورق تهامى دليلا على وجود موضع ثالث لعمل الورق على الشاطئ الجنوبى الغربى لجزيرة العرب ، وهذا غير محتمل قط وهو يعارض ما ذكره الأصطخرى ، وسكوت المقدسى وجميع المؤلفين المتأخرين ، على أنه إذا كان الثعالبي Z D M G, VIII, 526 يثنى على قراطيس مصر بأنها أحسن وأنعم وأرفق ، فليس بواضح من ترجمة فون هامر إن كان الثعالبي يقصد البردى أم الورق ، ويجوز أن الثعالبي كان يتكلم مع ذلك عن عصور أقدم ، وهذا يصبح مؤكدا إذا عرفنا ما حكاه ياقوت (الإرشاد ج ٢ ص ٤١٢) من أن الوزير أبا الفضل ابن الفرات كان يستعمل له الكاغد بسمرقند ويحمل إليه بمصر فى كل سنة (وتوفى ابن الفرات هذا عام ٣٩١ هـ — ١٠٠١ م) وأن احد العلماء وقعت له جملة من كتب هذا الوزير فكان إذا رأى ورقة بيضاء فى أحدها انتزعها حتى عمل من ذلك كتباً كتب فيها ، وهو على أن الكاغد لم يكن يعمل بمصر . على أنه [illegible] الثعالبي فى أن المقصود بالمدح هو كواغيد سمرقند لا [illegible] ص ٦ ال)

هل سمرقند بعدت عليه ، والكاغد عزّ عليه[1]، وكان صاحب خزانة كتب السلطان بهاء الدولة بشيراز يجمع إليها كل ظريف عجيب من الكاغد السمرقندى والصينى[2] .

وكانت مدينة حَرّان آخر مأوى لعبادة الكواكب ، وقد نشأ عن هذا المركز الدينى الخاص أن كان يُصنع بهذه المدينة آلات القياس مثل الأسطَرلابات وغيرها من الآلات الرياضية الدقيقة[3] ، وكانت صحة موازين أهل حران مضرب الأمثال[4] .

وكان يصنع بمدينة المقدس فى ذلك العصر الشبح[5] لكثرة من كان يزور الحرم الشريف ، ولا تزال هذه الصناعة رائجة مزدهرة إلى اليوم .

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ٢٥ . (٢) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٤٤٧ .
(٣) الهمذانى ص ١٣٢ . (٤) المقدسى ص ١٤١ .
(٥) نفس المصدر ص ١٨١ .

الفصل السادس والعشرون

التجارة

لقد كان الشرق الأدنى فى طول العصور التى نعرفها من تاريخه بعيداً جدا عن مبدإ تقسيم العمل ، وهو المبدأ الذى تقضى به الطبيعة ، والذى يجعل إنتاج الثروة من شأن الرجل ، والمحافظة عليها من شأن المرأة . ولم يستلفت نظر هيرودوت اشتغال النساء بالتجارة إلا بمصر حيث كُنَّ يَقُمْن بالبيع والشراء[1] . ويحكى المقدسى فى كلامه عن مدينة بيار بشمال إيران أن « السوق فى الدور والباعة نسوان »[2] . وقد لاحظ الرحالة ماركو بولو أن نساء التتر « يُعالجن كل أنواع التجارة »[3] . ونلاحظ أن الشعوب الحربية المتعاقبة كانت دائماً تنظر إلى التجارة نظرة الاحتقار . ويحكى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه — وكان أحسن من يعبر عن الروح الأولى للإسلام — أنه ذُكر أمامه حديث الاستئذان وكان قد نسيه ، وطلب البيّنة عليه ، فلما جاءه به أبو سعيد الخدرى قال عمر : أخفى علىّ من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ألهانى الصفقُ بالأسواق ، يعنى الخروج للتجارة[4] . وكان الأمويون أيضاً لا ينظرون للتاجر بعين التقدير ، ولم يكن هذا ناشئاً عن إشفاقهم مما أشار إليه عمر ، بل لأنهم كانوا جيلا من المحاربين الفرسان وأمراء القطائع ، حتى لا نجد للتجار شأناً فى تاريخهم . وقد أحدث القرن الثالث فى هذا الباب انقلاباً كبيراً ، فلما جاء القرن الرابع أصبح

---

(١) انظر الفصل الخاص بالأخلاق والعادات .

(٢) المقدسى ص ٣٥٦ .

(٣) Marco Polo, I, 4 .

(٤) صحيح البخارى : كتاب البيوع .

التاجر الفنى هو ممثل الحضارة الإسلامية التى صارت من الناحية المادية مظهراً من مظاهر البذخ والأبّهة ، وباعثاً على الاستطالة فى ذلك ، ففى أواخر القرن الثالث لم يترفع بدر بن حسنويه — وكان فى منصب من المناصب الجليلة فى الدولة — عن أن يبتاع خاناً بمدينة همدان ، ويفرده باسمه ، ويقيم فيه من يبيع ما يرد من الأمتعة المختارة فى أعماله ، وقدّر أن ينال من وراء ذلك نحواً من ألف ألف ومائتى ألف درهم ، ولكن ذلك شق على أبى سعيد بن الفضل ، وكان ينظر فى أعمال همدان والماهين ومهرورد من قبل مجد الدولة ، وتصور أنه طريق لخروج ارتفاع البلد عن يده فوضع قوماً من الديلم على أن يقصدوا الرسول الذى أرسله بدر لعقد ضمان الخان على من يرغب فيه ويوقعوا به ، فقصدوه وكبسوا داره ، وأخذوا ما كان معه من المال[1]. وفى ذلك العصر انكمش بعض النشاط التجارى فى الأسواق ودور الصرافين ، ولكن كان فيها الكثير من الأساليب الخلابة والقدرة على استهواء الناس . ولما كان كلّ تاجر رجلا رحّالا فإن أثمان البضائع وأسعار أنواع النقود التى يجل عددها عن الحصر كانت تختلف وتتعقد وتتشابك على أيدى المغامرين من المتعاملين المهرة فى جميع البلاد ، مع اتساع نطاق الخبرة بالدنيا والمعرفة بأخلاق الناس . وكانت التجارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى مظهراً من مظاهر أبهة الإسلام ، وصارت هى السيدة فى بلادها ، وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد ، وأخذت تجارة المسلمين المكان الأول فى التجارة العالمية ، وكانت الإسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم فى ذلك العصر فى البضائع الكمالية على الأقل . وكان التجار اليهود[2] الذين يأتون من مقاطعة بروفانس بفرنسا يسمون عند المسلمين

---

(١) كتاب الوزراء ص ٤٧٨ .

(٢) يسمون الرهدانية ويقول سيمونسن Simonsen, Revue d, Et. juives, 1907 =

فى القرن الثالث الهجرى باسم مجرّد ، وهو « تجار البحر »[1] . وقد وصفهم المسلمون بأنهم يسافرون بين الشرق والغرب ويحملون من « فرنجة » الخدم والغلمان والجوارى والديباج والخبز الفائق والفراء والسمور ، ويركبون البحر من فرنجة ويخرجون بالفرما ، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم ، ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم إلى جدة والجار ، ثم يمضون إلى السند والهند والصين ، فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصينى وغير ذلك ، ويرجعون إلى القلزم ، ثم يتحولون إلى الفرما ، ويركبون البحر الغربى ، فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها للروم ، وربما صاروا بها إلى بلاد الفرنجة فباعوها هناك ، وإن شاءوا حملوا تجاراتهم فى البحر الغربى ، فخرجوا بأنطاكية وساروا برا إلى الفرات فركبوا فى دجلة إلى الأبلّة إلى عمان والهند والصين ، وكانوا يتكلمون العربية والإفرنجية والفارسية والرومية ، وهم تجار اليهود الذين يقال لهم الرهدانية أو الراذانية[2] . وبعد ذلك لا نجد فى القرن الرابع ذكراً لهؤلاء التجار الذين خلفوا التجار الشاميين الذين كانوا حتى العصور الوسطى يستوطنون نهر الرون ، وذلك لأن ظهور شأن التجارة الإسلامية ونماءها أخرج التجار الأجانب من البحار .

وكان الأمر الكبير الذى تمّ فى القرن الرابع الهجرى هو فتح الطريق التجارى إلى بلاد الروس فى الشمال . وكانت ثمّ بعض علاقات قبل القرن

= أنها نسبة إلى نهر الرون ، ولكن دى غوى لا يوافق على تفسير القريب De Qoeje, Verslagen en Mededeelingen, Amsterdam P. 141, f. 1909, p. 253 . ورأى أنه غير وجيه . وقد تكلم عن سفن اليهود فى البحر الأبيض فى ذلك العصر (آخر القرن التاسع الميلادى) بلبولوس فى تاريخ شارل الأكبر ، فقال : يرى الانسان فى مدينة من مدن الشاطئ بغالة النربونية سفنا يقول البعض إنها سفن يهودية ويقول البعض إنها أفريقية أو سفن لتجار بريطانيين Notker Balbulus, Karl. II, Kap. 14

(١) ابن الفقيه ص ٢٧٠ .

(٢) ابن خرداذبة ص ١٥٣ — ١٥٤ ، وابن الفقيه ص ٢١

الرابع بين بلاد الروس و بين بلاد الإسلام ، فقد وصف لنا ابن خرداذبة مسالك تجار الروس من بلادهم إلى بلاد الإسلام بقوله : « فأما مسلك تجار الروس ، وهم جنس من الصقالبة ، فإنهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صَقْلَبة إلى البحر الرومى ، فيعشرهم صاحب الروم ، وإن ساروا فى تنيس نهر الصقالبة مروا بخليج مدينة الخزر فيعشّرهم صاحبها ، ثم يصيرون إلى بحر جرجان فيخرجون فى أى سواحله أحبوا ، وربما حملوا تجاراتهم من جرجان على الإبل إلى بغداد ، ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدعون أنهم نصارى فيؤدون الجزية »[١] . وفى سنة ٣٠٩ هـ — ٩٢١ م حدث اتصال سياسى بين الخليفة و بين ملك أهل البلغار[٢] ، وفى العام التالى أسلم هذا الملك وأسلم أهل بلاده[٣] ، وفى ذلك العصر تولى شؤون الجزء الشمالى الشرقى من مملكة الإسلام لأول مرة حكام أكفاء وهم آل سامان ، وكان لذلك أكبر شأن فى تاريخ الإسلام ، فإنهم حفظوا تخوم البلاد وساروا بها إلى النماء والمجد ، وضمنوا للتجار الأجانب ربحاً هادئاً ، ومعظم النقود العربية التى اكتشفت فى شمال أوروبا ترجع إلى القرن الرابع الهجرى ، وأكثر من ثلثيها من نقود السامانيين[٤] . وكانت بلاد الروس منذ ذلك العصر وفى أثناء الحروب الصليبية هى الطريق بين شمال أوروبا و بين الشرق[٥] ، وكما أن الإسلام وجد طريقه إلى الشمال فكذلك نال فى المشرق بلاداً أخرى واسعة (انظر الفصل الأول من الجزء الأول من هذا الكتاب) ؛ ففى عام ٣٣١ هـ — ٩٤٣ م أرسل ملك الصين يخطب ود نصر بن أحمد السامانى ، ويطلب مصاهرته ؛ فرضى نصر أن يزوج ابنه من ابنة ملك الصين ،

(١) ابن خرداذبة ص ١٥٤ ، وابن الفقيه ص ٢٧١ . (٢) وذلك بإرسال ابن فضلان ، وقد وصل إلينا بعض ما حكاه . (٣) مروج الذهب ج ٢ ص ١٥ .

(٤) Heyd, Levanthandel, I, 69 .

(٥) Schlumberger, Epopée byzantine, s. 9.

فتح هذا أمام التجار المسلمين الطريق إلى الصين[١] ، وفى القرن الرابع الهجرى أضيفت إلى مملكة الإسلام أجزاء كبيرة من بلاد الهند ذات شأن تجارى عظيم.

هذا وقد كان فى بلاد الصقالبة الشمالية من جهة أخرى قلاقل شديدة فى القرن الرابع ، وذلك بسبب زحف النرمانديين الذين ركبوا نهر الفلجا وساروا فيه عام ٢٧٠ هـ — ٨٨٣ م ، وعام ٢٩٧ هـ — ٩١٠ م ، وعام ٣٠٠هـ — ٩١٢ م ، ويقال إنهم فى المرة الأخيرة كانوا خمسمائة سفينة على كل منها ثلاثمائة رجل ، فوصلوا بحر الخزر فنهبوا كل شىء ، وفى عام ٣٥٨هـ — ٩٦٩م خربوا عاصمة الخزر[٢] .

وربما كان هـذا هو السبب فى انقطاع الزيارات الودية بين بلادهم وبلاد الإسلام ، فى ذلك العصر ، ولكن ظل تجار الفرس يذهبون إلى الخزر كما كان الحال من قبل[٣] ، وأصبح الخزر هم الوسطاء فى اجتلاب البضائع من الشمال ، وكان الشىء الوحيد الذى تصدره بلاد الخزر مما تنتجه هو غرا السمك ، أما ما كانوا يصدرونه من العسل والشمع والوبر ، فكان يحمل إليهم من ناحية الروس[٤] . وكان تجار اليهود يستأثرون بأهم ما كانت تصدره أوروبا ، وهو الغلمان والجوارى ، وفى عام ٣٥٦ هـ — ٩٦٥ م كان يختلف إلى مدينة براج — وكانت أكبر سوق للرقيق فى أوروبا — مسلمون ويهود وترك من بلاد الترك يحملون البضائع وقطع الذهب البوزنطية ، ويعودون بالرقيق والصفيح والفراء[٥] .

وقد نشأ عن هذا التقدم التجارى ازدهار الجاليات الإسلامية فى كثير من الأطراف التى تغلب عليها غير المسلمين ، فكان يرأسهم مسلم ، ولا يقبلون حكم غير المسلمين فيهم ، ولا يتولى حدودهم ولا يقيم عليهم شهادة إلا المسلمون وإن

(١) معجم البلدان لياقوت تحت كلة صين نقلا عن أبى دلف .

(٢) ابن حوقل ص ٢٨١ . وانظر Dorn, Caspia, Mém. Acad. St. Peteribourg, 1875 .

(٣) ابن رسته ص ١٤١ .

(٤) ابن حوقل ٢٨١ — ٢٨٢ .

(٥) Westberg Ibrahim Ibn Ja'qûbs Reiseberichte s. 53, 155

قلّوا ، وذلك مثل بلاد الخزر والسرير واللان وغانة وكوغة وسيمور (الهند)[1] . وكان بالصين أيضاً جالية إسلامية[2] ؛ بل كان فى كوريا أيضاً جالية من التجار المسلمين[3] . أما فى بوزنطة فكان لا يُسمح لتجار المشرق أن يقيموا أكثر من ثلاثة أشهر[4] ، وكانت أكبر جالية للمسلمين فى الإمبراطورية الرومانية تقيم بمدينة أطرابزند[5] .

وقد حكى لنا كُسْماس Cosmas الرحالة الهندى فى منتصف القرن السادس الميلادى خبر مناظرات جرت فى مجلس ملك سرنديب بين تاجر رومى وآخر فارسى أراد كل منهما أن يثبت أن ملك بلاده أقوى ، وغلب التاجر الرومى صاحبه آخر الأمر ، وذلك بأن أخرج قطعة ذهبية جميلة من العملة البوزنطية التى يُتعامل بها فى جميع البلاد ؛ على حين أن الفارسى لم يستطع أن يخرج إلا عملة من الفضة ، ومن الصحيح فى هذه الحكاية أنه كان بين البوزنطيين وبين الدولة الساسانية معاهدة خاصة بالعملة تقضى بأن يضرب الساسانيون نقوداً من الفضة فقط ، ويتخذوا العملة الرومية الذهبية عملة لهم[6] ، ولهذا شاع فى بلاد الإسلام التى كانت تحت حكم الرومان من قبل العملة الذهبية ، على حين أن بلاد الفرس كانت عملتها الجارية الدراهم الفضية ، وقد ذكر يحيى بن آدم (المتوفى عام ٢٠٣ هـ — ٨١٨ م) أن العملة فى العراق هى الدرهم وفى الشام الدينار وفى مصر الدينار أيضاً[7] ، ونلاحظ أنه فى هذا العصر الذى ندون تاريخه كانت العملة الذهبية تنفذ وتنتشر شرقاً ، وهذه

---

(١) ابن حوقل ص ٢٢٥ ، و Merv. de l'Inde, 142, 144, 161

(٢) انظر الفصل الخاص بالملاحة البحرية . (٣) ابن خرداذبة ص ٧٠ .

(٤) Vogt, Basile, I. s. 393 . (٥) المقدسى ص ١٤٨ .

(٦) Oelzer, Byzantinische Kulturgeschichte, 1909, s. 79 وكذلك كان بين بوزنطة وبين كلودويغ ملك الفرنجة معاهدة كهذه .

(٧) كتاب الخراج طبعة جوينبول ص ٥٢ .

آكد علامة من علامات وحدة التجارة الإسلامية . ففى أول القرن الثالث الهجرى كانت عطايا الخليفة تحسب بالدراهم ، وفى أوائل القرن الرابع الهجرى دخلت العملة الذهبية بغداد وصار حساب الحكومة بالدنانير ، وقد تمت الخطوة الحاسمة بين عامى ٢٦٠ هـ — ٨٧٤ م و٣٠٣ هـ — ٩١٥ م ، ففى السنة الأولى ذكر ارتفاع العراق بالدراهم الفضة[1] . أما فى الثانية فقد ذكر بالذهب[2] ، وقد زال مع زوال الحساب بالدراهم الفضية حساب الأشياء بنوعها ، وهذه نقطة طريفة ، ففى عام ٢٦٠ هـ — ٨٧٤ م كان يذكر فى ارتفاع العراق مقدار الحاصلات من الحنطة والشعير مثلا وما يقابلها بالدراهم . أما فى عام ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م فقد بطل ذلك ، ويتبين من قانون نشره رؤساء اليهود بالعراق فى عام ٧٨٧ م أن كثيراً من الثروة صار يعتبر ثروة منقولة ، ويقضى هذا القانون بأن تؤخذ للوفاء بتسديد ديون المدين الثروة المنقولة لا الثروة الكبيرة غير المنقولة وحدها[3] ، وكانت المتلكات الفردية مع هذا تحصى بالدراهم والدنانير ، فمثلا ذكر فى ترجمة ابن يحيى ثعلب النحوى اللغوى المتوفى عام ٢٩١ هـ — ٩٠٤ م أنه خلف أحداً وعشرين ألف درهم وألفى دينار ودكاكين بباب الشام قيمتها ثلاثة آلاف دينار[4] . ولكن العطايا التى كانت توهب للشعراء مثلا كانت دراهم على الطريقة القديمة[5] ، ولا شك أن هذه العطايا لم يكن ينظر إليها كما ينظر لمسألة تجارية ، وقد انتهى إلينا شىء من شعور الناس بتقدير نوعى النقود القديم والجديد ، فأما البلاد الشرقية لملكة الإسلام فقد ظلت تتعامل بالدراهم الفضية حتى فى أثناء القرن الرابع الهجرى ، فيقول الأصطخرى إن « نقود أهل بخارى الدرهم ولا يتعاملون بالدينار وهى

(١) قدامة بن جعفر ص ٢٣٩ .

(٢) Kremer, Einnahmebudget

(٣) Graetz, Geschichte der Juden V, 4 Aufl. s. 196

(٤) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ١٥٣ . (٥) كتاب الوزراء ص ٢٠٢ .

كالعرض» وربما كانت الدراهم نقداً جاريا فى بعض المدن الكبرى[١]، أما فى فارس فكان البيع والشراء بجميع فارس بالدراهم وكانت الدنانير عندهم بالعرض[٢] .

وقد راعى صغار الملوك الذين ضربوا العملة لأنفسهم تحت رئاسة الخليفة أو مستقلين عنه أن يخرجوا للتعامل أكبر عدد ممكن من أصناف العملة ، وكان فى قوائم أسعار العملة التى بين أيدى الجهابذة فى ذلك العصر شىء من الطرافة ، كما نستطيع أن نستنتج ذلك من أصناف العملة التى ذكرها المقدسى[٣]، وكان الدينار فى القرن الرابع الهجرى يساوى نحو الأربعة عشر درهما[٤] . وكان من أثر انفصال القسم الشرقى من مملكة الإسلام عن قسمها الغربى الذى كان وحده يتمتع بخزائن الذهب أن ارتفعت أسعار العملة الذهبية فى المشرق ارتفاعا هائلا فى أواخر القرن الرابع . والمقريزى قد بالغ حين قال إن الناس فى مصر لم يرد ذكر الدرهم على ألسنتهم لأول مرة إلا أيام الفقر التى كانت فى عهد صلاح الدين ، لأنهم كانوا قبل ذلك يتعاملون بالدنانير[٥] . وفى أواسط القرن الرابع ضرب ركن الدولة بن بويه ديناراً نصفه أو أكثره من النحاس ، وكان هذا الدينار يقبل فى عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م بثلث قيمة الدرهم المعتاد[٦] . وفى عام ٤٢٧ هـ — ١٠٣٦ م حاولت حكومة بغداد أن تقوى العملة البغدادية فأمر الخليفة بترك التعامل بالدنانير المصرية المغربية ، وأمر الشهود ألا يشهدوا فى كتاب ابتياع ولا إجارة ولا مداينة تذكر فيها الدنانير المغربية؛ فعدل الناس عن هذه العملة إلى غيرها[٧] . ومن جهة أخرى

---

(١) الأصطخرى ص ٢١٤ ، ٢٢٣ . (٢) نفس المصدر ص ١٥٦ .

(٣) انظر أيضا رسائل الصناف طبعة القسطنطينية ١٢٩٨ هـ ص ١١ .

(٤) أمدروز (تعليق رقم ١) فى كتاب الوزراء ص ٣٦ وفى عام ٣٣١هـ — ٩٤٣م ضرب ناصر الدولة بن حمدان دينارا كاملا قيمته ثلاثة عشر درهما ، على حين أن الدينار كان يساوى من قبل عشرة دراهم JA, Sér. VII, Bd. 15, 259 ؛ وكان الدينار أحيانا يساوى خمسة عشر درهما (عجائب الهند ص ٥٢ .)

(٥) JA. Sér, VII, Bd. 14, P. 524

(٦) Amedroz, JRAS, 1906, 475

(٧) المنتظم لابن الجوزى ص ١٩١ أ .

خفت وزن الدراهم الفضية حتى صار الخمسة وعشرون والأربعون والمائة وخمسون أحيانا بدينار[١] ، وفى عام ٣٩٠ هـ — ١٠٠٠ م شغب حرس الديلم وقصدوا دار الوزير ثائرين لفساد العملة الذهبية[٢] ، وكان للعملة الزائفة ثمنها المحدّد جهاراً وإن كان زهيداً كما هو الحال اليوم ، وكانت الدراهم المزيّفة تسمى المزبّقة[٣] ، وكانت بمكة مثلا أربعة وعشرون بدرهم من الدراهم النقية ، وكانت تبطل يوم السادس من ذى الحجة إلى آخر الموسم[٤] . وكان البعض يزيّف الدراهم النقية كما يفعل المزيّفون فى عصرنا ، ولكن لما كانت العملة توزن فلم يكونوا يبردونها بل كانوا يصنعون عملة يتوفّر لها الوزن الصحيح مستعيضين عما ينتقصونه من الذهب باستعمال الزئبق أو الأنتيمون[٥] .

وكانت الفلوس تتدرج على أساس القاعدة السداسية ، فكان الدرهم يساوى ستة دوانق ، وكان الدانق اثنى عشر قيراطا ، والقيراط أربعة وعشرين طسوجا ، والطسوج ثمانية وأربعين حبة ، وكانت العملة الفضية المكسّرة تستعمل فى المعاملات اليسيرة رغم أن ذلك كان يلقى الاعتراض دائماً[٦] .

وكانت المعاملات الضخمة تستدعى وسائل للدفع ، مأمونة من الضياع ، خفيفة الحمل ، بعيدة عن متناول اللصوص[٧] . ومعظم هذه الرسائل يحمل أسماء فارسية ، فيذكر عن أحد العلماء أنه سافر إلى الأندلس ومعه سفتجة وخمسة آلاف درهم نقداً[٨] . ويحكى عن ناصر خسرو الرحالة الفارسى أنه لما خرج من أسوان بمصر

---

(١) كتاب الوزراء ص ٣٦ هامش رقم ١ . (٢) كتاب الوزراء ص ٤٠٢ .

(٣) مادة زبق عند الجوهرى ، وكانت الفضة التى تضرب تذاب مع الزئبق انظر Amedroz, JRAS, 1906, p. 479 . (٤) المقدسى ص ٩٩ .

(٥) Abu Jûsuf, JA, Sér, VII, Bd., 19 p. 29

(٦) نفس المصدر ص ٢٥ — ٢٦ .

(٧) يجد [illegible] عند [illegible] Die Suftaga und Hawala der Araber, Jur. Diss. [illegible] Königs, berg. 1899

(٨) مصارع العشاق ص

أخذ خطابا من صديق له كتبه إلى وكيله فى عيذاب بأن يعطى ناصراً كل مايريد ويأخذ منه مستنداً ليضاف إلى حساب الصديق[١] . وكذلك أرسل الأخشيد صاحب مصر إلى نائبه ببغداد سفاتج بثلاثين ألف دينار ليسلمها للوزير ابن مقلة أيام أن كان مصروفا[٢] . وكان من وسائل المعاملات الصك ، وهو فى الأصل سند الدين ، وكان الرجل إذا اشترى عقاراً كضيعة مثلا كتب صكا بشرائها[٣] . ويحدثنا ابن حوقل أنه رأى بأودغشت صكا باثنين وأربعين ألف دينار كتب بدين على محمد بن أبى سعدون من أهل سجلماسة لرجل من أهلها وقد شهد عليه العدول[٤] ، وهذا يدل على أن الورق فى ذلك العصر كان قد بلغ إلى مسافة كبيرة فى وسط الصحراء الكبرى . وكان الصك بالعراق أشبه بالشيك الرسمى عندنا ، وكان للجهبذ مع وجود هذه الصكوك شأن كبير ، ويُذكر لنا حتى فى القرن الثالث الهجرى أن أحد العمال كان يكتب الصكوك لجهبذه[٥] ويذكر عن جحظة الشاعر المتوفى عام ٣٢٤ هـ أن بعض الرؤساء صك له صكا فداافعه الجهبذ حتى ضجر فكتب لذلك الرئيس :

إذا كانت صلاتكمُ رقاعا تُخَطَّط بالأنامل والأكفّ
ولم تكن الرقاع تجر نفعاً فها خطى خذوه بألف ألف[٦]

ويُحكى عن هذا الشاعر نفسه — وكان إلى جانب الشعر مغنياً — أن الحسن بن مخلد وهب له خمسمائة دينار أعطاه رقعة بها على صيرفى فتوجه إليه ،

---

(١) رحلة ناصر خسرو ص ٦٤ من طبعة شيفر . (٢) المغرب لابن سعيد ص ٣٢ .
(٣) صحيح البخارى طبعة ١٣٠٩ هـ ج ١ ص ١٤ ، وكتاب الأغانى ج ٥ ص ١٠ ، وديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣٧ ، وكان الاصطلاح أن يقال صك فلان على فلان كذا — كتاب الوزراء ص ٧٧ . (٤) ابن حوقل ص ٤٢ ، ٧٠ ؛ وكانت المسافة بين سجلماسة وأودغشت إحدى وخمسين مرحلة (المغرب للبكرى ص ١٥٦ وما بعدها) .
(٥) كتاب المحاسن والمساوى للبيهقى ، وإلى هذا نرجع أصل الحكايات المتعلقة بهارون الرشيد . (٦) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٣٨٥ .

فأفهمه الصيرفى أن الرسم أن ينقصه فى كل دينار درهما ، وخيّره بين ذلك وبين أن يركب معه ويقيم عنده يومه وليلته ليشرب ويسمع توقيعه ، فلما أصبح الصباح أعطاه الخمسمائة دينار ؛ وأهدى إليه فوقها خمسمائة درهم[١] . ويُحكى عن جهبذ آخر أكثر حبا للفنّ أنه جاء إليه شاعر ليقبض مالا فلم ينقصه شيئاً ؛ بل أعطاه خمسين ديناراً من عنده ، وذلك لإعجابه بالقصيدة التى مدح الشاعر بها الأمير[٢] . وإذن فقد كانت المهامّ التى يقوم بها الجهبذ كثيرة ، فلا عجب أن يحدثنا ناصر خسرو أنه كان بسوق الصرافين بمدينة أصفهان مائتا صراف[٣] . وكانوا جميعاً يجلسون فى سوق واحد يسمى سوق الصرافين ، ولم يكن عن الصراف غنى فى سوق البصرة حوالى عام ٤٠٠ هـ — ١٠١٠ م فقد كان العمل بهذا السوق أن كل من معه مال يعطيه للصراف ويأخذ منه رقاعا ثم يشترى ما يلزمه ويحوّل ثمنه على الصراف ولا يعطون شيئاً غير رقاع الصرّاف طالما كانوا بالمدينة[٤] . ويظهر أن هذا هو أرقى ما وصل إليه التعامل المالى فى المملكة الإسلامية[٥] ، ومما له دلالته أن يظهر ذلك فى مدينة البصرة المشهورة بتجارتها ، والتى تقع على الحدود بين فارس والعراق ، وذلك لأن أهل البصرة واليمن وأهل فارس كانوا أحسن تجار المملكة الإسلامية ، وكان لهم جاليات فى جميع البلاد التى تجلب منها التجارة ، وهم أشبه بالسوابيين والسويسريين فى الوقت الحاضر . ويقول ابن الفقيه الهمذانى فى كتاب البلدان حوالى عام ٢٩٠ هـ — ٩٠٢ م : « وقالوا أبعد الناس نجعة فى الكسب

---

(١) نفس المصدر ص ٢٩٨ — ٢٩٩ . (٢) كتاب الديارات ص ٨٨ أ .

(٣) رحلة ناصر خسرو ص ٢٥٢ من الترجمة ، وقد مر ناصر خسرو بأصفهان عام ٤٤٤ هـ — ١٠٥٢ م .

(٤) رحلة ناصر خسرو ص ١٢٠ من النص الفارسى .

(٥) ولكن لم يكن هناك نظام الجيرو giros كالذى بلغ منتهى كماله فى مصر على عهد اليونان (انظر Preisigke, Girowesen im griechischen Aegypten Strassburg 1910 ونظام الجيرو هو نظام الحوالات .

بَصْرِيّ وحِميرى ، ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى فلابد أن يرى فيها بصريا أو حميريا »[1] ، وكان أهل البصرة ينسبون إلى قلة الحنين إلى وطنهم ؛ حتى يحكى أنه وجد مكتوبا على حجر هذا البيت :

ما من غريب وإن أبدى تجلّده إلا سيذكر عند العلة الوطنا

وقد كتب تحته : إلا أهل البصرة ، فكأن أهل البصرة يحملونها فى رءوسهم[2] .

وكان الفرس منذ الدهر الطويل قد استوطنوا جدّة وهى فرضة مكة[3] ، وكان يسكن بمدينة سجلماسة (بجنوب مراكش) كثير من أهل العراق وتجار البصرة والكوفة وبغداد[4] ، وكذلك كانت الموانى ذات الحركة التجارية القوية بالشام ، وهى طرابلس وصيدا وبيروت ، يسكنها قوم من الفرس نقلهم إليها معاوية ابن أبى سفيان[5] . وكانت مصرُ بلداً تجاريا[6] إلا أن المصرى الحق سواء أكان مسلما أم قبطيا لا يمتاز حتى فى أيامنا بالاستعداد الخاص للتجارة ، وكان يعرف المصرى فى القرن الرابع بأنه لايرى مستوطناً غير مصر إلا فى الندرة[7] . وفى عصرنا هذا نجد اليونان والمشارقة والفرس وحتى الهنود هم الذين يقتطفون زبدة التجارة المصرية ؛ ومنذ القرن الثانى الهجرى كان بقصبة مصر جالية كبيرة قوية التأثير من أهل فارس ، ومنهم أخذ القاضى مرة ثلاثين رجلا جعلهم ضمن الشهود ، وكان هذا المركز مرموقا لايقبل فيه إلا من هم أهل للشهادة[8] . وكان أكبر رجال الغنى والثروة بمصر فى ذلك العصر هو أبو بكر محمد بن على المادرائى ،

---

(١) كتاب البلدان ص ٥١ .

(٢) رسائل المعرى طبعة مرجليوث ص ٧٥ . (٣) الأصطخرى ص ١٩ .

(٤) ابن حوقل ص ٤٢ . (٥) جغرافية اليعقوبى ص ٣٢٧ .

(٦) يقول المقدسى (ص ٣٥) من كان مراده التجارة فعليه بمصر أو عدن أو عمان .

(٧) لطائف المعارف ص ١٠١ . (٨) الكندى ص ٤٠٢ .

ولـكنه لم يكن تاجراً ، وكان ارتفاع ضياعه يبلغ أربعمائة ألف دينار ، وأصله من أسرة عراقية[١] .

وكان أكبر منافس لأهل العراق وفارس هم اليهود ، وكانت اليهودية على مقربة من أصفهان هى القسم التجارى لهذه المدينة الفارسية الـكبيرة[٢] ، وقد صرح بعض المؤرخين أن معظم التجار بمدينة تُسْتَر كانوا يهوداً ، وكانت تستر أكبر مركز لصناعة البُسُط الفارسية . وكان الذى يقبض على ما يستخرج من اللؤلؤ فى شواطئ جزيرة العرب رجلا من اليهود[٤] ، وكانت بلاد كشمير مغلقة أبوابها فى وجه جميع التجار الأجانب ، ولم يكن يدخلها إلا قليـل منهم وخصوصاً من اليهود[٥] . وكانت الحرفة التى اختص بها اليهود فى المشرق أيضاً الاتجار بالعملة ، ويذكر أنه لما فرضت الحـكومة على بطريرك الإسكندرية جزية باهظة أواخر القرن الثالث الهجرى حصل على المال اللازم بأن باع إلى اليهود أملاك الـكنيسة وجزءاً من الـكنيسة المعلّقة[٦] . وكان اليهود بين الصيارفة بقصبة مصر حتى إنه فى عام ٣٦٢ هـ — ٩٧٣ م عزر المحتسب طائفة منهم فشغبوا ، فأمر جوهر ألا يظهر يهودى إلا بغيار[٧] ، وفى القرن الخامس الهجرى حُكى لناصر خسرو أن بمصر رجلا يهوديا غنيا يسمّى أبا سعيد له مال كثير ، وأنه كان على سقف سرايه ثلاثمائة جرّة من الفضة ، فى كل واحدة منها شجرة مثمرة محمّلة[٨] . أما فى العراق فإننا نسمع ذكر رجلين من جهابذة اليهود ، وهما يوسف بن فنجاس وهارون بن

(١) المغرب لابن سعيد ص ١٥ ، ١٦١ — ١٦٣ .
(٢) المقدسى ص ٣٢٨ ، وبأصفهان اليوم خمسة آلاف يهودى (انظر : Jackson Persia p. 26.) . (٣) مسكويه ج ٥ ص ٤٠٨ .
(٤) انظر فصل الحاصلات . (٥) كتاب الهند للبيرونى ج ١ ص ٢٠٦ من ترجمة سخاو . (٦) بطرس بن راهب (فى مجموعة Corp. Scrip. orient. Christ) ص ١٣٢ ، وتاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى ص ٤٨ أ . (٧) الاتعاظ للمقريزى ص ٨٧ .
(٨) رحلة ناصر خسرو ص ٨٠ من النص الفارسى .

عمران ، ومنهما اقترض الوزير عشرة آلاف دينار فى أوائل القرن الرابع الهجرى[١] . ويظهر أن هذين الرجلين كان لهما شبه بنك أو شركة ؛ لأنه لما خُلع الوزير على بن الفرات عام ٣٠٦ هـ وطولب بالمال أقر بأن له عندهما سبعمائة ألف دينار[٢] . وكان يوسف جهبذ الأهواز ، أعنى أنه كان يقدم للدولة مالا معجّلا ينتظر سداده من خراج الأهواز ، وكان إذا أُحضر لتعجيل المال يعتذر عادة بكثرة الأموال التى يلزمه تعجيلها ؛ وأنه لا يتمكن من الدفع[٣] . وكان هذان الجهبذان ومعهما زكريا بن يوحنا يسمّون جهابذة الحضرة ، ويُخاطبون فى المراسلات إلى أبى فلان ؛ فلان بن فلان أبقاه الله ، وهذه هى أقل درجة فى المخاطبات ، فكان يُخاطب بها مثلا صغار عمال البريد[٤] . ثم إن اليهود الذين كان لهم الشأن الأول فى صناعة البُسُط بمدينة تستر ، لم يكونوا صناعاً ، بل كانوا صيارفة[٥] . ويُحكى عن أبى على الإسكافى المتوفى عام ٣٩٤ هـ أنه لما تولّى بغداد من قبل بهاء الدولة ؛ قبض على اليهود وأخذ منهم ألوف دنانير وهرب إلى البطيحة[٦] . وإذن فلا عجب أن نجد فى لغة العرب لفظة مبلَّط (وهى اصطلاح مالى يهودى) تستعمل بمعنى المفْلس[٧] .

وكان الروم والهنود إلى جانب أهل العراق والفرس واليهود هم أنشط تجار المملكة الإسلامية ، وقد نفذ الروم إلى أقصى البلاد ، حتى كانت لهم جالية من التجار فى مدينة جيروفت التجارية بأواسط كرمان[٨] ؛ أما التجار الأرمينيون

---

(١) v. Kremer, Einnahmebudget, s, 343 .   (٢) عريب ص ٧٤ .

(٣) كتاب الوزراء ص ١٧٨ .   (٤) نفس المصدر ص ١٥٩ ، وتذكر المصادر اليهودية يوسف بن فنحاس وختنه نتيرا من بين أكبر رجال اليهود ببغداد (انظر : Graetz, Gesch, der juden, V, 4 Aufl. s. 277 .   (٥) مسكويه ج ٥ ص ٤٠٨

(٦) المنتظم لابن الجوزى ص ١٥٠ أ .   (٧) انظر مادة بلط فى تاج العروس البلطة الفلس وأبلط الرجل ذهب ماله .

(٨) ولا يذكر هنا إلا منذ القرن السادس الهجرى ، (انظر : Houtsma, Seldschuken, I, 48 .

لم يكن لهم شأن يذكر فى أى مكان ؛ بل نرى من هذا الشعب طائفة تتبوأ مناصب حربية عليا فى الدولة البوزنطية[١] وكان منهم جند وقواد للفاطميين[٢] منهم أبو النجم أمير الجيوش الذى حكم بلاد الفاطميين فى القرن الخامس الهجرى[٣]، ولم تتغير هذه الحال إلا منذ العصر التركى.

وكانت التجارة مركزها الأسواق، شأنها شأن الصناعة، وكانت كل طائفة من التجار يجلسون معاً فى قسم واحد، وكانوا يمكثون إلى ما بعد الظهر ثم يأكلون فى أحد المطابخ أو يستحضرون شيئاً إلى دكاكينهم، ولا يذهبون إلى بيوتهم إلا فى المساء[٤]. وكان للهرّاسين فى العراق موضع فوق الدكاكين فيها الحصر والموائد والمرى والخدام والطشوت والأباريق والأشنان، فإذا انحدر الرجل دفع دانقاً[٥]. وقد وصف الهمذانى فى إحدى مقاماته أكلة أكلها هو وأبو زيد فى أحد المطابخ[٦]. وكانت الأكلة بعشرين (ربما كانت عشرين دانقاً أو عشرين درهماً)، وكان الطباخون فى ذلك العصر أيضاً يعولون على مظهر طبيخهم وتأثيره، ويحكى عن مالك بن دينار المتصوف المعروف أنه قال: أخوة هذا الزمان مثل مرقة الطباخ فى السوق طيبة الرائحة لا طعم لها[٧].

وكانت الدكاكين فى مصر وآسيا الغربية تمتد على طول الشوارع من

---

(١) Oeizer, Kulturgeschichte, s, 80 .

(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٩٤ . (٣) نفس المصدر ص ٣٨١ .

(٤) كان الجهبذ ينتهى عمله ببغداد عند الظهر (الإرشاد ج ١ ص ٣٩٩)، وكانت هرمز مجمع تجارة كرمان وفرضة البحر، وهى وبندر عباس فى أيامنا تنتابها أفظع أنواع الجو، ولذلك لم يكن بها مساكن كثيرة، وإنما كانت مساكن التجار متفرقة فى قرى تمتد نحواً من فرسخين (الأصطخرى ص ١٦٦) (٥) المقدسى ص ١٢٩ .

(٦) مقامات الهمذانى ص ٥٧ وما بعدها من طبعة بيروت .

(٧) الصداقة والصديق للتوحيدى طبعة القسطنطينية ١٣٠١ هـ ص ٤٣ .

الجانبين ، على كل جانب صف منها ، ولذلك لما أنشئت بغداد لم يجعل لسوقها مكان مخصص له ؛ ولهذا أيضاً تذكر «سويقة عبد الوهاب» التي كانت ببغداد كما يذكر الشيء الغريب الذي يستلفت النظر[١]، أما أسواق المدن فقد كانت — في مبدإ أمرها وعندما تسمت بهذا الاسم — أسواقا أسبوعية تقام في أيام معينة من الأسبوع ، فمثلا كان السوق بشرق بغداد يوم الثلاثاء ، وكان سوق القيروان يعقد في يومي الأحد والخميس[٢]، وكان سوق العسكر (خوزستان) يوم الجمعة ، وكان بين العسكر هذه و بين خان طوق ست مدن تسمى كل منها بيوم من أيام الأسبوع المتتالية وهو الذي يعقد فيه سوقها[٣]، ور بما كان قوام الكثير من مثل هذه المدن عبارة عن دكاكين ثابتة لا تمتلئ وتعمر إلا في يوم السوق ، مثل سوق الأر بعاء في الجزائر الذي كان أول من وصفه الأمير بوكلير[٤]، أو مثل سوق بوعان الكبير باليمن الذي يمكن أن يمثله الإنسان لنفسه بأن يتصور صفين أو ثلاثة من الدكاكين التي تشبه الأكواخ ، يجتمع فيها العرب يوم السوق فتراهم يتساومون[٥] وهم مستقرون .

أما في المشرق فقد استلزمت العادة جمع الدكاكين صفوفاً في مكان واحد ، كالدار التي بناها عضد الدولة بن بويه بمدينة كازرون ، وكانت مركز نسج الكتان ، وكان دخلها في كل يوم عشرة آلاف درهم[٦] ، وقد بنى عضد الدولة نفسه أسواقا عند مدينة جامع رام هرمز ، وكانت غاية في الحسن ، نظيفة قد بُلطت وظُلِّلت وزُوِّقت و رُبقت وجُعل عليها دروب تغلق في كل ليلة[٧]. أما في غرب

(١) تاريخ بغداد طبعة سالمون ص ٢٨ . (٢) المقدسي ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(٣) نفس المصدر ص ٤٠٥ — ٤٠٦ ، وكان على وادي درعة بمراكش سوق في كل يوم من أيام الجمعة لكثرة الناس عليه (المغرب للبكري ١٥٢) .

(٤) Pückler Semilasso in Africa, II, 107 .

(٥) Glaser, Petermanns Mitteilungen, 1886, s. 41 .

(٦) المقدسي : ٤٣٤ . (٧) نفس المصدر : ص ٤١٣ — ٤٢٥ .

المملكة الإسلامية لم يكن هناك فنادق إلا للتجار الغرباء ، وكانت أشبه بالأسواق الكبيرة ، وكانوا يضعون بضائعهم فى أسفلها وينامون فى أعلاها ، ويغلقون غرفهم بأقفال رومية ، وكان يطلق على هذه الأسواق أو المخازن اسم الفنادق (من الكلمة اليونانية pandokeion وكانت توجد خانات أو مخازن كبرى ، كدار البطيخ بالبصرة حيث كانت ترد جميع أصناف الفاكهة[1] .

وكان رأس المال والترف مرتبطين فى بلاد الإسلام ارتباطاً وثيقاً شأنهما فى جميع البلاد ، وكان كبار التجار وأصحاب الصناعات هم المشتغلون بتجارة الترف والنعيم ، وينصح المقدسى بنصيحة يعرف فيها الإنسان خفة ماء بلد أو ثقله فيقول : « إذا أردت أن تعرف خفة ماء بلد فاذهب إلى البزازين والعطارين فتصفح وجوههم ؛ فإن رأيت فيها الماء فاعلم أن خفته على قدر ما ترى من نضارتهم ، وإن رأيتها كوجوه الموتى ورأيتهم مطامنى الرءوس فعجل الخروج منها »[2] . وإذن فالمقدسى يعتبر أن أقرب التجار إلى الترف والنعيم فى القرن الرابع هم البزازون والعطارون ، وكانوا بمدينة جامع رام هرمز يسكنون سوقا جميلة غاية فى الحسن بناها عضد الدولة[3] ، ومن أمثال القرن الثالث الهجرى أن أحسن التجارة تجارة البزّ .

وأحسن صنعة صنعة المرجان[4] ، وكان ابن مجاهد المتوفى عام ٣٢٤ هـ — ٩٣٥ م يقول : « من قرأ لأبى عمرو ، وتمذهب للشافعى ، واتجر فى البز ، وروى شعر ابن المعتز ، فقد كمل ظرفه »[5] ، وكذلك بين أبو نصر الفارابى (المتوفى عام ٣٣٩ هـ —

(١) نفس المصدر ص ٤٢٥ ، وكانت هذه المبانى تسمى خانات ، وفيما وراء النهر كان الواحد يسمى تيا (مقدسى ٣١) ، والدكان الواحد يسمى مخزن [الكلمة الأوروبية magasin] والمخزن الكبير يسمى خانبار وجمعها خانبارات ، (المنتظم ص ١٨٠ ب ، ١٨٢ أ) .

(٢) المقدسى ص ١٠١ . (٣) نفس المصدر ص ٤١٣ .

(٤) ونسب هذا القول إلى النبى عليه السلام كما نسب غيره ، (مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٩٠) . (٥) طبقات السبكى ج ٢ ص ١٠٣ .

٩٥٠ م) الصناعات من أشرفها إلى أخسها : تجارة البز ، وصناعة النسيج (وكانت حتى ذلك العصر معتبرة من الصناعات الخسيسة ، وصناعة العطارين ، ثم صناعة الكناسين[١] ، وكان أغنى تجار مصر وأجلهم حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م عفان بن سليمان البزاز ، فلما مات أخذ الأخشيد من ماله نحو مائة ألف دينار[٢]. وكانت أسواق العطارين والصيادلة وأصحاب الدهون والخزازين والجوهريين بعضها إلى جانب بعض ببغداد[٣] .

وكانت طريقة التأجير شائعة شيوعا كبيراً ، فكان الناس لايستأجرون فى المدن المساكن فقط ؛ بل كانوا يستأجرون الأثاث أيضاً ، ويحكى أنه كان بمصر امرأة تملك خمسة آلاف قدر من النحاس ، وكانت تؤجرها كل قدر بدرهم فى الشهر[٤] ، وكانت الماشطة تحضر إلى حفلات الزفاف ومعها أصناف الزينة[٥] ، وكانت البسط وأنواع الفرش تستأجر فى مثل هذه[٦] المناسبات .

وكان البيع والشراء يتمان « بالمقابضة »[٧] وذلك بحسب الشرع ، على أن من الفقهاء المحدثين من يرى أن البيع لا يكون صحيحاً إلا إذا كان مصحوبا بقول صريح علنى من الجانبين[٨] ، وهذا ما رأيته بنفسى فى صحراء الشام : ففى أثناء المساومة بين الطرفين يضع أحدهما يمينه فى يمين الآخر فإذا قال البائع : بعت ، وقال الشارى : اشتريت ؛ ترك كل يد صاحبه وتم البيع والشراء ، ولم ينس ابن المعتز

---

(١) المدينة الفاضلة للفارابى طبعة ديتريصى ص ٩٠ .

(٢) المغرب لابن سعيد ص ١٧ . (٣) الأوراق للصولى ص ٩١ من مخطوط باريس . (٤) رحلة ناصر خسرو ص ٧٥ من النص الفارابى .

(٥) Quatremére, Hist. des Uamlou‹s p 247 .

(٦) الأغانى ج ٥ ص ١١٩ . (٧) الجامع الصغير على هامش كتاب الخراج ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٨) S‹chau, Muhammedanisches Qecht. s. 278 .

الشاعر المتوفى عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م في كلامه عن المصادرين أن يذكر كيف كانوا يعذبون حتى يبيعوا ضياعهم وأنهم كان يحلفون بيمين البيعة[1] .

على أنه في مملكة شاسعة كالمملكة الإسلامية التي كانت تضم كل درجات الحضارة لابد أنه كان بها جميع أنواع التجارة بعضها إلى جانب البعض في وقت واحد ، ولكن الجغرافيين في ذلك العصر خاصة لم يهتموا بهذا للأسف ، وكان الفقهاء من جهة أخرى يعالجون مسائلهم النظرية العقيمة ، حتى لا نجد بين أيدينا إلا قليلا من المعلومات المؤكدة ، فمثلا كان وراء سجلماسة من أرض المغرب وبأقاصي خراسان مما يلي الترك قوم يتبايعون من غير مشاهدة ولا مخاطبة ، فيتركون عند كل متاع ثمنه من أعمدة الذهب ، فإذا جاء صاحب المتاع اختار الذهب وترك المتاع ، وإن شاء أخذ متاعه وترك الذهب[2] . وقد استلفت نظر « ربى بتاحيا » في العراق أن المسلمين أهل لأن يوثق بهم كل الثقة ، فكان إذا جاء إلى هناك تاجر وضع أمتعته في بيت رجل من الناس ورجع ، فيحملون هذه الأمتعة إلى جميع الأسواق للبيع ، فإذا دفع فيها ثمنها المقرر كان بها ؛ وإلا حملوها إلى جميع السماسرة ، فإن رأوا أنها أقل قيمة باعوها بهذا الثمن القليل ، وكل هذا مع غاية الأمانة والذمة[3] .

وقد حرمت الشريعة الإسلامية منذ البداية التعامل بالربا أشد التحريم ، كما حرمت المضاربة في مواد الطعام ، وقد أنفق الفقهاء جزءاً كبيراً من جهودهم لسد أصغر الأبواب التي قد يلجأ إليها الناس فراراً من هذا التحريم ، ولكن اليهود والنصارى تعدوا حدود الشرع ، ففي أول القرن الرابع الهجري اقترض الوزير

(١) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣٧ . (٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٤ ص ٩٢ — ٩٣ ، J. Marquart, Beninsammlung, s. C L X X X I. F .

(٣) Petachjâ aus Regensburg, J A. 1831, p. 373 .

من يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران الجهبذين اليهوديين عشرة آلاف دينار بربح ثلاثين ديناراً فى كل مائة[١] . وقد ألّف حوالى عام ٨٠٠ م كتاب تشريع للنصارى أُجيز فيه أن يتعاملوا فيما بينهم بربح يبلغ العشرين فى المائة[٢] . وكان من صور المراباة الخاصة أن يقدّم الناس للمصادرين وهم يعانون التعذيب وضروب العسف مالاً وهم فى هـذا الموقف الحرج ، وكانوا ينالون فى بعض الأحيان من وراء ذلك عشرة عن الواحد[٣] . وعلى هذا فقد كانت الأمة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى قد بعدت كثيراً عن شريعة الإسلام ، بل يُذكر لنا أنه كان فى عصر المأمون تاجران متواخيان فى شراء غلات العراق ، فأشرفا على ربح عشرة آلاف ألف درهم ، ثم اتضع السعر فخسرا ستة آلاف ألف درهم[٤] ، وفيما عدا هذا كانت الظروف الزراعية الخاصة تستلزم بعض صفقات المضاربة على الحصاد والدرس وجنى الثمر ؛ وكان الفقهاء يترخصون فى ذلك متجاهلين ، بشرط أن يكون ذلك على ضمان المشترى[٥] . ويحكى لنا «ڤانسلب» أن الناس كانوا بمصر حوالى عام ١٦٦٤ م يخالفون القوانين التى تحرم الربا مخالفة ظاهرة كما هو الحال عندنا ، فكان المقترض يضطر إلى أخذ بضائع رديئة النوع بالسعر الباهظ .

---

(١) انظر : V. Kremer, Einnahmebudget, s. 343 .

(٢) Sachau, Syrische Rechtsbücher, II s. 157 .

(٣) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣٧ .

(٤) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٤٠٨ .

(٥) الجامع الصغير على هامش كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٧٨ .

(٦) Wanslep, Beschreibung Aegyptens, s. 63 .

الفصل السابع والعشرون

الملاحة النهرية

كان الفرق بين وسائل المواصلات فى المملكة الإسلامية وبينها فى أوروبا أثناء العصور الوسطى هو قلّة الطرق المائية فى مملكة الإسلام ، فلم يجد المقدسى فى جميع هذه المملكة الشاسعة إلا اثنى عشر نهراً كبيراً فائضاً تجرى فيها السفن وهى : دجلة والفرات والنيل وجيحون والشاش وسيحان وجيحان وبردان ومهران والرسّ ونهر الملك ونهر الأهواز[1] . ولا نستطيع أن نعتبر ثلاثة الأنهار التى بآسيا الصغرى ولا النهرين اللذيْن بالقوقاز ولا النهر الذى على حدود الهند[2] من بين هذه الأنهار الاثنى عشر أنهاراً من أنهار البلاد الإسلامية على التدقيق ، بحيث أنه فيما عدا النيل لا نجد بلاداً فيها الملاحة النهرية إلا أرض ما بين النهرين ،

---

(١) المقدسى ص ١٩ ، وهذا يتفق مع ما كان واقعاً بالفعل ، وإن كان الأصطخرى (ص ٩٩) ذكر فى فارس وحدها اثنى عشر نهراً كباراً « تحمل السفن إذا أجريت فيها » ، أما نهر هيدمند بسجستان وهو ينبع من جبال هندكوش فكانت تجرى فيه السفن إذا امتد الماء ، ولا تجرى فى غير ذلك (ابن حوقل ص ٣٠١) ويذكر سترابو Strabo, X V, I أن الفينيقيين كانوا يسيرون سفنهم على نهر الأردن . أما فى العصور الوسطى فكانت الملاحة على هذا النهر نادرة ، كما هى اليوم ، فلم يكن هناك إلا سفن صغار يسافر الناس عليها وتحمل عليها الغلات فوق البحيرة الميتة بين زغر والدارة وأريحة وسائر أعمال الغور (الإدريسى طبعة براندل ص ٢) .

(٢) وكان بين أهل كشمير وبين المنصورة مسيرة سبعين يوماً ، فكانوا يركبون السفن على نهر السند ، وهو يزيد فى وقت زيادة الدجلة والفرات ، ويضعون جذور شجر المقاد فى أكياس زنة كل منها من سبعمائة إلى ثمانمائة رطل ، ويضعون الأكياس فى جلود يطلونها بالقطر لكى لا ينفذ إليها الماء ، ثم يحزمون الأكياس أزواجاً ليقعدوا أو يقفوا عليها ، فيصلون المنصورة بعد سبعة وأربعين يوماً من غير أن تبتل الجذور Merv. de l' Inde, s. 104

وما اتصل بها من خوزستان ثم أقصى الشمال الشرقى لبلاد الإسلام . وفى هذه الأقاليم نجد أن الملاحة فى شمال بلاد ما بين النهرين تواجه صعوبات شديدة ، وذلك على الأقل فى النهرين الكبيرين ، وقد حدثنا رجال من أحسن مرتادى هذه البلاد « أن نهر الشاش عند مدينة فرغانة لايستطيع أن يُقل قاربا للصيد فى بعض الأحيان »[1] . هذا إلى أن كلا من جيحون والشاش يختلف مجراها فى مكان عنه فى آخر اختلافا كبيراً مستمرا ، كما أن عمق الماء فيهما مختلف ، ولذلك أوقف سير البواخر النهرية الروسية على أولها ؛ وهى مستمرة على الثانى بمشقة كبيرة ، « ولا تستطيع سفينة مهما كانت خفيفة أن تجتاز شلالاته عند مدينة كالف (فى أواسط مجراه) وقت الفيضان »[2] . ونظراً لزيادة هذا النهر زيادة من غير انتظام ولكثرة الرمال على جانبيه لم يمكن أن يُتخذ عليه بلد ذو جانبين كبغداد وواسط غير كالف هذه ؛ وذلك لتَشمُّر النهر عندها وخلوّه من البثق والرمل[3] . على أن الأصطخرى يقول إن السفن كانت تحمل على الأنهار الكبيرة وما يتشعب منها ، وليس هناك بالجملة بحيرات كبيرة تصلح للملاحة الطويلة مما يستحق الذكر ، وإن كانت بحيرة أرمية ؛ وهى أكبر البحيرات فى مملكة الإسلام تبلغ مساحتها عشرة أمثال مساحة بحيرة كنستانس ، وإن كانت البحيرة الميتة تبلغ مساحتها ضعف مساحة هذه البحيرة . وعلى هذا فقد كانت الشام وجزيرة العرب وفارس كلها عبارة عن أراضٍ واسعة جدا ليس فيها ملاحة فى الأنهار ولا فى البحيرات على هذا النحو الذى بيناه . وهذا شأنها اليوم كما كانت فى العصور الوسطى .

(١) V Middendorf, Mémoires de l' Académie de St. Pèterbourg, VII, Bd. 29, s. 189 .

(٢) V. Schwarz, Turkestan, s. 425 .

(٣) المقدسى ص ٢٩١ .   (٤) الأصطخرى ص ٣٠١ وما بعدها .

أما فى العراق فكانت أحوال الأنهار ملائمة للملاحة على نحو لا نظير له ، وذلك لأن مستوى نهر الفرات أعلى قليلا من مستوى نهر دجلة ، وهذا يجعل سير السفن فى الأنهار المتفرعة من الفرات إلى الشرق سهلا يسيراً ، ولا يصعب عليها أن تعود إلى الغرب ، وقد استفيد من هذا فى القرن الرابع استفادة كبرى ، وكان يجرى على أنهار العراق كثير من أصناف القوارب الشديدة الاختلاف ، وقد ذكر أبو القاسم[1] بعض هذه القوارب وزاد عليها فى القرن الرابع الطيّارات والحديديات التى كانت ترسو على أبواب كبار العمال مثلا[2] ، وكان صياح الملاحين إلى جانب صوت آلات رفع الماء مما تمتاز به بلاد العراق ، ويحكى عن محمد بن رائق أنه لما ولى الشام لم يذهب إليها ، واستخلف ابنه الحسن وقال : « ركوبى فى الطيّار فى دجلة ، وصياح الملاحين ، أحب إلىّ من ملك الشام كله » . وكانت هذه عاطفة تعلق بالوطن ، وقد دفع حياته ثمناً لها ، وذلك أنه لم يذهب إلى الشام فبقى حتى قتل عام ٣٣٠ هـ[3] . وكان نهر الفرات صالحا للملاحة من الموضع الذى فيه مدينة سميساط ، فكانت تنقل عليه التجارة بين الشام وبغداد ، أما المسافرون فكانوا لا يرضون عن السفر فى الأنهار ، ويحكى عن على بن عيسى أنه لما سافر من دمشق إلى بغداد انحدر إلى جسر منبج ، ثم سار إلى الفرات فسار فيه إلى بغداد ، وخرج الناس لتلقيه ؛ فمنهم من لقيه بالرحبة ومنهم من استقبله بهيت ثم بالأنبار ، وكان المسافر من هنا يركب جواداً[4] . وهذا يدل على أن مركز الأنبار بالنسبة للسفر السريع فى القرن الرابع كمركز الفلوجة اليوم ، وهذه تقع قريبة من هناك ، وكان عند الأنبار جسر من سفن كما هو الحال عند الفلوجة

(١) حكاية أبى القاسم البغدادى طبعة متز ص ١٠٧ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٤٤ ، ٥٧ ، ١١١ . (٣) المغرب لابن سعيد ص ٢٩ .

(٤) كتاب الوزراء ص ٢١٠ .

فى عصرنا[١] ، والمسافة بينهما و بين بغداد اثنا عشر فرسخاً[٢] . ومن عند الأنبار كان يخرج النهر المسمى نهر عيسى[٣] . على أن مجرى الفرات الأعلى كان غيره اليوم ، فكان ماؤه يحيط بعدة جزائر تقع بين رحبة مالك وهيت ، وكان على هذه الجزائر عدة مدن هى الحديثة وعانة وألوسة ؛ لا الحديثة وحدها كما هو الحال اليوم[٤] .

وكانت البضائع التى تنقل بكميات كبيرة على نهر الفرات هى خشب البناء من جبال أرمينية وزيت الزيتون من الشام ، وكان الخشب والزيت ينحدران فى النهر على أخشاب تحملهما . وكان الرمان يُحمل على الفرات أيضاً فى مراكب كبيرة تسمى القراقير ، ويبلغ عرض الواحدة منها من ستة عشر ذراعاً إلى عشرين[٥] ، وقد شبهها هيرودوت منذ العصر القديم ، وكذلك ليفيوس Livius بمراكب البحر الأبيض المتوسط وذلك لكبرها ، وكانت أكبر شبكة من النهيرات توجد شرقى البصرة حيث تفترش مياه الأنهار ، وقد أحصيت فى بعض العصور فزادت على مائة وعشرين ألف نهر تجرى فيها الزوارق ، وقد سمع ابن حوقل ذلك فأنكره حتى رأى تلك البقاع ، فشاهد فى مقدار رمية سهم عدة من الأنهار صغاراً تجرى فى جميعها السمَيْرات ، فجوّز أن يكون ذلك العدد الكبير موجوداً حقيقة فى طول تلك البقعة وعرضها . وكان بتلك البلاد نخيل متصل نيفا وخمسين فرسخاً لا يكون الإنسان بمكان إلا وهو فى نهر ونخيل أو بحيث يراهما حتى البحر ، وكانت هناك المجالس الحسنة والمناظر الأنيقة والقصور والبساتين

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٢٥ مثلا فيما يتعلق بالقرن الرابع .
(٢) ابن خرداذبة ص ٧٢ .
(٣) جغرافية أبى الفدا ص ٥٢ : يخرج من الفرات بالقرب من الأنبار عند ضيعة يقال لها الفلوجة ، نهر يقال له نهر عيسى .
(٤) مروج الذهب ج ٣ ص ٤٠ . (٥) كتاب الوزراء ص ٢٥٧ .

على جوانب الأنهار ، فإذا جاء من البحر تراجع الماء فى كل نهر حتى يدخل بساتينهم وجنانهم ، وإذا جزر الماء عنها خلت منه البساتين والنخيل ، وبقيت أكثر الأنهار فارغة[١].

وكانت حركة الملاحة كبيرة على نهر الدجلة أيضاً ، فكانت تنحدر بضائع أرمينية إلى بغداد مارة بالموصل ، وكانت هذه معتدلة الجو حسنة الثمار والبقول ، وكان منها ميرة بغداد[٢] . بل كان الحجاج أيضاً يأتون من الشمال على الأنهار ، ففى عام ٣٤٨ هـ — ٩٥٩ م غرق منهم ألف نسمة ، وكانوا آتين من الموصل فى بضعة عشر زورقاً كباراً[٣] ، وكانت بغداد نفسها شبيهة بمدينة البندقية بإيطاليا ، فيقول المقدسى : « والناس ببغداد يذهبون ويجيئون ويعبرون فى السفن وترى لهم جلبة وضوضاء ، وثلث طيب بغداد فى ذلك الشط »[٤] . وكانت السفن التى تحمل البضائع تستطيع أن تقف عند أسواق كثيرة ، ويجد الإنسان بين لحظة وأخرى قنطرة عالية فوق الماء تصل بين الشوارع ، وقد أحصى فى أوائل القرن الرابع عدد السفن التى تنقل الناس والتجارة فى بغداد فكانت ثلاثين ألف ، وقُدِّر كسب ملاحيها فى كل يوم بتسعين ألف درهم ولم تكن هذه السفن المكشوفة لا من حيث اسمها ، ولا من حيث صورتها تشبه قوارب اليوم التى تسمى القفاف ، بل كانت تلك السفن السمَيْريّات (أى راكب أهل سُمَيْرة)[٥] . ويظهر أن مقدار كسب أصحاب تلك السفن صحيح ، فإن صاحب القفة لا يقل دخله يوميا عن الريال المجيدى (أربعة دراهم أو خمسة)[٦] . وكانت دار الخلافة

---

(١) ابن حوقل ص ١٥٨ .

(٢) المقدسى ص ١٣٨ .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٢٣٤ .

(٤) المقدسى ص ١٢٤ .

(٥) كتاب الديارات ص ١٧ ا ، ٢٦ ب ، وكتاب تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٧٣ ، وهى تسمى السميريات الميرانيات .

(٦) مجلة المشرق ج ٤ (عام ١٩٠١) ص ٩٩٢ .

تنفق لأرزاق الملاحين فى الطيارات والسُّمَيْريّات والحرّاقات وما إليها خمسمائة دينار فى كل شهر[١] . وكذلك كان ببغداد كثير من القوارب الخاصة ، فقد كان لكل من ذوى اليسار من أهل بغداد دابة فى اصطبله ، وطيار فى النهر ، وكان الكبراء وأصحاب الجاه ينتقلون فى الغالب على الماء ، وفى أواخر القرن الثانى الهجرى أمر الخليفة الأمين بعمل خمس حرّاقات فى دجلة أحدها على خلقة الأسد ، والباقيات على خلقة الفيل والعقاب والحيّة والفرس وأنفق على عملها مالا عظيما ، وابتنى سفينة عظيمة على خلقة الدلفين ، وهذه كلها للنزهة والأبهة[٢] . وكان للخليفة المستكفى عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م طيّار يسمى الغزال[٣] ، ولما مات الخليفة الراضى عام ٣٢٩ هـ — ٩٤١ م حمل بعد غسله فى طيّار أنزل فيه إلى تربته بالرصافة[٤] . وبعد أن هزم السلطان معز الدولة الديلمَ الذين ثاروا عليه فى عام ٣٤٥ هـ — ٣٥٦ م انصرف إلى بغداد ، ثم سار فى يومه إلى معسكر الحاجب بباب الشماسية أى أنه سار وسط المدينة ، وكان هو فى زبزب ووراءه الثوار فى زبازب مكشوفة ليراهم الناس ، وفى ذلك اليوم اجتمع الناس على الشطوط فدعوا للسلطان ودعوا على الثوار[٥] . وفى عام ٣٦٤ هـ — ٩٧٤ م خرج عضد الدولة للقاء الخليفة ، وكان ذلك على نهر دجلة ، « فامتلأت دجلة بالسميريات والزبازب ، ولم يبق ببغداد أحد ، ولو أراد إنسان أن يعبر دجلة على السميريات من واحدة إلى أخرى لأمكنه ذلك لكثرتها »[٦] . وفى سنة ٣٧٧ هـ — ٩٨٧ م ركب الأمير شرف الدولة إلى دار الخليفة الطائع لله فى الطيار ، وضربت القباب على

---

(١) كتاب الوزراء ص ١٩ . (٢) الطبرى ج ٣ ص ٩٥٢ وما بعدها ، وقد مدح أبو نواس الخليفة بقصيدة فى هذه المناسبة .

(٣) مروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ٣٧٧ (٤) كتاب العيون والحدائق مخطوط برلين ص ١٨٣ ب . (٥) مسكويه ج ٦ ص ٢١٨ .

(٦) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٧٧ .

شاطئ دجلة وزينت الدور التى عليها من الجانبين بأحسن زينة ، وخلعت على شرف الدولة الخلع السلطانيــة وتوِّج وطوِّق وسُوِّر وعقد له لواءان وقرئ عهد استخلاف الخليفة إياه[1] . وكان للجمهور المعمولة من السفن في الجانب الشرقي من بغداد زَنْبَرِيَّتان متحركتان يمكن رفعهما لتمكين السفن من المرور[2] . بل يذكر المقدسى أنه كان فى طرف الجسر بواسط موضعان تدخل فيهما السفن[3] .

وكانت تستعمل لإخراج السفينة من الماء على نهر دجلة طريقة خاصة ، وذلك أن اللاحين كانوا وهم على ظهرها يجذبون حبلا يجرى على بكرة مثبتة على نقطة من الشاطئ ؛ ولا يزالون يجذبون حتى يتجمع الحبل دوائر منتظمة على ظهر السفينة ، وكان اللاحون فى أثناء ذلك يغنّون ، وهــذه هى الطريقة التى نراها على صور الأشوريين والتى كانوا يستخدمونها فى جرّ الأحمال الثقيلة[4] . وكان بين بغداد وسامرّا — عند الموضع الذى تقع فيه قرية تسمى علث — نقطة صعبة ضيقة المجاز كبيرة الحجارة شديدة الجريان تجتازها السفن بمشقة ؛ وكان هذا الموضع يسمى الأبواب ، وكانت السفينة إذا وافت إلى العلث أرست بها فلا يتهيأ لها الجواز إلا بهادٍ من أهلها يكترونه فيمسك السكان ويتخلل بالسفينة تلك المواضع ؛ ولا يترك السكان حتى يتخلص منها[5] . ولــكن كان فى جنوب العراق العقبة الــكبرى التى ظلت الملاحة تواجهها على نهر دجلة طوال عهد العرب ، وذلك أن دجلة فيما بين واسط والبصرة كان يتشعب ثلاث شعب تنصب كلها فى مستنقعات وآجام تسمى البطائح ، وكانت السفن إذا وصلت إليها ألقت ما تحمله إلى زواريق تجتاز

(١) المنتظم لابن الجوزى ص ١٢٥ أ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ج ١ ص ١٧٩ ؛ وانظر : Oildmeister, N G G W' 1882, s. 439 .

(٣) المقدسى ص ١١٨ .

(٤) وكان اللاحون يضعون على أكتافهم ما يسمى القمايا (حكاية أبى القاسم ص ٨٠١) ولم أجد هذه الكلمة فى المعاجم .

(٥) كتاب الديارات الشابشتى ص ٣٨ ب .

هذه المنطقة ، فتجرى فى شبه أزقة من قصب ، و بين هذه الأزقة مواضع متخذة من قصب أشباه الدكاكين عليها أكواخ وفيها قوم يحرسون الزواريق فى هذه المنطقة الغريبة التى يتخلل آجامها بين حين وآخر رقعة من الماء الذى لا شجر فيه . وكان فى كل كوخ خمسة رجال ، وهى شبيهة ببيت النحل ، وليس لها شبابيك ، وفيها كان الحراس يكتنون من البق[1] .

ورغم يقظة الحكومة فى المحافظة على الأمن فإن العراق فى أسفل بغداد لم تتمتع بالأمن قط فى أثناء القرن الرابع الهجرى ، وكان معظم اللصوص بها من الأكراد ، وقد بلغ من شر اللصوص أنهم قتلوا بحكم القائد التركى عام ٣٢٩هـ — ٩٤١م على عظيم سطوته ، وذلك أن قوما من الأكراد لقوه وهو يتصيّد فقتلوه بواسط[2] . وقد وصف الخوارزمى[3] وقوع شىء مرات كثيرة بقوله : « وليس بأول غارة الكردى على الحاجى » ، كأن غارة الكردى شىء معروف مألوف . وقد اختص بالذكر بين اللصوص فى أواخر القرن الرابع الهجرى ابن مردان أحد رؤساء الأكراد ، فكان ينهب السفن رغم أنها كانت تسير قوافل تسمى الواحدة منها بالكار[4] .

وكان من رؤساء اللصوص المشهورين فى القرن الرابع الهجرى ابن حمدون ، وكان يقوم بالسرقة والنهب فى المنطقة الواقعة بين واسط و بغداد ، وكان ابن حمدون هذا رجلا غريب الأحوال من طراز رينالدو رينالدينى Rinaldo Rinaldini ، كانت فيه شهامة الفرسان وعطف على الفقراء ؛ حتى يقول التنوخى إنه كان فيه

---

(١) ابن رسته ص ١٨٥ . (٢) يحيى بن سعيد ص ٨٥ أ .

(٣) رسائل الخوارزمى ص ٧٩ . (٤) ديوان ابن الحجاج مخطوط لندن رقم ٤٥٩١ ص ١٧٠ أ (؟) ؛ وانظر كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخى ج ٢ ص ١٠٧ .

فتوّة وظرف ، وكان لا يتعرض لأصحاب البضائع القليلة[١] ، وصار بعض أحوال حياته مضرب المثل[٢] .

وكان بالبطائح بين واسط والبصرة أمير لصوص يسمى عمران بن شاهين استفحل أمره حتى تضاعف طمعه فى السلطان ، وتجرأ أصحابه على جند السلطان وصاروا يطالبون من يمر بهم من قواد السلطان وعماله بحق المرصد والخفارة ، فإن أعطاهم وإلا ضربوه ، فلما غلب على تلك النواحى سيّر معز الدولة عام ٣٣٨هـ — ٩٤٩م جيشاً لمحاربته وعلى رأسه الوزير أبو جعفر الصيمرى فهزمه عمران ، فوجه إليه جيشاً آخر فهزمه ، فأرسل معز الدولة وزيره العظيم المهلّبى ، فكانت الوقعة عليه وأسر القواد ومن معه من الوجوه فلم يجد معز الدولة إلا مصالحة هذا اللص الثائر ، فأجابه إلى كل ما طلب ، وقلّده البطائح عام ٣٣٩هـ — ٩٥١م[٣] .

وقد خرج اللصوص مرة على جماعة من الكبراء ، وهم فى طريقهم على النهر لاستقبال بعض الملوك ؛ فطلع عليهم اللصوص ورموهم بالحرّاقات وجعلوا يقولون : ادخلوا يا أزواج القحاب ! وكان فى الجماعة الرضى والمرتضى وابن أبى السريّان الوزير وبعض الأكابر ومعهم أحمد بن على البتى كاتب الخليفة القادر بالله ، وكان صاحب نوادر فأوحت إليه هذه المناسبة نادرة مذكورة ، وذلك أنه لما سمع صياح اللصوص عليهم : يا أزواج القحاب ! قال : ما خرج هؤلاء علينا إلا بعيْن؛ قالوا : ومن أين علمت ؟ قال : وإلا فمن أين علموا أنا أزواج قحاب ؟[٤] .

---

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ١٠٨ .

(٢) محمد المنسوب الثعالبي فى مجلة Z D M G, VIII s. 306 ، وهو كتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب . (المترجم)

(٣) مسكويه ج ٦ ص ١٧١ وما يليها ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٣٦٢ وما بعدها

(٤) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٣٥ .

على أنه قد لحق الملاحة النهرية ضرر أكبر مما تقدم على أيدي اللصوص الرسميين ، ولا سيما بني حمدان بحلب ، وهم الأمراء الذين امتازوا بالفروسية والشهامة ؛ واشتهروا إلى جانب ذلك بالجور واتباع سياسة جنونية في الخراج ، ومن أثر هذه السياسة أن مدينة بالس كانت على شط الفرات وأول مدن الشام من العراق ، وكانت مدينة عامرة بتجارتها ، فلما كان عهد سيف الدولة وهو أشهر بني حمدان ثقل عليها الخراج حتى عفت رسومها ودرست قوافلها وتركها تجارها بعد عهد هذا الأمير . ومن مشهور أخبارها أنه لما هزم سيف الدولة بعد لقائه صاحب مصر أرسل إليها القاضي المعروف بأبي حُصَيْن وكان بها تجار معتقلون عن السفر فأرهبهم وقبض أموالهم وأخرجهم عن أحمال برّ وأطواف زيت وغير ذلك من متاجر الشام في دفعتين بينهما أشهر قلائل حتى بلغ ما أخذه منهم ألف ألف دينار[1] وكذلك كانت تؤخذ بالعراق ضرائب على البضائع في داخل البلاد ، فكان بين بغداد والبصرة حوالي عام ٣٠٠ هـ موضعان تأخذ الحكومة عندهما المكوس على البضائع[2] . وكان نهر دجلة يُغلق بالليل ، وذلك بأن تُشدّ سفينتان من جانبي دجلة وسفينتان من الجانب الآخر ثم تؤخذ قلوس على عرض دجلة وتشد رأسها إلى السفن لئلا تجوز المراكب بالليل[3] .

أما بمصر فقد كانت الملاحة النهرية على النيل كثيرة جدا في القرن الرابع الهجري حتى تعجب المقدسي وهو بمصر من كثرة المراكب السائرة والراسية هناك ، وسأله يوما رجل هناك : « من أين أنت ؟ فقال من بيت المقدس ؛ قال بلد كبير ، أعلمك يا سيدي أعزك الله أن على هذا الساحل وما قد أقلع منه إلى البلدان والقرى من المراكب ما لو ذهبت إلى بلدك لحملت أهلها وآلاتها وحجارتها

(١) ابن حوقل ص ١١٩ . (٢) ابن رسته ص ١٨٤ (؟) .
(٣) نفس المصدر ص ١٨٤ — ١٨٥ .

وخشبها حتى يُقال : كان ها هنا مدينة »[1] . وكان الجزء الذى يصلح للملاحة دون أى عائق على نهر النيل ينتهى عند انتهاء حدود مصر جنوبا[2] . وكانت أسوان مجمعاً لتجارة السودان ، ولم يكن الذين يحملون التجارة إلى بلاد النوبة مصريون يذهبون إلى هناك ، فالاتجار فى الخارج لم يكن من خصائص المصريين إلا فى الندرة[3] ؛ بل كان تجار النوبة هم الذين يأتون فى النيل حتى الجنادل ، وعندها تقف مراكبهم ومراكب السودان ، ويتحول من فيها بتجاراتهم إلى ظهور الجمال حتى يصلوا إلى أسوان بعد اثنتى عشرة مرحلة إلى جانب النيل[4] ، وكان الإقليم الواقع جنوب الشلال الثانى موصداً أمام جميع الأجانب ؛ وهو إجراء يرجع إلى العصر المصرى القديم .

---

(١) المقدسى ص ١٩٨ . (٢) مروج الذهب للمسعودى ج ٣ ص ٤١ ، وانظر حكاية عبد الله بن سليم فى آخر القرن الرابع الهجرى عند المقريزى ، وراجع : Marquart, Die Beninsammlung, CCXLIX . (٣) لطائف المعارف ص ١٠١ .

(٤) الإدريسى طبعة دوزى ص ٢٠ — ٢١ .

الفصل الثامن والعشرون

المواصلات البرية

لم يعمل العرب أيام سيادتهم على تقدم نظام الطرق البرّية فى بلاد الشرق ، لأن العرب أمة ركوب لا تميل إلى تمهيد طرق الجيوش ولا إلى اتخاذ المركبات ، بل لقد بلغ من قلة الفهم للمركبات أنهم لما أخذوا الشطرنج عن الهنود لم تعجبهم صورة العربة (راثا) ، فاستبدلوا بها صورة الرّخ[١] . وكان التتر أول من اتخذ المركبات بشمال فارس[٢] . على أن فرق المشاة الرومانية كانت قد مهدت بعض الطرق فى جزء صغير من بلاد العرب ، ولكن لم يَبْق من آثارها إلا ألفاظ قليلة مأخوذة من اللاتينية مثل كلمة صراط ، ومعناها الطريق عند أهل الدين ، وكلمة أيْتار التى تستعمل نادراً بمعنى الطريق وهى مأخوذة من اللاتينية iter[٣] ، هذا إلى جانب علامات الطرق المسماة بالأميال . أما الأيتار المُلَيكى (الطريق السلطانى) فقد أخذ العرب طريقة إنشائه عن الفرس كما أخذوا عنهم هذه التسمية[٤] . ولعل طرق ذلك العهد ، شأنها شأن طرق اليوم ، لم تكن إلا شبكة من المسالك المطروقة

---

(١) يلاحظ الأستاذ مرجليوث فى الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب ، أن هذه الفكرة غير سديدة من وجوه ، أولها أن كلمة رخ ليست عربية ، بل فارسية ، وثانيها أن ثم دلائل على أن كلمة رخ كانت تستعمل بمعنى العربة فى العربية والفارسية (انظر : H. J. R. Murray, A history of Chess, Oxford 1913, p. 160) .

(٢) Marco Polo, I, p. 48 .

(٣) يرى مرجليوث أن التشابه بين لفظى أيتار و iter أشبه بالمصادفة .

(٤) يقول الهمدانى فى كتابه صفة جزيرة العرب ص ١٨٣ ، إن الطريق الذى يكثر الاختلاف عليه يسمى المحجة ، وإن الطريق المدروس يسمى الأيتار المليكى . ولا تقوله العرب إلا مصغراً ، والقياس مَلَكى ، وحبال الطريق أيتاره .

لا يربطها نظام . ولا نسمع عن عناية العرب بتعهد الطرق إلا قليلا ، فمن ذلك ما حكاه ناصر خسرو من أنه كان بمصر جسر من التراب بحذاء النيل من أول الولاية إلى آخرها ، وأن السلطان كان يرسل فى كل سنة عشرة آلاف دينار إلى عامل مُعْتَمد ليجدد عمارته[١] ، وكذلك مُهِّدَ التيه ، « وهو أرض بالقرب من أيلة لا يكاد الراكب يصعدها لصعوبتها » ، وذلك فى زمان خمارويه بن أحمد بن طولون[٢] . وكانت لخمارويه عناية بالطرق فى الجملة . وفى أواخر القرن الرابع الهجرى أنشأ سبكتكين فى جنوبى أفغانستان الطرق التى سلكها فيما بعد ابنه العظيم السلطان محمود لما غزا الهند[٣] .

وكذلك أنشأ جنكيزخان كثيراً من الطرق الواسعة فى بلاد الجبل بآسيا الوسطى ، فشابه فى ذلك نابليون ، كما شابهه فى أشياء أخرى . وكان أحد هذه الطرق يخترق مضايق جبال تيان شان جنوبى بحيرة صيرم ، وقد أقيم فيه أربعون قنطرة من الخشب تتسع كل منها لعربتين تسيران متحاذيتين[٤] . ولكن العناية كانت فى غالب الأحيان تقتصر على حراسة الطرق وتأمينها وإنشاء أماكن يستريح فيها المسافرون ، أو تيسير الماء فيها لهم على الأقل ، فمثلا كان على الطريق القصير الذى يخترق صحراء شرق فارس بين كل فرسخين أو ثلاثة قباب وخزانات يتجمع فيها ماء المطر[٥] ؛ ورأى ناصر خسرو على مقربة من بحيرة وان بأرمينية طريقاً على امتداده عُمُدٌ مقامة على الأرض ليسير المسافرون أيام المطر والضباب بهديها[٦] . وذكر البكرى شيئاً يشبه ذلك فى الطريق الذى بين نفراوة

(١) رحلة ناصر خسرو ص ٥٥ من النص الفارسى .
(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢١٢ . (٣) كتاب الهند [illegible] ج ١ ص ٢٢ . (٤) رحلة [illegible] Tschang Tschun [illegible] Mediaeval Researches, I, 69
(٥) [illegible] ص ٢٥٦ . (٦) رحلة ناصر خسرو ص [illegible]

وقسطيلية ، فقد أقيمت بينهما خُشب يهتدي المسافرون بها لكيلا يضلوا في الأرض السوّاخة التي بين هذين البلدين[١] . وكانت هذه الأماكن التي تُبنى في الطرق الصحراوية رباطات للزهاد ، وكانت كثيرة بنوع خاص في بلاد ما وراء النهر لما عرف عن أهلها من الورع والزهد ، ويذكر الأصطخرى أنه كان بهذه البلاد ما يزيد على عشرة آلاف رباط « في كثير منها إذا نزل النازل أُقيم علف دابته وطعام نفسه إن احتاج إلى ذلك »[٢] . وكان شرق المملكة الإسلامية أكرم من غربها بالجملة ، فيحدثنا ابن حوقل مثلا أنه كان من آل المرزبان رجل مشهور بالكرم أقام رباطات ووقف على مصالحها بقراً سائمة ، وجعل عليها قوّامين يحلبونها ويأخذون ألبانها ويقصدون بها المجتازين عليهم ومعهم الأطعمة منها ومن غيرها ، وما من رباط إلا وفيه المائة بقرة وما فوق ذلك لهذا الوجه[٣] . وكان أهل القرى بفارس يختارون من بين أنفسهم رجلا مهمته توزيع الضيوف على أهل القرية وكانوا يسمونه الجزيز[٤] . وكذلك كانت توضع حباب الماء في الشوارع والطرق بخوزستان على مراحل في الطريق ، وربما حُمل إليها الماء من بعيد[٥] . وفي البلاد التي كانت نصرانيةً من قبل كانت الأديرة تقدم ضيافة واسعة للمجتازين ، وكان كبار المسافرين ينزلون بها عادة طلباً للراحة ، فكان بدير يوحنا على مقربة من تكريت على نهر الفرات وبدير باعربايا إلى الشمال من ذلك أماكن خاصة لتضييف للمسافرين[٦] . أما فنادق المدن فلم نسمع عنها

---

(١) المغرب للبكرى ص ٤٨ ، ويوجد في أيامنا على الطريق المار وسط صحراء الملح بين يزد وطبس بفارس خمسة أهرامات من الحجارة أقامها البرسيون من أهل يزد ، انظر : S. Hedin. Zu Land nach Indien II, 36 ، وفي هذه النواحي تقام أعمدة من الحجارة عند ملتقيات الطرق العامة — نفس المصدر .

(٢) الأصطخرى ص ٢٩٠ . (٣) ابن حوقل ص ٢٠٨ .

(٤) كتاب الفهرست ص ٢٤٣ . (٥) المقدسي ص ٤١٦ .

(٦) كتاب الديارات للشابشتي ص ٩٥ ب ، ١١٣ أ ، وانظر Streck, Landschaft Babylonien, 179 ومعجم البلدان لياقوت ج٢ ص ٦٤٥ .

إلا ببلاد فارس ، فكان فى نيسابور مثلا شبستان (أى دار الليل) ومثله بشيراز . أما مصر فلم تعرف بها الخوانق ، والرُبُط لم تعهد بالديار المصرية قبل الدولة الأيوبية[١] ، وكان فى بلاد المغرب فى صحاريها ونواحيها الموحشة رباطات كثيرة يأوى إليها الناس ، وكان عليها أوقاف كثيرة بإفريقية ، والصدقات تأتيها من جميع البلاد[٢] .

وكان على نهر دجلة فى أيام الساسانيين قناطر ثابتة ، فيحدثنا ابن حوقل فى القرن الرابع الهجرى أنه رأى آثار قنطرة من الآجر قرب تكريت[٣] . ولا تزال بقايا قنطرة جميلة من هذا الطراز باقية بالجزيرة إلى اليوم[٤] . فلما جاء القرن الرابع الهجرى كانت هذه القناطر كلها قد أصبحت أطلالا ، واستبدل بها جسور من السفن بعض أجزائها متحرك كما هو الحال فى بغداد وواسط ، ولم يكن هذا الطراز شائعاً ، بل لم يكن معروفاً فى شمال فارس . ففى عام ٤٠٨ هـ . ذهب يمين الدولة لينجد قدرخان على أرسلان خان ، فعقد على نهر جيحون جسراً من السفن وضبطه بالسلاسل وعبر عليه ، ويقول ابن الأثير إن ذلك لم يكن يعرف هناك قبل ذلك التاريخ[٥] . وذكر الرحالة الصينى تشان تشوتج Tschang-Tschun أنه وجد جسرا مثل هذا على نهر الشاش بعد ذلك التاريخ بنحو مائتى عام (عام ١٢٢١ م)[٦] . وكان على قناة عيسى عند خروجها من الفرات قنطرة تسمى قنطرة دِمَّا ، لها خمسة أبواب ، واحد كبير وأربعة صغار ، وفى أواخر القرن الثالث الهجرى جُعل عرض الباب الأكبر اثنين وعشرين ذراعا ، وعرض الأبواب

(١) ترجمة فستنفلد لصبح الأعشى ص ٨٢ (صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٨) .

(٢) ابن حوقل ص ٤٩ . (٣) نفس المصدر ص ١٦٨ .

(٤) صورتها موجودة فى كتاب Hugo Grothe, Geographische Charakterbilder aus der asiatischen Turkei .

(٥) ابن الأثير [illegible] .

(٦) Bretschneider, Med. Res. 1, 75 .

الصغيرة ثمانية أذرع ، وذلك بعد الاستيثاق من أن أكبر السفن تستطيع أن تمر منها[١] . وكان بخوزستان شرقي مدينة سوسة القديمة قنطرة ديزفول ، وطولها ثلاثمائة وعشرون خطوة ، وعرضها خمس عشرة ، وكانت تقوم على اثنتين وسبعين أسطوانة ، ويسميها ابن سرابيون قنطرة الروم[٢] . وكان بالأهواز قنطرة هندوان ، وهى من الآجر ، وعليها مسجد يشرف على النهر[٣] . وكان بالقسم الأعلى من نهر قارون قنطرة إيذَج التى يقول ياقوت إنها من عجائب الدنيا المذكورة ، لأنها مبنية بالصخر على واد يابس بعيد القعر ، وكانت تقوم على دعائم ، ارتفاع كل منها مائة وخمسون ذراعا ، تشدّها قضبان من الحديد ، وقد أنفق على إصلاحها فى آخر القرن الرابع مائة وخمسون ألف دينار[٤] . أما أعجب قنطرة فى البلاد الإسلامية كلها فقد كانت مبنية على الطريقة الأوروبية ، وهى قنطرة سِنْجة التى بناها الإمبراطور فسبازيان على نهر سنجة أحد أفرع دجلة على مقربة من سميساط ، وكانت تعد من عجائب الدنيا ، وكانت « كبيرة شاهقة متصلة بالجبل على حجر مخوّخ إذا زاد عليها الماء اهتزت » ، وكانت عقدا واحدا ، كل حجر من أحجاره عشرة أذرع فى خمسة[٥] .

أما أعظم الجسور الخشبية فربما كانت القنطرة التى على نهر طاب بين خوزستان وفارس ، فقد كانت « معلقة بين السماء والماء ، وبينها وبين الماء عشرة أذرع »[٦] . وقد انفرد المطهر القدسى ، أحد علماء القرن الرابع الهجرى ، بذكر

---

(١) كتاب الوزراء ص ٢٠٧ .

(٢) Le Strange, p. 239 .

(٣) القدسى ص ٤١١ .

(٤) معجم البلدان ج ١ ص ٤١٦ .

(٥) محمد المنسوب للشالى ZDMG, VIII 524 f ، والأصطخرى ص ٦٢ ، والتنبيه للمسعودى ص ٦٤ ، ١٤٤ ، والقدسى ص ١٤٧ و Le Strange, The lands of the eastern Caliphate, p. 124 ، وقد لاحظ بعض رحالة الرومان أهمية هذه القنطرة ، فيشار إليها فى كتاب Tob. Peut بعبارة نحو قنطرة سنجة pontem Singe وانظر Miller, Itin. Romana p. 750 .

(٦) ابن حوقل ص ١٢٠ .

قنطرة خُتَن التي كانت معقودة على رأس جبل فيما وراء النهر ، وهو يقول إن أهل الصين عقدوها في الدهر القديم[١] .

وكان توجد معابر على الأنهار كالتي كانت عند الخابور فيما بين النهرين ، حيث يشد الملاح وهو على ظهر المركب حبلا مثبتا على الشاطئ الآخر حتى يصل إليه ، غير أني لا أعرف إلى أي تاريخ ترجع هذه الطريقة ، وهي مستعملة إلى اليوم في حوض نهر التاريم[٢] .

أما البريد فهو اختراع قديم جدا ، ولكن الفضل في تقدمه يرجع إلى ماقام به دارا الأول من ربط أجزاء الإمبراطورية الفارسية في الشرق الأدنى[٣] . ونجد أن أكثر مصطلحات البريد التي كانت مستعملة أيام الخلفاء فارسية الأصل ومنها الفُرانِق[٤] ، والفَيْج[٥] ، والشاكري[٦] بمعنى راكب البريد ، والأسكدار وهو السجل الذي يُدوَّن فيه عدد حقائب البريد والخطابات ، ويُثبت فيه كذلك ساعات الوصول إلى سكك البريد والخروج منها . ويظهر أن البريد اخترع في وقت معيّن ، إذ نلاحظ أن دواب البريد عند الروم والمسلمين والصينيين جميعا كانت علامتها تحذيف أذنابها ، غير أن الروم كانوا يستعملون الخيل في نقل البريد[٧] ، وكذلك كان الحال عند ملوك العرب في الجاهلية[٨] ، وكانت ملوك الصينيين وملوك

---

(١) كتاب البدء والتاريخ ، ج ٤ ص ٩٢ .

(٢) Sven Hedin, Durch Asiens Wüsten, II, 152.

(٣) وتورد الروايات العربية ذلك ، انظر الخطط المقريزي ج ٢ ص ٢٢٩ (؟) .

(٤) وقد استعمل هذا اللفظ من قبل امرؤ القيس في شعره ، انظر Ahlwardt, Six Diwans, p 130, Vs. 27 .

(٥) يستعملها الشاعر على الماشي . ونلاحظ أثر كلمة ped الرومية في هذه النسبة ، ولهذا اللفظ صيغة هندية هي كلها إلك ، انظر عجائب الهند ص ٦ ، ١

(٦) معناه العداء ، وقد استعمل الخوارزمي في القرن الرابع هذا اللفظ في رسائله (ص ٦٣) .

(٧) ابن خرداذبة ص ١٠٣ .

(٨) الكامل للمبرد طبعة مصر ١٣٠٨ هـ ج ١ ص [illegible] .

الإسلام[١] يستعملون البغال فى بُرُدهم[٢]، وكان الخلفاء يقيسون المسافات بالأميال غربى الفرات ، أما فى شرقيه بالفراسخ[٣] ، ولم يكن عند العرب ما يسمون به علامات المسافات إلا كلمة ميل المأخوذة من الرومية ، فقد استعملت هذه الكلمة فى بلاد لم تدخل فى حكم الرومان قط[٤] . ويظهر أن الفرس لم يستعملوا ذلك فى بُرُدهم[٥] . أما فى شطرى الدولة الإسلامية فكانت توجد محطات للبريد تسمى السكك ؛ وهى مزوّدة بالخيل والراكبين على مسافات معينة ، كل ثلاثة أميال أو فرسخين[٦]، وربما كان راكب البريد يركب الطريق كله ، ويدل على ذلك ما حكاه الصولى عن رجل يعرف بالخلنجى كان يحمل الخريطة من مكة إلى بغداد ويسبق بأخبار الحج[٧] ، أى أنه كان يقطع المسافة كلها . وكان بين المغرب

---

(١) يلاحظ الأستاذ مرجوليوث فى الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب ، أن هذا يظهر أنه غير محقق ، فإن هذه الحيوانات تسمى فيا بين أيدينا من أوامر محفوظة على أوراق البردى بالدواب ، ومعناها الخيل عادة ، وعندما تكلم صاحب الفخرى عن البريد ذكر الخيل خاصة .

(٢) سلسلة التواريخ ص ١١٣ ، وتحذيف أذناب الدواب لتعليمها مذكور فى الجاهلية (انظر Ahlwardt, Six Diwans, b. 1838, Vs. 28) . وذكر حمزة الأصفهانى (تاريخ سنى ملوك الأرض ج ١ ص ٣٩ طبعة Gottwaldt أن كلة بريد مشتقة من لفظ بريدة ذنب الفارسية ؛ عربت وحذف نصفها الآخر ، وانظر كتاب تاريخ ملوك الفرس للثعالبي طبعة زوتنبرج ص ٣٩٨ .

(٣) الفرسخ ثلاثة أميال — ابن خرداذبة ص ٨٣ ، والمقدسى ص ٦٦ ، وكتاب البدء والتاريخ للمطهر المقدسى ج ٤ ص ٩٠ .

(٤) مثال ذلك فيا يتعلق بجزيرة العرب ما جاء فى كتاب الخراج لقدامة ص ١٩٠ ، وفيا يختص بالمشرق ، انظر ابن رسته ص ١٦٨ .

(٥) وكان فى الهند من أقدم العصور أعمدة مقامة كل عشر مراحل لتعليم الطريق والمسافات انظر Strabo, XV, I .

(٦) مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ٦٣ ، والمقدسى ص ٦٦ ، ويقول المقدسى إن فى البريد خلافاً ، فهو بالبادية والعراق اثنا عشر ميلا ، وفى الشام وخراسان ستة ، وهذا خلاف ما أورده قدامة فيا يختص بالعراق ، ويغلب على الظن أن إطالة المسافة بين الأميال حدثت فى زمن متأخر عندما تحول العراق إلى صحراء ، وقد قدر ابن خرداذبة سكك البريد فى المملكة الإسلامية كلها بتسعمائة وثلاثين سكة (ابن خرداذبة ص ١٥٣) .

(٧) الأوراق للصولى ، مخطوط باريس ص ١٣٦ .

والمشرق شبه تبادل دولى فى البريد ، فكان بريد الترك يصل إلى يوشجان الأعلى ، وهو حد الصين[١] ، وكان بريد آسيا الصغرى يواصل الرحلة إلى القسطنطينية[٢] وكان لهذا البريد سكة كل ثلاثة أميال .

وكانت أهم طرق البريد هى :

(١) من بغداد إلى الموصل ، ومدينة بلد[٣] بحذاء دجلة ، ثم يخترق ما بين النهرين إلى سنجار ونصيبين ورأس عين والرقة ومنبج وحلب وحماة وحمص وبعلبك ودمشق وطبرية والرملة وغفار والقاهرة والإسكندرية ومن ثم إلى قيرين[٤] .

(٢) من بغداد إلى الشام مع الضفة الغربية للفرات[٥] مارا بالأنبار ، وكان يعبر إلى الضفة الغربية للفرات عند هيت ، وكانت حركة المرور فى هذا الطريق عظيمة ؛ ففى عام ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م كان ارتفاع خراج المرور عند هيت ثمانين ومائتين وخمسين دينارا[٦] .

وكان بين دمشق وبين مدينة دير طريق له شأن عظيم فى الزمن القديم ، إذ كانت تقوم على طوله أماكن للحراسة ، ولا يزال مطروقا إلى اليوم على قلة ؛ إلا أن أصحاب كتب المسالك لم يتكلموا عنه ، ولم يشر إليه المقدسى مع أنه وصف مسالك صحراء الشام وصفا دقيقا مسهبا . ولم يكن يوجد فى ذلك الزمان بريد الجمال بين بغداد ودمشق ، وهو البريد الذى يجرى بانتظام فى أيامنا . وكان هذا البريد فى ذلك الزمان يمر بهيت ودمشق باعتبار أن هذا أقصر طريق بين بغداد والشام . وكان بعض المسافرين يجتازونه بين حين وآخر على ظهور الدواب ، وكان عامل

---

(١) ابن خرداذبة ص ٢٩ . (٢) ابن حوقل ص ١٣٠ .

(٣) أما الطريق الكبير الذى يسير من الدائن إلى حران مارا بحتا ، والمبين فى خريطة Teubinger ، فكان قد هجر منذ زمن بعيد . (٤) الخراج لقدامة ص ٢٢٧ وما يليها .

(٥) كان الطريق قديماً يسير بحذاء الشاطئ الشرقى للفرات ، انظر الخريطة التى عملها Teubinger . (٦) V. Kremer, Einnahmebudget, 307 .

هيت عند ذلك يبحث مع المسافرين خفّارة من البدو[١] .

(٣) أما الطريق الرئيسى إلى المشرق فكان يسير خلف بغداد ، ويعبر قنطرة النهروان ، ثم يسير وراء حلوان ، فى جبال وصعود وهبوط ، فيما كان يعرف قديماً بميديا ، ثم يرتقى عقبة مشهورة فيها قوم يبيعون التمر والجبن ، ويواصل الصعود وراء أسد أباد حتى يبلغ همذان[٢] ، وهـذا الطريق مبيّن على الخرائط القديمة ، وهو بلا شك الطريق الذى كانت تسلكه ملوك فارس عند انتقالها من مشتاها فى العراق إلى مصطافها فى اكباتانا المرتفعة ، ثم يستمر الطريق إلى الرىّ (على مقربة من طهران الحالية) ونيسابور ومرو فبخارى وسمرقند ، وكان الطريق يسير بعد سمرقند إلى الصين ، إذ نجد المقدسى يذكر أنه كان بهذه المدينة باب يسمى باب الصين[٣] . أما مجاوزة هذا الإقليم الواقع بين الترك والصين فكانت تتوقف على ما يكون فيه الأمن ؛ لأنه كان دائماً معدن الخوف ، فنى طوال عصر صدر الإسلام — بل فى أثناء القرن الرابع من الهجرة — كان الناس لا يميلون إلى اتخاذ أقصر الطرق التى تخترق هـذا الإقليم ، وهو الطريق الذى يجتاز فرغانة وحوض التاريم ، وكان أهل الصين يؤثرونه فى القرن الثامن الميلادى[٤] ، وسار معه فيما بعد الرحالة الكبير ماركو بولو ، فلا نجد له ذكراً عند المؤلفين . على أن المسافرين من أوزكند فى فرغانة العليا لم يكونوا يجتازون ممرات علايا ، بل كانوا يسيرون فى ممر أطباس بين قرى متصلة متقاربة ، سالكين طريقاً صعباً « إذا وقعت الثلوج لم يُسْلك مسيرة يوم » ، ومن ثم يواصلون السير إلى

---

(١) الفرج بعد الشدة للتنوخى ج ٢ ص ٧٦ ، وكان آخرون يأخذون طريقاً آخر يتفرع من هنا عند نقطة أعلى على مجرى الفرات ، ثم يدورون حول الرصافة ، ويسيرون إلى دمشق ، وفى عام ٤٤٠ هـ — ١٠٤٨ م فعل هذا ابن بطلان ليصل إلى حلب (أخبار الحكماء للقفطى ص ٢٩٥) ، وكان يخشى فيه من نهاية البدو ، انظر الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٠٩ .

(٢) ابن رسته ص ١٦٧ . (٣) المقدسى ص ٢٧٨ .

(٤) Richthofen, China, I, 456 .

برشان الواقعة إلى الجنوب الغربى من بحيرة يسك[1] ؛ وهنا يتصل هذا الطريق بالطريق الواصل من سمرقند إلى الصين ، وهو الذى كان يسير إلى برشان على قنطرة كبيرة فوق نهر الشاش مارا بالشاش وطراز (أولى عطا) وبركى (مِرْكا)[2]، وبقية هذا الطريق يعينها لنا الجردوزى فى كتابه زين الأخبار (الذى ألفه حوالى عام ١٠٥٠ م) فيقول إن الناس كانوا يسيرون من بتشول إلى كوشا فى حوض نهر التاريم ؛ ثم ينحرفون شرقاً حتى يصلوا إلى شينانـ شكت على حدود الصين[3] .

وقد سلك هذا الطريق حوالى عام ٦٣٠ م الرحالة الصينى سوين تسانج Hsuen Tsang وذلك بأن سار من كوشا مارا ببلوكيا (ولعلها التى ذكرت فى كتاب الجردوزى باسم بشول ، وربما كانت مدينة أكسو الحالية) إلى بحيرة

(١) ضبط اسم هذا المكان وموقعه بعد نشر كتاب الجردوزى (طبعة بارتولد ص ٨٩ وما بعدها) ، وربما كان قول قدامة (ص ٢٠٨ من كتاب الخراج) إن أطباش مدينة على عقبة مرتفعة بين التبت وفرغانة وبوشجان ، هى الحجة التى استند إليها دى غوى فى قوله إن بوشجان هى الإقليم الذى يقع حول ختن De Goeje, De Muur van Gog en Magog, 1888, 114 ؛ ولكن العبارة لا تستقيم مع هذا ، لأن من الواضح أن الطريق إلى ممر أوش نحو أوزكند يتجه إلى الشمال ، وتتجلى حقيقة الأمر إذا عرفنا أن حوض التاريم كان يعد إذ ذاك داخلا فى إقليم التبت على ما حكاه أبو دلف (معجم ياقوت ج ٣ ص ٤٤٧) ، وقد ذكر المطهر المقدسى (ج ٤ من كتاب البدء والتاريخ) أن ختن هى قصبة التبت ، وهذا يطابق ما ورد فى النصوص الصينية ، ففى القرن الثامن الميلادى كانت البلاد الواقعة بين جبال التين وتان شان تؤدى الجزية إلى التبت J. A., 1900, XY, 34 ، وظلت التبت محتفظة بها معظم القرن التاسع ثم انسلخت عنها ودخلت فى حوزة الأتراك الأويغورية والخرلخية JRAS, 1898, s. 814 . وفى قول ابن خرداذبة (ص ٣٠) إن أطباش مدينة على عقبة مرتفعة بين التبت وفرغانة دليل على أن شرقى التركستان كان للتبت ، ونجد الإدريسى (ترجمة جوبير ج ١ ص ٤٩) فى منتصف القرن السادس الهجرى يسمى ختن قصبة التبت ، وأخيراً فإن مما يبطل رأى دى غوى ما جاء فى كتاب أبى الفدا (طبعة رينو ص ٥٠٥) نقلا عن البيرونى والجردوزى والسمعانى (المتوفى عام ٥٦٢ هـ — ١١٦٧ م) من تسمية ختن باسمها الحالى .

(٢) ابن خرداذبه ص ٢٨ وما يليها ، وكتاب الخراج ... ٢٠٤ وما بعدها ، والمقدسى ص ٣٤١ .

(٣) الجردوزى ص ٩١ .

يسلك[١] . بل نجد فى عصرنا هذا أن الطريق الرئيسى الذى يصل أواسط حوض التاريم بطشقند يمر بأكسو ثم يمر بدِل وقرقول و بشجك وأولى عطا[٢] . ومن أسف أننا لا نعرف الطريق الذى سلكه سلاّم فى القرن الثالث الهجرى لما بعثه الخليفة فى كشف سد يأجوج ومأجوج ، ولا الطريق الذى سلكه أبو دلف فى القرن الرابع حينما ذهب مع الوفد الذى أرسل إلى الصين أيام المخاطبات بين السامانيين وملك الصين[٣] ، على أن المسعودى يقول إنه لقى كثيرين ممن رحلوا إلى الصين وعرف منهم أن الطريق من خراسان إلى بلاد الصين يمر ببلاد الصغد ، وأنه يمرّ بالجبال التى يؤخذ منها النشادر ، ويؤخذ من هذا أن طريق الصين كان فى القرن الرابع هو الطريق الذى وصفه سوين تسانج والجردوزى ، لأن فى الروايات الصينية ما يدل على أن هذه الجبال داخلة ضمن سلاسل تيان شان شمالى كوشا[٤] . ولم يوصف هذا الطريق إلا بعد ذلك بمائتى عام ، وكان الإدريسى أول جغرافى عربى وصف الطريق الذى يسير من فرغانة إلى حوض التاريم مارا بهضبة البامير ، وذلك حوالى عام ٥٥٠ هـ ١١٥٥ م[٥] ، وربما كان لهذا علاقة بما حدث فى ختام القرن الرابع الهجرى من فتح أمراء البُغرا لقربى بلاد ما وراء النهر ونقلهم قصبتهم إلى كشغر فى تركستان الشرقية مما أدى إلى عودة الطريق إلى ناحية ممرات البامير .

وينحرف طريق البريد عند مرو مارا بوسط إقليم خراسان ، ولا يقصد رأسا إلى بلخ بل يدور دورة عظيمة قدرها ثلاثمائة كيلو متر حول نهر مرو حتى

---

(١) Richthofen, China, I, 540 .

(٢) S. Hedin, durch Asiens Wüsten, I s. 466 .

(٣) De Goeje, De Mwir..., وانظر : Marquart, Osteuropätsche Streifzüge, s. 74 ff. وذكر ذلك أيضاً الرحالة الصينى وانج ين تى ، الذى سافر بين عامى ٨٨١ ، ٨٨٢ م انظر : JA' 1847, Vol I, 63 .

(٤) Richthsfen, China, I, 560.

(٥) Richthofen, China, I, 562 .

يصل إلى مرو الروذ ، وهذا يطابق تماماً ما كان عليه الحال فى الوقت الذى عملت فيه خريطة بوتنجر Peutenger وعلى فرسخ من هذا الموضع تبدأ سلسلة الجبال التى يجتازها الطريق مارا بمنخنق فيها حتى يصل إلى طالقان ، وبعد بلخ يعبر نهر جيحون على مقربة من ترمذ ، ثم يفضى إلى فرغانة عند الراشت[1] .

أما الطريق الذى يقطع إيران عرضاً من شيراز إلى نيسابور مارا بيزد فقد لاحظه ابن خرداذبة وأشار إليه فى كتابه (ص ٥٠) ؛ ولكننا لا نجد له ذكراً عند ابن رسته ولا عند قدامة ؛ وربما كان سبب ذلك القلاقل التى كانت تسود شرقى فارس ، والتى زادت شر اللصوص فى الصحراء الواقعة بين يزد وطبس .

وكان عضد الدولة المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٣ م ، أول من أقرّ الأمن فى هذه الربوع ، ودرج حكام فارس من بعده على أخذ رهائن من هؤلاء اللصوص واستبدال غيرها بها بين الحين والحين ، لتستطيع القوافل المسافرة فى حراسة الحكومة اجتياز هذا الإقليم آمنة ، وحوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ابتنى عضد الدولة مخفراً معه خزان للماء العذب ، وقد وصفه المقدسى بقوله : « ورباط آب شتران هو معدن الخوف ومأوى الكوج ، به قناة عذبية تصب إلى بركة ، والرباط حسن ، ما رأيت أحسن منه ببلدان الأعاجم ، من الحجارة والجص على عمل حصون الشام ، وعليه أبواب حديد ، وهو شديد العمارة ، وفيه قوم يحفظونه ، بناه ابن سيمجور صاحب جيش ملك المشرق »[2] . ولكن إنشاء هذا المخفر لم يؤمن الطريق ، فالمقدسى نفسه أراد أن يسير من طبس إلى يزد فقطع هذه المسافة

(١) كتاب البلدان لليعقوبى ص ٢٨٧ ، وكتاب الخراج لقدامة ص ٢٠٩ وما يليها .
(٢) المقدسى ص ٤٩٣ ؛ وفى عام ١٨٨١ م ، ١٨٩٢ م أقام بعض أهل يزد بناء مماثلا للمسافرين عند ملتقى الطريقين من طهران إلى طبس ومن يزد إلى طبس . انظر Sven hedin: Zu Land nach Indien, II, 37 ff

فى سبعين يوماً ، مع أن طولها لا يزيد على ثمانية وستين فرسخاً بتقدير ابن خرداذبة ، وذلك لأن قافلته ضلت سبيلها ، ولأن الطريق كان — على قوله — مخوفاً من قوم « يقال لهم القفص ، يسيرون إليـــه من جبال كرمان ، قوم لا خلاق لهم ، وجوه وحشة ، وقلوب قاسية ، و بأس وجلادة ، لا يبقون على أحد ، ولا يقنعون بالمال حتى يقتلوا من ظفروا به بالأحجار كما تُقتل الحيّات ، تراهم يمسكون رأس الرجل على بلاطة ويضربونه بالحجارة حتى يتصدع »[١] .

أما طريق الحج من بغداد فكان يعبر الفرات عند الكوفة ، ويفضى إلى الصحراء عنـد العُذَيْب[٢] ، وعلى الرغم من بعد مكة الشاسع فقد كان الناس يفـدون إليهـا فى موسم الحج من جميع أنحاء الدولة الإسلامية ، ولم تكن فريضة الحج وحدها هى التى تجذب هذه الجماعات ؛ بل كان يغريهـا أمان الطريق أيضاً فى حماية قوافل الحج الكثيرة التى كانت تنهـال إلى هناك من شتى النواحى ، فمن ذلك أن كثيرين من تجار بغداد هاجروا مع قافلة الحج سنة ٣٣١ هـ — ٩٤٣ م إلى الشام ومصر ، وذلك لاتصال الفتن ببغداد وتواتر المحن عليهم من السلطان[٣] ، وعلى عكس ذلك كان البعض يفرون من الشام من البوزنطيين ، ففى عام ٣٣٥ هـ — ٩٤٦ م التحق كثير من أهل الشام بقافلة الحج وقطعوا الطريق الشاسع من الشام إلى العراق مارين بمكة ، وكان فيهم قاضى طرسوس ، ومعه مائة وعشرون ألف دينار[٤] .

وكان أكثر طرق المغرب خلال القرن الثالث الهجرى يتجه نحو القيروان ، وفى ذلك الحين كانت دولة بنى الأغلب الأقوياء قد أقرّت الأمن ومنحت الطرق جانباً من عنايتهـا ، فكان على طول الساحل محارس ومخافر ، وكان السفر

(١) المقدسى ص ٤٨٠ وما يليها .
(٢) كتاب الخراج لقدامة ص ١٨٦ .
(٣) المنتظم لابن الجوزى ص ٧١ أ .
(٤) نفس المصدر ص ٩٨ ب .

مأموناً[١] ، وكان يخرج من مصر السفلى طريقان عظيمان إلى المغرب ، أحدهما يسير بحذاء الساحل كما كان الحال فى الزمن القديم ، والآخر يسير جنوباً ، وكان البريد يتخذ الطريق الثانى أول الأمر (وكان يسمى طريق السكة)[٢] ، ثم عُدل عنه بعد ذلك إلى طرابلس ، ومنها كان يقصد إلى القيروان رأساً ، وبعدها يسير بحذاء الساحل ؛ وكانت الأميال معلّمة ؛ وطول المسافة من القيروان إلى السوس الأدنى على المحيط الأطلسى ألفان ومائة وخمسون ميلا[٣] . وكان هذا الطريق هو الطريق الرئيسى الذى يصل الأندلس بالمشرق[٤] ، وكان هناك طريق آخر جنوبى يمر بالواحات الداخلة والكفرة[٥] ، ويتجه إلى السودان الغربى متجهاً إلى غانة وأودغشت ، فعُدل عنه فى القرن الرابع إلى طريق سجلماسة ، وذلك لتواتر الرياح ، وترادف عدوان اللصوص على القوافل[٦] .

وكان البريد مخصصاً لأعمال الحكومة ، وكان يجرى لبنى العباس[٧] ، ولم يكن يحمل الناس إلا فى حالة الضرورة القصوى ، نظراً لما فى ذلك من المتاعب ، كالذى رواه البيهقى من أن « صاحب بريد حضر من قبل الخليفة إلى المازنى فحمله على دابة من دواب البريد حتى وافى به باب الواثق »[٨] ، وكانت تُحمل فيه إلى جانب الرسائل أشياء تبعث للسلطان مما يحتاج إلى سرعة الإيصال ؛ فمن ذلك أن البريد كان يحمل إلى المأمون ثماراً غضّة من كابل أثناء ولايته على خراسان[٩] ، وما يحكيه ابن طيفور من أنه كان « يرسل لأمير المؤمنين مع

---

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧٤ (؟) .
(٢) لهنا لا يتكلم قدامة عن الطريق الساحلى — انظر كتاب الخراج ص ٢٢٢ .
(٣) ابن خرداذبة ص ٨٩ . (٤) نفس المصدر ص ٥٥ (؟) .
(٥) J. marquart, Bsnînsammluag, S. CV . (٦) ابن حوقل ص ٤٢ .
(٧) مروج الذهب ج ٦ ص ٢٦٣ .
(٨) المحاسن والمساوى للبيهقى ص ٤٢٩ من الطبعة الأوروبية .
(٩) [illegible]

البريد رطب وألطاف كأنما جُنيت من ساعتها »[١] . وحينما فتح جوهر مراكش للخليفة الفاطمي وبلغ المحيط الأطلسي ، أرسل إليه من هناك سمكا في زجاجة ليقيم له الدليل على وصول ملكه إلى البحر المحيط[٢] .

وكانت تنظم أثناء الحروب بُرُد حربية لشؤون الحكومة ، فمن ذلك أنه لما استطال صاحب القيروان على أرض مصر ، أنهض المقتدر مؤنساً الخادم وندب معه العساكر لمحاربة صاحب القيروان عام ٣٠٢ هـ — ٩١٤م ، وتقدم على بن عيسى بترتيب الجمّازات من مصر إلى بغداد لتبلغه الأخبار كل يوم[٣] . وكذلك كان معز الدولة هو الذى أحدث أمر السعاة وأعطاهم الجرايات الكثيرة ، لأنه أراد أن يبلغ أخباره لأخيه ركن الدولة[٤] ؛ وقد تهافت شبان بغداد على هذه الحرفة الجديدة ، وأقبل فقراء الناس على تسليم أبنائهم للسلطان معز الدولة لتدريبهم على ذلك ، وقد امتاز من هؤلاء السعاة اثنان كان كل منهما يقطع ما يزيد على الأربعين فرسخاً (حوالى ١٨٠ كيلو متراً) من مشرق الشمس إلى مغربها ، وكانا أثيرين عند عامة الناس ، وقد أورد المؤرخون ذكرهما وهما : فضل ومرعوش ، وكان أحدهما ساعى السنة ؛ والثانى ساعى الشيعة[٥] . وكان يقام حصن عند كل فرسخ من الطريق ، والراجح أن الحكام فى ذلك العصر عدلوا عن استعمال الخيل فى البريد إلى اتخاذ الجمّازات[٦] ، فمثلا نجد

(١) كتاب بغداد لابن طيفور ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

(٢) De goeje, ZDMG, 52 S. 76 (٣) عريب ص ٥٣ .

(٤) المنتظم لابن الجوزى ص ٣٤ ب ؛ وراجع Quatremère, Hist. Maml. II, 280 نقلا عن كتاب الإنشاء ، ولا تزال كلمة ساع هى اسم حامل البريد إلى اليوم .

(٥) المنتظم ص ٣٤ ب ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٢٥ .

(٦) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٨٠ ، وانظر لطائف المعارف للثعالبى ص ٩٠ ، وهو يقول إن الجماز مشتق من جمز ، ولا تزال أسرع الجمال بفارس هى الجمال البلخية ، والواحد منها يسمى جمّس ، ويقطع فى اليوم مائة كيلومتر بلا أقل مشقة (انظر Sven Hedin, Zu Land nach Indien, II, 346 ff.) ، وكلمة جمّس فارسية الأصل .

ابن العميد لما أراد اللحاق بأميره فى فارس عام ٣٦٤ هـ — ٩٧٥ م بغاية السرعة اتخذ الجمّازات .

وكان يوجد إلى جانب ذلك بُرُدٌ خاصة وذلك فى المسافات القصيرة على الأقل ، وهى عبارة عن جماعات منظمة من السعاة ، وقد اشتهر فى القرن الخامس الميلادى جماعة من حملة الخطابات بالسرعة ، وهم المسمّون سيا كوى فى مصر السفلى ، وكانوا لا يزالون موجودين فى القرن الثامن الميلادى بدليل ما نجده فى إحدى ورقات رينر البردية . ويحدثنا فانسلب Wansleb أحد المؤلفين المحدثين فيقول : من أراد أن يكون ساعياً فى الإسكندرية فلا بد أن يحمل شعلة فى سلّة على هيئة مدفأة مثبتة فى عمود طوله قامة رجل وله حلقات من حديد ، وأن يقطع المسافة التى بين الإسكندرية ورشيد وطولها سبعة وعشرون ميلا ، ويعود فى يومه قبل مغيب الشمس[١] .

أما استعمال النار فى الإشارة كوسيلة من وسائل المراسلة ، فلم يكن عند المسلمين إلا فى البلاد التى كانت تابعة للدولة البوزنطية من قبل ، لأن هذه الدولة كانت تستعملها . أما فى غير ذلك من بلاد الإسلام فلم تستعمل ، ويقال إنها استخدمت استخداماً حسناً فى القرن الثالث الهجرى على الساحل الأفريقى الشمالى ؛ فقد كانت الرسائل تصل من الإسكندرية إلى سبتة فى ليلة واحدة ، ومن طرابلس إلى الإسكندرية فى ثلاث ساعات إلى أربع ، ولم يبطل هذا الخطر الأخير إلا فى سنة ٤٤٠ هـ — ١٤٠٨ م حينما ثار المغرب على الفاطميين ، ولم يعد فى إمكانهم حماية الحصون من الهدو[٢] .

---

(١) Fuhrer durch die Ousstellung Raimer, S. 53 .

(٢) المراكشى ترجمة فاجنان Fagnan ص ٢٩٩ .

على أن المسلمين خطوا خطوات واسعة فى تنظيم نقل البريد بواسطة حمام الزاجل الذى كان معروفا أيام الرومان[١] ، ويظهر أن مؤسس فرقة القرامطة فى القرن الثالث الهجرى كان أول من نظمه واستعمله على صورة واسعة النطاق ، فجعل لنفسه من أول أمره طيورا تحمل الأخبار من جميع النواحى له فى مقره بالعراق ليستعين بذلك على الشعبذة والإخبار بالغيب[٢] ، وفى أوائل القرن الرابع الهجرى نجد أخباراً كثيرة عن استعمال الحمام بالعراق ، فمن ذلك أنه لما تقلد حامد ابن العباس الوزارة عام ٣٠٤ هـ — ٩١٦ م وروسل بالقدوم على الخليفة كتب على عدة أطيار بخروجه فى يومه[٣] . وحكى عريب فى حوادث عام ٣١١ هـ — ٩٢٣ م أن القرامطة لما دخلوا البصرة أخبروا الناس بعزل ابن الفرات وولاية حامد ابن العباس قبل أن يجىء الخبر إلى البصرة بأربعة أيام ، ولما جاء الخبر بعد ذلك لأهل البصرة علموا ما أرادت القرامطة بذلك ، وأن الخبر أتاهم من وقته فى جناح طائر[٤] ، ولما قرب القرمطى من الأنبار تشوّف المقتدر إلى معرفة أخباره ، فلما عرف أبو على بن مقلة ذلك طلب أطيارا وأنفذها إلى الأنبار ، وكتِبَ له عليها أخبار القرمطى وقتا بعد وقت[٥] . ولما اشتد خطر القرامطة فى هذه السنة نفسها (٣١٣ هـ — ٩٢٨ م) رتب الوزير على بن عيسى بين بغداد ونهر زبار المرتّبين وسلم إليهم مائة طائر إلى مائة رجل ليكتبوا له على أجنحتها كتبا بخبر العدو فى كل ساعة[٦] . وفى سنة ٣٢١ هـ — ٩٣٣ م استطاع ابن قرابة أن يحمل إلى الوزير

(١) Diels' Antike Technik, S. 68 .

(٢) De goeje, Mém. sur les Carmathes p., 207 ، فكان أول ما ذكر خبر الحمام الزاجل بالصين حوالى عام ٧٠٠ م ، والظاهر أن تجار العرب أو الهنود كان أول من جلبه إلى هناك ، (انظر ترجمة كتاب الرحالة Chau-Ju-Kua س ٢٨ هامش رقم ٢) .

(٣) كتاب الوزراء س ٣٣ (٤) عريب س ١١٠ وما يليها .

(٥) مسكويه ج ٥ س ٣٠٩ ، وابن الأثير ج ٨ س ١٣٥ ، ٢٤٠ .

(٦) مسكويه ج ٥ س ٢٩٨ .

ابن مقلة أخبار سلامة الكوفة من القرمطى لأن أطيار جاره — وكان من أهل الكوفة — حملت إليه أنباء أصدق مما حملته أطيار صاحب المعونة المعيّن فى الكوفة من قبل الوزير ، فتعجب ابن مقلة من أن يكون ابن قرابة أعرف بأخبار الكوفة من صاحب المعونة[1] . ومن غريب أخبار سنة ٣٢٨ هـ — ٩٤٠ م أن طائرا وقع لغلمان بجكم فوجدوا على ذنبه كتابا من بجكم بخط كاتبه إلى أخيه يعرفه فيه أخبار بجكم وأسراره[2] . وذكر الثعالبي أن الرسائل كانت تصل فى ذلك العصر من الرقة والموصل إلى بغداد وواسط والبصرة والكوفة بواسطة الأطيار فى يوم وليلة[3] . وفى النصف الثانى من القرن الرابع كان عند محمد بن عمر أبى الحسن الشريف — وكان علويا وجيها متمولا ببغداد — طيور كوفية ، وبالكوفة طيور بغدادية ، وكان يكتب على الطير إلى الكوفة فيأتيه الخبر فى ساعة أو نحوها[4] ، وكان هذا الشريف عند الوزير مرة جالسا فوصل إلى الوزير خبر وصول رسول القرامطة إلى الكوفة وأنه لا بد من الكتابة إلى الكوفة بالقيام بالواجب مع الرسول ، فأرسل الشريف إلى الكوفة بالخبر وجاءه الرد بوصول الكتاب وامتثال الإشارة وهو جالس مع الوزير ، وكان هذا يحسبه تهاونا فى الأمر[5] .

وكانت الحكومات بالجملة لا تتعرض للأفراد المسافرين ، ومن الثابت أنه لم يكن بالمشرق فى القرن الثانى الهجرى على أبواب المدن من يسجل أسماء من

---

(١) نفس المصدر ص ٤١٦ .
(٢) نفس المصدر ج ٦ ص ٣٢ ، ونجد مثل هذا كثيراً فى التواريخ المتأخرة .
(٣) عماد المنسوب للثعالبي : ZDMG, VIII, S. 512
(٤) عمدة الطالب للأصيلى مخطوط باريس رقم ٢٠٢١ ص ١٧٠ ب ، ١٧٠ ا
نفس المصدر ، المنتظم لابن الجوزى ص ١٤٠ ا وانظر مسكويه ج ٦ ص

يدخل أبوابها[١] . وقد تكلم أحد الرحالة العرب فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى عن جوازات المرور عند الصينيين بشىء من التعجب كأنها عنده شىء غريب[٢] . أما فى مصر فقد كان فيها منذ أقدم العصور الإسلامية نظام دقيق لجوازات المرور ، فلم يكن أحد يستطيع أن يترك الناحية التى يقيم فيها إلى ناحية أخرى بدون إذن أولى الأمر ، ويقال إن عامل مصر أصدر أمره عام ١٠٠ هـ — ٧٢٠ م بأن يُقبض على من وجد مسافرا أو منتقلا من مكان إلى مكان من غير سجلّ ، وإذا وجد صاعدا أو نازلا من مركب أوقفت الحوطة على المركب وحرق بما فيه . ولدينا طائفة من هذه السجلات أو الجوازات وجدت ضمن ما عُثر عليه من أوراق البردى[٣] . ويؤخذ من رواية لابن سعيد أنه كان لا بد من جواز للخروج من مصر ؛ ولا بد أن يدرج فى هذا الجواز كل من يرافقون المسافر ولو كانوا عبيده[٤] . أما فى المشرق فكان الأمر على خلاف ذلك ، حتى نجد المقدسى يستنكر ما حدث فى أيام عضد الدولة من أنه كان لا يدخل أحد مدينة شيراز أو يخرج منها إلا من كان يحمل جوازا[٥] .

---

(١) كتاب الأغانى ج ١٩ ص ١٤٧ : أمر المنصور أحد قواده بالجلوس على جسر النهروان ليتصفح الناس ويمر على المؤمل الشاعر ، وكان له عن ذلك مندوحة لو كان هناك نظام لتسجيل الواردين .

(٢) سلسلة التواريخ طبعة رينو ص ٤٢ .

(٣) Cfr. H. Becker, Der Islam, II,369 .

(٤) المغرب لابن سعيد طبعة تولرز ص ٥٣ .

(٥) ... ٤٢ .

الفصل التاسع والعشرون

الملاحة البحرية

قضت الظروف الجغرافية بأن تتوزع الملاحة البحرية فى مملكة الإسلام فى بحرين منفصلين : البحر الأبيض والمحيط الهندى ، لأن برزخ السويس كان حائلا دون اتصال هذين البحرين ؛ فكان من يريد أن يصل من البحر الأبيض إلى الهند أو شرق آسيا مضطرا إلى حمل بضائعه على الظهر عند الفرما ، ثم يسير فى الصحراء سبع مراحل حتى يصل إلى القلزم (Klysma اليونانية) وهناك يستطيع حملها فى المراكب مرة أخرى .

وكان صنف السفن التى تستعمل فى أحد البحرين تختلف عن نظائرها فى الآخر ؛ فكانت مراكب البحر الأبيض ذات مسامير ، أما مراكب البحر الأحمر والمحيط الهندى فكانت تُخاط بحبال الليف[1] ، وكانت هذه هى الطريقة القديمة فى إنشاء السفن عند جميع الأمم ، ويذكر ابن جبير فى القرن السادس الهجرى طريقة إنشاء السفن على هذا النحو فيقول إن مراكب البحر الأحمر لا يستعمل فيها مسمار ألبتة ، « إنما هى مخيطة بأمراس من القِنْبا ... وقشر جوز النارجيل يدرسونه إلى أن يتخيّط ، ويفتلون منه أمراساً يخيطون بها المراكب ويخلّلونها بدُسُر من عيدان النخل ، فإذا فرغوا من إنشاء المركب على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش ، وهو أحسنها ، وهذا القرش ...

(١) ابن خرداذبة ص ١٥٣ ؛ وجغرافية الإدريسى طبعة [illegible] والخطط للمقريزى ج ١ ص ٢١٢ ؛ ومروج الذهب للمسعودى [illegible]

عظيم فى البحر »[١] . أما فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) فيصف الرحالة ماركو بولو المراكب التى كانت تستعمل فى هرمز بأنها كانت من أسوإ صنف ومعرَّضة من يركبها للمهالك ، وذلك راجع إلى أنه لا يُستطاع استعمال المسامير فى بنائها ، وإنما كانت تُثقب الألواح قرب أطرافها بأقصى ما يمكن من العناية بمثقاب من الحديد ، ثم توضع فى الثقوب مسامير من خشب تصل بعضها ببعض ، فإذا تمّ ذلك حُزمت أو على الأصح خيطت بعضها ببعض بنوع من الليف يصنع من قشر جوز النارجيل ، ولا يُطلى المركب بعد ذلك بالقار ؛ بل بزيت يتخذ من دهن الحوت[٢] . وهذا الخلاف فى طريقة بناء المراكب راجع إلى تقاليد الصناعة للسفن عند كل فريق ، إلا أن المؤلفين علّوه ضروباً من التعليل أساسها المنفعة كما هى العادة ، فذهب ماركو بولو إلى أن « الخشب الذى كانت تصنع منه هذه السفن من صنف شديد الصلابة عرضة للتصدع والتكسّر كالفخار ، فإذا حاول الصناع أن يدقوا فيه مسماراً انشدخ ، وكثيراً ما يتصدع » . أما ابن جبير فيرى أن مقصدهم من دهان الجلْبَة هو أن « يلين عودها ويرْطُب لكثرة الشعاب المعترضة فى هذا البحر ، ولذلك لا يصرفون فيه المركّب المسمارى »[٣] .

أما المسعودى فيعلّل عدم استعمال المسامير فى بناء هذه السفن بالخوف من أن يأكلها ماء البحر[٤] . وقال آخرون إن السبب هو خوف الملاحين من جبال المغناطيس[٥] ، « وهى جبال كثيرة قد علا الماء عليها ، فلهذا لا تستعمل المسامير

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٦٧ — ٦٩ ، وجغرافية الإدريسى طبعة براندل ص ٢ .

(٢) Marco Polo, I, 18 . (٣) رحلة ابن جبير ص ٦٨ .

(٤) مروج الذهب ج ١ ص ٣٦٥ .

(٥) عجائب المخلوقات للقزوينى ج ١ ص ١٧٢ (طبعة فستنفلد) ، وورد هذا التعليل قبل ذلك فى جغرافية الإدريسى (ترجمة جوبير ج ١ ص ٤٦) نقلاً عن كتاب العجائب للحسن بن المنذر (وهو من الذين ألفوا فى العجائب) أما المطهر المقدسى الذى ألف كتابه البدء والتاريخ وهو فى وسط فارس بعيداً عن البحار فقد خلط الأمر وقال إنه لا يمكن لأية سفينة أن تجرى فى البحر الفرس لأن جبال المغناطيس تجذب المسامير (طبعة هوار ج ١ ص ٨٩) .

فى هذا البحر خوفا من جذب جبال المغناطيس لها » .

وكانت مراكب البحر الأبيض أكبر من مراكب المحيط ، فقد حكى مفتش الضرائب تشاو جوكوا Chau-Ju-Kua فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى ، مع كثير من التعجب ، كيف أن سفينة واحدة تحمل بضعة آلاف من الرجال وعلى ظهرها حوانيت لبيع الخبز ومغازل[١] . ولم تكن السفن ذات الدفتين موجودة فى غير البحر الأبيض[٢] . أما التى تجرى فى المحيط فلم يكن فيها أكثر من طبقة واحدة ، وكانت فى معظم الأحيان ذات شراع واحد[٣] . هذا وكانت قيعان السفن التى تسير فى البحر الأحمر « عراضاً دون تعميق فى تركيبها لتحمل بذلك كثيرا من الوسق ولا تدرّس على كبير ترس »[٤] : وكانت مراكب البصرة بيضاء « مشحمة بالشحم والنورة »[٥] . أما المراكب الصينية فكانت أكبر مراكب المشرق ، ولهذا لم تكن تستطيع اجتياز ما يجتازه غيرها من مضايق خليج فارس[٦] . وكان مقدار ما يؤخذ منها من المكوس فى موانى ملبار يبلغ عشرة أضعاف ما يؤخذ من غيرها[٧] . وكانت ضخامتها الزائدة تثير تعجب أهل كانتون حتى القرن الثامن الميلادى « إذ يبلغ علوها عن سطح الماء مبلغا يضطر الناس إلى استعمال سلالم ارتفاعها نحو العشرة أقدام ليصعدوا إلى سطحها ، ولم يكن ربابنتها من أهل الصين »[٨] . وكان أغلى أصناف الخشب الذى تصنع منه المراكب هو شجر النبج (اللبخ) ى لا ينبت إلا بانصنا (antinoe) « وهو عود تنشر منه ألواح للسفن ، وربما أرعفت ناشرها (لطولها) ،

---

(١) Fr. Hirth Die Länder des Islam nach Chinesischen Quellen .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٣٥ . (٣) marco Polo, I, 18, III, I .

(٤) جغرافية الإدريسى طبعة براندل ص ٢ (٥) مروج الذهب ج ٨ ص ٢٠٨ .

(٦) سلسلة التواريخ طبعة رينو ص ١٦ (٧) نفس المصدر ص ١٧ .

(٨) Hirtth aud Rockhill, Chau-Ju-Kau, p. 9.

ويباع اللوح بخمسين ديناراً أو نحوها ، وإذا شد لوح بلوح وطرحا فى الماء ستة أيام صارا لوحا واحداً »[١] ، وكانت البندقية فى القرن الرابع تمد العرب بالخشب لبناء السفن مما جعل الإمبراطور البوزنطى يحتج لدى الدوج ، فأمر الدوج بإيقاف بيع الخشب للعرب ، ولم يسمح إلا بإمدادهم بالخشب الذى لا يصلح لإنشاء السفن ، ولهذا شرط ؛ أن يكون من البغ والسنديان على ألا يتجاوز طول اللوح خمسة أقدام وعرضه نصف القدم ، وأذن أيضاً بأن تباع لهم الأدوات المصنوعة من الخشب[٢] . وقد شحّ خشب السفن فى مصر على أثر ذلك ، حتى إنه لما أراد الوزير عيسى بن نسطوروس أن ينشئ أسطولا يقوم مقام الأسطول الذى كان معدا لغزو الشام واحترق اضطر إلى جمع الأخشاب من كل الجهات ، « حتى قلعت صَوارٍ كبار كانت مسقفة على دار الضرب بمصر بجانب دار الشرطة وفى البيمارستان الذى فى سوق الحمام ونشروا جميعها وأعدوا أسطولا آخر »[٣] . وكانت دفات السفن التى تجرى فى البحار تحرك بحبلين كسفين النزهة عندنا[٤] . ولا يذكر كتاب القرن الرابع شيئاً عن البوصلة ، وقد وصفها القبساقى لأول مرة سنة ١٢٨٢ م[٥] ثم ذكرها المقريزى المتوفى عام ٨٤٥ هـ — ١٤٤٢ م[٦] . وكان على ظهر السفينة عدد من المراسى يقال لكل منها أنجور بلفظها اليونانى[٧] وكان

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٠٤ نقلا عن كتاب النبات للدينورى وفى هذا الكتاب حرفت كلة نبج إلى بنج ، انظر معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٣٨١ .

(٢) Schaube, Handelsgeschichte der romanischen Völker, s, 23 f ، وكانت مصر تستورد خشب السفن من مدينة البندقية حتى أوائل القرن التاسع عشر ، وكانت تأخذ بعض خشب الوقود من آسيا الصغرى U. J. Seetzen, Reisen, III, 207 ، ويقال إنها تستورد الخشب الذى تصنع منه أشرعة السفن الجارية فى النيل من الغابة السوداء بألمانيا ؛ فى وقتنا هذا .

(٣) يحيى بن سعيد الأنطاكى ص ١١٣ أ .　　(٤) القلقشندى ص ١٢ .

(٥) Klaproth, Lettres sur l'invention de la Boussole, 1834 .

(٦) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢١٠ .

(٧) 87 [illegible] .

يستعمل لسبر الأغوار سِبَك[١] . وكانت القوارب الصغيرة تستعمل لتسيير المركب بالجاديف إذا احتاج الأمر[٢] . وقد دهش ابن حوقل مع تدويخه البلدان طوافا من مهارة الملاحين الذين رآهم فى تنيس بمصر السفلى ، إذ كانت بحيرة تنيس «قليلة العمق يسار فى أكثرها بالمدارى ، وتلتقى السفينتان تمك إحداهما الأخرى ، هذه مصعدة وهذه نازلة بريح واحدة ، مملاة شرعها بالريح ، ومتساوية فى سرعة السير»[٣] . وكان بين ملاحى السفينة ملاح غوّاص[٤] . وكان الغواصون فى مراكب الصين فى القرن الحادى عشر زنوجا يستطيعون الغوص ، وعيونهم مفتوحة[٥] . وحكى رجل من العرب فى القرن الثامن الهجرى (الثامن عشر الميلادى) أنه كان فى مراكب البحر الهندى عادة أربعة من الغواصين ، فإذا نفذ الماء فى المركب وعلا فيه عمدوا إلى أجسامهم نطلوها بزيت السمسم وإلى أنوفهم فسدوها بالشمع ؛ ثم أخذوا يسبحون حول المركب فى مسيره ويسدون ثقوبه بالشمع ، وهم يستطيعون أن يسدوا عشرين إلى ثلاثين ثقبا فى اليوم[٦] وروى أحد الثقات فى القرن التاسع أنه يوجد على مراكب الفرس التى تمخر عباب البحر كثير من الحمام يستطيع أن يطير بضعة آلاف « لى » (مقياس للمسافة) ، وإذا أطلق طار عائداً إلى بلاده رسولا يحمل أحسن الأخبار[٧] . وكذلك كانت توضع فى المراكب التى تجرى فى المحيط آنيـة ملأى بالأرز والدهن فى كل يوم طعاماً للملائكة التى تحرس المركب[٨] .

ولم يكن لأوروبا سلطان على البحر الأبيض خلال القرن العاشر الميلادى ،

(١) نفس المصدر ص ٣٠ . (٢) نفس المصدر ص ٤٦ .
(٣) ابن حوقل ص ١٠٣ ، وقد ذكر ماركو بولو أن للملاحين فى الشرق إذا وجدوا الريح غير موانية استعملوا أشرعة قوارب السفينة متعارضة marco Polo, III, 2 .
(٤) عجائب الهند ص ٧ . (٥) Chau-Ju-Kua, S,
(٦) Gildemeister OON 1882 s, 444 .
(٧) Chau-Ju-Kua S 82 . (٨) عجائب الهند ص ٤٦ .

فقد كان بحراً عربيا ، وكان لابد لمن يريد أن يقضى لنفسه فيه أمراً من أن يخطب ود العرب كما فعلت نابولى وغيتة وأمالفى ، ويظهر أن الملاحة الأوروبية نفسها كانت فى ذلك العصر بحال يرثى لها من الضعف ، فنى سنة ٩٣٥ م استطاعت مراكب عبيد الله المهدى الفاطمى أن تغزو جنوب فرنسا ومدينة جنوه ، وأن تنهبهما ،وأن تفعل مثل هذا بمدينة بيزا فى عامى ١٠١١—١٠١٤ م وذلك مع أن أسطول الفاطميين فى شمالى إفريقية كان فى ذلك الحين أقل كفاية من أسطول الشام بصورة بيّنة ، فنى عام ٣٠١ هـ — ٩١٣م استطاعت خمس وعشرون من مراكب الشام أن تهزم ثمانين من مراكب الفاطميين هزيمة كاملة . وكانت مراكب العرب تقطع البحر الأبيض عرضاً فى ستة وثلاثين يوما من مبدئه فى الغرب إلى آخره حيث أنطاكية[١] ، وميناء أنطاكية هذه هى سلوقية التى كانت فى أثناء القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) أهم ميناء تجارى فى الشام[٢] . وقد حصنها الخليفة المعتصم[٣] ، ولكن كان يؤذيها أكبر الأذى وجود شعاب نابتة تحت الماء بينها وبين قبرص تسمى الشُّفالة ، وكانت تتحطم عليها معظم السفن[٤] ، ويذكر اليعقوبى فى أواخر القرن الثالث الهجرى أن ميناء طرابلس الشام « عجيب يحتمل ألف مركب »[٥] ، وكانت صور هى الميناء الحربى الإسلامى المواجه لبوزنطة ؛ إذ كان « بها دار الصناعة ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم وكانت حصينة جليلة »[٦] ، ولكن زحف البوزنطيين فى القرن الرابع الهجرى على بلاد الإسلام غيّر هذه الأحوال كلها فى الشام ، وكان النصف الشرقى

---

(١) جغرافية الإدريسى طبعة دوزى ص ٢١٤ .

(٢) كانت أنطاكية معتبرة فى عهد بروكوبيوس أولى المدن الرومانية فى الشرق (انظر Heyd Levanthandel I 24) .

(٣) ابن خرداذبة ص ١٥٣ ، وانظر miehael Syrus, ed, Chabot, p, 527, 527

(٤) مروج الذهب للمسعودى ج ١ ص ٣٣٢ (٥) جغرافية اليعقوبى ص ٣٢٧ .

(٦) نفس المصدر .

من ساحل إفريقية الشمالى أقل ملاءمة من النصف الغربى للملاحة ، ولهذا لا تذكر كتب تلك الأيام أى ميناء طبيعى بين الإسكندرية وخليج تونس غير طرابلس ، وحتى طرابلس هذه لم يكن عمق الماء عندها كافياً لحمل مراكب ذلك العصر ، مع أنها لم تكن تحتاج إلا لعمق قليل ، فكانت المراكب إذا وصلتها « عرضت لها دائماً الرياح البحرية ، فيشتد الموج لانكشاف المرسى بها ويصعب الإرساء ، فيبادر أهل البلد بقواربهم ومراسيهم وحبالهم متطوعين ؛ فيقيد المرسى ويرسى منه فى أسرع وقت بغير كلفة لأحد »[١] ، وكانت تونس تلى طرابلس فى الأهمية ، وكانت ميناء للقيروان على مقربة من موقع قرطاجنة التى كانت سيدة البحر قديماً .

ويقص الإدريسى خبر جماعة يسميهم المغرّبين (أو المغررين فى رواية) ركبوا بحر الظلمات من لشبونة فى القرن الرابع على الأغلب « ليعرفوا ما فيه ، وإلى أين انتهاؤه ، وكانوا ثمانية رجال كلهم أبناء عم ، فأنشأوا مركباً حمالا وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ، ثم دخلوا البحر فى أول طاروس الريح الشرقية فجروا بها نحواً من أحد عشر يوما ، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش قليل الضوء[٢] ، فأيقنوا بالتلف ، فردّوا قلوعهم فى اليد الأخرى ، وجروا فى البحر فى ناحية الجنوب اثنى عشر يوما حتى وصلوا إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم مالا يأخذه عدّ ، وهى سارحة لا راعى لها ولا ناظر ، ثم ساروا مع الجنوب اثنى عشر يوما حتى وصلوا إلى جزيرة فيها عمارة و... فاعتقلوا ثلاثة أيام ، ثم جاءهم فى اليوم الرابع ترجمان للملك يتكلم اللسان العربى ، وأحضروا بين يدى الملك ، نسألهم عن حالهم فأخبروه بخبرهم ، ثم صرفوا إلى موضع حبسهم ، إلى أن

---

(١) ابن حوقل ص ٤٦ .

(٢) كان العرب يظنون كما ظن القدماء قبلهم أن البحر فى أقصاه مظلم ، ولذلك كان أهل المشرق يسمون أقصى البحر بالبحر الزفتى لأن ماءه كدر ورياحه شديدة وهو دائم الظلمة تقريباً ، انظر جغرافية أبى الفدا طبعة رينو ج ٢ ص ٢٦ .

بدأ جرى الرياح الغربية فوضعوا فى قارب وعصبت أعينهم وجُرِى بهم فى البحر برعة قدّروها بثلاثة أيام حتى انتهوا إلى برّ ، فأخرجوا وكتفوا إلى خلف وتركوا بالساحل حتى طلع النهار ، وجاء قوم برابر فحلوا وثاقهم وأخبروهم أن بينهم وبين بلدهم مسيرة شهرين »[١] .

وكان البحر الأحمر مخوفا لما فيه من شعاب بارزة ورياح معاكسة ، ولهذا كانت الملاحة فيه بالنهار فقط « فأما بالليل فلا يُسلك »[٢] . وكان نظام هبوب الرياح فيه يجعل الملاحة من الشمال إلى الجنوب فقط فى فصل من السنة ، ومن الجنوب إلى الشمال فى الفصل الآخر ، ولهذا احتفظ نهر النيل الذى يسير موازيا لهذا البحر بأهميته الكبيرة باعتباره طريقا من طرق الملاحة النهرية ، وكانت عيذاب هى نقطة الاتصال بين تجارة البحر وتجارة النهر ، وكان ميناؤها عميقا غزير الماء مأمونا من الشعاب النابتة[٣] ، فكانت ترد إليها البضائع من الحبشة واليمن وزنجبار بطريق البحر ، ثم تُحمل على الإبل فى الصحراء مسيرة عشرين يوما إلى أسوان أو قوص ، ومن هناك تنقل إلى القاهرة فى النيل[٤] . وقد بلغت عيذاب فى نهاية القرن الخامس الهجرى درجة عظيمة من الازدهار ، وأصبحت إحدى الموانى التى تختلف إليها المراكب من جميع البلاد ، ولا يعرف السبب الذى كان يجعل تجارة شمال إفريقية إلى المشرق تمرّ بها ، وكان حجاج مصر يسيرون عن طريق عيذاب بين سنتى ٤٥٠ — ٦٦٠ ﻫ (١٠٥٨ — ١٢٥٨ م) ، ولم تأخذ عدن شأن عيذاب

(١) جغرافية الإدريسى طبعة دوزى ص ١٨٤ .
(٢) الأصطخرى ص ٣٠ ومروج الذهب ج ٣ ص ٥٦ والإدريسى طبعة براندل ص ١
(٣) Wüstenfeld, Qalqashandi, 169 (وهو ترجمة من صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨)
(٤) رحلة ناصر خسرو ص ٩٤ من الأصل الفارسى ، وقد زار هذا الرحالة عيذاب عام ٤٤٢ ﻫ — ١٠٥٠ م .

إلا منذ عام ٨٢٣ هـ — ١٤٣٠ م[١] ، وكان يؤخذ من كل حاج ثمانية دنانير .

وقد تحدث ابن جبير عنها فى عام ٥٧٩ هـ — ١١٨٣ م ، فقال إنها « من أحفل مراسى الدنيا ، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها ، زائدا على مراكب الحجاج الصادرة والواردة » ، ثم قال بعد ذلك إن أكثر ما شاهده فى عيذاب من سلع الهند أحمال الفلفل[٣] .

وقال المسعودى فى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م : « وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والقلزم واليمن ، وأصابنى فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة ، فلم أجد أهول من بحر الزنج » ، وكان قد ركب البحر سنة ٣٠٤ هـ — ٩١٦ م من زنجبار (قنبلو) إلى عمان ، وذلك فى مركب أحمد وعبد الصمد أخوى عبد الرحيم بن جعفر السيرافى ، وفى ذلك البحر غرقا بمركبهما وجميع من كان معهما[٤] . وكان ملوك زنجبار فى تلك الأيام مسلمين[٥] ، وكان أقصى ما تصل إليه مراكب المسلمين فى أسافل بحر الزنج إقليم سُفالة (موزمبيق) ، « وهى أقاصى بلاد الزنج وإليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين » ، وكان يغريهم بقصدها معدن الذهب فى ما شونا لاند[٦] . وكان الحديد أكبر ما يؤخذ منها إلى الهند للصناعة ، وكانت تصنع منه فى الهند آلات عظيمة القيمة[٧] . ويذكر لنا بعض المؤلفين المحدثين بعض التواريخ المضبوطة فيما يتعلق بذلك فيقولون إن مقديشو أنشئت عام ٩٠٨ م (وهى موجادوكسو فى الصومال الإيطالى) ، وإن مدينة براوه (كِلْوة فى إفريقية الشرقية الألمانية) أنشئت حوالى عام ٩٧٥ م[٨] ، وذلك نقلا عن تحرير

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ١٩٤ — ١٩٨ ، ص ٢٠٢ — ٢٠٣ .
(٢) جغرافية الإدريسى ترجمة جوبير ج ١ ص ١٣٣ .
(٣) رحلة ابن جبير ص ٦٤ — ٦٦ .
(٤) مروج الذهب ج ١ ص ٢٣٤ . (٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٣١ .
(٦) نفس المصدر ج ٣ ص ٦ . (٧) جغرافية الإدريسى (ترجمة جوبير) ج ١ ص ٦٥ .
(٨) انظر مثلا ما كتبه سورتز Schwrtz فى كتاب : Helmholts, Weltgeschichte, III s. 428 .

Rizby المسمّى Report on the Zanzibär Domenions (ص ٤٧) ، وهو يعتمد على ما لا يزال يروى إلى أيامنا هذه من حكايات فى أخبار تلك البلاد . أما المراجع القديمة فليس بين أيدينا منها شىء فى هذا الموضوع ، وربما نجد شيئا من ذلك فيما كتبه مؤرخو جنوب جزيرة العرب .

ويعتبر البحريون الإسلاميون عدنا مبدأ « البحر الفارسى » ، ويقولون إن هذا البحر يحيط ببلاد العرب حتى يصل إلى خليج فارس ، وينتهى على مقربة من المكان الذى تبتدئ عنده بلوخستان ؛ أما ما بعد ذلك فكانوا يعتبرونه من المحيط الهندى ، وكانت الملاحة ميسورة فى هذين البحرين فى موسمين ، فإذا هدأ أحدهما هاج الآخر وانقلب « وأول ما يبدأ هياج بحر فارس عند دخول الشمس السنبلة وقرب الاستواء الخريفى إلى أن تصير الشمس فى الحوت ، وأشد ما يكون صعوبة فى آخر زمان الخريف عند ما تكون الشمس فى القوس ، وأشد ما يكون البحر الهندى عند الاستواء الربيعى ... وبحر فارس قد يُركب فى كل أوقات السنة ، فأما بحر الهند فلا يركبه الناس عند هيجانه وظلمته وصعوبة مركبه »[1] ولهذا كان البحر الأول مجالا كبيرا لمتلصصة البحر ، وكان للساحل العربى خاصة أسوأ سمعة بسبب هؤلاء القرصان وحوالى عام ٢٠٠ هـ — ٨١٥ م قام أهل البصرة بحملة على القرصان فى بلاد البحرين ولكنهم أخفقوا[2] ، أما فى القرن الرابع فلم يكن الناس يجرءون على ركوب البحر الأحمر من غير « مُقَاتِلَةٍ ونفّاطين »[3] ؛ وكانت جزيرة سقطرى (أو أشقطره) خاصة عشًّا خطرا للقرصان ، وكانت المراكب إذا مرت بها لا تزال فى هلع حتى تتجاوزها ، وكانت تأوى إليها بوارج قرصان

(١) ابن رسته ص ٨٦ — ٨٧ .
(٢) Michael Syrus ed' Chabat p. 514
(٣) المقدسى ص ١٢ .

الهند ليقطعوا الطريق على المسلمين[١] ، ولم تكن هذه القرصنة تعتبر عملا شائنا أو أمرا غريبا ، ولم ينشئ العرب للقرصان لفظا خاصا ، والأصطخرى مثلا يسميهم باسم ليّن فيقول « متلصّصة البحر » (ص ٣٣) وفيما عدا ذلك كان يطلق عليهم الاسم الهندى barques [٢] .

وكانت عدن وسيراف وعُمان أكبر مرافئ المملكة الإسلامية على المحيط الهندى ، ويلى ذلك فى الأهمية البصرة ودَيْبُل (على مصب نهر السند) وهرمز ، وكانت فرضة كرمان .

وكانت عدن المركز التجارى الكبير بين إفريقية وبلاد العرب ، ونقطة ارتكاز التجارة بين الهند والصين ومصر ، فيسميها المقدسى مثلا « دهليز الصين »[٣] ، ويحدثنا أنه سمع عنها أن من الناس من دخلها بألف درهم فرجع بألف دينار ، ومنهم من دخلها بمائة فرجع بخمسمائة ، ومنهم من دخلها بكندر فرجع بمثل ما دخل به كافوراً[٤] .

وكانت سيراف هى الفرضة التى تمر بها صادرات فارس ووارداتها[٥] ، وكانت على الخليج الفارسى تقصدها المراكب من جميع البلاد ، وكانت فرضة لبضائع الصين خاصة ، بل كانت بضائع اليمن المرسلة إلى الصين تحمل على المراكب بسيراف[٦] . وبلغت المكوس التى كانت تؤخذ من المراكب بها حوالى آخر القرن الثالث الهجرى نحواً من مائتين وثلاثة وخمسين ألف دينار فى كل عام[٧] . وكان أهل سيراف أغنى تجار فارس كلها ، وخير شاهد على ذلك ما كان لهم من

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٣ ص ٣٧ ، والمقدسى ص ١٤ .
(٢) فهرس المكتبة الجغرافية ص ١٩٥ (؟) ؛ وعجائب الهند ص ١٩٢ .
(٣) المقدسى ص ٣٤ .   (٤) نفس المصدر ص ٩٧ .
(٥) الأصطخرى ص ٣٤ .   (٦) سلسلة التواريخ طبعة Langlès ص ٦١ (ألف هذا الكتاب حوالى عام ٢٠٠ هـ) .   (٧) ابن البلخى JRAS, 1912, p. 188 .

مساكن عالية ذات طبقات عديدة مبنية من خشب الساج الغالى الثمن ، ويحكى الأصطخرى عن أحد أصحابه أنه أنفق فى بناء داره ثلاثين ألف دينار ، وكانت ملابس تجارها مع هـذا الغنى بسيطة إلى درجة تبعث على العجب ، ويقول الأصطخرى إن الإنسان ليجد فيهم من يملك الأربعة آلاف ألف دينار ، وتراه مع هذا لا يتميز فى لباسه عن أجيره[1] . وكان لأهل سيراف متاجر يملكونها فى البصرة أيضاً ، ويقول ابن حوقل إنه لقى رجلا منهم يملك ثلاثة آلاف ألف دينار ، ويقول إنه لم يسمع أن أحداً من التجار ملك هذا المقدار ولا تصرف فيه ، لأن ذلك كالخرافات يستوحش من حكاها منها[2] . وكان كثير من أهل سيراف يقضون حياتهم كلها فى البحر ، فمن ذلك ما رواه الأصطخرى من أن رجلا منهم ألِف البحر حتى ذكر أنه لم يخرج من السفينة نحواً من أربعين سنة ، وكان إذا قارب البر أخرج صاحبه لقضاء حوائجه فى كل مدينـة ، وكان إذا انكسرت السفينة التى هو فيها وتشعثت تحوّل عنها إلى أخرى[3] . وكان أشهر أصحاب السفن فى ذلك العهد ، وهو محمد بن بابشاد ، من أهل سيراف ، ويذكر أن ملك الهند أمر أن ترسم له صورة لأنه كان أكبر أهل صنعته ، وكانت عادة ملوك الهند أن يقتنوا صوراً لأشهر الرجال فى كل حرفة[4] .

وكان من أثر هذا المركز العظيم الذى تمتعت به مدينـة سيراف أن اللغة الفارسية أصبحت أكبر لسان يتكلم به تجار المسلمين الذين يقصدون الهند وشرق آسيا ، ولا تزال اللغة العربيـة إلى اليوم تشتمل على كثير من الاصطلاحات البحرية الفارسية مثل : ناشُدا وهو صاحب السفينة[5] ، وديدبان وهو الحارس ،

(١) الأصطخرى ص ١٣٨ — ١٣٩ . (٢) ابن حوقل ص ٢٠٦ — ٢٠٧

(٣) الأصطخرى ص ١٣٨ — ١٣٩ . (٤) عجائب الهند ص ٩٨ .

(٥) وليس هو قائد السفينة ، لأن القائد يسمى الرأس أو الربان (المقدسى ص ٣١) ، فكان الناشدا بابشاد وهو الرجل الذى يسافر على سفينته يصطحب معه رباناً يتولى أمر الملاحة =

وربّان (ربما كان أصلها راه بان) وهو قائد السفينة ، أما الرجل الذى كانت مهمته تبليغ أوامر الربّان إلى الملاحين بصوته فكثيراً ما كان يسمى المنادى وهو لفظ شائع عند الناطقين بالعربية[1] . وكان كل ربّان يحلف يميناً ألا يتهاون بسفينته فيلقيها إلى الهلاك ما دامت سليمة لم يحلّ بها القضاء المحتوم[2] .

وتقع البصرة على نهر شط العرب ، وبينها و بين البحر مرحلتان[3] ، وكان هنالك تجاه مصب النهر جزيرة صغيرة تشبه جزيرة هيليجولاند ، فيها مدينة صغيرة ذات حصن صغير ، وهى مدينة عبّادان ، وكان فيها رباطات وعُبّاد صالحون ، وأكثر أهلها يصنعون الحصر من الحلفاء ، غير أن الماء بها ضيّق والبحر عليها مطبق[4] . وكان الناس يقصدونها للإقامة بها متعبّدين ومكفّرين عن ذنوبهم[5] ، وكانت رسوم المراكب تجبى عندها[6] . وكانت بها حامية لمكافحة القرصان ، وكان على نحو ستة أميال منها تجاه البحر موضع يعرف بالخشبات فيه عدد من الخشب منصوبة فى الماء قد بنى عليها مرقب يسكنه ناظور ، ويوقد المرقب بالليل لتهتدى به السفن وتستدل به على مدخل دجلة ، وكان هذا الموضع مخوفاً إذا ضلت فيه السفينة خيف انكسارها لرقة الماء به[7] . وقد سخر أحد شعراء البصرة من رجل شديد النحول فقال فيه :

= والحكايات المتعلقة بالمهارة الملاحية لا تنسب إلى الناشدا بل إلى الربان ، أما اليوم فيفرق الناس فى البحر الأحمر بين من يسمى ناشدا البحر ، وهو الرئيس الحقيق للسفينة ، وهو يقودها ويرأس بحارتها وعملك الدفة ، (وهذا عجيب) ، وبين ناشدا البر الذى هو صاحب السفينة ، انظ : Maltzan, Meine Wallfahrt nach Mekka, 1865. I, s. 71

(١) عجائب الهند ص ٢٣ . (٢) نفس المصدر ص ٢٢ .
(٣) الأصطخرى ص ٧٩ (٤) المقدسى ص ١١٨ .
(٥) كتاب الوزراء ص ٧٣ . (٦) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٧٧ .
(٧) الأصطخرى ص ٣٢ ؛ والمقدسى ص ١٢ ، وهو يذكر أنه كان عند عبادان بيوت كثيرة توقد فيها النار لتتباعد المراكب عن الماء الرقيق .

لا تَعشَقَنَّ ابنَ الربيع فإنه عنـد التجرد آية الآيات
وجه كعبّادان ليس وراءه لمحبّه شيء سوى الخشبات[١]

وذكر المسعودى فى القرن الرابع الهجرى أنه كان ثَمّ ثلاث خشبات كالكراسى ، عليها أناس يوقدون النار بالليل فى جوف البحر خوفاً على المراكب الواردة من عمان وسيراف وغيرها أن تقع فى تلك الجزيرة فتعطب ، فلا يكون لها خلاص[٢] . ويقول ناصر خسرو فى القرن الخامس الهجرى إن الخشبات اثنتان ، وهو يفصل فى وصفها فيقول إنها أعمدة من خشب الساج منصوبة بحيث تؤلف على الأرض قاعدة مربعة واسعة ، ثم تضيق فى أعلاها ، وهى تعلو سطح البحر بخمسين متراً وفى أعلاها حجرة مربعة للناظور[٣] . ويدل هذا على رقة الماء عند مدخل نهر شط العرب ، وكانت السفن إذا دخلته مسّ قاعها الأرض واصطدم بها بضع مرات ، فلا غرابة أن يروى المقدسى أنه سمع شيخاً يقول إن هذا موضع يسافر فيه أربعون مركباً فيرجع واحد[٤] .

ويسود تاريخ المراكز التجارية الإسلامية فى الشرق الأقصى شىء من الاضطراب[٥] ، فيُحكى من أخبار القرن الثامن الميلادى أن أسماء ربابنة السفن الأجانب كانت تقيد فى ديوان التجارة البحرية فى مدينة خانفو ، وأن هذا الديوان كان يطالب بحق تفتيش المراكب قبل السماح لها بإنزال ما تحمله إلى البر ، وكان يأخذ رسوم تصدير وتحميل . وكان تصدير الأشياء النادرة أو ذات القيمة محظوراً ، وكان كل من يحاول التهريب يعاقب بالحبس[٦] . وربما تكون قد

(١) يتيمة الدهر للثعالبى ج ٢ ص ١٣٤ . (٢) مروج الذهب للمسعودى ج ١ ص ٢٣٠ . (٣) رحلة ناصر خسرو ص ٩٠ . (٤) المقدسى ص ١٢ .
(٥) جمت المراجع الصينية أخيراً فى كتاب تشوبوكوا الذى نشره هيرث وروكهل Fr. Hirth. W. W. Rockhell فى سانت بطرسبرج عام ١٩١٢ ص ٩ وما يليها .
(٦) نفس المصدر ص ٩ .

أنشئت فى ذلك العصر مراكز تجارية إسلامية فى نواح أخرى من الصين . وفى عام ٧٥٨ م كانت جالية الأجانب الوافدين من الغرب إلى كانتون (خانقو) كبيرة العدد ، حتى استطاعت أن تنهب المدينة وتحرق مخازنها وتهرب بما انتهبت[١] . وفى أوائل القرن التاسع الميلادى كان على رأس الجالية الإسلامية فى كانتون رئيس مسلم يعينه إمبراطور الصين ، وكان هذا الرئيس يقضى بين أفراد الجالية بأحكام الشريعة ، وإذا كانت الجمعة أو العيد خطب فى المسلمين ، ودعا فى خطبته لسلطان المسلمين[٢] ، وفى ذلك العصر كان البحريون إذا وصلوا المدينة قبض الصينيون متاعهم وصيّروه فى البيوت وضمنوا الدرك إلى ستة أشهر إلى أن يدخل آخر البحريين ، ثم يؤخذ من كل عشرة ثلاثة ويُسلّم الباقى إلى التجار ، وكان السلطان إذا احتاج إلى شىء أخذه بأعلى الثمن وعجّله ، ولم يظلم فيه ، وكان مما تأخذه الحكومة الكافور ، المنُّ بخمسين فكوجا والفكّوج ألف فلس ، وهذا الكافور إذا لم يأخذه السلطان بيع بنصف الثمن[٣] ، وكان يستورد أيضاً العاج وقضبان النحاس والذبل وهو قشر السلاحف وقرن الكركدن الذى كان أهل الصين يتخذون منه المناطق ، وفى طول ذلك العصر كانت مراكب المسلمين تذهب إلى بحار الصين ، كما كانت مراكب الصين تختلف إلى عُمان وسيراف والأبلّة والبصرة[٤] .

---

(١) نفس المصدر ص ١٤ وما بعدها .

(٢) سلسلة التواريخ ص ١٤ طبعة رينو بباريس عام ١٨١١ م .

(٣) نفس المصدر ص ٣٦ . (٤) نفس المصدر ص ٣٥ ، وانظر مروج الذهب للمسعودى ج ١ ص ٣٠٨ ، ويستبعد هيرث فى كتاب Chau Ju-Kua (ص ١٠ هامش رقم ٣) أن تكون هذه المراكب أو قوادها صينيين ، لأن أهل الصين كانوا حتى آخر القرن الثانى عشر لا يعرفون عدن ولا سيراف ، ولا أسماء هذين البلدين ، ويؤيد هذا أيضاً أن العرب لم يذكروا شيئاً قط عن الملاحين الصينيين ، وأن مراكب الصين لم تعد تختلف إلى المياه العربية بعد أن دمرت مراكز المسلمين التجارية فى الصين ، فالمقصود إذن من عبارة مراكب الصين أنها مراكب صينية يملكها المسلمون وتسير بين بلادهم وبين الصين .

وتؤيد التواريخ الصينية ما حكاه بحريو العرب من القضاء على المراكز والجاليات التجارية الإسلامية فى الصين[١] ولاسيما فى مدينة خانفو (وهى كانتون الحديثة)[٢] حوالى عام ٨٨٠ م ، وذلك أن شريرا نبغ فى الصين — كما يقول المسعودى — فقضى على أسرة تَنْج وأفسد أمور الصين ، وفتح خانفو وكانت ملتقى السفن التجارية الإسلامية ، وقتل من أهلها مائتى ألف من المسلمين ومن غيرهم ، وباضمحلال أمر هذه الأسرة فسد كل شىء فى جنوب الصين[٣] ، واختفت معالم التجارة البحرية من هناك ، ونستطيع أن نستدل من كتاب عجائب الهند — وأهم ما فيه وصف أحوال القرن الرابع الهجرى هناك — على أقصى ما كانت تبلغه مراكب المسلمين مدينة كَلَهْ أو كِدا فى ملقا ، وكان هـذا البلد فى موضع سنغافورة اليوم . ويقول أبو دُلَف إن كله هى أول بلاد الهند وآخر منتهى مسير المراكب ؛ لا يتهيأ لها أن تتجاوزها وإلا غرقت[٤] ، وكذلك يقول المسعودى حوالى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٤ م إن بلاد كله هى النصف من طريق الهند أو نحو ذلك ، وإليها تنتهى مراكب أهل الإسلام من السيرافيين والعمانيين فى هـذا الوقت ، وفى كله أيضا كان التاجر السمرقندى ينزل من المراكب الآتيـة من عمان ، ويركب البحر فى مراكب الصين إلى خانفو[٥] .

على أن حكومة الصين بذلت فى نهاية القرن العاشر جهدا كبيرا لاجتذاب التجارة الأجنبية الآتية من البحر إلى الصين رأسا ، فأرسلت بعثة لتدعو التجار

---

(١) سلسلة التواريخ ص ٦٢ وما بعدها ، ومروج الذهب ج ١ ص ٣٠٢ وتاريخ أبى الفدا فى حوادث عام ٢٦٤ هـ .

(٢) انظر أيضاً Fr, Hirth and Rockhill. Chau-Ju-Kua p. 15.

(٣) Richthofen, China. I. 572.

(٤) معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٤٥٣ (كلة صين) .

(٥) مروج الذهب للمسعودى ج ٣ ص ٣٠٨ .

الأجانب الذين يعملون فى البحر الجنوبى ويركبون البحار فى البلاد الأخرى للحضور للصين ، ووعدتهم بتهيئة الظروف الحسنة لاستبدال بضائعهم . وفى عام ٩٧١ م أعيد تنظيم ديوان البحر فى مدينة كانتون ، ثم احتكرت الحكومة التجارة الخارجية عام ٩٨٠ م وأصدرت الأمر بعقاب كل من وجد متاجراً مع الأجانب بالنفى من البلاد ويكوى وجهه بالنار . وفى ذلك العصر وما جاء بعده تذكر الروايات كثيراً من تجار المسلمين زاروا بلاط إمبراطور الصين واستقبلوا هناك استقبالا مملوءاً بالمودة مما يعجب له المؤرخ . وفى عام ٩٧٦ م جلب رجل من العرب أول عبد أسود إلى قصر إمبراطور الصين ، فلما جاء القرن الحادى عشر الميلادى كان أغنياء الناس فى كانتون يقتنون الكثير من هؤلاء العبيد[١] ، واستقر كثير من التجار فى تسوان شو إلى جانب استقرارهم فى كانتون . وفى عام ٩٩٩ م أنشئت دواوين للتجارة البحرية فى ثغرى هانجشو وتانجشو زيادة على ما كان فى غيرهما من الموانى ، وذلك إجابة لطلب التجار الأجانب وتوفيراً لأسباب راحتهم[٢] . وفى عام ١١٧٨ م يقول أحد كتاب الصين : إن مملكة العرب لا يفوقها بلد آخر من البلدان الأجنبية فى كثرة ما يدخر بها من البضائع المتنوعة الغالية ، ويليها فى ذلك جاوة وبالمبانج (وهى سومطرة) ثم تأتى بعد ذلك بلاد أخرى كثيرة[٣] . ويحدثنا هذا المؤلف أيضاً عما كان من تجدد نشاط الملاحة إلى الصين قائلا إن الذين يأتون من بلاد العرب يتخذون أول الأمر سفناً صغيرة تسير بهم إلى الجنوب حتى ساحل كولون (ملبار) ومن ثم ينتقلون إلى سفن كبيرة تحملهم إلى بالمبانج (سومطرة[٤]) . وكان الطريق البحرى إلى الصين خاضعاً لما تقتضيه هبوب الرياح الموسمية التى تستطيع السفن أن تسير معها من غير حاجة إلى استعمال البوصلة ،

(١) Chau-Ju- Kua, s. 31 f .

(٢) نفس المصدر ص ١٧ وما يليها ، ص ١١٩ . (٣) نفس المصدر ص ٢٣

(٤) المصدر المتقدم ص ٢٤ .

وقد وصف هذا الطريق فى كتاب سلسلة التواريخ (طبعة Langles) ، وأورد هذا الوصف فى كتابه المسمى Relation des voyages ص ١٦ وما يليها ، وابن خرداذبة (ص ٦١ وما بعدها) ونجده أيضاً فى كتاب عجائب الهند . ومن ذلك كله نعلم أن الناس كانوا يسيرون بحذاء ساحل الهند أو يتجهون من مسقط إلى ميناء كولام (كيلون الحالية) رأساً ، وذلك فى نحو شهر ، ثم يواصلون سيرهم جاعلين جزيرة سرنديب إلى شمالهم ، ويقصدون جزائر نيكوبار (على مسيرة عشرة أيام أو خمسة عشر يوما إلى جزيرة سرنديب)[1] ، ومن ثم إلى مدينة ركدا فى ملقا ، وهى على مسيرة شهرين من كيلون ، ومن هناك يقصدون جاوه وجزيرة ماهيت فى جزائر سندا ، ثم يسيرون خمسة عشر يوما حتى يصلوا كمبودجا ، ومنها إلى كوشين شين وإلى الصين . وكان المسافر يسير مع ساحل الصين وحده شهرين ، وكان لا بد له بعد ذلك من انتظار الرياح الطيبة ، لأن تلك النواحى تسودها رياح واحدة فى كل ستة أشهر . أما فى العودة فكان الناس يسيرون أربعين يوما من تشوان تشو إلى أتيا (على الطرف الشمالى الغربى من جزيرة سومطرة) وكانوا يتاجرون هناك ثم يعودون إلى البحر فى العام التالى ، ويعودون إلى بلادهم فى ستين يوما بمعاونة الرياح العادية[2] . ولما كانت هذه السفن خلواً من كل آلة يستعان بها فى الملاحة كانت الرحلة محفوفة بالمعاطب ، فكان الناس يتعجبون أشد التعجب إذا عمل الربان هذه الرحلة سبع مرات[3] ، وكان المسافر إذا وصل إلى

---

(١) وكذلك يقول الكاتب الصينى Chau-Ju-Kua فى القرن الثالث عشر الميلادى إن الرحلة من سومطرة إلى مليبار تستغرق شهراً مع الرياح الموسمية ، وانظر أيضاً Marco Polo, III. 4 ، وقد سلك هذا الطريق فى القرن الخامس عشر الميلادى الحاج هه حين الصينى عائداً إلى وطنه ، انظر Chau-Ju-Kua ص ٢٧ وما بعدها .

(٢) وهذا على الأقل ما حكاه أحد الرحالين الصينيين فى القرن الثانى عشر الميلادى ، انظر Chau-Ju-Kua, 114 .

(٣) عجائب الهند ص ٨٥ .

الصين عُدّ ذلك عجيباً أما رجوعه إلى بلاده فكان يعتبر كالمستحيل[1] ، ولهذا فلا عجب أن نسمع أن الرجل الذى فى أعلى السارية إذا رأى أول علامات أرض الوطن نادى قائلا ، رحم الله كل من قال الله أكبر ؛ فعند ذلك يجيبه جميع من فى المركب قائلين : الله أكبر ؛ ويهنئ بعضهم بعضاً ، ويبكون لما يكون قد هجم عليهم من السرور[2] .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر ص٩١٠ .

تصحيحات واستدراكات للجزء الأول

صفحة		
٥	سطر ٨	اقرأ : السلطان محمود بن سبكتكين
١١	هامش ١	» : المقدسى
١٥	سطر ١٦	» : وهى أم ولد
١٦	هامش ١	» : رقم ٤٨٣٦
١٧	سطر ١٠	» : أمر الملك
١٩	» ٩	» : جبال الصناع
٢٧	السطر الأخير	» : يطلق هذا الاسم
٥٦	سطر ١٤، ٢١ وكذلك ص ٥٨، ٦٠	» : Barhebraeus
٦٢	هامش ٢	» : Benjamin
٦٣	» ١	» : Mustawfi
٦٤، ٢٠٨		» : Einnahmebudget
٦٧	سطر ٨	» : وفيه مائةُ
١٣٤	» ٢	» : الصواق بدلا من السواق
١٥١	» ١٥	» : القضاة
١٩٨	» ١٩	» : فى الهامش
٢١٥	» ٢٢	» : أن الدينار فى ذلك العهد
٢١٧	» ١٧	» : مُتضمنا الخراج
٢٢٠	السطر الأخير	» : Kremer
٢٦٢	سطر ٤	» . السامانيين
٢٧٥	» ١	» . وتدل
٢٩٤		: فيما يتعلق بهؤلاء العلماء الخمسة والثلاثين انظر الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٧٣
٢٩٩	سطر ١٥	اقرأ : بل آثرا
٣٠٠	هامش رقم ١	» : انظر الفصل الخاص بعلوم الدين
٣٠٣	» » ٦	» : انظر أيضاً الفصل الخاص بالأخلاق والعادات فى الجزء الثانى من الكتاب